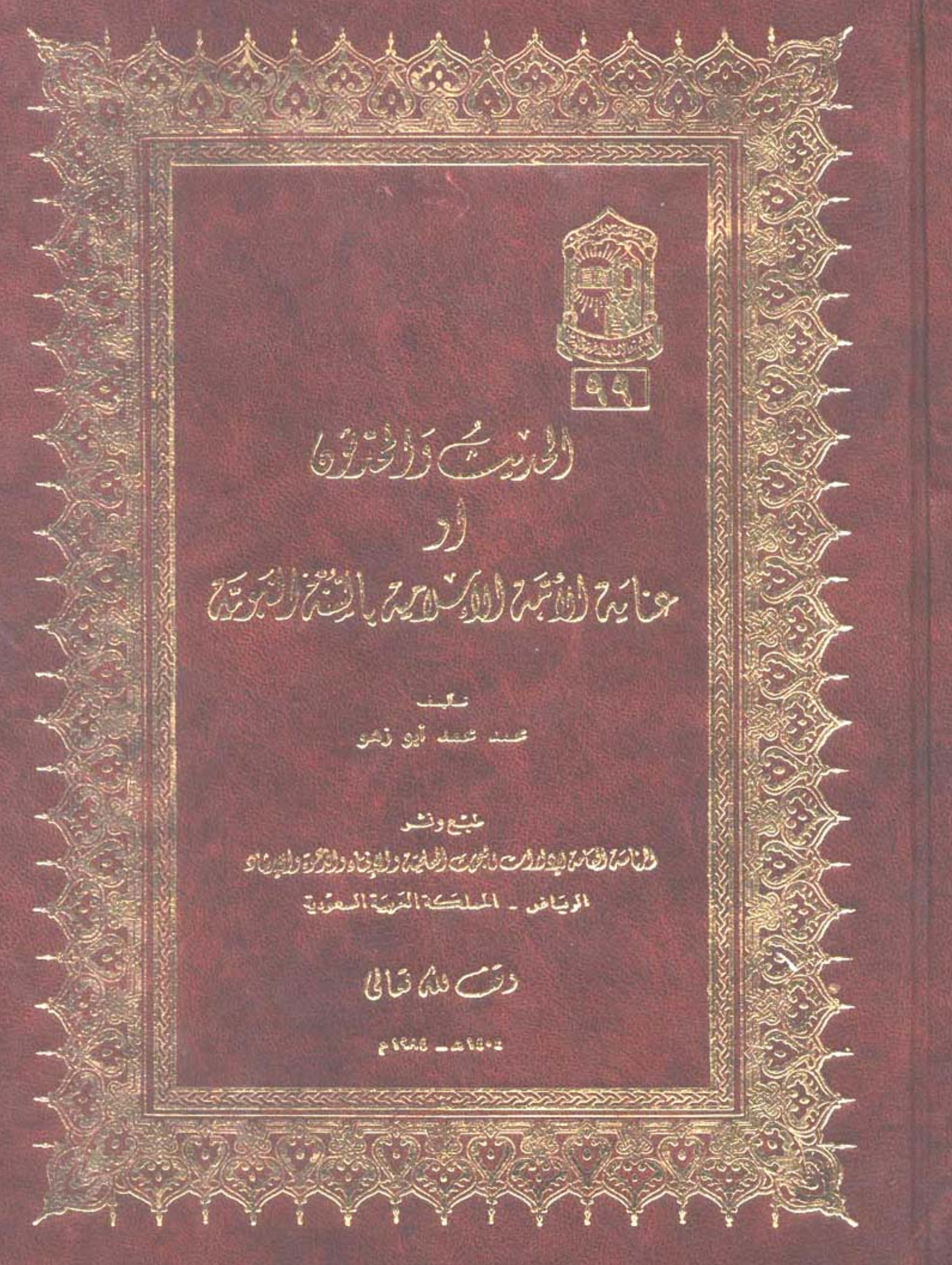


تأليف
محمد محمد أبو زهو

الحديث والمحدثون
أو
عناية الأمة
الإسلامية بالسنة
النبوية

١٤٠٤هـ
١٩٨٤م

الرئاسة العامة لإدارات
البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والإرشاد بالرياض

استدراك على كتاب :«الحديث والمحدثون»

تعليق على ماورد في ص ٢١٥ و ص ٢١٦ من أن تفويض الصفات هو مذهب السلف

لما كان ماذكره المؤلف في هذين الموضعين يوهم أن مذهب السلف في الصفات تفويض المعنى والكيفية مما قد يلبس الأمر على من لا يعلم حقيقة مذهبهم في ذلك .

وتوضيحاً للأمر فإن مذهب السلف في هذه المسألة أن نصوص الصفات تجرى على ظاهرها وتفسر بمعانيها التى تدل عليها ألفاظها من غير تأويل ولا تحريف وأما الكيفية فيجب تفويضها إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه لا يعلمها إلا هو، ولهذا جاء عنهم «أمِروّها كما جاءت بلا كيف» ولما سئل الإمام مالك رحمه الله عن الإستواء قال:«الاستواء معلوم والكيف مجهول». والتفويض للكيفية، أما المعنى فهو مفهوم وليس منه تفويض أو غموض ولا يلزم من إثبات صفات الله بالمعاني التي دلت عليها النصوص تشبيه الله بخلقه، لأن صفات الله تخصه وتليق به، وللمخلوقين صفات تخصهم وتليق بهم، ولايلزم من الاشتراك في المعنى الكلي الموجود في الأذهان بين صفات الله وصفات خلقه الاشتراك الحقيقى والكيفية الخارجية[1].

تعليق على ماورد في ص ٣٢٨ و ص ٣٣٠

ذكر المؤلف رحمه الله في هذين الموضعين أن السلف ومنهم الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد قد أمسكوا عن الخوض في مسألة خلق القرآن من باب المحافظة على عقيدة العامة.

وهذا يوهم أنهم لم يوضحوا الحق في هذه المسألة. والصحيح المأثور عنهم ماذكره شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال: «ولم يقل أحد من السلف إن القرآن مخلوق أو قديم، بل الآثار المتواترة عنهم بأنهم يقولون القرآن كلام الله، ولما ظهر من قال إنه غير مخلوق قالوا رداً لكلامه إنه غير مخلوق، وأول من عرف أنه قال القرآن مخلوق : الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان، وأول من عرف أنه قال إنه قديم هو عبد الله بن سعيد بن كلاب» انتهى. وكان السلف يقولون عن القرآن الكريم «إنه كلام من الله منزل غير مخلوق منه نزل وإليه يعود». وقد تعرض الإمام أحمد وغيره من السلف للضرب والسجن بسبب قولهم القرآن غير مخلوق، ولولا ذلك لما حدثت المحنة كما لايخفى.

---

(١) عن مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢٤ ص ١٢٨.

الداعى لنشر هذا الكتاب

نال المؤلف بهذا الكتاب « شهادة العالمية مع لقب أستاذ فى علوم القرآن والحديث » عام ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م من الجامع الأزهر الشريف « قسم تخصص المادة بكلية أصول الدين » .

والذى دعا الى نشره الآن ، هو ظهور بعض مؤلفات ، يحمل أصحابها على السنة حملة شعواء ، ويشككون المسلمين فيها ، بالطعن فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنيل من أئمة الحديث ورواته ، ورميهم بالتفريط فى حفظ السنة وفهمها ، وما لهؤلاء الطاعنين بذلك من علم الا ما يتلقفونه من كتب المستشرقين ، ومن سلك طريقتهم من المغرضين (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م
الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين. والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، الذين رفعوا منار الهداية ، وحملوا راية السنة ، وأعلوا شأن الرواية ، وأحاطوا أحاديث نبيهم بسياج من الصيانة والرعاية ، فنفوا عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وبعد فان الله جلت حكمته أنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » ثم وكل سبحانه الى رسوله الأمين تبيان هذا الكتاب فقال سبحانه : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » والرسول صلى الله عليه وسلم فى بيانه للقرآن الكريم لا ينطق عن الهوى « ان هو الا وحى يوحى » لذلك أوجب الله علينا طاعته ، وحذرنا معصيته ، فقال تبارك وتعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقال « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » فالقرآن والسنة هما أساس الدين، والنور الهادى الى الصراط المستقيم .

ولما كان للسنة النبوية هذه المكانة العظمى ، عرف السلف الصالح

للسنة قدرها ومكانتها ، فرعوها حق رعايتها ، وحفظوها فى الصدور ، وأودعوها سويداء القلوب ، ودونوها فى المصنفات والكتب ، وحكموها فى شؤونهم ، وكانوا بها مستمسكين ، وعلى نهجها سائرين ، وما زال العلماء فى كل عصر يعنون بالسنة عناية تامة علما وعملا ، حتى جاءت عصور ضعف فيها المسلمون ، فخلف من بعد هؤلاء الأعلام خلف تهاونوا بشأنها ، وتقاعدوا عن حفظها ، فاستعجم عليهم فهمها ، واستغلق لديهم الوقوف على أسانيدها ومتونها ، وكان من اثر ذلك أن رأينا أرباب الأديان المبدلة ، والعقائد الزائفة ، والأهواء المتبعة ، يطعنون فى سنة نبينا ، ويغضون من شأن الأحاديث النبوية ، فمن قائل لا يعتمد عليها الآن لانقطاع أسانيدها ، ومن قائل ان السنة ليست دينا عاما دائما ، ومن قائل أن الأغلبية العظمى من الأحاديث ليست الا من وضع الوضاعين ، واختلاق الكذابين ، ومن طاعن فى صحابة رسول الله وهم الحلقة الأولى فى سلسلة الاسناد الذى يصلنا بصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، ومن مُشَوِّهٍ للحقائق التاريخية الثابتة فتراه يخلط الحق بالباطل ، ويحمل البرىء تبعة المذنب ، ويغلب الشر على الخير ، ومن متلمس للهفوات يضخم من شأنها ، فيرفعها الى درجة العظائم ، لينال من هذه الملة المطهرة ، والسنة النبوية المشرفة ، الى غير ذلك من أنواع المكايد والطعون التى يبثها أعداء الاسلام .

فلما رأيت هذا الخلط والتلبيس ، وذلك الطعن والأزراء ، دون برهان ولا دليل ، وغالب ذلك من المستشرقين ، ومن حذا حذوهم من المفتونين ، ورأيت القوم مسرفين فى تبجح واسترسال توجهت رغبتى الى تأليف كتاب فى تاريخ الحديث والمحدثين ، يكشف القناع عن وجه الحقيقة ، التى طالما شوه جمالها أصحاب الأهواء ، ويوضح الحق من

الضلال ويميز الخطأ من الصواب ، فأكون بذلك — ان شاء الله — منتظما فى سلك المناضلين عن سنة خير المرسلين ، ومنضويا تحت لواء البررة المجاهدين .

هذا ولما كانت السنة النبوية قد تواردت عليها عصور مختلفة ، وتدرجت فى أطوار متباينة ، ولكل طور منها طابعه الخاص : رأيت أن أرتب هذا الكتاب على مقدمة وسبعة أدوار وخاتمة .

المقـــدمة : فى معنى السنة ونسبتها الى الوحى ومنزلتها فى الدين وبيانها للقرآن الكريم .

الدور الأول : السنة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

الدور الثـانى : السنة فى عهد الخلافة الراشدة .

الدور الثالث : السنة بعد الخـلافة الراشدة الى منتهى القرن الأول الهجرى .

الدور الرابـع : السنة فى القرن الثانى .

الدور الخامس : السنة فى القرن الثالث .

الدور السادس : السنة من مبدأ القرن الرابع الى سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ

الدور السابع : السنة من عام ٦٥٦ هـ الى عصرنا الحاضر .

الخـــاتمة : فى ذكر أنواع من علوم الحديث ناطقة بجهود الأئمة فى خدمة السنة .

والله تعالى أسأل أن يوفقنا لخدمة العلم والدين وأن يديم به النفع العميم انه على ما يشاء قدير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد محمد أبو زهو

المقدمة

وتشتمل على أربعة مباحث : —

المبحث الأول — معنى السنة لغة واصطلاحا .

المبحث الثانى — السنة من الوحى .

المبحث الثالث — منزلة السنة فى الدين .

المبحث الرابع — السنة مبينة للقرآن الكريم .

المبحث الأول

معنى السنة لغة واصطلاحاً

السنة فى اللغة : الطريقة حسنة كانت أم سيئة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » رواه مسلم . قال فى لسان العرب (السنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة . قال خالد بن عتبة الهذلى :—

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها
فأول راض سنة من يسيرها

وسننتها سنا واستننتها سرتها . وسننت لكم سنة فاتبعوها ، وفى

الحديث (من سن سنة حسنة) الخ يريد عملها ليقتدى به فيها . وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم بعده قيل هو الذى سنه

قال نصيب : —

كأنى سننت الحب أول عاشـــق

من الناس اذ أحببت من بينهم وحدى

وقد تكرر فى الحديث ذكر السنة وما تصرف منها والأصل فيه الطريقة والسيرة . واذا أطلقت فى الشرع فانما يراد بها ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ونهى عنه وندب اليه قولا وفعلا مما لم ينطق به الكتاب العزيز . ولهــذا يقال فى أدلة الشرع الكتــاب والسنة أى القــرآن والحديث) ا هـ .

السنة فى لسان أهل الشرع

يختلف معنى السنة عند أهل الشرع حسب اختلاف الأغراض التى اتجهوا اليها من أبحاثهم فمثلا علماء أصول الفقه عنوا بالبحث عن الأدلة الشرعية وعلماء الحديث عنوا بنقل ما نسب الى النبى صلى الله عليــه وسلم . وعلماء الفقه عنوا بالبحث عن الأحكام الشرعية من فرض وواجب ومندوب وحرام ومكروه . والمتصدرون للوعظ والارشاد عنوا بكل ما أمر به الشرع أو نهى عنه . لذلك اختلف المراد من لفظ السنة عندهم بل وقد يقع الاختلاف أيضا بين علماء الطائفة الواحدة منهم .

فعلماء الأصول يطلقون لفظ السنة على أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته . وبعض الأصوليين يطلق لفظ السنة على مانقل عنه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكان ذلك فى الكتاب

العزيز أم عن النبى صلى الله عليه وسلم أم لا كما فعلوا فى جمع المصحف وتدوين الدواوين ونحو ذلك . ويدل على هذا الاطلاق قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى » وذهب الى هذا أيضا طائفة من المحدثين .

وعلماء الفقه يريدون بالسنة الطريقة المسلوكة فى الدين من غير افتراض ولا وجوب .

وعلماء الوعظ والارشاد يريدون بالسنة ما قابل البدعة فيقال عندهم فلان على سنة اذا عمل على وفق ما عمل عليه النبى صلى الله عليه وسلم سواء كان ذلك مما نص عليه فى الكتاب العزيز أم لا ويقال فلان على بدعة اذا عمل على خلاف ذلك .

وعلماء الحديث يريدون بالسنة (على ما ذهب اليه جمهورهم) أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته الخلقية والخلقية وسيره ومغازيه وبعض أخباره قبل البعثة مثل تحنثه فى غار حراء ومثل حسن سيرته لأن الحال يستفاد منها ما كان عليه من كريم الأخلاق ومحاسن الأفعال كقول خديجة أم المؤمنين له صلى الله عليه وسلم « كلا والله لا يخزيك الله أبدا أنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » ومثل أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه عرف بالصدق والأمانة ، وما الى ذلك من صفات الخير وحسن الخلق فمثل ذلك ينتفع به فى اثبات نبوته صلى الله عليه وسلم كثيرا كما حصل من هرقل فى حديثه المشهور . والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوى عندهم .

المبحث الثانى

السنة من الوحى

السنة النبوية بالمعنى السابق ما أضيف الى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير هى أحد قسمى الوحى الالهى الذى نزل به جبريل الأمين على النبى الكريم صلى الله عليه وسلم . والقسم الثانى من الوحى هو القرآن الكريم . فالسنة النبوية من الوحى ، بذلك نطق الكتاب العزيز (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) وبذلك جاءت السنة نفسها فقد روى أبو داود والترمذى وابن ماجه عن المقدام بن معديكرب أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا وأن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله) وعن حسان ابن عطية أنه قال (كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن ويعلمه اياها كما يعلمه القرآن) وعن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (آتانى الله القرآن ومن الحكمة مثليه) أخرجهما أبو داود فى مراسيله .

هذا ولما كانت السنة صنو الكتاب العزيز ، ونوعا من وحى رب العالمين رأينا أن نتكلم عن الوحى وأقسامه بايجاز ، حتى يتضح المقام ، ويتبين لنا الفرق بين السنة والكتاب ، فنقول : —

الوحى وأقسامه

الوحى يطلق ويراد منه الايحاء ويطلق ويراد منه الموحى به ولابد من بيانهما .

الوحى بمعنى الايحاء :

الوحى بمعنى الايحاء معناه لغة الاعلام بالشيء على وجه الخفاء والسرعة ، ولذا كانت الكتابة والاشارة والرمز والكلام الخفى من قبيل الوحى عند أهل اللغة .

ومعناه فى لسان الشرع اعلام الله لأنبيائه ما يريد ابلاغه اليهم من الشرائع والأخبار بطريق خفى بحيث يحصل عندهم علم ضرورى قطعى بأن ذلك من عند الله جل شأنه . فهو أخص من المعنى اللغوى باعتبار مصدره وهو الله سبحانه ومورده وهم أنبياؤه الكرام .

أقسامه . أعلام الله لأنبيائه ما يريد يقع على أحوال ثلاثة أشار الله اليها بقوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أومن وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) واليك بيانها :—

أولا — الأعلام بطريق الالهام ، وهو القاء المعنى فى قلب النبى دفعة مع العلم اليقينى بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يكون هذا الالهام فى المنام كما يكون فى اليقظة . وهذا النوع من الوحى هو المراد منقوله تعالى فى الآية السابقة (ألا وحيا) بدليل مقابلته بالقسمين بعده .

ثانيا — الكلام من وراء حجاب أى بدون رؤية النبى لربه عز وجل وقت التكلم بحيث يسمع كلامه ولا يراه كما حصل ذلك لموسى عليه السلام فى بدء رسالته وقد رأى نارا فقال لأهله امكثوا (فلما أتاها نودى ياموسى أنى أنا ربك) الآيات ، وعند مجيئه للميقات كماقال تعالى

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك) الآيات . وكما حصل ذلك لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج عند فرض الصلاة عليه وعلى أمته ومراجعته ربه فيها على ما صرحت به الأحاديث الصحيحة .

ثالثا — اعلام الله للنبى ما يريد أن يبلغه اليه بواسطة الملك فى اليقظة أو المنام . ثم الاعلام بواسطة الملك يقع على وجهين : لأن النبى تارة يشاهد الملك عند الوحى اما على صورته الحقيقية وهذا نادر واما متمثلا فى صورة بشر كما كان جبريل يتمثل للنبى صلى الله عليه وسلم فى صورة الصحابى الجليل دحية الكلبى — وتارة لا يرى النبى الملك عند الوحى وانما يسمع عند قدومه دويا وصلصلة شديدة يعلم الله كنهها ومصدرها فيعتريه حالة روحية غيرعادية لايدرك الحاضرون منها الا أماراتها الظاهرية كثقل بدنه وتفصد جبينه عرقا . روى البخارى فى الصحيح عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا .

وربما سمع الحاضرون عند وجهه الكريم دويا كدوى النحل عند مجيء الوحى أخرج الترمذى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل الحديث .

الوحى بمعنى الموحى به

الوحى بمعنى الموحى به ينقسم الى متلو والى غير متلو :

١ — فمن الوحى المتلو القرآن الكريم الذى جعله الله آية باهرة ومعجزة قاهرة وحجة باقية على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتكفل بحفظه من التبديل والتحريف الى قيام الساعة فقال (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) نزل به جبريل الأمين على النبى صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه من غير أن يكون لواحد منهما مدخل فيه بوجه من الوجوه وانما هو تنزيل من الله العزيز الحكيم قال تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) وقد انعقد الاجماع على أن القرآن الكريم نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى اليقظة بواسطة جبريل عليه السلام وانه لم ينزل عليه منه شىء فى النوم ولا بطريق من طرق الوحى الأخرى . وليس ذلك لأن طرق الوحى الأخرى يعتريها اللبس أو يلحقها الشك كلا فالوحى بجميع أنواعه فى اليقظة أو المنام يصاحبه علم يقينى ضرورى بأنه من الله سبحانه . وانما كان الاجماع على ما ذكرنا لأنه الواقع الذى تفيده الأحاديث والآثار الواردة فى أسباب النزول — فان قيل روى مسلم عن أنس أنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا اذ غفا اغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله فقال أنزل على آنفا سورة فقرأ سورة الكوثر » فهذا يفيد أن سورة الكوثر نزلت فى النوم قلنا أجاب العلماء عن ذلك بأن الاغفاءة الواردة فى الحديث ليست اغفاءة نوم وانما هى ما كان يعتريه عند نزول الملك من برحاء الوحى وشدته وقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا عند نزول الوحى عليه لتغلب روحيته على بشريته صلى الله عليه وسلم .

ومن خصائص القرآن الكريم أنه متعبد بتلاوته فى الصلاة وخارجها وأنه لا تجوز روايته بالمعنى وأنه معجز بلفظه ومعناه (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

٢ — ومن الوحى غير المتلو السنة النبوية لقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) وقوله (من يطع الرسول فقد أطاع الله) الى غير ذلك من الأدلة وقد تقــدم بعضها غير أن السنة النبوية تفارق القرآن الكريم بأمور كثيرة أهمها أنها منزلة بالمعنى ولفظها من النبى صلى الله عليه وسلم ومن هنا جاز روايتها بالمعنى للخبير بمقاصدها العارف بمعانيها وألفاظها عند من يرى ذلك من العلمــاء ، وأنها ليست معجزة بألفاظها ولا متعبدا بتلاوتها ، وأنها نزلت بطرق الوحى السابقة فى المنام أو اليقظة بواسطة الملك أو غيره .

وقد يشكل على أن السنة بأقسامها أقوالها وأفعالها وتقريراتها من الوحى ما قرره العلماء من جواز الاجتهاد له صلى الله عليه وسلم وأنه اجتهد فى كثير من الوقائع فى الحروب وغيرها فجَعْلُ السنة بأقسامها الثلاثة موحى بها من الله سبحانه يعارض ما قرره جمهور العلماء فضلا عن أنه يسلبه صلى الله عليه وسلم خصائصه ومزاياه من الفهم الثاقب والرأى الصائب والجواب عن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم وان اجتهد فى كثير من المواطن التى لم ينزل عليه فيها وحى بمقتضى ما فطر عليه من العقل السليم والنظر السديد الا أن الله سبحانه لا يتركه وشأنه ولكن يقره اذا أصاب وينبهه ان أخطأ ومن هنا كان اجتهاده صلى الله عليه وسلم اذا أقره الله عليه وحيا حكماً . فلا تعارض بين ما قرره العلماء وما قررنا

من أن السنة بأقسامها وحى من الله سبحانه ثم ان ذلك لا يسلبه صلى الله عليه وسلم شيئا من خصائصه ومزاياه كما قيل بل يؤكدها ويقررها .

الحديث القدسى ومن أى أقسام الوحى هو ؟

هناك طائفة من الأحاديث نقلت الينا آحادا عنه صلى الله عليه وسلم مع اسنادها الى الرب عز اسمه تعرف بالأحاديث القدسية أو الالهية أو الربانية فهل هى من كلامه تعالى وقوله أو هى من كلامه صلى الله عليه وسلم ولفظه واذا كانت من كلامه تعالى أفيثبت لها خصائص القرآن الكريم أم لا ؟ والجواب عن ذلك أن للعلماء قولين فى الأحاديث القدسية

الأول :— انها من كلام الله تعالى وليس للنبى صلى الله عليه وسلم الا حكايتها عن ربه عز وجل وربما يستأنس لذلك بأمور :—

١ — أن هذه الأحاديث أضيفت الى الله تعالى فقيل فيها قدسية والهية وربانية فلو كان لفظها من عنده صلى الله عليه وسلم لما كان لها فضل اختصاص بالاضافة اليه تعالى دون سائر أحاديثه صلى الله عليه وسلم .

٢ — وأنها اشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى كقوله (يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى) وكقوله (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكواكب) .

٣ — وأن هذه الأحاديث تروى عن الله تعالى متجاوزا بها النبى صلى الله عليه وسلم فتارة يقول الراوى (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول الراوى (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم) فلو كان اللفظ من النبى صلى الله عليه وسلم لانتهى بالرواية اليه كما هو الشأن فى الأحاديث النبوية .

هذا والأحاديث القدسية وان كانت من كلام الله تعالى على هـذا القول لكن ليس لها خصائص القرآن الكريم . فقد نقل القـرآن الينا بطريق التواتر معجزا بلفظه ومعناه متعبدا بتلاوته يحرم على المحدث مسه وعلى نحو الجنب قراءته مسمى باسم (القرآن) متعينا للصلاة به . الجملة منه تسمى آية وسورة ولا تجوز روايته بالمعنى وهو بجميع آياته وسوره نزل به جبريل الأمين على قلب النبى صلى الله عليه وسلم كما سبق .

أما الأحاديث القدسية فليس لها شيء من تلك المزايا بل هى أحاديث تروى آحادا عن النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل تترجم عن عظمة البارى جل علاه وسعة رحمته وعظيم سلطانه وفيض عطائه وهى خاضعة لقواعد القبول والرد أدرجها المحدثون فى عداد الأحاديث النبوية وخلطوها بها فى المؤلفات والتصانيف وأجمعوا على أنهـا غير معجزة بألفاظها ولا متعبد بتلاوتها وانها لا تسمى باسم القرآن والراجح انها لم يلتزم فيها طريق خاصة من طرق الوحى السابقة وانه يجوز روايتها بالمعنى للعارف بالمعانى والألفاظ .

القول الثانى فى الأحاديث القدسية : انها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه كالأحاديث النبوية وممن قال ذلك أبو البقاء فى كلياته وعبارته : « القرآن ما كان لفظه ومعناه من عنـد الله بوحى جلى وأما الحديث القدسى فهو ما كان لفظه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ومعناه من عند الله بالالهام أو بالمنام » واختاره أيضا الطيبى وعبارته : « القرآن هو اللفظ المنزل به جبريل على النبى صلى الله عليـه وسلم والحديث القدسى اخبار الله معناه بالالهام أو بالمنام فأخبر النبى صلى الله

عليه وسلم أمته بعبارة نفسه وسائر الأحاديث لم يضفها الى الله تعالى ولم يروها عنه تعالى » وحكمة أضافتها اليه تعالى على هذا القول دون بقية الأحاديث زيادة الاهتمام بمضمونها وتوجيه النفوس الى ما اشتملت عليه من المعانى والآداب .

« الحكمة فى أن الوحى المحمدى منهما نزل باللفظ ومنه ما نزل بالمعنى » .

من آثار رحمة الله تعالى أن جعل الشريعة المحمدية من دون الشرائع السابقة شريعة باقية خالدة الى أن يرث الله الأرض ومن عليها فأنزل القرآن الكريم وحيا يتلى الى قيام الساعة محفوظا من التبديل والتغيير (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) فكان دليلا قائما وبرهانا ساطعا على اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم الدين وكان خير حافظ للشريعة المحمدية من عبث العابثين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين وكان وما يزال نورا ساطعا وضياء للمتقين (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) .

وكما حفظ الله شريعته بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه رفع الاصر والحرج عن خلقه فأنزل على نبيه الكريم الى جانب القرآن العزيز نوعا آخر من الوحى هو السنة أنزلها عليه بالمعنى وجعل اللفظ اليه ايذانا بأن فى الأمر سعة على الأمة وتخفيفا عليها وأن المقصود هو مضمونها لا ألفاظها فيجوز لصحابته ومن بعدهم أن يبلغوها عنه صلى الله عليه وسلم باللفظ النبوى وهو الأولى والأحوط لما فى قوله صلى الله عليه وسلم من أنوار النبوة وضياء الرسالة والفصاحة العربية التى لا يلحق شأوه فيها ويجوز لهم أن يبلغوها عنه صلى الله عليه وسلم

بعبارات ينشؤونها وأقوال تفى بالمعنى المقصود ولا يكون ذلك الا للماهر فى لغة العرب وأساليبها العارف بمعانى الشريعة ومقاصدها حتى لا ينشأ عن الرواية بالمعنى خلل يذهب بالغرض المقصود من الحديث وفى ذلك من الخطر ما فيه فان السنة تبيان للقرآن العزيز ووحى من رب العالمين وثانى مصادر التشريع فالخطأ فيها أثره جسيم وخطره عظيم ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كذب على فليتبوأ مقعده من النار).

وانك لتلمس آثار رحمة الله وحكمته فى أن جعل الوحى على قسمين قسما لا تجوز روايته بالمعنى بل لابد فيه من التزام الألفاظ المنزلة وهو القرآن الكريم وقسما تجوز روايته بالمعنى لمن يستطيع ذلك وهو السنة النبوية المطهرة وفى ذلك صون الشريعة والتخفيف عن الأمة ولو كان الوحى كله من قبيل القرآن الكريم فى التزام أدائه بلفظه لشق الأمر وعظم الخطب ولما استطاع الناس أن يقوموا بحمل هذه الأمانة الالهية . ولو كان الوحى كله من قبيل السنة فى جواز الرواية بالمعنى لكان فيه مجال للريب ومثار للشك ومغمز للطاعنين ومنفذ للملحدين اذ يقولون لا نأمن خطأ الرواة فى أداء الشريعة ولا نثق بقول نقلة العقائد والأحكام والآداب ولكن الله جلت حكمته صان الشريعة بالقرآن ورفع الاصر عن الأمة بتجويز رواية السنة فى الحدود السابقة لئلا يكون للناس على الله حجـة .

المبحث الثالث

منزلة السنة النبوية فى الدين

١ ـ وجوب اتباعها والتحذير عن مخالفتها .

السنة النبوية وحى من الله الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهى أصل من أصول الدين وركن فى بنائه القويم يجب اتباعها وتحرم مخالفتها على ذلك أجمع المسلمون وتضافرت الآيات على وجه لا يدع مجالا للشك . فمن أنكر ذلك فقد نابذ الأدلة القطعية واتبع غير سبيل المؤمنين. ومن الآيات فى ذلك : —

ا — قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا).

ب — قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

جـ — قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

د — قوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) .

هـ — قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) .

و — قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

ز — قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فىأنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)

٢ ــ الرد على من ينكر الاحتجاج بالسنة وأنها من أصول الدين .

المنكرون لذلك طائفتان : طائفة ردوا السنة جملة سواء كانت متواترة أم آحادية زعما منهم أن لا حاجة اليها وفى القرآن غنية عنها وأن النظر فيه يوصل الى مقاصده بدون الرجوع اليها وبنوا هذا الزعم على شبه منها :ـــ

ا ـــ مافهموه من قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء)

ب ـــ وما فهموه من قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء)

ج ـــ وما نسبوه الى النبى صلى الله عليه وسلم (ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله . فان وافق كتاب الله فأنا قلته . وان خالف كتاب الله فلم أقله أنا وكيف أخالف كتاب الله وبه هدانى الله) .

وطائفة ردوا أخبار الآحاد فقط زعما منهم أن الراوى ليس معصوما من الكذب وانه يجوز عليه الخطأ والنسيان .

الرد على من ينكر الاحتجاج بالسنة جملة .

هؤلاء القوم محجوجون بالأدلة السابقة وبغيرها مثل قوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) فلو كان القرآن فى غنى عن السنة لما كان لهذه الآية معنى ونحن اذ نستمسك بالسنة ونعمل بما جاء فيها انما نعمل بكتاب الله. قيل لمطرف بن عبد الله بن الشخير لاتحدثونا الا بالقرآن . فقال والله ما نبغى بالقرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم منا بالقرآن . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله) فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد فقالت يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت كيت وكيت . فقال وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو فى كتاب الله . فقالت المرأة لقــد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته فقال لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه . أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت بلى . قال فانه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أن طاوسا كان يصلى ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس اتركهما فقال انما نهى عنهما أن تتخذا سنة . فقال ابن عباس قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد صلاة العصر فلا أدرى أتعذب عليهما أم تؤجــر لأن الله تبارك وتعالى قال (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وعن عمران بن حصين أنه قال لرجل (انك امرؤ أحمق أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا . ثم قال أتجد ذلك فى كتاب الله مفسرا . ان كتاب الله أبهم هــذا وان السنة تفسر ذلك ذكر هــذه الآثار كلها ابن عبد البر فى كتــابه (جامع بيان العلم وفضله) (٢ — ١٨٨) .

وأما ما استندوا اليه فشبه واهية نجيب عنها بما يأتى :—

١ — المراد من قوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) ان القرآن بيان لأمور الدين اما بطريق النص أو بالاحالة على السنة والا لناقض قوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم).

٢ — وأما قوله تعــالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فالمراد بالكتاب فيه اللوح المحفوظ لا القرآن بدليل السياق . قال تعــالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) أى مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم

(ما فرطنا) أى ما تركنا وما أغفلنا (فى الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ (من شىء) أى من ذلك لم نكتبــه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به (ثم الى ربهم يحشرون) يعنى الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض . أفاده فى الكشاف وعلى تقدير أن المراد بالكتاب هنــا القرآن فتأويله : ما فرطنا فيه من شىء من أمور الدين فهو دال عليها اما بطريق النص أو بالاحالة على السنة كما سبق

٣ — وأما الحديث الذى نسبوه الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر أئمة الحديث أنه مكذوب وضعته الزنادقة والخوارج .

قال الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ما نصه (أمر الله عز وجل بطاعة رســوله صلى الله عليــه وسلم واتباعه أمرا مطلقا مجملا لم يقيد بشىء ، كما أمرنا باتباع كتاب الله ؛ ولم يقل اذا وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ . قال عبد الرحمن بن مهدى . الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث يعنى ما رووا عنه صلى الله عليه وسلم (ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فان وافق كتاب الله فأنا قلته . وان خالف كتاب الله فلم أقله . وانما أنا موافق كتاب الله وبه هدانى الله) وهذه الألفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شىء ونعتمد على ذلك قالوا فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله . لأنا لم نجد فى كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله صلى الله عليــه وسلم الا ما وافق كتاب الله . بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسى به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره جملة على كل حال . ا هـ (٢ — ١٩٠) .

ونقل صاحب كشف الخفاء عن الصغانى أن هذا الحديث موضوع فلم يبق لهؤلاء المبتدعة الذين نابذوا السنة وتأولوا القرآن على غير وجهه من حجة الا اتباع الهوى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) ولقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أطلعه الله عليه من الغيب عن هذه الفرق ومسلكها وأنهم لا يرفعون للسنة رأسا مع أنها من وحى الله سبحانه فقال (يوشك رجل منكم متكئا على أريكته يحدث بحديث عنى فيقول . بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ألا وأن ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى حرم الله) رواه أبو داود والترمذى وغيرهما . وروى ابن عبد البر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه ايمانه ولا من فاسق بين فسقه ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله) .

٣ ـ الرد على من ينكر الاحتجاج بالسنة الآحادية .

قسم المحدثون الحديث النبوى الى متواتر وآحاد :ـ

الحديث المتواتر : هو ما نقله جمع يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا عددا كثيرا لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أوله الى آخره ولذا كان مفيدا للعلم الضرورى وهو الذى يضطر اليه الانسان بحيث لا يمكنه دفعه ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله ولا يعتبر فيه عدد معين فى الأصح .

ثم المتواتر قسمان : لفظى وهو ما تواتر لفظه . ومعنوى وهو ما تواتر القدر المشترك فيه .

وللأول أمثلة منها حديث (من كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

وللثانى أمثلة كثيرة منها أحاديث رفع اليدين فى الدعاء فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم نحو مائة حديث فيه رفع يديه فى الدعاء لكنها فى قضايا مختلفة وكل قضية منها لم تتواتر والمتواتر هو القدر المشترك فيها وهو الرفع عند الدعاء .

خبر الواحد

وأما خبر الواحد فهو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الراوى له واحدا أم أكثر وهو نوعان (مقبول) وهو ما اتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن مثله من مبدئه الى منتهاه من غير شذوذ ولا علة . (ومردود) وهو ما لم يتصل اسناده كذلك .

خبر الواحد الثقة حجة يلزم بها العمل

الذى عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها ويفيد الظن ولا يفيد العلم ويقابل هذا المذهب مذاهب أخرى منها :

١ — ما ذهب اليه القدرية والرافضة وبعض أهل الظاهر أنه لا يجب العمل به .

٢ — وقال الجبائى من المعتزلة . لا يجب العمل الا بما رواه اثنان عن اثنين .

٣ — وقال بعضهم . لا يجب العمل الا بما رواه أربعة عن أربعة .

وهذه الأقاويل التى تقابل ما عليه جماهير المسلمين كلها باطلة فلم تزل كتب النبى صلى الله عليه وسلم وآحاد رسله يعمل بها ويلزمهم

النبى صلى الله عليه وسلم العمل بذلك واستمر على ذلك الخلفاء الراشدون فمن بعدهم . ولم يزل الخلفاء الراشدون وسائر الصحابة فمن بعدهم من السلف والخلف على امتثال خبر الواحد اذا أخبرهم بسنة وعلى قضائهم به ورجوعهم اليه فى القضاء والفتيا ونقضهم به ما حكموا على خلافه وطلبهم خبر الواحد عند عدم الحجة ممن هو عنده واحتجاجهم به على من خالفهم وانقياد المخالف لذلك وهذا كله معروف لا شك فيه والعقل لا يحيل العمل بخبر الواحد وقد جاء الشرع بوجوب العمل به فوجب المصير اليه . واحتج بعض العلماء لقبول خبر الواحد بأن كل صحابى أو تابعى سئل عن نازلة فى الدين فأخبر السائل بما عنده فيها لم يشترط على السائل أن لا يعمل بما أخبره به من ذلك حتى يسأل غيره فضلا عن أن يسأل الكافة بل كان كل منهم يخبره بما عنده فيعمل بمقتضاه ولا ينكر عليه ذلك فدل على اتفاقهم على وجوب العمل بخبر الواحد . واذا وقع من بعضهم التردد فى العمل به فى بعض الأحوال فذلك لأسباب خارجة عن كونه خبر واحد من ريبة فى الصحة أو تهمة للراوى أو وجود معارض راجح أو نحو ذلك .

قال ابن القيم فى اغاثة اللهفان ما ملخصه (ولا ترد أحاديث الصحابة وأحاديث الأئمة الثقات بتفرد الراوى فكم من حديث تنفرد به واحد من الصحابة وقبله الأئمة كلهم فلم يرده أحد منهم وكم من حديث تفرد به واحد من التابعين ولم يرده أحد من الأئمة ولا نعلم أحدا من أهل العلم قديما ولا حديثا قال ان الحديث اذا لم يروه الا صحابى واحد لم يقبل وانما يحكى عن أهل البدع ومن تبعهم فى ذلك أقوال لايعرف لها قائل من الفقهاء وقد تفرد الزهرى بنحو ستين سنة لم يروها غيره وعملت بها الأئمة ولم يردوها لتفرده ثم ان هذا القول

لا يمكن أحدا من أهل العلم ولا من الأئمة ولا من أتباعهم طرده ولو طردوه لبطل كثير من أقوالهم وفتاويهم . فان قيل فهذا هو الحديث الشاذ وأقل أحواله أن يتوقف فيه ولا يجزم بصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل ليس هذا هو الشاذ وانما الشذوذ أن يخالف الراوى الثقات فيما رووه فيشذ عنهم بروايته فأما اذا روى الثقة حديثا منفردا به لم يرو الثقات خلافه فان ذلك لا يسمى شاذا وان اصطلح على تسميتهشاذا بهذا المعنى لم يكن هـذا الاصـطلاح موجبا لرده ولا مسوغا له . قال الشافعى رحمه الله . وليس الشاذ أن ينفرد الثقـة برواية الحديث بل الشاذ أن يروى خـلاف ما رواه الثقات . قالـه فـي مناظرته بعض من رد الحديث بتفرد الراوى فيه » ا هـ

وقد جود الكلام على قبول خبر الواحد الامام الشافعى رحمه الله تعالى فى رسالته المشهورة فى باب على حدة فارجع اليه ان شئت وسيأتيك طرف منه ان شاء الله تعالى .

٤ ـ عذر الأئمة فى ترك العمل ببعض الأحاديث وانه لايعد طعنا منهم فى السنة .

قد يقول قائل قررت أنّ السنة بنوعيها المتواتر منها والآحاد يجب اتباعها ولا تجوز مخالفتها ولكننا نرى كثيرا من الأئمة المجتهدين يعمل فى بعض المسائل على خلاف ما جاءت به الأحاديث .

والجواب أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء من سننه دقيق أو جليل فانهم مجمعون على وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر فى تركه والأعذار فى هذا الباب كثيرة جدا واليك أمثلة من هذه الأعذار .

١ — أن لا يكون الحديث قد بلغه فى تلك المسألة ومن لم يبلغه الحديث لا يكلف العمل به وهذا هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث . والاحاطة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن لأحد من الأئمة كائنا من كان وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يحدث أو يفتى أو يقضى أو يفعل الشىء فيسمعه أو يراه من يكون حاضرا ثم يبلغه أولئك الحاضرون أو بعضهم لمن يبلغونه فينتهى علم ذلك الى من شاء الله من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فلم تكن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيط بها صحابى واحد أو تابعى واحد أو امام من الأئمة . ومن ادعى ذلك فقد أحال وإنما يتفاضل العلماء من الصحابة ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته واعتبر ذلك بالخلفاء الراشدين الذين كانوا أعلم الأمة بأمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأحواله . فهذا أبو بكر رضى الله عنه لما سئل عن ميراث الجدة قال « مالك فى كتاب الله من شىء ولكن أسأل الناس » فسألهم فقام المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة فشهدا أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى رضى الله عنه ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها حتى كتب اليه الضحاك ابن سفيان أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض البوادى يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها » ولم يكن يعلم حكم المجوس فى الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ولما قدم « سرغ » وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسلمة الفتح فأشار

كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة حتى قدم عبد الرحمن بن عوف فأخبره بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الطاعون وأنه قال (اذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه واذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه) — وهذا عثمان رضى الله عنه لم يكن عنده علم بأن المتوفى عنها زوجها تعتد فى بيت زوجها حتى حدثته الفريعة بنت مالك أخت أبى سعيد الخدرى بقضيتها لما توفى زوجها وان النبى صلى الله عليه وسلم قال لها « امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » فأخذ به عثمان .

وأهدى لعثمان مرة صيد كان قد صيد لأجله فهم بأكله فأخبره على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رد لحما أهدى له — وهذا على رضي الله عنه يقول (كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه واذا حدثنى غيره استحلفته فاذا حلف لى صدقته وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر وذكر حديث صلاة التوبة المشهور) . وأفتى هو وابن عباس وغيرهما بأن المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا تعتد أبعد الأجلين ولم يكن قد بلغهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيعة الأسلمية حيث أفتاها النبى صلى الله عليه وسلم بأن عدتها وضع حملها . وأفتى هو وزيد وابن عمر وغيرهم بأن المفوضة اذا مات عنها زوجها فلا مهر لها ولم تكن قد بلغتهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بروع بنت واشق وأنه قضى لها بمهر مثلها وهذا باب واسع يبلغ المنقول منه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عددا كثيرا وأما المنقول منه عن غيرهم فلا يمكن الاحاطة به ومن اعتقد أن كل حديث صحيح قد بلغ كل واحد من الأئمة أو اماما معينا فهو مخطىء خطأ بينا .

٢ — أن يكون للحديث طريقان أحدهما صحيح وثانيهما غير صحيح فيبلغ هذا الحديث بعض الأئمة من الطريق الذى لم يصح فلا يعمل به ويبلغ آخرين من الطريق الصحيح فيعملون به — ولهذا وجد فى كلام غير واحد من الأئمة تعليق القول بموجب الحديث على صحته فيقول : قولى فى هذه المسألة كذا وقد روى فيها حديث بكذا فان كان صحيحا فهو قولى .

٣ — أن يكون للحديث طريق واحـد ولكنه يختلف فيه الأئمة فيراه بعضهم صحيحا لعدم القادح لديه فى متنه أو سنده ويراه بعضهم غير صحيح لقادح فى سنده أو متنه . وهذا باب واسع وللعلماء بالرجال وأحوالهم وفى فهم المرويات ودلالتها ما لسائر العلماء فى الفنون الأخرى من الاختلاف .

٤ — أن يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسيه وهذا كثير فى السلف والخلف ومن ذلك الحديث المشهور عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الرجل يجنب فى السفر فلا يجد الماء فقال : « لا يصلى حتى يجد الماء » فقال له عمار . «يا أمير المؤمنين أما تذكر إذ كنت أنا وأنت فى الابل فأجنبنا فأما أنا فتمرغت كما تمرغ الدابة وأما أنت فلم تصل فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنما يكفيك هكذا وضرب بيديه الأرض فمسح بهما وجهه وكفيه » فقال له عمر « اتق الله ياعمار » فقال ان شئت لم أحدث به فقال بل نوليك من ذلك ما توليت » .

فهذه سنة شهدها عمر ثم نسيها حتى أفتى بخلافهـا وذكره عمار فلم يذكر ومع ذلك لم يكذب عمارا وأمره أن يحدث به .

٥ — أن يبلغه الحديث ولكنه يرى أن دلالته على الحكم قد عارضها ما يدل على انها ليست بمرادة مثل معارضة العام بخاص أو المطلق بمقيد

أو الأمر المطلق بما ينفى الوجوب أو الحقيقة بما يدل على المجاز الى غير ذلك من أنواع التعارض .

٦ — أن يبلغه الحديث ولكنه يرى نسخة بدليل آخر ومن أمثلة ذلك حديث شداد بن أوس وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « افطر الحاجم والمحجوم » بين الشافعى رحمه الله أن هذا الحديث منسوخ بحديث ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وهو صائم وذلك أنه روى فى حديث شداد أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم زمان الفتح فرأى رجلا يحتجم فى شهر رمضان فقال « افطر الحاجم والمحجوم » وروى فى حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم صائم فبان بذلك أن الأول كان زمن الفتح فى سنة ثمان من الهجرة وأن الثانى كان فى حجة الوداع سنة عشر — ومن الأمثلة أيضا حديث قتل شارب الخمر فى المرة الرابعة فانه منسوخ بدليل الاجماع على ترك العمل به .

وهذا وفى كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للامام حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها فان مدارك العلم واسعة ولم نطلع نحن على جميع ما فى بواطن العلماء والعالم قد يبدى حجته وقد لا يبديها واذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغ واذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه سواء أكانت الحجة صوابا فى نفس الأمر أم لا وقد ذكرنا أمثلة بارزة من أعذارهم فى ترك العمل ببعض الأحاديث وأنه لا يعد طعنا منهم فى السنة أو قصورا فى العلم وجماع هذه الأعذار ثلاثة « أحدها » عدم اعتقاده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحديث « ثانيها » عدم اعتقاده ارادة تلك المسألة بذلك الحديث « ثالثهما » اعتقاده أن ذلك

الحديث منسوخ وبالله التوفيق . راجع كتاب (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) لشيخ الاسلام ابن تيمية .

٥ ـ ما يطلب من المسلم اذا وجد حديثا على خلاف مذهبه .

١ ـ ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه فى كل ما أمر به ونهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم واتفق العلماء على أنه ليس أحد معصوما فى كل ما أمر به ونهى عنه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ عمل الصحابة والتابعون ومن بعدهم من الأئمة بهذا الأصل فكانوا يطلبون الحكم فى المسائل التى تقع من الكتاب والسنة فان لم يجدوا اجتهدوا واستنبطوا وقاسوا معترفين أن اجتهادهم يحتمل الخطأ والصواب وان كان يغلب على ظن المجتهد فى هذه الحالة أنه الى الصواب أقرب وكان من طريقتهم أنهم اذا وجدوا حديثا فى الحكم الذى اجتهدوا فيه على خلاف رأيهم رجعوا عن اجتهادهم اليه عملا بقوله تعالى (فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) وقوله (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال غير واحد من هؤلاء الأئمة كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ وقد ذكرنا فيما سبق أمثلة من رجوع الصحابة عن آرائهم الى السنة حينما ظهرت لهم وهؤلاء الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل ما يقولونه وقرروا أن الدليل اذا قام على خلاف رأيهم كان أولى بالاتباع وصح عن كل واحد منهم أنه

قال :(اذا صح الحديث فهو مذهبى) ولما اجتمع أبو يوسف بامام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضراوات ومسألة الاحباس فأخبره مالك بما دلت عليه السنة فى ذلك قال « رجعت الى قولك يا أبا عبد الله ولو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت » ومالك رحمه الله كان يقول « انما أنا بشر أصيب وأخطىء فاعرضوا قولى على الكتاب والسنة » والشافعى رحمه الله كان يقول « اذا صح الحديث بخلاف قولى فاضربوا بقولى عرض الحائط . واذا رأيت الحجة موضوعة على طريق فهى قولى » وقال ابن القيم فى اعلام الموقعين : « كان الامام أحمد اذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت الى ما خالفه ولا من خالفه كائنا من كان ولذا لم يلتفت الى خلاف عمر رضى الله عنه فى المبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس» الى أمثلة كثيرة ذكرها فلتراجع (١ — ٣٢) طبع المنيرية .

٤ — ومع هذه الوصايا المتكررة نرى كثيرا من العلماء المقلدين لهؤلاء الأئمة اذا وجدوا حديثا يخالف مذهبهم ولم يستطيعوا الجواب عنه نراهم يلتزمون المذهب ويهملون العمل بالحديث ويعمدون الى فتح باب الاحتمالات البعيدة ويلتمسون لمذاهب أئمتهم أوجها من الترجيح . وان عجزوا عن ذلك ادعوا النسخ بلا دليل أو الخصوصية أو عدم العمل به أو غير ذلك . فان عجزوا عن ذلك كله ادعوا أن امامهم اطلع على كل مروى . فما ترك هذا الحديث الا لأنه مطعون فيه . وتارة يقولون أن أمر الحديث عظيم وليس لمثلنا أن يفهمه فكيف يعمل به وما دروا أن تعظيم الحديث انما هو فى العمل به وأن تركه اهانة له وان فهمه على الوجه الذى هو مناط التكليف حاصل والا لما قامت لله ولا لرسوله حجة الا على أمثال الأئمة المجتهدين .

وقد عاب عليهم صنيعهم هذا كثير من العلماء منهم العز بن عبد السلام حيث قال : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على

ضعف مأخذ امامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعا وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبهم جمودا على تقليد امامه بل يتحيل لدفع ظواهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده » بفتح اللام المشددة .

قال : « ولم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقيد بمذهب ولا انكار على أحد من السائلين الى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فان أحدهم يتبع امامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلدا له فيما قال كأنه نبى أرسل وهذا نأى عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولى الألباب » انظر كتاب حجة الله البالغة (١ — ١٥٥) .

٥ — والذى نراه بعد هذا أن من تفقه على مذهب امام من الأئمة وتبصر فيه ثم اشتغل بعده بالحديث وراض نفسه على استنباط الأحكام منه فوجد أحاديث صحيحة على خلاف مذهب امامه ولا يعلم لها ناسخا ولا مخصصا ولا معارضا أنه لا مناص له من العمل بالحديث وترك المذهب لا سيما اذا قال بالحديث امام من الأئمة الموثوق بهم وأن فى هذا المسلك العمل بنصوص الشريعة وتنفيذ ما أجمع عليه الأئمة والوقوف من أصحاب المذاهب موقفهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقال لمن يفعل هذا أنت أعلم من امامك الذى خالفته لأن امامه قد خالفه فى هذه المسألة من هو نظيره . فالمصير الى الحديث فى هذه الحالة أولى والا لزم عليه الاعراض عن أمر الله ورسوله وبقى كل امام فى أتباعه بمنزلة النبى فى أمته واعتبر بما ورد عن ابن عباس وقد ناظره مناظر فى المتعة فقال له « قال أبو بكر وعمر » فقال ابن عباس : « يوشك أن ينزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر وعمر » وكذلك ابن عمر رضى الله عنه لما سألوه عنها فأمر بها فعارضوه بقول عمر فبين لهم أن عمر لم يرد ما يقولونه

فألحوا عليه فقال لهم « أرسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يتبع أم عمر » مع علم الناس بأن أبا بكر وعمر أعلم من ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين والمراد بالمتعة متعة الحج لا متعة النكاح .

٦ — ولا بأس أن نذكر هنا كلمات عن بعض العلماء من أتباع الأئمة تؤيد ما ذهبنا اليه وأنه لا ينبغى لأهل العلم والمعرفة أن يتركوا الأحاديث الى المذاهب فنقول :

المقالة الأولى : قال ابن الصلاح : « من وجد من الشافعية حديثا يخالف مذهبه نظر ان كملت له آلة الاجتهاد مطلقا أو فى ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل به وان لم يكمل له آلة الاجتهاد وشق عليه مخالفة الحديث بعد أن يبحث فلم يجد للمخالف جوابا شافيا عنه فله العمل به ان كان عمل به امام مستقل غير الشافعى ويكون هذا عذرا له فى ترك مذهب امامه ههنا » وحسنه النووى قاله الدهلوى فى حجة الله البالغة (١ — ١٥٨) .

المقالة الثانية : قال الامام الشعرانى فى الميزان « فان قلت فما أصنع بالأحاديث التى صحت بعد موت امامى ولم يأخذ بها فالجواب ينبغى لك أن تعمل بها فان امامك لو ظفر بها وصحت عنده لربما كان أمرك بها فأن الأئمة كلهم أسرى فى يد الشريعة ومن فعل ذلك فقد حاز الخير بكلتا يديه ومن قال لا أعمل بالحديث الا ان أخذ به امامى فاته خير كثير كما عليه كثير من المقلدين لأئمة المذاهب وكان الأولى لهم العمل بكل حديث صح بعد امامهم تنفيذا لوصية الأئمة فان اعتقادنا فيهم أنهم لو عاشوا وظفروا بتلك الأحاديث التى صحت بعدهم لأخذوا بها وعملوا بها وتركوا كل قياس كانوا قاسوه وكل قول كانوا قالوه وقد بلغنا من طرق صحيحة أن الامام الشافعى أرسل يقول للامام أحمد بن حنبل اذا صح عندكم حديث فاعلمونا به لنأخذ به ونترك كل قول قلناه قبل ذلك أو قاله غيرنا فانكم أحفظ للحديث ونحن أعلم به » اهـ .

المقالة الثالثة : وقال الامام السندى الحنفى : « تقرر أن الصحابة ما كانوا كلهم مجتهدين على اصطلاح العلماء فان فيهم القروى والبدوى ومن سمع منه صلى الله عليه وسلم حديثا واحدا أو صحبه مرة ولا شك أن من سمع حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن واحد من الصحابة رضى الله عنهم كان يعمل به حسب فهمه مجتهدا كان أو لا ولم يعرف أن غير المجتهد منهم كلف بالرجوع الى المجتهد فيما سمعه من الحديث لا فى زمانه صلى الله عليه وسلم ولا بعده فى زمان الصحابة رضى الله عنهم. وهذا تقرير منه صلى الله عليه وسلم بجواز العمل بالحديث لغير المجتهد. واجماع من الصحابة عليه ، ولولا ذلك لأمر الخلفاء غير المجتهد منهم سيما أهل البوادى أن لا يعملوا بما بلغهم عن النبى صلى الله عليه وسلم مشافهة أو بواسطة حتى يعرضوا على المجتهدين منهم ، ولم يرد فى هذا عين ولا أثر ، وهذا هو ظاهر قوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ونحوه من الآيات ، حيث لم يقيد بأن ذلك على فهم الفقهاء . ومن هنا عرفت أنه لا يتوقف العمل بعد وصول الحديث الصحيح على معرفة عدم الناسخ ، أو عدم الاجماع على خلافه ، أو عدم المعارض ، بل ينبغى العمل به الى أن يظهر شىء من الموانع ، فينظر ذلك ويكفى فى العمل كون الأصل عدم هذه العوارض المانعة عن العمل . وقد بنى الفقهاء على اعتبار الأصل فى شىء أحكاما كثيرة فى الماء ونحوه لا تخفى على المتتبع لكتبهم . ومعلوم أن من أهل البوادى والقرى البعيدة من كان يجىء اليه صلى الله عليه وسلم مرة أو مرتين ويسمع شيئا ثم يرجع الى بلاده ويعمل به والوقت كان وقت نسخ وتبديل ، ولم يعرف أنه صلى الله عليه وسلم أمر أحدا من هؤلاء بالمراجعة ليعرف الناسخ من المنسوخ بل أنه صلى الله عليه وسلم قرر من قال « لا أزيد على هذا ولا أنقص » على ما قال ولم ينكر عليه بأنه يحتمل النسخ .

بل قال « دخل الجنة ان صدق » وكذلك ما أمر الصحابة أهل البوادى وغيرهم بالعرض على مجتهد ليميز له الناسخ من المنسوخ . فظهر أن المعتبر فى النسخ ونحوه بلوغ الناسخ لا وجوده . ويدل على أن المعتبر البلوغ لا الوجود أن المكلف مأمور بالعمل على وفق المنسوخ . بل صحح ذلك حديث نسخ القبلة الى الكعبة المشرفة فان خبره وصل الى أطراف المدينة المنورة كأهل قباء وغيرهم بعد ما صلوا على وفق القبلة المنسوخة فمنهم من وصله الخبر فى أثناء الصلاة . ومنهم من وصله بعد أن صلى الصلاة . والنبى صلى الله عليه وسلم قررهم على ذلك . ولم يأمر أحدا منهم بالاعادة فلا عبرة لما قيل « لا يجوز العمل قبل البحث عن المعارض والمخصص » وان ادعى عليه الاجماع فانه لو سلم فاجماع الصحابة وتقرير النبى صلى الله عليه وسلم مقدم على اجماع من بعدهم . على أن ما ادعى من الاجماع قد علم خلافه كما ذكر فى بحر الزركشى فى الأصول » اهـ . ملخصا .

المبحث الرابع

فى أن السنة النبوية مبينة للقرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم هداية للناس فى أمور دينهم ودنياهم ولكن بأسلوب اجمالى فى الغالب لا يمكن الوقوف منه على مراد الله عز وجل بطريق الوضوح وقد وكل الله الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ القرآن الكريم للناس وأن يبين لهم بقوله وفعله مايحتاج الى البيان فقال (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) وهو صلى الله عليه وسلم أذ يبين للناس كتاب الله لايصدر عن نفسه ولكنه يتبع مايوحى اليه من ربه (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى) (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فالسنة النبوية وظيفتها تفسير القرآن الكريم

والكشف عن أسراره وتوضيح مراد الله تعالى من أوامره وأحكامه ونحن اذا تتبعنا السنة من حيث دلالتها على الأحكام التى اشتمل عليها القرآن اجمالا أو تفصيلا وجدناها ترد على هذه الوجوه الأربعة .

الأول — أن تكون موافقة لما جاء فى القرآن فتكون واردة حينئذ مورد التأكيد ومن أمثلة ذلك : —

١ — قوله صلى الله عليه وسلم (لايحل مال امرىء مسلم الا بطيب من نفسه) رواه الديلمى فانه يوافق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم (اتقوا الله فى النساء فأنهن عوان عندكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) فأنه يوافق قوله تعالى (وعاشروهن بالمعروف) .

٣ — قوله صلى الله عليه وسلم (ان الله ليملى للظالم فاذا أخذه لم يفلته) يوافق قوله تعالى (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة) .

الثانى — أن تكون بيانا لما أريد بالقرآن ومن أمثلة هذا النوع :—

١ — بيان المجمل فى مثل الأحاديث التى جاء فيها تفصيل أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها .

٢ — تقييد المطلق كالأحاديث التى بينت المراد من اليد فى قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما) وأنها اليمنى وأن القطع من الكوع لامن المرفق .

٣ — تخصيص العام كالحديث الذى بين أن المراد من الظلم فى قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) هو الشرك فان بعض الصحابة فهم منه العموم حتى قال (أينا لم يظلم) فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ليس بذاك انما هو الشرك » .

٤ — توضيح المشكل كالحديث الذى بين المراد من الخيطين فى قوله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) فهم منه بعض الصحابة العقال الأبيض والعقال الأسود فقال صلى الله عليه وسلم (هما بياض النهار وسواد الليل) .

الثالث — أن تكون دالة على حكم سكت عنه القرآن ومن أمثلة هذا النوع : —

١ — قوله صلى الله عليه وسلم فى البحر (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) .

٢ — قوله صلى الله عليه وسلم فى الجنين الخارج ميتا من بطن أمه المذكاة (ذكاة الجنين ذكاة أمه) .

٣ — الأحاديث الواردة فى تحريم ربا الفضل .

٤ — الأحاديث الواردة فى تحريم كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، وتحريم لحوم الحمر الأهلية .

الرابع — أنها تكون ناسخة لحكم ثبت بالكتاب على رأى من يجوز نسخ الكتاب بالسنة ومثال ذلك حديث « لاوصية لوارث » فأنه ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين الوارثين الثابت بقوله تعالى فى سورة البقرة « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » — على أحد الوجوه فى تفسير الآية — وحديث « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » فهو ناسخ لآية النساء « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » الآية على أحد الوجوه أيضا .

والأمثلة كثيرة لاسيما على مذهب الحنفية الذين يقولون ان الزيادة على الكتاب من قبيل النسخ . والمسألة مختلف فيها بين الفقهاء على ما هو معروف فى الأصول .

هذا والنسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء أمد الحكم ، ولذلك يطلق عليه بعض علماء الأصول « بيان التبديل » .

هل السنة النبوية تستقل بالتشريع ؟؟

وقد يقول قائل : أن الوجه الثالث الذى ذكرته يفيد أن السنة قد يثبت بها أحكام لم ترد فى القرآن اجمالا ولا تفصيلا وهو يخالف ظاهر قوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) فأنه يفيد أن السنة انما تبين القرآن ولا تتعداه الىغيره ولنا عن ذلك جوابان : —

الجواب الأول : أنا لانسلم خلو القرآن عن الأحكام المذكورة فى الوجه الثالث من أوجه البيان ولكنه اشتمل عليها بطريق الأجمال فصح أن تكون السنة بيانا للقرآن بهذا الاعتبار . وتوضيح ذلك أن الأحكام التى جاءت بها السنة وسكت عنها القرآن ظاهرا يمكن أن تكون بيانا له اما بطريق الالحاق واما بطريق القياس واما بطريق استنباط القواعد العامة من الجزئيات ، واليك توضيح ذلك : —

البيان بطريق الالحاق : —

قد ينص القرآن على حل شىء وحرمة آخر ويكون هنـالك شىء ثالث لم ينص على حكمه وهو آخذ من كل منهما بطرف فيكون ثم مجال للاجتهاد فى ألحاقه بأحدهما فيعطيه النبى صلى الله عليه وسلم حـكم أحدهما وحينئـذ يتبين أنه كان من مشمولاته . ومن الأمثـله على ذلك : —

١ — أحل الله الطيبات وحرم الخبائث وبقى بين هذين الأصلين أشياء يمكن الحاقها بأحدهما فبين عليه الصلاة والسلام فىذلك ما اتضح به الأمر فنهى عن أكل كلذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ونهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وقال انها رجس . ونهى عليه الصلاة والسـلام عن أكل الجلالة والبانها ذلك لما فى لحمها ولبنهـا من أثر

الجلة فهذا كله راجع الى معنى الالحاق بأصل الخبائث كما ألحق عليه الصلاة والسلام الضب والحبارى والأرنب واشباهها بأصل الطيبات .

٢ — أباح الله من صيد الجارح المعلم ما أمسك عليك وعلم من ذلك أن مالم يكن معلما فصيده حرام اذ لم يمسك الا على نفسه فدار بين الأصلين ماكان معلما ولكنه أكل من صيده فالتعليم يقتضى أنه أمسك عليك والأكل يقتضى أنه اصطاد لنفسه لالك فتعارض الأصلان فجاءت السنة ببيان ذلك فقال عليه الصلاة والسلام « فأن أكل فلا تأكل فانى أخاف أن يكون انما أمسك على نفسه » أخرجه الشيخان .

٣ — أحل الله صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين وأشكل حكمها فقال عليه الصلاة والسلام (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أخرجه أصحاب السنن .

٤ — حرم الله الميتة وأحل المذكاة فدار الجنين الخارج من بطن المذكاة ميتا بين الطرفين فاحتمل أن يلحق بكل منهما فقال النبى صلى الله عليه وسلم (ذكاة الجنين ذكاة أمه) رواه ابو داود والترمذى وحسنه وهذا منه صلى الله عليه وسلم ترجيح لجانب الجزئية على جانب الاستقلال .

٥ — قال تعالى (فأن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف) فبقيت البنتان مسكوتا عنهما فنقل فى السنة حكمهما وهو الحاقهما بما فوق البنتين .

فهذه أمثلة يستعان بها على ماسواها وبها يتبين أن السنة فى هذا النوع مبينة للقرآن الكريم .

البيان بطريق القياس : —

قد ينص القرآن على حكم شىء فيلحق به الرسول صلى الله عليه

وسلم ما اجتمع معه فى العلة بطريق القياس وذلك راجع فى الحقيقة الى دلالة القرآن فأن النص القرآنى المقرر لحكم الأصل وان كان خاصا به فى الصورة فهو عام فى المعنى من حيث عموم العلة وسواء علينا اقلنا آن النبى صلى الله عليه وسلم قاله بالقياس أم بالوحى الا أنه جار فى أفهامنا مجرى القياس .

ومن أمثلة هذا النوع : —

١ — أن الله عز وجل حرم الربا . وربا الجاهلية الذى قالوا فيه (أنما البيع مثل الربا) هو فسخ الدين فى الدين يقول الطالب : اما أن تقضى واما أن تربى وهو الذى دل عليه قوله تعالى (وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون) ولما كان المنع فيه من قبل كونه زيادة بلا عوض الحقت السنة به كل مافيه زيادة بهذا المعنى فقال عليه الصلاة والسلام (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يدا بيد فمن زاد أو ازداد فقد أربى فاذ اختلفت هذه الاصناف فبيعوا كيف شئتم اذا كان يدا بيد) .

٢ — حرم الله الجمع بين الاختين ثم قال : «وأحل لكم ماوراء ذلكم» فجاء نهيه صلى الله عليه وسلم عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس لأن المعنى الذى من أجله حرم الجمع بين الاختين موجود هنا وقد روى هذا المعنى فى الحديث (فأنكم اذا فعلتم ذلك قطعتم ارحامكم) رواه ابن حبان .

٣ — بين القرآن بعض المحرمات من الرضاع بقوله (وأمهاتكم اللاتى ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة) فالحقت السنة بهاتين سائر القرابات بالرضاعة من اللاتى كن يحرمن بالنسب كالعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت فقال صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من الرضاع

ماحرم من النسب) أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح وهذا الألحاق بطريق القياس من باب نفى الفارق بين الأصل والفرع .

البيان بطريق استنباط القواعد العامة من نصوص القرآن الجزئية فى المواضع المختلفة : ــ

قد تأتى نصوص من القرآن الكريم فى معان مختلفة لكن يشملها معنى واحد فتأتى السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد فيعلم أو يظن أن ذلك المعنى مأخوذ من مجموع تلك النصوص القرآنية ومن أمثلة ذلك : ــ

١ ــ قوله صلى الله عليه وسلم (انما الأعمال بالنيات وأنما لكل امرىء ما نوى) فهاتان القاعدتان تؤخذان من الآيات التى تحث على الأخلاص وتذم الرياء وتبين أنه ليس للأنسان الا ماسعى مثل (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) (ألا لله الدين الخالص) (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) (واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس) (ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) الى غير ذلك .

٢ ــ قوله صلى الله عليه وسلم (لاضرر ولا ضرار) فهذه القاعدة مأخوذة من عدة أوامر ونواه متفرقة فى القرآن الكريم فى جزئيات مختلفة منها (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) (لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) (ولا يضار كاتب ولا شهيد) وما فى معناها .

٣ ــ قوله صلى الله عليه وسلم (من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) وقوله (دع مايريبك الى مالا يريبك) فكل من الحديثين معناه سد ذرائع الفساد وهو منتزع من آيات كثيرة منها (ولا يضربن بأرجلهن

ليعلم ما يخفين من زينتهن) (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) (لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا) (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) .

ومن ذلك كله يعلم أن السنة موضحة للقرآن ومبينة لمقاصده الكلية والجزئية .

الجواب الثانى : —

فأن أبيت الا أن تجعل الأحكام التى جاءت بها السنة زيادة عما فى القرآن من قبيل استقلال السنة بالتشريع فلا يضيرنا ذلك بعد ما نطق القرآن نفسه بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أنما هى طاعة لله عز وجل وأنه لاينطق عن الهوى فلو كان لايطاع الا فيما يوافق القرآن لم تكن له طاعة خاصة وقد قال تعالى (اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) كرر الفعل فى الآية الأولى وجعل طاعته فى الثانية طاعة لله أشارة الى ماذكرنا وأنه يجب طاعته مطلقا وأما قوله تعالى (لتبين للناس ما نزل اليهم) فلا يفيد قصره صلى الله عليه وسلم على البيان بل يستفاد من هذه الآية ومن الآيتين السابقتين انه يبين للناس كتاب الله وأنه اذا جاوز البيان الى غيره من الأحكام التى لم يتعرض لها القرآن لاينطق عن الهوى وقد صرح بهذا طائفة من علماء السلف فمن ذلك ما روى عن عبد الرحمن بن يزيد أنه رأى محرما عليه ثيابه فنهاه فقال ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى فقرأ عليه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وما روى عن طاوس أنه كان يصلى ركعتين بعد العصر فقال له ابن عباس اتركهما فقال انما نهى عنهما أن تتخذا سنة فقال ابن عباس قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر فلا أدرى أتعذب عليها أم

تؤجر لأن الله تعالى قال : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الآية وكذلك ما روى عن ابن مسعود حينما لعن الواشمة والمستوشمة وقد تقدم (الموافقات ٤ — ٢٤ الى ٤٨) .

هذا ونحن نرى أنه لاتخالف بين الجوابين على أصل الاعتراض فمن قال آن السنة لاتأتى بأحكام زائدة عما فى القرآن أراد أن القرآن اشتمل على جميع الاحكام اما بطريق التفصيل واما بطريق الاجمال ومن قال ان السنة تأتى بأحكام زائدة عما فى القرآن أراد بها الاحكام التفصيلية التى لم ينص عليها صراحة فى القرآن وبذلك يلتقى القولان عند نقطة واحدة .

بيان السنة للقرآن فى غير الأحكام . — يقع على ثلاثة أضرب :

الأول — مايرد موافقا لما فى القرآن فيكون مؤكدا له ولا يخلو مع ذلك عن شرح وبيان كحديث الخضر مع موسى عليه السلام فى البخارى وغيره فانه يوافق القصة المذكورة عنهما فى سورة الكهف .

الثانى — ما يرد مورد التوضيح والشرح ومثاله قول النبى صلى الله عليه وسلم : « يدعى نوح فيقال هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال من شهودك فيقول محمد وأمته قال فيؤتى بكم تشهدون أنه قد بلغ فذلك قول الله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » أخرجه البخارى والترمذى .

الثالث — ما يرد على طريق الاستقلال ومن أمثلته حديث جريج العابد وحديث الابرص والأقرع والأعمى وحديث الصخرة فهذه الأحاديث وما فى معناها مؤكدة للمقاصد التى جاء بها القرآن وحكمتها تنشيط المكلفين وتنبيه الغافلين .

السنة فى أدوارها المختلفة

الـــدور الأول

السنة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم

ويشتمل على أربعة مباحث : —

المبحث الأول : استعداد الصحابة رضى الله عنهم لحفظ السنـة ونشرها .

المبحث الثانى : مجالس النبى صلى الله عليه وسلم العلمية .

المبحث الثالث : كيف كان الصحابة يتلقون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع : البعوث والوفود وأثرها فى انتشار الحديث النبوى .

المبحث الأول

((استعداد الصحابة لحفظ السنة ونشرها))

كان العرب قبل البعثة المحمدية فى جهالة جهلاء وضلالة عمياء . بلغ بهم الجهل أن نحتوا من الحجارة اصناما آلهة يعبدونها من دون الله وبلغ بهم الضلال والقسوة أن كانوا يقتلون أولادهم خشية العار أو الفقر . وبلغت بهم الهمجية أن كانوا يشنون الغارات لأتفه الأسباب . الحمية الجاهلية بعض صفاتهم والعصبية القبلية متمكنة من نفوسهم يعاقرون الخمور ويتعاملون بالميسر كثيرا ماتنشب الحرب بينهم أعواما طوالا

حتى تأتى على الأخضر واليابس . لا حاكم يزجرهم ولا دين يردعهم . وبالجملة فقد كانوا فى فتن مدلهمة وظلمات بعضها فوق بعض حتى ضجت الجزيرة العربية من الحروب المتلاحقة واشتكت الارض الى ربها من هذه الدماء المسفوكة . وتشوقت النفوس الى من ينتشلها من ظلمات الحيرة وينقذها من أحضان الجهل والوحشية . وجعلوا يلتمسون الخلاص مما هم فيه فلا يستطيعون كالذى يبسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

فكان من رحمة الله بهم وبالانسانية جمعاء أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وهذا الرسول هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أشرف الناس نسبا وأكرم قريش أصلا ومحتدا . بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة الى الله سرا حتى لايفجأ القوم بها وهم على ما وصفنا غارقون فى جهلهم هائمون فى غيهم . فتبعه منهم أفراد قلائل لايتجاوزن اصابع اليد ثم جهر بالدعوة الى الله عز وجل فدخل فى الدين من علية القوم خلق كثير . دخلوا الاسلام على بينة من أمره واستمعوا الى كتاب ربهم وسنة نبيهم فخالطت بشاشة الايمان قلوبهم ، لاسيما وهم متعطشون الى ما ينقذهم من ظلمات الشرك ويهديهم الى سبل السلام فصادف الاسلام قلوبا مستعدة ونفوسا متلهفة متهيأة فتمكن منها كل التمكن وجرى الايمان فيهم مجرى الدم فى عروقهم . ذلك أنهم عرفوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذا الدين هو منبع سعادتهم ومعقد عزهم وسبب نهضتهم فعقدوا عليه خناصرهم وأحبوا رسول الله حبا يعلو على حب الآباء والأبناء وانكبوا على ماجاءهم به من القرآن يحفظونه وعلى ما حدثهم به من بيان للكتاب أو تشريع للأحكام فجمعوه فى صدورهم

وطبقوه على جميع أحوالهم . ثم كانت الهجرة الى المدينة فانفسح المجال لاستماع القرآن وحضور مجالس النبى صلى الله عليه وسلم .

علم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للسنة مكانها من الدين وأنها الركن الثانى فى بنائه القويم بعد الكتاب العزيز كما علموا وصية الله تعالى باتباعها وتحذيره الشديد من مخالفتها . وأن من فرط فى أمرها أو تهاون بشأنها فهو محروم ومن حفظها وعمل بها فهو سعيد مشكور .

ولم يخف عليهم أن القرآن العزيز رفع من شأن العلم والعلماء وحط من شأن الجهل والجهلاء فقال « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » وقال « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات » وحث على التفقه فى الدين وتبليغه الى الناس فقال « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

كما لم يخف عليهم الوعيد الشديد على كتمان العلم فى قوله تعالى « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » وكما جاءت الآيات القرآنية حاثة لهم على تعلم الدين وأحكامه ودرسه ونشره كذلك جاءت الأحاديث النبوية محببة اليهم حمل العلم والتفقه فى الدين محذرة لهم من كتمانه حاضة على تبليغه الى الناس فقال صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » متفق عليه « الدنيا ملعونة ملعون مافيها الا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » حسنه الترمذى « نضّر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع » صححه الترمذى « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى

الجنة » رواه مسلم « من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار » رواه ابو يعلى ورواته ثقات . والآيات والاحاديث فى هذا الباب كثيرة شهيرة .

ملكت هذه الآيات والاحاديث على الصحابة مشاعرهم وأخـذت عليهم البابهم وافعمت قلوبهم حبا لله ورسوله صلى الله عليـه وسلم والهبت نفوسهم نشاطا نحو العلم والعمل فلم يدخروا وسعا فى حفظ الأحكام والسنن وضحوا فى سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم .

والى جانب هذه الحمية الدينية استعداد فطرى ونشاط طبيعى هو استعداد الحافظة ونشاط الذاكرة وسرعة الخاطر وقوة الذكاء وكمال العبقرية .

فالصحابة عرب خلص أميون لايقرؤون ولا يكتبون فكل اعتمادهم على ملكاتهم فى الحفظ وقوة شأنهم فيه . واعتبر ذلك بحالهم فى الجاهلية فقد حفظوا أنسابهم ومناقبهم وأشعارهم وخطبهم وكثيرا ماكانت تقع بينهم المفاخرة بالأنساب والاحساب فلا يسعفهم غير اللسان يثيرون به ماحفظوه من أخبارهم وأخبار خصومهم مما يرفع من شأنهم ويحط من شأن أعدائهم . فكان كل امرىء منهم على مقدار حفظه وقـوة وعيه ترجمان قبيلته يرفع من قدرها ويتحدث عن مفاخرها وأحسابها والقوم من ورائه كأنهم سجل ملىء بالحوادث والأخبار وكتاب شحن بالتواريخ والآثار . ساعدهم حبهم للتفاخر بالاحساب والأنساب والتنابز بالمثالب والالقاب مع مارسخ فيهم من عصبية قبليه على اجادة الحفظ والضبط ونشاط فى الذاكرة لم يتوفر لأمة من الأمم .

وكأن الله تعالت قدرته هيأ هذه الامة العربية على هذا الاستعداد الهائل ارهاصا لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكانت هـذه الصدور

الحافظة مهدا لآى الذكر الحكيم وكانت هـذه القلوب الواعية أوعية لحديث النبى الكريم فاندفع هؤلاء الصحابة الأجلاء الى تلقى حديث رسول الله بنهم عظيم وشوق كبير واظهر الله بهم دينه على الدين كله وكان أمر الله قدرا مقدورا .

نعم تظاهر هـذان العاملان العامل الروحى والعامل الفطرى فأتى القوم بما لم تأت به أمة من يوم أن بعث الله تعـالى رسله الى الخلق فحفظوا كتاب ربهم وسنة نبيهم واتخذوا شريعته نبراسا فى أمر معاشهم ومعادهم وبلغوها الى الناس على وجهها غضة طرية .

المبحث الثانى

« مجالس النبى صلى الله عليه وسلم العلمية »

رأيت فيما سبق كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم يبين أحكام القرآن العزيز وضربنا لك الأمثال التى أوضحت وظيفته صلى الله عليه وسلم فى التبليغ والبيان . ولم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم مدرسـة مشيدة ولا معهـد للتعليم يجلس فيه الى أصحابه بل كانت مجالسـه العلمية كيفما اتفق فهو فى الجيش معلم وواعظ يلهب القلوب بوعظـه ويحمس الجنود بقوله وهو فى السفر مرشد وهاد وهو فى البيت يعلم أهله . وهو فى المسجد مدرس وخطيب وقاض ومفت . وهو فى الطريق يستوقفه أضعف الناس ليسأله عن أمر دينه فيقف . وهو على كل أحواله مرشد وناصح ومعلم . ألا أنه كثيرا ماكان يعقد لأصحابه المجالس العلمية بالمسجد حيث يجتمعون فيه فى أغلب الأوقات لأداء فريضـة الصلاة فكان يتخولهم بالموعظة تلو الموعظة والدرس تلو الدرس حتى لايملوا ويسأموا . روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة

علينا » وفى هذه المجالس كان صلى الله عليه وسلم يفيض على أصحابه من الكلم الطيب والعلم النافع والهدى الرشيد مايشرح صدورهم وينفعم قلوبهم . وكانوا يحضرون أولادهم مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه والتأدب بآدابه وكان عليه السلام كثيرا مايستفتى فيفتى أو يسأل فيجيب أو تقع أمامه الحادثة فيكشف عن حكم الله فيها أو تنزل عليه الآية من القرآن فيفصح عن مراد الله منها أو يقع من بعض الصحابة عمل لم يكن يعرف حكمه فيسكت ايذانا منه بأنه جائز فى الدين .

ولا تظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ملكا محجوبا عن رعيته أو سلطانا مترفعا عن الاختلاط بأفراد أمته . بل كان على عكس ذلك متقلبا بين ظهرانيهم يبلغ رسالة ربه ويعود مرضاهم ويشيع موتاهم ويفصل فى قضاياهم ويفض منازعاتهم ويقضى على اختلافاتهم وهم فى كل ذلك مقبلون عليه بآذان صاغية وقلوب واعية .

هذا ولم تكن الصحابة رضى الله عنهم فى حضور مجالسه العلمية سواء بل كان منهم من يلازمه ولا يتخلف عنه فى الحضر ولا فى السفر كما كان من أبى بكر وأبى هريرة رضى الله عنهما . وكان منهم من يتخلف عنه فى بعض الأوقات لقضاء مصالحه المعيشية كزراعة أو تجارة أو نحوها أو الخروج فى سرية الى غير ذلك . ومع ذلك فكانوا حريصين على مافاتهم من دروس النبى صلى الله عليه وسلم فاذا ماحضروا سألوا واستفسروا . وكان من الصحابة من يشتد به الحرص على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتناوب حضور مجالسه مع جار له يحضر هذا يوما وهذا يوما ثم يخبر كل منهما صاحبه عما سمعه فى يومه كما جاء ذلك فى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه كان هو وجار له من الأنصار يتناوبان مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخبر كل منهما صاحبه بما رآه أو سمعه .

أما من بعدت عليهم الشقة فكانوا اذا نزلت بهم نازلة وأشكل عليهم حلها فانهم يضربون أكباد الابل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليقفوا على حكم الله فيما عرض لهم من الحوادث وربما مكثوا فى أسفارهم الأيام والليالى ذوات العدد . يروى لنا البخارى فى صحيحه عن عقبة بن الحارث أنه أخبرته امرأة بأنها أرضعته هو وزوجه فركب من فوره — وكان بمكة — قاصدا المدينة حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لايعلم أنها أخته من الرضاع ثم أخبرته بذلك من أرضعتهما فقال له النبى صلى الله عليه وسلم . « كيف وقد قيل » ففارق زوجته لوقته .

علم النبى صلى الله عليه وسلم أن أصحابه سيخلفونه من بعده وسيقع على كاهلهم أمر الارشاد والتعليم فأتى فى دروسه التعليمية بأمور كان لها أكبر الأثر فى توجيه الصحابة وتعليمهم كيف يضطلعون بمهمة التعليم فيما بعد ولنذكر لك أمثلة من هديه التعليمى الذى كان منارا اهتدى به أصحابه رضى الله عنهم .

كان من هديه التعليمى عليه السلام أنه اذا سئل عما لايعلم يسكت منتظرا الوحى من الله بذلك . وكان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه اذا قال كلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه وكان من هديه عليه السلام أنه ربما طرح المسألة على أصحابه ليختبر ماعندهم من العلم وليشحذ أذهانهم للفهم . وكان اذا سئل عن مسألة فأجاب عنها فانه قد يفيض فى مسائل أخرى لها مناسبة بالمقام أو صلة بالجواب فيستطرد اليها ليفيد السائل والحاضرين علما جديدا وكان يتخولهم بالموعظة كراهة الملل حتى أن أصحاب ابن مسعود طلبوا منه أن يحدثهم كل يوم فأبى وقال انما تتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا

كراهة السآمة علينا . وكان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه بالعلم دون بعض مخافة الا يفهموا فيفتنوا . الى غير ذلك من الأمثلة التى اذا تتبعناها فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلعنا منه على خطة حكيمة فى توجيه الصحابة حتى كانوا أساتذة فى التعليم أمناء على أحكام الدين كما ستطلع عليه عند الـكلام على السنة فى الدور الثانى ان شاء الله .

المبحث الثالث

« كيف كان الصحابة يتلقون الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم »

لم يكن فى أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحسن الكتابة الا نفر قليل فقد كانت الأمية غالبة عليهم فكان اعتمادهم فى تلقى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم على استعدادهم فى الحفظ على ماسبق لك آنفا كما أنهم نهوا عن كتابة الحديث فى بدء الأمر خوف اختلاطه بالقرآن الكريم . وكان الصحابة يتلقون الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم اما بطريق المشافهة واما بطريق المشاهدة لأفعاله وتقريراته واما بطريق السماع ممن سمع منه صلى الله عليه وسلم أو شاهد أفعاله وتقريراته لأنهم لم يكونوا جميعا يحضرون مجالسه صلى الله عليه وسلم بل كان منهم من يتخلف لبعض حاجاته .

هذا ولما كان عدد الحاضرين للسماع من حضرة النبى صـلى الله عليه وسلم يختلف قلة وكثرة اختلف لذلك المروى عنه فبعضه بلغ درجة التواتر وهو مانقله عنه صلى الله عليه وسلم جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب وهذا نوعان متواتر لفظا وهو قليل من الاحاديث كحديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ومتواتر معنى وهو كثير ومن ذلك الأحاديث الواردة فىأحكام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم

والحج والبيوع والنكاح والغزوات مما لم يختلف فيه فرقة من فرق الاسلام . وبعضه لم يبلغ درجة التواتر وهو الذى يسميه العلماء « خبر الآحاد » .

كان الصحابة يحفظون الأحاديث عن ظهر قلب ويبلغونها للناس بطريق المشافهة الا ماكان من بعض أفراد قلائل كعبد الله بن عمرو بن العاص فقد أذن له النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابة الحديث عنه . روى الامام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو هذا أنه قال : « كنت أكتب كل شيء اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش فقالوا انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله بشر يتكلم فى الغضب والرضا . فامسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى الا حق » .

هذا ولاختلاف الصحابة فى معرفة الكتابة وعدم معرفتها وكثرة حضورهم مجالسه صلى الله عليه وسلم وقلة حضورهم اختلفوا فى تحمل الحديث وأدائه قلة وكثرة فكان منهم المقل ومنهم المكثر هذا ابو هريرة رضى الله عنه يقول فيما رواه عنه البخارى فى كتاب العلم « ما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب » .

وكما اختلف الصحابة فى صفة الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى كثرة المروى وقلته لاسباب أشرنا اليها كذلك اختلفوا فى فقه الحديث حسب اختلافهم فى الفهم والاستعداد الفطرى فلم يكونوا سواء فى معرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والمفسر ونحو ذلك الا أنهم كانوا كثيرا مايرجعون الى الرسول

صلى الله عليه وسلم عند مايقع الاختلاف بينهم فيصدر حكمه الفصل وقضاءه العــدل .

أثر النساء فى نشر الحديث : ـ

لم تكن مجالسه صلى الله عليه وسلم قاصرة على الرجال بل كان كثير من النساء يحضرن المسجد أيضا ويستمعن الى حديثه الشريف وفى الاحتفالات العامة كالاحتفال بصلاة العيد كن يخرجن جميعــا الى المصلى لاستماع الموعظة النبوية وكان النبى صلى الله عليه وســلم بعد أن يلقى خطبة العيد فى الصفوف الامامية للرجال ينتقــل الى صفوف النساء يتحدث اليهن ويعلمهن ألا ان المجالس النبوية بوجه عام كانت الغلبة فيها للرجال دون النساء لذلك جاء وفد النساء الى رسول اللهصلى الله عليه وسلم وطلبن اليه أن يجعل لهن يوما يعلمهن فيه فكان النبى صلى الله عليه وسلم يجيبهن الى ذلك . على أن هذه الدروس كلها من عامة وخاصة لم تكن قائمة بحوائج النساء الدينية فكثيرا ماكانت تتجدد لهن شئون لاسيما وهن حديثات عهد بالاسلام فكانت المرأة تقصــد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يعرض لها من أمر دينها ولا تستحى أن تسأله لعلمها أنه لاحياء فى التعلم وربما قدمت بين يدى سؤالها قولها « يارسول الله ان الله لايستحى من الحق » ثم تذكر حاجتها فتقول — كما جاء فى البخارى — مثلا (هل على المرأة من غسل اذا هى احتلمت وكثيرا ما يكون ذلك فى نساء الأنصار حتى امتدحتهن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم بقولها « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » أما من كان يغلب عليها الحياء منهن فكان لهــا من أمهات المؤمنين اعظم وسيط لدى رســول الله صلى الله عليه وســلم يستوضح لها عن جواب سؤالها .

أمهات المؤمنين يبلغن الحديث عن رسول الله

ولا ننس ما لزوجاته صلى الله عليه وسلم من فضل كبير فى تبليغ أحكام الدين ونشر السنن بين نساء المؤمنين لاسيما ماكان من عائشة رضى الله عنها التى كانت على مقدار عظيم من الذكاء والفهم فقد كانت تسأله صلى الله عليه وسلم وتناقشه فى بعـض المسائل التى قد تخفى عليها وتستوضح عن كثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية روى البخارى فى كتاب العلم عن ابن ابى مليكة أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت لاتسمع شيئا لاتعرفه الا راجعت فيه حتى تعرفه . وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال من حوسب عذب . قالت عائشة . أوليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حسابا يسيرا . قالت فقال : انما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك . ولعل من الحكم التى لأجلها أباح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم الزواج بأكثر من أربع قيـام هؤلاء الزوجات بالتبليغ عنه صلى الله عليه وسلم وبخاصـة فى الأمور التى لاتوجد منه صلى الله عليه وسلم بين اصحابه أو يستحى من فعلهـا بينهم ولا يمكن الاطلاع عليها لأحد غير أمهات المؤمنين رضى الله عنهن لذلك نجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعده اذا اختلفوا فى شيء من الأحكام كالغسل والحيض والجماع ونحوها يلجأون الى أمهات المؤمنين ويرجعون الى أقوالهن عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وبذلك يزول مابينهم من خلاف •

هذا ولا ريب فى أن نساءه صلى الله عليه وسلم كن على جانب عظيم من العلم فقد أمرهن الله تعالى بالاستقرار فى بيوتهن ومدارسة القرآن والسنة فى قوله « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » الى أن قال « واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » .

لذا كان لأمهات المؤمنين أثر فعال فى نشر السنة ولولاهن لضاعت أحاديث وأحكام ماكنا لنطلع عليها من غيرهن ولا سيما الافعال التى تقع بين النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه مما لايمكن لأحد الاطلاع عليها والوقوف على أحكامها .

المبحث الرابع

البعوث والوفود وأثرها فى انتشار الحديث النبوى

١ ـ بعوثه صلى الله عليه وسلم وأثرها فى نشر الحديث : ـ

بدأت الدعوة المحمدية سرا كما رأيت واستمرت على ذلك ثلاث سنين ثم أمر الله نبيه بأن يجهر بها بعد أن تكونت نواة صالحة من المسلمين . فما كان من قريش الا أن ناصبوه العداء واستمر الأمر على ذلك حينا من الزمان حتى دخل الأسلام كثير من أهل المدينة فأمرالله نبيه بالهجرة اليها فانتقل اليها مع أصحابه وأصبحت المدينة من ذلك الوقت مهبط الوحى وقاعدة الاسلام . غزا منها النبى صلى الله عليه وسلم أعداء الدين وحدث بها أكثر حديثه الا أن القتال كان حائلا دون دخول كثير من القبائل فى الاسلام كما كان مانعا من وصول الدعوة الى أطراف الجزيرة فما أن وقع صلح الحديبية بين النبى صلى الله عليه وسلم وأهل مكة حتى أمن الناس بعضهم بعضا وجالس بعضهم بعضا وتحدثوا فى شأن هذا الدين الجديد وفى ظل هذه الهدنة المباركة دخل كثير من العرب فى الاسلام فانتهز النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة وأرسل كتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وبعث بعوثه الى القبائل المسلمة لتعليمهم السنن والأحكام . فبعث منهم الى اليمن والى البحرين والى اليمامة والى حضرموت والى عمان وغير ذلك من بلاد العرب .

كانت هذه البعوث رسل رحمة وهداية للناس بما حملوه اليهم من القرآن والسنة اللذين هما حياة النفوس والأرواح كما كانت هذه البعوث عاملا مهما فى نشر حديث النبى صلى الله عليه وسلم بين المسلمين فى أنحاء الجزيرة . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخير لهذه المهمة من كان على جانب عظيم فى العلم بالقرآن والسنن وكان يزودهم بحديثه الشريف وارشاده الحكيم ويعلمهم كيف يدعون الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . أنظر الى قوله لمعاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن : « انك تأتى قوما أهل كتاب فقل لهم . ان الله فرض عليكم فى اليوم والليلة خمس صلوات فان هم أطاعوك فقل : ان الله فرض عليكم فى السنة صوم شهر رمضان . فان هم أطاعوك فقل : ان الله فرض عليكم حج البيت من استطاع اليه سبيلا فأن أطاعوك فقل . ان الله فرض عليكم فى أموالكم صدقة تؤخذ من أغنيائكم فترد فى فقرائكم » الخ وبطبيعة الحال كان المبعوث يبين أحكام كل ذلك بما سمعه من حديث النبى عليه الصلاة والسلام . وبسبب هذا الهدى النبوى آتت هذه البعوث ثمرتها الطيبة فى نشر الحديث الشريف بين ربوع المسلمين .

٢ ـ وفود القبائل اليه صلى الله عليه وسلم وأثر ذلك فى نشر الحديث : ـ

لما تم لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الانتصارات الباهرة والفتوح المتكاثرة وفرغ من غزوة تبوك جاءته الوفود من أطراف الجزيرة العربية تضرب اليه أكباد الأبل يحفزها الشوق الى لقاء هذا النبى الأمين . ليأخذوا الدين من منبعه الأول . فقد عرفت هذه القبائل أنه لا طاقة لها بحرب محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن انضوت قريش تحت لواء الاسلام . وقريش هى هى فى نظرهم لها الأمامة والسيادة فدخلت هذه القبائل فى الدين أفواجا ووفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم زرافات ووحدانا مصداقا لقوله تعالى « اذا جاء نصر الله

والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »

جاءت الوفود تترى الى رسول الله كما جاءته الكتب والرسل من الملوك تخبره بأسلامهم ومفارقتهم للشرك وأهله وكلما جاء وفد أكرمهم صلى الله عليه وسلم وأرشدهم وعرفهم أمر دينهم وبشرهم ان هم أطاعوا وحذرهم وأفهمهم بما لهم وما عليهم . وكان قدوم الوفود سنة تسع من الهجرة حتى سميت هذه السنة بسنة الوفود . ولم تكن هذه الوفود تأتى لنيل عطاء وان كان النبى صلى الله عليه وسلم يكرمهم ويعطيهم من مال الله الذى آتاه بل كانوا يأتون اليه فيسألون عن أحكام الأسلام أصوله وفروعه وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتحدث اليهم فى كل ذلك ويجيبهم على اسئلتهم ويخطب فيهم ويرشدهم ويعلمهم ويوصيهم بتقوى الله والسمع والطاعة .

وأن من يقرأ كتب السيرة النبوية يجد أن وفودا كثيرة جدا أقبلت عليه صلى الله عليه وسلم حتى كأنه لم تبق قبيلة من قبائل العرب الا قدم منها وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد عرف الصحابة رضى الله عنهم تلك الوفود وفدا وفدا وحفظوا ماحدثهم به النبى صلى الله عليه وسلم من حديث وما خطبهم من خطب وما بثه فيهم من مواعظ ونصائح وأحكام وسنن حتى أنك لتجد كتب الحديث والسير والمغازى مملوءة بذكر هذه الوفود وما كان لها من أثر عظيم فى نشر الدين والسنن سواء ماكان من هذه الوفود فى سنة تسع وما كان قبلها .

وهاك بعض الوفود التى أقبلت عليه صلى الله عليه وسلم : —

١ — وفد بنى سعد بن بكر — وكان وافدهم الى النبى صلى الله عليه وسلم هو ضمام بن ثعلبة وفد على رسول الله سنة تسع من الهجرة ولما

قدم المدينة وجد النبى صلى الله عليه وسلم جالسا بين أصحابه ولا يعرفه . فقال أيكم ابن عبد المطلب ؟ فأشاروا الى النبى صلى الله عليه وسلم فدنا منه وقال انى سائلك فمشدد عليك فى المسألة . قال سل عما بدالك . فقال يامحمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال صدق . فقال أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك . قال اللهم نعم . قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلى خمس صلوات فى كل يوم وليلة قال اللهم نعم . قال فأنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا قال اللهم نعم . قال وأنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا ؟ قال اللهم نعم . قال وأنشدك بالله آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع اليه سبيلا ؟ قال اللهم نعم . قال فأنا قد آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة » ثم رجع ضمام الى قومه فأسلموا جميعا .

٢ — وفد عبد القيس — لما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يارسول الله انا لانستطيع أن نأتيك الا فى الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحى من مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربع ونهاهم عن اربع . أمرهم بالأيمان بالله وحده . قال أتدرون ما الأيمان بالله وحده ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال . شهادة ألا اله ألا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس . ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت . وقال احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم » رواه البخارى فى كتاب الأيمان .

٣ — وفد تجيب — وكانوا ثلاثة عشر رجلا ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسر النبى صلى الله عليه وسلم بهم وأكرم مثواهم وقالوا يارسول الله انا سقنا اليك حق الله فى أموالنا فقال لهم

ردوها فاقسموها على فقرائكم . قالوا يارسول الله ماقدمنا عليك الا بما فضل عن فقرائنا . قال أبو بكر يارسول الله ماقدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد . فقال عليه السلام : أن الهدى بيد الله عز وجل ، فمن أراد به خيرا شرح صدره للايمان وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن . فازداد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم رغبة . وأرادوا الرجوع الى أهليهم فقيل لهم ما يعجبكم قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاقينا اياه وما رد علينا ثم جاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه فأرسل اليهم بلالا فأجازهم بأرفع ماكان يجيز به الوفود . ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل بقى منكم أحد قالوا غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنا . قال فأرسلوه فلما حضر قال يارسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتى قال وما حاجتك قال تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه . ثم انهم بعد ذلك وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى فى الموسم الا ذلك الغلام ، فسألهم صلى الله عليه وسلم عنه قالوا يارسول الله ما رأينا مثله قط ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله . لو أن الناس اقتسموا الدنيا مانظر نحوها ولا التفت اليها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله انى لأرجو أن يموت جميعا . فقال رجل منهم : أو ليس يموت الرجل جميعا يارسول الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « تشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا ، فلعل الأجل يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك » .

من هذا ترى أن الوفود كانت تقدم على رسول الله صلى الله عليه

وسلم لتنهل من معين العلم ولتتفقه فى دين الله وتقف على أحكام الاسلام ثم يرجعــون الى أوطانهم يعلمون من وراءهم من قبائلهم وعشائرهم . فهذه الوفود الى جانب البعوث التى كان يرسلها النبى صلى الله عليه وسلم الى القبائل والملوك كان لها اكبر الأثر فى نشر السنة النبوية فى أنحاء الجزيرة العربية .

حجة الوداع وأثرها فى نشر الحديث

هذا ولما استتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر فى الجزيرة قصد حج بيت الله الحرام وقد حج معه من المسلمين اربعون ألفا فألقى فيهم النبى صلى الله عليه وسلم خطبة عظيمة جمع فيها أحكاما غزيرة وسننا كثيرة ووضع من آثار الجاهلية ما أبطله الاسلام . ولكثرة الناس فى ذلك اليوم اتخذ ربيعة بن أمية بن خلف مبلغا عنه . وافتتح هذه الخطبة بعد حمد الله بقوله « أيها الناس اسمعوا قولى فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا » وهى خطبة طويلة بين للناس فيها مناسك الحج وكأنه عليه السلام كان يشعر بدنو أجله فلم يترك شيئا لم يكن بينه للناس الا بينه وأظهره . فكانت هذه الخطبة الحافلة فى هذا الجمع الحاشد من أكبر العوامل فى ذيوع السنن الكثيرة بين قبــائل العرب وعشائرهم وهى كمنهاج ختامى للدعوة الاسلامية عامة ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وقد نزل فى هذا الوقت قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا . »

الدور الثانى

السنة فى زمن الخلافة الراشدة . وفيه مباحث

المبحث الأول : وصف الحالة السياسية لهذا العهد .

المبحث الثانى : منهج الصحابة فى رواية الحديث .

أ — أمرهم بتقليل رواية الحديث .

ب — تثبتهم فى رواية الحديث .

جـ — منعهم الناس من التحديث بما يعلو على مدارك العامة .

المبحث الثالث : رد شبه واردة على منهج الصحابة فى رواية الحديث والعمل به .

المبحث الأول

وصف الحالة السياسية لهذا العهد

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يوص بالخلافة لأحد من أصحابه فوقع بين المهاجرين والأنصار النزاع فيمن تكون الخلافة أفى المهاجرين أم فى الأنصار . فاجتمعوا يوم السقيفة فأقنعهم ابو بكر بأن الخلافة فى المهاجرين أول الناس اسلاما . فتقدم عمر بن الخطاب وبايع أبا بكر الصديق وتوافد الناس على بيعته وتم الأمر وقضى على الخلاف فى مهده .

وما أن تقلد ابو بكر الخلافة حتى اشرأب النفاق بالمدينة وارتد كثير

من القبائل عن الاسلام ومنع بعضهم الزكاة . فنشط ابو بكر لحربهم وتأهب لقتالهم فقالوا نصلي ولا نؤدى الزكاة . فقال الناس اقبل منهم ياخليفة رسول الله فان العهد حديث والعرب كثير ونحن شرذمة قليلون ليس لنا طاقة بهم . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله . فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله . فقال ابو بكر . هذا من حقهـا لابد من القتال . وكان على رأيهم عمر بن الخطاب فلم يقبل منه أبو بكر وقال له كلمته المشهورة « أجبار فى الجاهلية خوار فى الأسلام يا ابن الخطاب . والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . ولو لم أجد أحدا أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى حتى يحكم الله بينى وبينهم وهو خير الحاكمين » فشرح الله صدورهم لرأى أبى بكر .

سار ابو بكر رضى الله عنه فى طريقه لايهن ولا يلين فقاتل بمن أطاعه من عصاه وضرب من أدبر منهم بمن أقبل حتى أصاخوا جميعا لحكم الله ودخلوا الأسلام طوعا وكرها وأدوا زكاة أموالهم الى بيت‌مال المسلمين . فانتظم أمر الأسلام وحمـد الناس لأبى بكر رأيه وعرفوا له مكانته وفضـله .

واستمر الأمر على هذا الحال زمن الشيخين وصدرا من خلافـة عثمان رضى الله عنهم هدوء واستقرار فى جميع نواحى الحياة سياسية كانت أم اجتماعية فاستكمل صغار الصحابة علومهم الدينية وتحمـل كثير من التابعين الحديث والأحكام وفتاوى الصحابة وأقضيتهم .

ثم لما أخذ الناس على عثمان رضى الله عنه أموراً قد يكون فيهـا معذورا دخل فى الدين قوم من اليهود التحفوا بالاسلام ولم يتبطنوه

وكان على رأسهم ذلك الطاغيـــة المدعو بعبد الله بن سبأ اليهــودى الحميرى . جعل هذا الخبيث ينفخ فى بوق الفتنة ويؤلب الناس على عثمان فى مختلف الأقطار حتى كان ماكان من قتل الخليفة فى بيته ظلما بتلك الأيدى الأثيمة . ومن ذلك الحين انفتح على المسلمين باب شر عظيم ودب فيهم داء الخلاف الذى أطاح برءوس الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما كاد الخليفة الرابع على بن ابى طالب يتولى الخلافة حتى قام معاوية يطالب بدم عثمان فوقعت بينهما حروب مزقت المسلمين وفرقت كلمتهم وانتهت بمعركة صفين التىكان على أثرها انشقاق اصحاب على الى خوارج وشيعة . فاستغل هذا النزاع طوائف من الأمم المغلوبة على أمرها من يهود وفرس وغيرهم وأخذوا يكيدون للاسلام ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

المبحث الثـانى

منهج الصحابة فى رواية الحديث

طالما كان النبى صلى الله عليه وسلم بين ظهرانى أصحــابه يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم كانوا سعيدين به فى أمر دينهم ودنياهم فلم يعد هناك خوف على حديث رسول الله ص من أعمال المنافقين ودجــل الكذابين . فالوحى ما دام يتنزل على نبى الله يفضح أمرهم ويكشف سرهم والسنة فى أمن من عبثهم وكيدهم « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم » كما أنه لم يكن هناك مجال لنقــد الحديث وروايته بدون الرجوع الى صاحب الرسالة فقد كانوا اذا جد بينهم خلاف لجأوا الى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم كما أمرهم الله بذلك « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » هذا عمر بن

الخطاب يسمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير مايقرؤها هو فيلببه بردائه ثم يأتي به الرسول ص ويقول له : هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فيأمر النبى صلى الله عليه وسلم هشاما بالقراءة ويقول هكذا أنزلت ثم يأمر عمر بالقراءة ويقول هكذا أنزلت ثم يقول ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ماتيسر منه . والحديث مروى فى البخارى وغيره الى غير ذلك من الأمثلة والحوادث التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقضى فيها على النزاع أو يصحح فيها الرواية عنه .

ومن ذلك نرى أن حياته عليه الصلاة والسلام كانت قاضية على الخلاف اذا نشب والشك اذا عرض بل والخاطر اذا هجس .

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعد هناك حارس للسنة الا صدور الصحابة ، فقد انقطع الوحى واشرأب النفاق وارتد كثير من العرب ومنع بعضهم الزكاة فلا نعجب اذن من منافق يملى عليه نفاقه أن يكذب على رسول الله ولا نعجب من بعض الاعراب — الذى يدعى أن رسالة محمد تنتهى بموته — أن يعبث بحديث رسول الله . ولكن أبا بكر وقف وقفة الحيطة والحذر فكما قلم أظفار المرتدين ومانعى الزكاة كذلك سد الباب فى وجوه الكذابين بما وضعه من قوانين الرواية . وجاء عمر من بعده سائرا على نهجه فأرهب الكذابين وخوف المكثرين واليك طرفا من تلك الأعمال الجليلة .

(ا) أمر الصحابة بتقليل الرواية

نظر الخلفاء الراشدون وتابعهم سائر الصحابة الى السنة الشريفة فالفوها كنوزا ثمينة فى صدور الذين أوتوا العلم فلم يشاءوا أن يعرضوها فى سوق الرواية لئلا يتخذ المنافقون من شيوع الحديث

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذريعة للتزيد فيــه وسلما لتزييف الحديث عن رسول الله ولئلا تزل بالمكثرين أقدامهم فيسقطوا فى هوة الخطأ والنسيان فيكذبوا على رسول الله من حيث لايشعرون كمـا كرهوا أن يشتغل الناس برواية الحديث وينصرفوا عن تلاوة القرآن ولما يتيسر حفظه لكثير منهم ، لذلك نجدهم قد أتفقوا من السنة بقــدر حسب ما يعن لهم من مسائل الفتوى والقضاء .

فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه — على كثرة سماعه من رسول الله ص — يقلل من رواية الحديث ، وهذا عمران بن حصين . وهــذا أبو عبيدة ، وهذا العباس بن عبد المطلب ، وغيرهم كلهم يقلون الرواية حتى ان سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة لم يرو له الا حديثان أو ثلاثة ، وهذا ابى بن عمارة لم يرو له الا حديث واحد فى المسح على الخفين .

وهذا أبو هريرة يمسك عن التحديث فى زمن عمر بن الخطاب مع أنه معدود فى المكثرين من الصحابة لرواية الحديث ولكنه اتباعا لسنة الشيخين فى التقليل من الرواية يكف عنها ثم لما طالت به الأيام واحتيج الى ماعنده من العلم حدث به وأظهره للناس . روى البخارى عن أبى هريرة أنه قال : ان الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان فى كتاب الله ماحدثت حديثا ثم يتلو قوله تعالى « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » حتى يبلغ قوله تعالى « وأنا التواب الرحيم » ان اخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق فى الأسواق وان اخواتنا من الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم . وان أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه ويحضر مالا يحضرون ويحفظ مالا يحفظون » وانما اشتد انكارهم على أبى هريرة لأنه صحب النبى

صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين وأتى من الرواية عنه مالم يأت به أحد من السابقين الأولين . فلما أخبرهم بأنه كان ألزمهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لم يشغله عن مجالسته تجارة ولا بيع ولا زرع ولا غرس فحفظ ما لم يحفظوا سكتوا عنه . ومع ذلك فقد كان ابو هريرة يمسك عن التحديث زمن عمر الذى كان شديدا على الرواة حذرا من خطر الاكثار . فقد قيل لأبى هريرة : أكنت تحدث فى زمن عمر هكذا ؟ قال لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته » .

كان عمر بن الخطاب يأمر الناس بتقليل الرواية وكان مهيبا عندجميع الصحابة روى الشعبى عن قرظة بن كعب أنه قال : خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى صرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا . فقال انكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امضوا وأنا شريككم . فلما قدم قرظة ، قالوا حدثنا ، قال : نهانا عمر بن الخطاب » وانما ذكرنا هذه الرواية على فرض صحتها والا فقد طعن فيها ابن عبد البر .

وهذا عبد الله بن الزبير يسأل الزبير : انى لاأسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان ، فيقول له : أما أنى لم افارقه ولكن سمعته يقول «من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » وهذا زيد بن أرقم يقال له حدثنا فيقول : كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد » والسائب بن يزيد يقول : صحبت سعد بن مالك من المدينة الى مكة فما سمعته يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثا واحدا » والشعبى يقول : جالست ابن عمر سنة فما سمعته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا » وكان أنس بن

مالك يتتبع الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « أو كما قال » حذرا من الوقوع فى الكذب عليه .

من هذه الآثار — وغيرها كثير — تجد أن الصحابة وقفوا على حذر فى شأن الحـديث فأقلوا من الرواية خشية أن يتخذها المنافقون مطية لأغراضهم الخبيثة ولغير ذلك مما سبق وهم مع ذلك واقفون عند قوله صلى الله عليه وسلم « اياكم وكثرة الحديث ومن قال عنى فلا يقولن الا حقا » (١) واقفون عند سنة الخلفاء الراشدين المهديين كما أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ».

(ب) تثبت الصحابة فى رواية الحديث

وكما أشار الصحابة بالاقلال من رواية الحديث وأمسكوا عن الاكثار منها كذلك ساروا على منهاج التثبت فى الراوى والمروى مستضيئين فى ذلك بكتاب الله مسترشدين بما تواتر أو اشتهر من سنة رسول الله . فأخذوا الحديث بحيطة بالغة وحذر شديد . فما اطمأنت قلوبهم اليـه من الحديث بأن كان متواترا أو مشهورا أو آحادا لم يكن فى رواته من يشك فى حفظه وضبطه قبلوه وعملوا به ولم يطلبوا عليه شهيـدا ولا دليلا . وما وقع فيه شك طلبوا عليه ظهيرا . وما لم تقم البينة على صدقه مما وقع فيه الشك أو كان مخالفا لكتاب الله ردوه على قائله .

ونحن ذاكرون لك طرفا من الروايات توضح ذلك .

١ — روى الحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ فى ترجمة ابى بكر الصديق قال : كان أول من احتاط فى قبول الأخبار ، فروى ابن شهاب عن قبيصة أن الجدة جاءت الى ابى بكر تلتمس أن تورث . قال ما أجد

---

(١) رواه أحمد والحاكم وابن ماجه

لك فى كتاب الله شيئا . وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا . ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس . فقال له هل معك أحد . فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك . فأنفذه لها ابو بكر رضى الله عنه .

٢ — وروى فى ترجمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال : وهو الذى سن للمحدثين التثبت فى النقل ، وربما كان يتوقف فى خبر الواحد اذا ارتاب روى الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن أبا موسى سلم على عمر من وراء الباب ثلاث مرات . فلم يؤذن له فرجع فأرسل عمر فى أثره فقال لم رجعت . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سلم أحدكم ثلاثا فلم يجب فليرجع » قال لتأتينى على ذلك بينة أو لأفعلن بك . فجاءنا أبو موسى منتقعا لونه ونحن جلوس . فقلنا ماشأنك فأخبرنا وقال فهل سمع أحد منكم فقلنا نعم كلنا سمعه فأرسلوا معه رجلا منهم فأخبره .

٣ — وروى الذهبى أيضا عن هشام عن أبيه عن المغيرة بن شعبة . أن عمر استشارهم فى أملاص المرأة — يعنى السقط — فقال المغيرة : قضى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة [١]. فقال له عمر : ان كنت صادقا فأت واحدا يعلم ذلك . قال فشهد محمد بن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به .

٤ — وروى الذهبى أيضا أن عمر قال لأبى — وقد روى له حديثا — لتأتينى على ما تقول بينه ، فخرج فاذا ناس من الأنصار ، فذكر لهم . قالوا قد سمعنا هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر أما أني لم أتهمك ، ولكن أحببت أن أتثبت .

---

(١) الغرة بضم الغين وتشديد الراء المفتوحة هى عند الجمهور ما بلغ نصف عشر الدية .

٥ — وفى ترجمة أمير المؤمنين على بن أبى طالب يروى الذهبى عن أسماء بن الحكم الفزارى أنه سمع عليا يقول : كنت اذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى به . وكان اذا حدثنى غيره استحلفته فاذا حلف صدقته . وحدثنى أبو بكر — وصدق أبو بكر — قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد مسلم يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلى ركعتين ثم يستغفر الله الا غفر الله له » .

٦ — وهذه عائشة أم المؤمنين ترد حديث رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج بظاهر قوله تعالى . (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وتقول : من زعم أن محمداً رأى ربه ليلة الأسراء فقد أعظم على الله الفرية . وهذا اجتهاد منها رضى الله عنها وقد خالفها بعض العلماء فى ذلك وتأولوا الآية على معنى لاتحيط به الأبصار وبذلك لاتتنافى الآية مع الحديث — وكما كان لعائشة رضى الله عنها نظرة فى متن الحديث حيث تنقده بعرضه على القرآن كذلك كان لها نظرة فى الراوى فكانت تختبر حفظه لتقف على مبلغ ضبطه للحديث . جاء فى الصحيحين عنها أنها قالت لعروة ابن الزبير . يابن أختى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج فالقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علما كثيرا . قال فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال عروة فكان فيما ذكر : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله لاينزع العلم من الناس انتزاعا ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم . ويبقى فى الناس رؤس جهال يفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون » قال عروة فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته قالت احدثك انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا ؟ قال عروة نعم . حتى اذا كان عام قابل قالت لى أن ابن عمرو قد

قدم فألقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذى ذكره لك فى العلم . قال فلقيته فسألته فذكر لى نحو ماحدثنى بهفى المرة الأولى . قال عروة فلما أخبرتها بذلك . قالت ما أحسبه الا قد صدق أراه لم يزد فيه شيئا ولم ينقص « ا ه من اعلام الموقعين (١ — ٤٣) .

فهذا من عائشة رضى الله عنها اختبار لحفظ عبد الله بن عمرو فأول مرة تشككت فى ضبطه ثم لما وجدته فى المرة الثانية لم يزد فى الحديث حرفا ولم ينقص وقد مضى على ذلك عام كامل علمت أنه حافظ للحديث جيد الضبط فصدقته وقبلت حديثه .

وهذه الآثار — وغيرها كثير — تدل دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا يتثبتون فى أمر الحديث ويزنون الراوى والمروى بميزان النقد العلمى الصحيح وهذا أمر طبيعى بعد أن لحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى فقد كان فى حياته يكفيهم هذه المهمة كما أشرنا من قبل .

(ج) منع الصحابة الرواة من التحديث بما يعلو على فهم العامة

تقدم لك الاشارة الى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخص بنوع من العلم من يرى عليه أثر النبوغ والفهم من الصحابة وكان يمنعهم من أن يحدثوا العامة بذلك خشية ألا يفهموه فيفتتنوا . روى البخارى فى كتاب العلم من صحيحه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان راكبا ومعاذ رديفه على الرحل فقال يامعاذ بن جبل . قال لبيك يارسول الله وسعديك . قال ما من أحد يشهد ألا اله الا الله صدقا من قلبه الا حرمه الله على النار . قال معاذ يارسول الله أفلا أخبر الناس فيستبشروا . قال اذن يتكلوا » . وأخبر بذلك معاذ عند موته تجنبا لاثم كتمان العلم .

وهذا عمر بن الخطاب يرد ابا هريرة — وقد أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يبشر الناس بمثل مافى حديث معاذ — ويقول ارجع

يا أبا هريرة ويدخل عمر من فوره على النبى صلى الله عليه وسلم يقول له : يارسول الله أنت قلت لأبى هريرة كذا وكذا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : نعم ، فقال عمر : لاتفعل فانى أخشى أن يتكل الناس فخلهم يعملون . وقد أقره النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال فخلهم » رواه مسلم فى كتاب الايمان . وروى فى مقدمة صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع » وذلك لأن تحديث العامة بكل شىء — ومعلوم أن عقولهم لاتهضم كل شىء — مدعاة الى تكذيبهم للمحدث فيما لايفهمونه وبذلك تضيع ثقتهم به ولعلهم ان لم يكذبوه وعملوا بما فهموا تركوا بعض الأحكام الشرعية وكان هو كالكاذب على الله ورسوله فقد صرفهم عن العمل بأحكام الدين بسبب تحديثهم بما يعلو على أفهامهم وكفى بذلك كذبا . بل نقول أن تحديث العامة بما يعلو على أفهامهم مدعاة لارتيابهم فى الدين نفسه ولهذا قال ابن عباس : « حدثوا الناس بما يعرفون . أتريدون أن يكذب الله ورسوله » .

هذا وقد سار الصحابة على هـذا الهدى النبوى فى ذلك العصر فامتنعوا عن التحديث بما لاتدركه عامة الناس خشية أن يفتنوا فيتركوا بعض الفرائض الدينية . يروى مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن مسعود أنه قال : « ما أنت محدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة » ويروى البخارى عن أبى هريرة أنه كان يقول « حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما احدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم » ويروى عن على أيضا « حدثوا الناس بما يعرفون . أتحبون أن يكذب الله ورسوله » وروى ابن عبد البر مثل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وما زال الصحابة والتابعون والأئمة من بعدهم يكرهون التحديث بما يكون مثار فتن وقلاقل بسبب قصور بعض الناس

فى الفهم أو استغلال أصحاب الأهواء والسلاطين ظاهر النصوص لتأييد بدعهم وتسويغ ظلمهم وغشمهم . ولقد أنكر الحسن البصرى تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة الى ماكان يفعله من المبالغة فى سفك الدماء ولا حجة له فى ذلك سوى تأويلاته الواهية . وهذا احمد بن حنبل يكره التحديث ببعض الأخبار التى يكون ظاهرها الخروج على الأمير . وهذا ابو يوسف يكره التحديث بالغرائب . وكان ذلك منهم رضى الله عنهم محافظة على سلامة الدين من أصحاب الأهواء وسلامة الأمة من أهل الشغب والفتن . فكثيرا ماتعلل المبطلون والاباحيون بظواهر أحاديث غير مرادة فتحللوا من أحكام الاسلام وخرجوا الى صريح الكفر من حيث يشعرون أو لايشعرون . وكثيرا مايوجد ذلك فى أقوام ينصبون أنفسهم دعاة للدين سواء أكانوا مغرضين أم غير مغرضين وصدق القائل : وآفة الأديان من جهل الدعاة . .

لذلك أمسك الصحابة عن التحديث بما يكون ذريعة للتقصير والتهاون بسبب قصور النظر أو يكون سلما لأهل الأهواء والبدع ومن هو على شاكلتهم حتى لا تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير [١] .

المبحث الثالث

رد شبه واردة على منهج الصحابة فى رواية الحديث والعمل به

رب قائل يقول : ان الصحابة كانوا يزهدون فى رواية الحديث بل ويرغبون عنها لأنهم ماكانوا يعملون الا بالقرآن وما اشتهر من السنن ثم يحكمون آراءهم فيما سوى ذلك ولهذا أشاروا بتقليل الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقل عنهم العمل بالرأى فى كثير من الحوادث التى كانت تعترضهم كما نقل عنهم أنهم ردوا بعض الأخبار

---

(١) فتح البارى (١ ــ ١٦٠)

وطلبوا البينة على صحة بعض آخر منها أو استحلفوا الرواة على أنهم سمعوها من النبى صلى الله عليه وسلم . فهذا منهم رغبة عن الرواية ورد للسنة الآحادية وتقديم للرأى على النص وهو خلاف ماعرف عنهم .

والجواب عن ذلك :

١ — ان أمرهم بتقليل الرواية انما كان خشية أن يحدث المكثر بما لم يحفظه لأن ضبط المقل أكثر من ضبط المكثر . كما كرهوا الاكثار لئلا يتخذه المغرضون من المنافقين مطية لأهوائهم فيدسوا فى الحديث ما ليس منه . ثم هناك أقوام لم يكونوا احصوا القرآن فخافوا عليهم الاشتغال بغيره وهو الأصل الأول فى الدين .

٢ — وأما طلبهم شاهدا على السماع أو استحلافهم الراوى عليه فلم يكن ذلك شأنهم المستمر بل كان يحصل منهم ذلك اذا ماارتابوا فى ضبط الراوى بدليل أنهم كانوا يقبلون أخبارا عن أفراد من الصحابة لم يروها غيرهم اذا ما اطمأنوا لحفظهم فقد قبل عمر رواية الضحاك بن سفيان « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب اليه أن يورث امرأة أشيم الضبابى من ديته » ولم يطلب منه بينة على ذلك . ورجع من « سرغ » لما بلغه أن الوباء نزل بالشام لحديث عبد الرحمن بن عوف ولم يوجد الحديث عند غيره من المهاجرين والأنصار ممن كانوا مع عمر ولم يطلب على ذلك بينة وعلى كرم الله وجهه يقول فى حديثه السابق : « وحدثنى ابو بكر وصدق ابو بكر » فلم يستحلفه لما كان صادقا عنده . وعمر يقول لأبى : اما أنى لم أتهمك ولكن أحببت أن أتثبت » الى غير ذلك .

٣ — واما أنهم كانوا يعملون بآرائهم ويتركون الحديث فهذا

ماترده الوقائع المتكاثرة عنهم والآثار المشتهرة على ألسنتهم . هذا عمر بن الخطاب يقول « اياكم والرأى فان أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها » ويقول « سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فان أصحاب السنن أعلم بكتاب الله » ويقول « تعلموا الفرائض والسنن كما تتعلمون القرآن » .

أما ماورد عنهم من الرأى فكان بعد أن تقبوا عن الحديث عند أصحاب رسول الله فلم يجدوا ثم اذا رأوا قالوا : « هذا رأينا فان كان خطأ فمنا ومن الشيطان وان كان صوابا فمن الله » . ثم اذا تبين لهم بعد ذلك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا عن رأيهم اليه وعملوا به . هذا ميمون بن مهران يحدث عن أبى بكر الصديق « أنه كان اذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه مايقضى به قضى به . وان لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان وجد فيها ما يقضى به قضى به . فان أعياه ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله قضى فيه بقضاء ؟ فربما قام اليه بعض القوم فيقولون قضى فيه بكذا وكذا . فان لم يجد سنة سنها النبى صلى الله عليه وسلم جمع رؤساء الناس فاستشارهم فاذا اجتمع رأيهم على شىء قضى به » قال : « وكان عمر يفعل ذلك فاذا أعياه أن يجد ذلك فى الكتاب والسنة سأل : هل كان ابو بكر قضى فيه بقضاء ؟ فان كان لأبى بكر قضاء قضى به والا جمع علماء الصحابة واستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على شىء قضى به » .

وهذا عمر أيضا يقول لشريح وقد بعثه على قضاء الكوفة :« انظر ماتبين لك فى كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا وما لم يتبين لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما لم يتبين لك فيه

السنة فاجتهد فيه برأيك » وهذا عبد الله بن مسعود يقول : « من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله فان لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى فيه نبيه صلى الله عليه وسلم . فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض فيه نبيه فليقض بما قضى به الصالحون فان لم يجد فى كل ذلك فليجتهد برأيه فان لم يحسن فليقم ولا يستحى » . والآثار فى الباب كثيرة جدا (أعلام الموقعين جـ ١ ص ٥١) و (حجة الله البالغة ١ — ١٢٩)

وكيف يتصور منهم العزوف عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آرائهم وهذا على كرم الله وجهه يقول لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه » وهذا ابن عباس رضى الله عنه ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وسهل بن حنيف ومعاوية وأبو بكر وعمر وعثمان كل هؤلاء يذمون الرأى ويشيرون باتباع السنن .

فمن هذه الآثار وغيرها ترى أن الصحابة كانوا وقافين عند الحديث رجاعين الى السنة عاملين بها معنيين بأمرها وان أشاروا بتقليل الرواية لغرض صحيح فلا ينبغى أن يفهم منه أنهم زاهدون فى السنن والا لنهوا عن الاكثار منها والاقلال . وقد سبق لك عرفان الصحابة بمكانة السنة فى الدين الأمر الذى جعلهم يعنون بها كل العناية وهم وان لم يدونوها كما دونوا القرآن لأمور سنذكرها فى مكانها فقد حفظوها فى صدورهم وضبطوها كل الضبط مع ماكانوا عليه من الاستعداد الفطرى فى الحفظ وسيلان الذهن .

وأما ماجاء من ردهم لبعض الأحاديث فكان منهم اما لضعف ثقتهم بالراوى ، واما لاطلاعهم على ناسخ أو معارض أقوى كما حصل من عائشة فى حديث رؤية الله ليلة المعراج وكما حصل من عمر فى رده حديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجعل لها نفقة

ولا سكنى بعد الطلقة الثالثة ، وأفتى بأن للمبتوتة النفقة والسكنى ، لما وجد من قوله تعالى « لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة » وقال : لاتترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لاندرى أصدقت أم كذبت أحفظت أم نسيت . الى غير ذلك من الأمثلة التى يكون للصحابة فيها العذر فيظن من لاعلم له بحقيقة الأمر أنهم لايعملون بالسنة وحاشاهم من ذلك .

الرد على من يزعم أن الصحابة كانوا لا يعتمدون على أخبار الآحاد

هذا وقد استدل فريق من الناس على أن أخبار الآحاد لايعتمد عليها فى أمر الدين بما ثبت من توقف الصحابة فيها وعدم عملهم بها بمجرد أن رويت لهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد عليهم جمهور العلماء بأن هذا التوقف انما كان لأمور طارئة فلا يلزم منه رد جميع أخبار الآحاد . على أن ما استدلوا به من ذلك أن صح زعمهم انما يدل على مذهب من يشترط العدد فى الرواة ولا يدل على مذهب من يشترط التواتر فى قبول الخبر . ثم نقول لهم ان هذه الآثار التى استندتم اليها لاتخرج عن كونها أخبار آحاد فكيف تستدلون بأخبار الآحاد على قولكم ان أخبار الآحاد ليست بحجة ؟ هذا تناقض ظاهر . ثم انه بالوقوف على جنس المعاذير فى رد الأخبار والتوقف فيها يزول هذا الأشتباه توقف النبى صلى الله عليه وسلم فى قول ذى اليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله ، فهذا منه صلى الله عليه وسلم لأحد أمرين : اما لأنه استبعد على ذى اليدين أن ينفرد بذلك دون الجمع الغفير فكان انفراده ذلك امارة على غلطه اذ الأقرب فى مثل ذلك جواز الخطأ على الواحد دون الجمع الكثير .واما لأنه أراد أن يعلم أصحابه وجوب التوقف فى مثل ذلك — وان كان ذو اليدين صادقا — لئلا يتخذوها سنة فيصدقوا الواحد مع سكوت الجماعة بدون توقف لاسيما والجماعة كانت حاضرة

الحادث . وقد توقف أبو بكر فى حديث المغيرة السابق لينظر هل الحكم مستقر أو منسوخ أو ليكون الحكم أوكد برواية غيره معه أو أظهر التوقف لئلا يكثر الأقدام على الرواية عن تساهل . فيجب حمله على شيء من ذلك فقد ثبت عن أبى بكر قطعا قبول خبر الواحد وترك الانكار على القائلين به . وأما توقف عمر فى حديث أبى موسى فى الاستئذان فقد كان مخافة أن يتقول بعض المنافقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيروى الحديث على حسب غرضه يدل على ذلك أن أبا موسى لما رجع مع أبى سعيد الخدرى الذى شهد له ، قال له عمر : أما أنى لم أتهمك ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويجوز للأمام أن يتوقف مع انتفاء التهمة لمثل هذه المصلحة .

كيف وهذه الآثار التى استندوا اليها — ان سلمنا دلالتها على زعمهم — قد عارضتها أخبار هى أشهر منها وأصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده . فقد تقدم لك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرسل الآحاد من الأصحاب الى الآفاق ويلزم الناس قبول أخبارهم عنه صلى الله عليه وسلم ولم يسمع أن أحدا رد خبر مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم . نعم كانوا يرسلون الوفود لمجرد التأكد من الدعوة وللتشرف برؤية النبى الكريم وللتزود من نصائحه الغالية . اهـ عن المستصفى باختصار وبعض زيادات .

هذا وقد سبق لك فى المقدمة الكلام على خبر الواحد والدليل على حجيته فارجع اليه ان شئت .

الـدور الثالث

السنة بعد زمن الخلافة الراشدة إلى نهاية القرن الأول

ويشتمل على ثمانية مباحث :

١ — وصف الحالة السياسية وظهور الفرق .

٢ — الخوارج ورأيهم فى الخلافة — أثر الخروج فى رواية الحديث .

٣ — الشيعة ومعتقداتهم — أثر التشيع فى رواية الحديث .

٤ — جهود الصحابة والتابعين فى جمع الحديث وروايته ومناهضتهم للكذابين من شيعة وخوارج وغيرهما .

٥ — كتابة الحديث وأول من دونه .

٦ — تراجم لبعض مشاهير الرواة من الصحابة — من هم الصحابة ؟

٧ — تراجم لبعض رواة الحديث من التابعين — من هم التابعون ؟

٨ — رد شبه على رواية الحديث وكتابته فى القرن الأول .

المبحث الأول

وصف الحالة السياسية وظهور الفرق

لما ولى أبو بكر الصديق الخلافة وجد من بعض القبائل نكث لحبل الدين ونزوع الى التحلل من أحكامه ، فمنع بعضهم الزكاة وارتد بعضهم

عن الاسلام زعما منهم أن الدين يموت بموت النبى المبعوث حتى قال شاعرهم ، والشعراء يتبعهم الغاوون :

أطعنا رسـول الله اذ كان بيننـا
فيا لهفنـا مابال دين أبى بكر
أيورثهـا بكرا اذا مات بعـده
فتلك لعمـر الله قاصمة الظهـر

ولكن أبا بكر رضى الله عنه وقف لهم وقفة البطل المغوار ، والقائد المحنك ، فقضى على الفتنة فى مهدها ، وأباد جراثيمها قبل أن يستفحل أمرها ، وأعاد الشاردين الى حظيرة الدين ، فظلت أعناقهم لحكم الله خاضعين . ومكث أبو بكر سنتين وبضعة أشهر نشر الاسلام فيها رايته على بلاد فارس والروم . وعنى رضى الله عنه بالقرآن فجمعه ، وبالحديث فاحتاط له . ثم اختار للخلافة عمر بن الخطاب فمد الفتوح طولا وعرضا ، وشرقا وغربا . فاستولى على الشام كلها وأخذ مصر وضم الجزيرة وبقى فى الخلافة عشرة أعوام وأشهرا لايطمع قوى فى حلمه ولا يقنط ضعيف من عدله ، بل ألزم القوى حده ، وحفظ للضعيف حقه . وعمـل على حفظ السنة من تقول المنافقين ، وأشار على الصحابة والبعوث بحفظ القرآن ، والاقلال من الحديث ، وهو فى كل أموره متمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مضى زمن عمر والمسلمون وحدة قوية وأمة فتية . فلما ولى عثمان رضى الله عنه زاد الفتوح وتوسع فيها ، وأمر بكتابة المصاحف ، وفرقها على الأمصار ، فقضى على خلاف كاد يفرق المسلمين .

مكث رضى الله عنه فى الخلافة اثنى عشر عاما ، قضى نصفها الأول

والناس فى رغد من العيش وسعادة وأمن ، ثم لما أخـذوا عليه أمورا وعابوا عليه سياسته فى توليته بعض قرابته انتهز هـذه الفرصة قوم من غير المسلمين ، أخذوا يذكون نار الفتنة ، ويلهبون شعور المسلمين ضد خليفتهم ، وقصدهم بذلك الكيد لهذه الأمة ، والعمل على قلب هذه الملة فأثاروا لذلك الغوغاء من الأمصار المختلفة حتى قتلوا خليفة المسلمين فى بيته . ومن ذلك الحين انصدع بناء الاسلام ، ودب الشقاق بين جماعة المسلمين ، فقد بايع الناس على بن أبى طالب ، ولـكن لم تصف له الخلافة يوما واحدا ولم تستقم له البلاد جميعها . فهذه الشام فى يد معاوية الذى قام يطالب بدم عثمان وامتنع عن بيعة على حتى يثأر للخليفة المقتول . فوقعت حروب طاحنة بين على ومعاوية أكلت كثيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهى الأمر بموقعة (صفين) التى آل أمرها الى التحكيم فرضيّه من أصحاب على جماعة وأنكره آخرون ، وبذلك رجعوا متخاصمين بعد أن جاءوا اخوانا متحابين .

انقسم المسلمون من ذلك الحين الى « خوارج » وهم الذين يعدون قبول التحكيم كفرا فحكموا بكفر على وأصحابه لقبولهم التحكيم . « وشيعة » وهم الذين شايعوا عليا وقبلوا التحكيم وأصبح لهم عقيدة فى الامامة خاصة بهم « وجمهور » وهم الذين لم يتلوثوا ببدعة الخروج أو التشيع . وكان منهم فريق مع على وفريق مع معاوية وفريق وقف على الحياد فلم يغمس يده فى تلك الفتنة أو يلوثها بهذه الدماء .

أصبح الخوارج خطرا على جيش على فاشتغل بحروبهم فكان ذلك قوة لمعاوية الذى كان فى أطوع جند . ثم أنه لم يطل الحال على ذلك حتى تطوع ثلاثة من الخوارج بقتل هؤلاء الثلاثة الذين كانوا سببا فى هذه المنازعات على ومعاوية وعمرو بن العاص فنجا من القتل عمرو ومعاوية

وأصيب خليفة المسلمين على كرم الله وجهه بطعنة من خارجى أثيم يدعى عبد الرحمن بن ملجم . وبقتل على اجتمع أهل الكوفة وبايعوا ابنه الحسن فمكث فى الخلافة ستة أشهر وأياما . ثم تنازل عنها لمعاوية على صلح أبرم بينهما حقنا للدماء وذلك سنة احدى وأربعين التى سميت بعام الجماعة لاجتماع الناس على معاوية . ولكن رغم تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة لم تخمد جذوة الشيعة ولم تهدأ ثورة الخوارج بل تغالى كل فريق فى رأيه واشتط كل حزب فى عقيدته حتى أصبح لكل طائفة منزع دينى خاص كان له أثره فى الحديث والفقه . وسنفرد لكل فرقة فصلا نبين فيه أشهر تعاليمها وعقائدها وآثارها فى الحديث فنقول : —

المبحث الثانى

الخوارج ورأيهم فى الخلافة

هذه الطائفة هى التى خرجت على على كرم الله وجهه لما أن قبل التحكيم . ومن عجيب أمرهم أنهم قبلوا التحكيم أولا وارتضوه ، فى حين أن عليا كرهه وأباه ، وحذر أصحابه عواقبه فلم يستجيبوا له .

مبدؤهم العام : —

كان من رأيهم أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر فاذا ما اختير الامام فليس لهأن يتنازل أو يحكم ، وأن الخلافة ليست فى بيت بعينه فهى ليست فى قريش وحدهم ولم يفرق الخوارج بين كافر وفاسق بل كل من تعدى حدود الله فهو فاسق والفاسق كافر لأن العمل عندهم جزء من الايمان فمرتكب الكبيرة فى نظرهم كافر .

اعترف الخوارج بصحة خلافة الشيخين أبى بكر وعمر لصحة

انتخابهما . وبصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى التى سار فيها سيرة الشيخين فلما آثر قرابته بالولاية نقموا عليه . كذلك أقروا بصحة خلافة على رضى الله عنه الى أن قبل التحكيم بينه وبين معاوية فى (صفين) فحكموا بكفره لأنه حكم الرجال فى دين الله ولا حكم الا لله مستندين الى قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وأنكروا على معاوية استبداده بالخلافة فهو فى نظرهم غاصب لها ، وكان من مذهبهم أن من تعاون مع معاوية ولم يبرأ من على وعثمان فهو كافر يستباح دمه . فعلى وشيعته ومعاوية وأعوانه وعثمان ومن لم يبرأ منه كل هؤلاء فى نظر الخوارج كفار تستحل دماؤهم .

والذى يظهر أن الخوارج فى مبدئهم كانوا قوما من الاعراب الجفاة الغلاظ الذين قال الله تعالى فى شأنهم « الاعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » فليس فيهم أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين استضاؤا بنور النبوة وفهموا القرآن على وجهه الصحيح . فلا عجب أن يغتر الخوارج بظواهر القرآن ولو كلفوا أنفسهم النظر فيه وحده لاهتدوا الى آيات تأمر بالتحكيم فالله تعالى يقول فى سورة النساء « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها أن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » فالتحكيم أمر مشروع والحكمان انما يحكمان حسب ماأمر القرآن العزيز « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » وأنما لم يرض على بالتحكيم أولا لأنه كان يرى الحق معه وأن طلب التحكيم أنما هو خدعة من معاوية وعمرو بن العاص ، يريدان بها توهين جيش على وتخدير أعصابهم ، لما رأياه من تفوقهم فى الموقعة ، فرفعوا المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله . ولو أن أصحاب على أطاعوه فى عدم قبول التحكيم

لتغير وجه التاريخ ولوقع معاوية وأهل الشام فى براثن الأسد ولكن أراد الله ما قد كان ولا راد لقضائه . قال العلامة ابن حزم فى كتابه الفصل (٤ — ١٥٦) « انما حكم على رضى الله عنه أبا موسى وعمروا ليكون كل منهما مدليا بحجة من قدمه وليكونا متخاصمين عن الطائفتين ثم حاكمين لمن أوجب القرآن الحكم له . واذ من المحال الممتنع الذى لا يمكن أن يفهم لغط العسكرين أو أن يتكلم جميع أهل العسكر بحجتهم فصح يقينا لا محيد عنه صواب على فى التحكيم والرجوع الى ما أوجبه القرآن وهذا الذى لا يجوز غيره ولكن أسلاف الخوارج كانوا أعرابا قرؤا القرآن قبل أن يتفقهوا فى السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء لا من أصحاب ابن مسعود ولا من أصحاب عمر ولا أصحاب على ولا أصحاب عائشة ولا أصحاب أبى موسى ولا أصحاب معاذ بن جبل ولا أصحاب أبى الدرداء ولا أصحاب سلمان ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر ، ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضا عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها ، فظهر ضعف القوم وقوة جهلهم » . أ هـ .

استحل الخوارج قتال جمهور المسلمين وقتلهم فحاربوا خلفاء بنى أمية وظلوا شجى فى حلق الدولة الأموية طيلة أيامها يقاتلونها فى شجاعة نادرة حتى أوشكوا أن يقضوا عليها . واستمر المهلب بن أبى صفرة ينازلهم الحروب وهم مستبسلون فى حربه لايفترون عنها حتى أروه الأهوال . واستمروا على ذلك حتى جاءت الدولة العباسية فناوءوها فى أول أمرها ولكن أطاحت بهم تلك الحروب الطويلة فخمدت جذوتهم وانكسرت شوكتهم وأراح الله المسلمين من شرهم .

فقـه الخوارج :

كان جهلهم بالحديث وعدم تحملهم له عن غيرهم لأنه متهم فى نظرهم سببا فى أن فقههم جاء مخالفا لأحكام الشريعة الاسلامية بل منه ماجاء مخالفا لنصوص القرآن الكريم . فمنهم من يرى أن التيمم جائز ولو على رأس بئر ومنهم من يرى أن الواجب من الصلاة انما هو ركعة واحدة بالغداة وأخرى بالعشى . ومنهم من يرى الحج فى جميع شهور السنة . ومنهم من يبيح دم الأطفال والنساء ممن لاينتمى الى عسكرهم . ومنهم من أباح نكاح بنات البنات وبنات البنين مما يدل على جهل عميق حتى بالقرآن الكريم وأكثر ذلك أتاهم كما قلنا من أنهم لايعتـدون برواية جمهور المسلمين وكيف يأخذون دينهم عن قـوم هم كفار فى نظرهم وانما يعتمدون ماروواه لهم أئمتهم وهم كما قلنا خلو من العلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل خلو من فهم أحكام القـرآن على وجهها الصحيح . ثم لا يغيب عن البال أن هذا الحكم لا يسرى على جميع أفراد الخوارج بل قد وجد منهم فيما بعد أفراد وأئمة تفقهوا فى الدين ورووا الحديث واعتمدهم كما قال ابن الصلاح فى مقدمته بعض أئمة الحديث كالبخارى فقد احتج بعمران بن حطان وهو من الخوارج لا سيما اذا علمت أن الخوارج يحكمون بكفر من يكذب لأن مرتكب الكبيرة كافر فى نظرهم والكذب من الكبائر .

الخوارج ووضع الحـديث :

هذا ومع أن الخوارج يحكمون بكفر الكاذب فقد وجد من بعضهم الوضع فى الحديث والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتأييد

مذاهبهم الباطلة حتى تروج لدى أتباعهم فابن الجوزى فى مقدمة كتاب الموضوعات يروى عن ابن لهيعة أنه قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب ورجع فجعل يقول : ان هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فانا كنا اذا هوينا أمرا صيرناه حديثا وهذا عبد الرحمن بن مهدى يقول فيما نسبوه الى النبى صلى الله عليه وسلم من قولهم « اذا أتاكم الحديث عنى فاعرضوه على كتاب الله فان وافق كتاب الله فأنا قلته . . . الخ » : أن الخوارج والزنادقة وضعوا ذلك الحديث . وهذا ليس ببعيد من قوم وقفوا عند ظواهر الكتاب وردوا الحديث اذا جاء من غير من ينتمون اليه . الا أن وضع الخوارج للحديث لم يكن بالكثرة التى جاءت عن الشيعة وذلك لأمور :

١ — أن الخوارج كان من مذهبهم تكفير الكاذب وذلك مما يجعل الكذب فيهم قليلا .

٢ — أنهم كانوا لبداوتهم وجفاء طبعهم وغلظتهم غير مستعدين لقبول أفراد من الأمم الأخرى كالفرس واليهود الذين اندسوا فى الشيعة ووضعوا كثيرا من الأحاديث .

٣ — كان عماد الخوارج فى محاربة خصومهم انما هو أسلحتهم وقوتهم وشجاعتهم وكانوا مع ذلك صرحاء لايعرفون التقية التى استخدمها الشيعة . لذلك تراهم لم يلجأوا الى الكذب لانتقاص أعدائهم لأنهم فى نظرهم كفار وليس بعد الكفر عيب ينتقص به صاحبه فلم يبق سوى السيف يعملونه فى رقابهم من غير مداهنة ولا مداجاة .

فكل هذه العوامل كان لها أثر فى تقليل الكذب فى الحديث من الخوارج بالنسبة الى غيرهم من الفرق الأخرى . ومع ذلك لم يعدموا أفرادا منهم اصطنعوا الأكاذيب واختلقوا الأحاديث كما رأيت .

المبحث الثالث

الشـــيعة ومعتقـــداتهم

لم يوص النبى صلى الله عليه وسلم لعلى ولا لغيره بالخلافة ولم يرد عنه فى حديث صحيح أنه عين عليا للخلافة . كما أنه لم يرد من طـريق صحيح أن عليا ادعى شيئا من ذلك ولو كان عنده فى ذلك شيء لذكره للصحابة الذين كانوا لايتوقفون فى انفاذ وصية نبيهم صلى الله عليـه وسلم . بل على عكس ذلك فقد بايع على أبا بكر بالخلافة كما بايع عمر ثم عثمان رضى الله عنهم .

كانت الفكرة الأولى فى التشيع لعلى أن جماعة من الصحابة يرون بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الخلافة ميراث أدبى لعلى بن أبى طالب وأنه أولى بها لعدة أمور منها أنه أقرب عاصب لرسول الله بعد عمه العباس ، ومنها سبقه الى الاسلام ، وشهوده بدرا وغيرها من المشاهد ، ومنها كونه زوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنها مزاياه الخلقية والعلمية فقد كان ذا شجاعة وقوة وعبقرية قضائية نادرة حتى قيل « قضية ولا أبا حسن لها » أما عمه العباس فقد تأخر اسلامه الى فتح مكة وشهد بدرا الى جانب المشركين ولم تتوفر لديه تلك المزايا . الا أن أنصار على لم يظهروا برأيهم هذا محافظة على وحدة المسلمين فلم يتأخروا عن بيعة أبى بكر والخليفتين من بعـــده فلما وقعت الفتنة بقتل عثمان كان أنصار على أول من ألح عليه فى تولى الخلافة . ثم لما قام معاوية يطالب بدم عثمان ووقعت بينه وبين على حروب انتهت بمعركة « صفين » على ما سبق رأينا أن فكرة التشيع لعلى تلبس ثوبا

جديدا وينضم اليها كثير من الزنادقة وأرباب الأهواء والمنافقين بقصد الأفساد فى الدين ويظهر على لسان هؤلاء الذين عرفوا بالشيعة فيما بعد أن الخلافة حق شرعى لعلى استحقه بوصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أجل ذلك كانوا يطلقون عليه اسم (الوصى) وأن الخلافة من بعده حق لبنيه من أخرجها عنهم فهو غاصب ظالم . وقد حدا بهم هذا الى انتقاص الشيخين أبى بكر وعمر لأنهما غصبا عليا حقه وقد تولوا الحسن ثم الحسين وبعد مقتل الأخير اختلفوا لمن تكون الخلافة من أولاد على فبعضهم جعلها فى أكبر أولاده فتولوا محمد ابن الحنفية وبعضهم جعلها فى أولاد فاطمة فتولوا بعد الحسين ابنه عليا زين العابدين . وبعد وفاته تولوا ابنه محمدا الباقر . وبعد وفاة الباقر انقسموا فمنهم من تولى زيد بن على وهم المعروفون بالزيدية . ومنهم من تولى جعفرا الصادق ابن محمد الباقر . الا أن الزيدية كانت أعدلهم رأيا وأخفهم غلوا فانهم لم يتبرأوا من الشيخين وكانوا يقولون أن الخلافة فى أولاد على من فاطمة . والامام فى نظرهم يتعين بالوصف لا بالاسم كما يقول أتباع جعفر الصادق . فمن استكمل صفات الأمامة من أولاد على وجبت عليهم نصرته . وعلى الجملة فقد افترقت الشيعة ثلاث فرق (الكيسانية) وتولوا محمد ابن الحنفية . و (الامامية الجعفرية) وتولوا جعفرا الصادق . و (الامامية الزيدية) وتولوا زيد بن على بن الحسين .

هذه هى أشهر فرقهم وهناك فرق كثيرة منهم لايهمنا سردها ولكنا نشير الى بعض عقائد الشيعة بوجه عام فنقول : —

من عقائد الشيعة

أولا — الرجعة . يعتقد أصحاب هذه العقيدة أن عليا لم يمت بل هو حى مختف وسيعود فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . وبعضهم

يجعل ذلك لأمامهم من أولاد على كالكيسانية الذين اعتقدوا أن محمد بن الحنفية حى بجبال رضوى عن يمينه أسد وعن يساره نمر تحدثه الملائكة يأتيه رزقه غدوا وعشيا ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا .

ثانيا — النبوة . ادعى بعض فرق الشيعة النبوة لعلى بعد النبى صلى الله عليه وسلم وبعضهم يقول أن جبريل أخطأ فى النزول بالرسالة على محمد وانما هى لعلى . وبعض هؤلاء يعتذر عن جبريل بأن محمدا يشبه عليا وبعضهم ينحى عليه باللائمة ويكفرونه .

ثالثا — الألوهية . ذهبت فرقة من الشيعة الى تأليه على . وهم أصحاب ابن سبأ الحميرى ويقال انهم أتوا عليا فقالوا له : أنت هو ، فقال لهم على : وما هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر وأمر بنار فأحرقهم . ومنهم فرقة ادعت الألوهية لمحمد صلى الله عليه وسلم .

رابعا — التقية . وهى المداراة والمداجاة . فكانوا يظهرون الطاعة لمن بيدهم الأمر ويخفون عنهم أمر امامهم المختفى فى زعمهم ويعملون على نشر دعوتهم فى الخفاء حتى اذا ماكثر أنصارهم قلبوا ظهر المجن للدولة الحاكمة وشهروا عليها السلاح وهم يعتقدون أن الأخذ بالتقية جزء من الدين ويتكلفون لاثباتها تأويلات باطلة لبعض الآيات كقوله تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » أى بما صبروا على التقية .

أثر التشيع فى الحديث النبوى

انك اذا تأملت أيها القارىء فى كثير من عقائد الشيعة لاتتردد فى الحكم بكفر كثير منهم فمن يقول بحلول البارى فى على وغيره ومن يقول بنبوة على بعد محمد صلى الله عليه وسلم ومن يتأول القرآن على غير

تأويله ويقول أن له سبعين بطنا . لاشك فى أن جميع هؤلاء كفرة مارقون من الدين مروق السهم من الرميـــة . وليس لدى هؤلاء الدعاة دعاة الضلال من حجة سوى ما يزعمونه من الالهام . والالهام ماكان حجــة عند غير الأنبياء فى تقرير حقيقة من الحقائق فان للخصم أن يدعى الالهام فى اثبات النقيض وابطال ماذهبوا اليه اذ ليس الهامهم بأولى من الهام غيرهم . أما الميزان الصحيح فى تحقيق الشرائع واثبات العقائد فهو العقل السليم والمنطق المستقيم والنقل الصحيح عن النبى المعصوم الذى ثبتت نبوته بالأدلة القاطعة والمعجزات الباهرة .

التشيع ستار لأعداء الإسلام

ويقينى أن التشيع كان ستارا احتجب وراءه كثير من أعداء الاسلام من الفرس واليهود والروم وغيرهم ليكيدوا لهذا الدين ويقلبوا نظــام هذه الدولة الاسلامية فقد كان الفرس يزعمون أنهم الأحرار والسادة ، وأن ماسواهم من الأمم عبيد وخدم وكانت لهم الدولة من قديم الزمان ، فلمــا بدل الله عزهم ذلا وصــير ملكهم نهبــا على يد العــرب الذين كانوا فى نظرهم أقــل الأمم خطرا ، كبرت عليهم المصيبة وتعاظمت فى نفوسهم البلية فلم يطيقوا الخضوع للدولة الأسلامية وأخذوا يعملون على أسقاطها وتوهين شأنها حتى يعود اليهم مجــدهم الضائع . ماذا يصنعون وقد تبين لهم فى الحروب أن المسلمين أصلب عودا منهم وأقوى بأسا وأشد شكيمة ؟

أخذوا يتحسسون أبواب الضعف عند المسلمين فلم يجدوا بابا أنجع لهم من الحيلة والخداع . فأظهر جماعة منهم الأسلام وانضموا الى أهل التشيع مظهرين محبة أهل البيت وسخطهم على من ظلم عليا رضى الله

عنه . ثم أخذوا يسلكون بهم مفاوز الفتن والمهالك حتى أبعدوا كثيرا منهم عن التدين الصحيح بما بثوه فيهم من العقائد الزائفة التى يدور معظمها على هدم قواعد الدين والتحلل من تعاليم الاسلام وأحكامه . وأصل هذه الفتنة على ماذكر المؤرخون رجل يهودى يدعى عبد الله بن سبأ أظهر الاسلام وغلافى حب على حتى زعم أن الله تعالى حل فيه . وأخذ يؤلب الناس على عثمان رضى الله عنه . ومن هذه الأصول الملعونة — على حد تعبير ابن حزم — حدثت طائفتا الاسماعيلية والقرامطة اللتان تجاهران بترك الأسلام جملة وتقولان بالمجوسية المحضة .

انهالت هذه الكتائب الهائلة على الاسلام فاجلبت عليه أول الأمر بخيلها ورجلها فردتها جيوش المسلمين مذمومة مدحورة . فالتمسوا الكيد له عن طريق الحيلة فوجدوا أمامهم القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى تكفل الله سبحانه بحفظه . فجاءت شبههم نحوه يفضحها ضوء الذبالة أما التغيير والتبديل فلم يجدوا اليهما من سبيل . وأما التأويل والرمز كقولهم السماء محمد والأرض أصحابه والصلاة هى دعاء الامام ونحو ذلك من سخافاتهم فيمجها الذوق السليم . ولما فشلوا أمام القرآن وجهوا همهم نحو السنة النبوية فوجدوا مجالا عظيما للدس والقاء الأكاذيب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من أكاذيب الشيعة

أخذ هؤلاء المتشيعون أعداء الاسلام يصنعون الأحاديث فى أغراض شتى حسب أهوائهم ونحلهم . فمن ذلك أحاديث وضعوها فى مناقب على يرفعون من قدره وأخرى وضعوها فى الحط من شأن معاوية وبنى

أمية . وكتب الموضوعات طافحة بهذه الأكاذيب ونحن نذكر لك بعضا منها على سبيل المثال ، فمن ذلك ماذكره السيوطى فى اللآلىء المصنوعة (جـ ١ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٧) .

(من مات وفى قلبه بغض لعلى بن أبى طالب فليمت يهـوديا أو نصرانيا) و (ياعلى أخصك بالنبوة ولا نبى بعدى . وتخصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش أولهم ايمانا بالله وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله) الخ (ستكون فتنة فأن أدركها أحد منكم فعليه بخصلتين كتاب الله وعلى بن أبى طالب .و فى آخره وهو خليفتى من بعـدى) (ان لكل نبى وصيا ووارثا وان وصيى ووارثى على بن أبى طالب) (مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم المرض الذى توفى فيه . وكانت عنده حفصة وعائشة فقال لهما : أرسلا الى خليلى فأرسلتا الى أبى بكر فجاء وسلم ودخل وجلس فلم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم حاجـة ثم قام فخرج ثم نظر اليهما ثم قال أرسلا الى خليلى فأرسلتا الى عمر فجاء فسلم ودخل ولم يكن للنبى حاجة فقام وخرج . ثم نظر اليهما فقال أرسلا الى خليلى فأرسلتا الى على فجاء فسلم فلما جلس أمرهما فقامتا . فقال ياعلى ادع بصحيفة ودواة . فأملى وكتب على وشهد جبريل ثم طويت الصحيفة . قال الراوى فمن حدثكم أنه يعلم مافى الصحيفة الا الذى أملاها أو كتبها أو شهدها فلا تصدقوه) الى غير ذلك من الروايات المكذوبة التى تثبت النبوة لعلى طورا والخلافة والوصية بها طورا آخر وعلى حسب عقائد الوضاع وآرائهم .

الإمام على يفند بعض أكاذيب الشيعة

ويظهر أن أمر الوصية من النبى لعلى بالخلافـة كان شائعا على ألسنة هؤلاء القوم فى زمن على بن أبى طالب . يدلنا على ذلك سؤال

بعض الصحابة له عن ذلك وسؤال غيرهم أيضا وجواب على كرم الله وجهه بأنه لم يكن من النبى صلى الله عليه وسلم شيء من ذلك . فقد روى البخارى فى كتاب العلم عن أبى جحيفة الصحابى أنه قال ، قلت لعلى : هل عندكم كتاب قال لا (وفى رواية كتاب الجهاد : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة) الا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو مافى هذه الصحيفة . قال قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر . اهـ فأنت ترى أبا جحيفة يسأل عليا عن شيء خصهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسرار الوحى . وما سأل هذا السؤال الا لأنه سمع لغطا من الشيعة حول الوصية والخلافة التى يدعونها لعلى فنفى ذلك على نفيا باتا وأقسم على ذلك ثم استثنى أشياء لا تمت الى معتقدات الشيعة بصلة . وقد جاء هذا الحديث بروايات عدة فى بعضها زيادات وليس فيها أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى لعلى بشيء أو خصه من اسرار الوحى بشيء مما تزعمه الشيعة (فتح البارى فى باب كتابة العلم ١ — ١٨٢) .

ومما يدل على ذلك أيضا ما رواه ابن عساكر عن الحسن أنه قال لما قدم على البصرة قام اليه ابن الكواء وقيس بن عبادة فقالا له : ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت فيه تتولى على الأمة تضرب بعضهم ببعض . أعهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهده اليك فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ماسمعت فقال : أما أن يكون عندى عهد من النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فلا . والله لئن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه . ولو كان عندى من النبى صلى الله عليه وسلم عهد فى ذلك ماتركت أخاتيم بن مرة وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ولقاتلتهما بيدى ولو لم أجد الا بردى هذا . ولكن رسول الله

صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة مكث فى مرضه أياما وليالى يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلى بالناس وهو يرى مكانى ثم يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر يصلى بالناس وهو يرى مكانى . ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبى بكر فأبى وغضب وقال : « أنتن صواحب يوسف . مروا أبا بكر يصلى بالناس » فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم نظرنا فى أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضيه نبى الله لديننا . وكانت الصلاة أصل الاسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلا لم يختلف عليه منا اثنان — الى أن قال — فلما قبض تولاها عمر فأخذها بسنة صاحبه وما يعرف من أمره فبايعنا عمر ولم يختلف عليه منا اثنان . ثم قال : فلما قبض تذكرت فى نفسى قرابتى وسابقتى وسالفتى وفضلى وأنا أظن ألا يعدل بى . ولكن خشى ألا يعمل الخليفة بعده ذنبا الا لحقه فى قبره فأخرج منها نفسه وولده ولو كانت محاباة منه لآثر بها ولده . فبرىء منها الى رهط من قريش ستة أنا أحدهم . فلما اجتمع الرهط ظننت الا يعدلوا بى . فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا ثم أخذ بيد عثمان بن عفان وضرب بيده على يده فنظرت فى أمرى فاذا طاعتى قد سبقت بيعتى واذا ميثاقى قد أخذ لغيرى فبايعنا عثمان فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه فى جيوشه وكنت آخذ اذا أعطانى وأغزو اذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى . فلما أصيب نظرت فى أمرى فاذا الخليفتان اللذان أخذاها بعهد رسول الله اليهما بالصلاة قد مضيا وهذا الذى أخذ له الميثاق قد أصيب فبايعنى أهل الحرمين وأهل هذين المصرين . فوثب فيها من ليس مثلى ولا قرابته كقرابتى ولا علمه كعلمى ولا سابقته كسابقتى وكنت أحق بها منه . اهـ من تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١١٩ .

فهذا الأثر أن صح يقضى على أوهام الشيعة فى الوصية ويبين لنا بوضوح أن أبا بكر وعمر لم يكونا غاصبين للخلافة كما يقولون وأن عثمان لم يكن متجنيا على على فى أخذه للخلافة . وقد عضدت هذه الرواية رواية البخارى السابقة وبهما وضح الحق لذى عينين .

بعض الشيعة يتخذ من الكذب فى الحديث

دعاية لأغراضه الدنيوية

رأيت كيف أن الشيعة وضعوا الأحاديث وكذبوا على رسول الله لتأييد أغراضهم الدنيئة وأكثر من هذا كان التشيع تكأة من يطلب السلطان . فهذا هو المختار بن أبى عبيد الذى كان أولا خارجيا ثم زبيريا يتبع عبد الله بن الزبير ثم شيعيا كيسانيا يدعو بالامامة لمحمد بن الحنفية يستغل هذه الدعوة لنفسه ويختلق الأحاديث فقد أثر عنه أنه لما خرج بالكوفة على عبد الله بن الزبير قال لرجل من أصحاب الحديث : ضع لى حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كائن بعده خليفة يطالب له بترة ولده وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخادم ، فقال له الرجل : أما عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا . ولكن اختر من شئت من الصحابة وحط لى من الثمن ماشئت قال : عن النبى صلى الله عليه وسلم أوكد والعذاب عليه أشد (١) .

تمويه الشيعة بوضع الأسانيد المزيفة

اشتغل الشيعة بالحديث وسمعوا من الثقات وعرفوا الأسانيد الصحيحة ثم وضعوا عليها الأحاديث التى تتفق وعقيدتهم وأضلوا بها كثيرا فكان منهم من يسمى بالسدى ومنهم من يسمى بابن قتيبة وكانوا يروون عنهما فيظن من لايعرف حقيقة الحال أنهما المحدثان الشهيران مع أن كلا من السدى وابن‌قتيبة اللذين ينقل عنهما الشيعة رافضى غال .

(١) الملل والنحل (١ ـ ١٩٧) واللآلىء المصنوعة (٢ ـ ٤٦٨)

ولكن جهابذة السنة وعلماء الحديث كشفوا دخيلة أمرهم وأطلعوا الناس على حقيقة حالهم وميزوا بين السديين بالكبير وهو ثقة والصغير وهو كذاب وضاع . وكذلك ميزوا بين ابن قتيبة الشيعى وبين عبد الله بن مسلم بن قتيبة . ولم يقتصر الشيعة على ذلك بل وضعوا الكتب وملؤوها بأباطيلهم ونسبوها الى أهل السنة ككتاب سر العارفين الذى نسبوه للغزالى .

وقد أفسد الشيعة علم الامام على كرم الله وجهه بما نسبوه اليه من الأقوال وما اعتقدوه فيه من العقائد التى وضعوا لها الأحاديث مما جعل أصحاب الحديث من أهل الصحيح لايعتمدون من حديث على وفتاواه الا ماجاء عنه من طريق أهل بيته خاصة أو من طريق أصحاب عبد الله بن مسعود كعبيدة السلمانى وشريح وأبى وائل ونحوهم . أعلام الموقعين (١ — ١٦) .

الأثر العكسى للتشيع فى وضع الحديث

هذا وكان للتشيع أثر عكسى فى نفوس من ضعف ايمانهم من المسلمين لا سيما المنتمين الى بنى أمية فوضع هؤلاء الحديث فى مناقب أبى بكر وعمر وعثمان كرد على مثالب الشيعة لهم وانتقاصهم قدرهم ولعمرى انها وسيلة فى محاربة الخصم يمقتها الدين بل هى من صفات المنافق الذى اذا خاصم فجر . فلقد كان لهم من تاريخ الخلفاء الراشدين وحسن سيرتهم وشرف صحبتهم للنبى صلى الله عليه وسلم وما صح فى فضلهم من أحاديث غنية عن الكذب على رسول الله . ويظهر أنه كان للسياسة دخل كبير فى ذلك فقد وضعت الأحاديث أيضا فى فضل معاوية . ونحن نذكر لك طائفة من هذه الأحاديث المكذوبة عن كتاب اللآلىء للسيوطى فمن ذلك قولهم : —

(بينما جبريل مع النبى صلى الله عليه وسلم اذ مر أبو بكر فقال هذا أبو بكر قال أتعرفه ياجبريل قال نعم . انه لفى السماء أشهر منه فى الأرض . فان الملائكة لتسميه حليم قريش . وانه وزيرك فى حياتك وخليفتك بعد موتك) ومنها (لما عرج بى الى السماء قلت اللهم اجعل الخليفة من بعدى على بن أبى طالب فارتجت السموات وهتفت الملائكة من كل جانب يامحمد اقرأ: وما تشاؤون الا أن يشاء الله . قد شاء الله أن يكون من بعدك أبو بكر الصديق) ومنه (ان فى السماء الدنيا ثمانين ألف ملك يستغفرون الله لمن أحب أبا بكر وعمر . وفى السماء الثانية ثمانين الف ألف يلعنون من أبغض أبا بكر وعمر) ومنها (ما فى الجنة شجرة الا مكتوب على كل ورقة منها لا اله الا الله محمد رسول الله . أبو بكر وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين) ومنها (الأمناء عند الله ثلاثة أنا وجبريل ومعاوية) ومنها (ان الله ائتمن على وحيه جبريل ومعاوية وكاد أن يبعث معاوية نبيا من كثرة علمه وائتمانه على كلام ربى . يغفر الله لمعاوية ذنوبه ووقاه حسابه وعلمه الكتاب وجعله هاديا مهديا وهدى به) ومنها (اذا رأيتم معاوية يخطب على منبرى فاقبلوه فأنه أمين مأمون) اهـ

المبحث الرابع

(جهود الصحابة والتابعين فى جمع الحديث وروايته ومناهضتهم للكذابين)

كان من وراء الشيعة والخوارج ومن على شاكلتهم الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيع ولا بالخروج وتمسكوا بالسنن الصحيحة ورفضوا الأحاديث التى تروى من طريق أرباب هذه النحل أيا كان لونهم السياسى ونفوا عن السنة كل دخيل وحفظوها من عبث

أهل الأهواء ذلك أنه لم تزل أعلام الدين قائمة . وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم مازال على قيد الحياة وهؤلاء التابعون لهم باحسان يؤازرونهم ويؤيدونهم فى مهمة التعليم ونشر السنة وازالة أدران التشيع والقضاء على أباطيل الكذابين . لقد تظاهر الصحابة والتابعون وكونوا جبهة قوية فى وجوه أرباب النحل المختلفة . فمن يوم أن وقعت الفتنة لم يقبلوا الأحاديث بمجرد روايتها حتى يسألوا عن أسانيدها ويفحصوا رجالها رجلا رجلا . يروى مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين قال « لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » كذلك أخذ الرواة وحملة الحديث من التابعين يسألون الصحابة ليميزوا لهم الطيب من الخبيث فلم يكونوا كحاطب ليل يجمع الى الحطب الحيات والثعابين بل كانوا يتحرجون من حمل مالا يعرفون له أصلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذا ابن أبى مليكة يقول . كتبت الى ابن عباس أسأله أن يكتب لى كتابا ويخفى عنى فقال ولد ناصح . أنا أختار له الأمور اختيارا وأخفى عنه قال فدعا بقضاء على فجعل يكتب منه أشياء ويمر بالشىء فيقول . والله ماقضى بهذا على الا أن يكون قد ضل « روى ذلك مسلم فى مقدمة صحيحه » فهذا الاثر يعطيك فكرة عن افساد الشيعة لقضاء على كرم الله وجهه . كما يعطيك فكرة عن تنبه الصحابة وعنايتهم التامة بالحديث وتمييز غثه من سمينه . وأخيرا يعطيك فكرة واضحة عن حال الرواة فى طلب الصحيح من الحديث ورجوعهم فى ذلك الى الصحابة الأجلاء .

ولقد بلغ الحد من تبجح الكذابين ان كانوا يجلسون للحديث بالمساجد على مرأى ومسمع من الصحابة الذين كانوا يزجرونهم أعظم

زجر ويطردونهم من المساجد أقبح الطرد ، حتى لقد كان بعض الصحابة يستعين فى ذلك برجال الشرط . يروى ابن أبى شيبة والمروزى عن مجاهد قال : دخل قاص فجلس قريبا من ابن عمر فقال له قم ، فأبى أن يقوم فأرسل الى صاحب الشرط فأرسل اليه شرطيا فأقامه » وسترى كثيرا من أمثال هذه الآثار التى بها يتضح لك أن أعلام الدين من الصحابة والتابعين كانوا واقفين لهؤلاء الوضاعين بالمرصاد معقبين على أقوالهم وأفعالهم بالابطال حتى لاتقع العامة فى حبالتهم فيضلوا عن طريق السداد .

وكما ناهضوا الوضاعين وكشفوا عن حقيقة أمرهم بذلوا جهودا جبارة فى جمع الأحاديث وروايتها ، وتعلمها وتعليمها ، والرحلة فى طلبها واليك تفصيل ذلك :

أولا ـ اتساع الفتوح الاسلامية وتفرق الصحابة فى الأمصار

اتسعت المملكة الاسلامية بعد وفاته صلى الله عليه وسلم اتساعا عظيما على يد أصحابه تحقيقا لوعد الله الذى لايتخلف « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » الآية . فقد فتح الشام كله والعراق بأكمله فى سنة سبع عشرة هجرية . وفتحت مصر سنة عشرين من الهجرة . وفتحت فارس سنة احدى وعشرين . ووصل المسلمون سمرقند سنة ست وخمسين وأخذت اسبانيا سنة ثلاث وتسعين .

هذا وكان على أثر هذه الفتوح أن دخل كثير من أهلها الاسلام وتعطشت نفوسهم الى تعلم أحكامه فكان لزاما على خلفاء المسلمين أن

يبعثوا اليهم من يعلمهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكام دينهم . على أن كثيرا من الصحابة نزحوا الى تلك الأمصار المختلفة من تلقاء أنفسهم معلمين ومرشدين ومنهم من طاب له المقام فاستوطن البلد الذى نزله حتى الممات .

وبنزول الصحابة فى تلك البلدان المختلفة أصبحت معاهد لتعليم القرآن والحديث يجتمع عليهم طلاب العلم يغترفون من بحارهم الفياضة ويحفظون عنهم ما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تخرج على أيديهم فى كل قطر طبقة من التابعين كانوا فيما بعد حماة السنة ورواة الحديث . ولا يقعن فى خاطرك أنه كان هناك مدارس ومعاهد بالمعنى المعروف عندنا الآن ، ذات نظم خاصة ومكتبات وقاعات للمحاضرات وما الى ذلك . بل كان القوم على البساطة الأولى فقد كان الصحابى يحمل علمه فى صدره ويعيه بقلبه وكانت المساجد فى الغالب هى دور العلم ومعاهد الحديث يجلس الصحابى فى المسجد وحوله حلقة من أتباعه وتلاميذه يستمعون له ويحفظون عنه ويسألونه ويستفتونه وهو فى كل ذلك لايخرج عن كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الرأى المستند الى أصل صحيح منهما وقلما يكون ذلك . ولا بأس أن نذكر نبذا عن دور الحديث بالأقطار المختلفة فنقول : —

دور الحديث فى الأمصار المختلفة

١ — دار الحديث بالمدينة المنورة :

كانت المدينة المنورة هى مهاجر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وبها حدث النبى صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه لأن أكثر التشريع

الاسلامى كان بها . وكان المهاجرون يحبون المقام بها ويكرهون التحول عنها الى مكة أو غيرها . وما زالت المدينة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم هى عاصمة الأمة الاسلامية ومركز الخلافة الراشدة ومقر كبار الصحابة . لذلك كانت المدينة هى موطن الصحابة الأول ، الذى يفضلونه على غيره حيث يصيبون من بركة النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد وفاته وكانوا لايبرحونها الا لحاجة ملحة حكومية أو معاشيــة أو تعليمية . روى ابن سعد فى الطبقات عن محمد بن عمر أنه قال . لانعلم أحدا من المهاجرين من أهل بدر رجع الى مكة — يعنى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم — فنزلها غير أبى سبرة فأنه رجع الى مكة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فنزلها فكره ذلك له المسلمون ، وولده ينكرون ذلك ويدفعون أن يكون رجع الى مكة ، فنزلها بعد أن هاجر منها ، ويغضبون من ذكر ذلك .

وقد اشتهر بالمدينة من الصحابة الذين كانت لهم قدم فى الحديث والفقه عدد كثير منهم أبو بكر وعمر وعلى قبل انتقاله الى الكوفة وأبو هريرة وعائشــة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر وأبو ســعيد الخدرى وزيد بن ثابت الذى اشتهر بفهم الأحكام من الكتاب والسنة والرأى السديد حتى أن عمر كان يستبقيه للاستئناس برأيه فيما يعرض له من القضايا . وقد استمر زيد مترئساعلى القضاءوالفتوىوالقراءة والفرائض زمن عمر وعثمان وعلى الى أن مات سنة ٤٥ فى خلافة معاوية رضى الله عنهم .

هذا وقد تخرج على أيدى هؤلاء الأفاضل الفوج الأول من التابعين لهم بالمدينة ومن أشهر هؤلاء سعيــد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام وابن شهاب الزهرى وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

وسالم بن عبد الله بن عمر والقاسم بن محمد بن أبى بكر ونافع مولى ابن عمر وغير هؤلاء من حفاظ السنة الذين كان اليهم المرجع فى الحديث والفتوى .

٢ — دار الحديث بمكة المكرمة :

لما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة خلف بها معاذ بن جبل يعلم أهلها الحلال والحرام ويفقههم فى الدين ويقرئهم القرآن الكريم . وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علما وحلما وسخاء شهد مع رسول الله المشاهد كلها وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام . وقد روى عنه ابن عباس وعمر وابنه . وأخيرا تزعم دار الحديث بمكة عبد الله بن عباس بعد رجوعه من البصرة واليه يرجع الفضل فيما كان لمكة من شهرة علمية . فقد كان عبد الله من أوعية العلم وحفاظ الحديث . وكان بها كثير من الصحابة غيره ذكر منهم الحاكم فى كتابه « معرفة علوم الحديث » جملة وافرة . فمنهم عبد الله بن السائب المخزومى قارىء الصحابة بمكة وعتاب بن أسيد خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وأخوه خالد بن أسيد والحكم بن أبى العاص. وعثمان بن طلحة وغيرهم .

وقد تخرج بهذه الدار على يد عبد الله بن عباس كثير من التابعين من أشهرهم مجاهد بن جبر وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبى رباح وغيرهم .

هذا ولا تنس ما لمكة والمدينة من أثر كبير امتازتا به على جميع بلدان العالم حتى فى عصرنا الحاضر ففيهما ينعقد هذا المؤتمر الاسلامى فى كل عام ويأتى اليه المسلمون من كل فج عميق . ولا يخفى ما لهذا الاجتماع من أثر كبير فى نشر العلوم والمعارف اذ يلتقى فيه رواة

الحديث وحملة العلم بعضهم ببعض يعرضون الأحاديث وينقحون الأسانيد فيستكمل الراوى علمه بالحديث ورجاله .

ولقد كان الحج من أعظم الروابط والصلات التى تربط الأقطار الاسلامية بالحياة العلمية فى هذين البلدين . الا أن ذلك لم يكن ليسد حاجة هذه الأقطار الواسعة لذلك نزح كثير من الصحابة اليها هداة ومعلمين .

٣ — دار الحديث بالكوفة :

كانت الكوفة هى قاعدة الجيوش الاسلامية لذلك نزل بها عدد كبير من الصحابة زمن الفتوح وأكثرهم دفن بها . منهم على وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وخباب بن الأرت وسلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر وأبو موسى الأشعرى والبراء بن عازب والمغيرة بن شعبة والنعمان بن بشير وأبو الطفيل وأبو جحيفة وكثير جدا غيرهم . (علوم الحديث للحاكم ص ١٩١) .

وقد كانت الزعامة فى هذه الدار الى عبد الله بن مسعود لكثرة علمه وطول مكثه بها فتخرج على يديه كثير من أصحابه من أشهرهم مسروق ابن الأجدع الهمدانى وعبيدة بن عمرو السلمانى الذى قال فيه الشعبى : كان يوازى شريحا فى القضاء . والأسود بن يزيد النخعى وشريح بن الحارث الكندى الذى استقضاه عمر على الكوفة ولم يزل قاضيا عليها حتى زمن الحجاج ثم استقال قبل موته بسنة وابراهيم بن يزيد النخعى فقيه العراق وسعيد بن جبير وعامر بن شراحيل الشعبى علامة التابعين وكان اماما حافظا . أعلام الموقعين (١ — ٢٠) .

٤ — دار الحديث بالبصرة :

زعيم هذه الدار هو أنس بن مالك رضى الله عنه وقد نزلها كثير من الصحابة غيره منهم ابن عباس — وكان واليا عليها من قبل على — وعتبة بن غزوان وعمران بن حصين . وأبو برزة الأسلمى ومعقل بن يسار وأبو بكرة وعبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن الشخير وجارية بن قدامة وغيرهم (علوم الحديث للحاكم ص ١٩١) .

وقد تخرج بهـذه الدار من التابعين أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى والحسن البصرى وأدرك خمسمائة من الصحابة ومحمد بن سيرين وأبو الشعثاء جابر بن زيد صاحب ابن عباس . وقتادة بن دعامة الدوسى ومطرف بن عبد الله بن الشخير وأبو بردة بن أبى موسى وغير هؤلاء كثير .

٥ — دار الحديث بالشام :

لما فتح المسلمون الشام دخل كثير من أهلها فى الاسلام وقد اهتم الخلفاء بهذا القطر فأرسلوا اليه فضلاء الصحابة كمعاذ بن جبل الذى أخـذ مكانة علمية فائقة فهو مبعوث النبى صلى الله عليه وسلم الى اليمن وهو خليفته على أهل مكة يعلمهم الحلال والحرام وهو مبعـوث عمر الى الشام ليفقههم فى دين الله . روى ابن سعد فى الطبقات عن أبى مسلم الخولانى قال : دخلت مسجد حمص فاذا فيه نحو من ثلاثين كهلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . واذا فيهم شاب أكحل العينـين براق الثنايا ساكت لايتكلم فاذا امترى القوم فى شىء أقبلوا عليه فسألوه فقلت لجليس لى من هذا ؟ قال : معاذ بن جبل ويروى ابن سعد أيضا عن عمر ابن الخطاب أنه قال حين خرج معاذ الى الشام . لقـد أخل

خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به . ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس اليه فأبى على ، وقال : رجل أراد جهادا يريد الشهادة فلا أحبسه فقلت والله ان الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه » .

ومن أشهر من قام بالتعليم فى هذا القطر أيضا عبادة بن الصامت الذى امتاز بجمع القرآن وكان من أفقه الناس فى الدين شديدا فى الحق لاتأخذه فى الله لومة لائم . أنكر على معاوية كثيرا من اموره . ومنهم أبو الدرداء الأنصارى وكان معدودا من فقهاء الصحابة وحفاظ الحديث وقد أرسلهما عمر مع معاذ الى الشام اجابة لطلب يزيد بن أبى سفيان فانه كتب الى عمر بن الخطاب : قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء . ذكر ذلك البخارى فى تاريخه . كان هؤلاء هم حجر الزاوية فى الحركة العلمية ونشر السنة المحمدية فى ربوع تلك البلاد . وقد أرسل عمر أيضا عبد الرحمن بن غنم للمهمة نفسها وكان يقال له صاحب معاذ لكثرة ملازمته له على انه اختلف فى صحبته . هذا وكثير من الصحابة غير هؤلاء انتشروا فى الشام هداة ومعلمين منهم شرحبيل بن حسنة والفضل ابن العباس بن عبد المطلب . يروى الحاكم أنه مدفون بالأردن . وأبو مالك الأشعرى وغيرهم كثير .

وقد تخرج على أيديهم كثير من التابعين فى مدارس الشام المختلفة منهم أبو ادريس الخولانى عائذ الله . وقبيصة بن ذؤيب ومكحول بن أبى مسلم ورجاء بن حيوة الكندى العالم الثقة الفاضل .

٦ — دار الحديث بمصر :

فتح المسلمون مصر فدخل كثير من أهلها الاسلام كذلك نزلها كثير من الصحابة ينشرون أحكام الدين وتعاليمه وأشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان من أكثر الصحابة حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما امتاز عن غيره من سائر الصحابة بكتابة مايسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . خرج عبد الله مع أبيه عمرو بن العاص الى مصر عند ماولاه اياها معاوية ولما توفى عمرو بقى ابنه عبد الله مقيما بمصر فكان يحج ويعتمر ثم يرجع اليها الى أن توفى بها فى بعض الأقوال .

وقد نزل كثير من الصحابة غير عبد الله بن عمرو مصر وقاموا بمهمة التعليم وتفقه على أيديهم كثير من أهل البلاد منهم عقبة بن عامر الجهنى وخارجة بن حذافة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ومحمية بن جزء وعبد الله بن الحارث بن جزء وأبو بصرة الغفارى وأبو سعد الخير ومعاذ بن أنس الجهنى وغيرهم حتى لقد أفردهم محمد بن الربيع الجيزى بالتأليف فبلغ عددهم مائة ونيفا وأربعين صحابيا كما أورد أحاديثهم فى تأليفه ذلك (١) .

تخرج على هؤلاء الصحابة كثير من التابعين منهم أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى مفتى أهل مصر روى عن أبى أيوب الأنصارى وأبى بصرة الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى . ومنهم يزيد بن أبى حبيب . روى عن بعض الصحابة وأكثر روايته عن التابعين وهو بربرى الأصل أبوه من أهل دنقلة ولكنه نشأ بمصر .

(١) أعلام الموقعين (١—٢١) علوم الحديث للحاكم (ص ١٩٣) ضحى الاسلام (٣ — ٨٩) .

هذه نبذة قصيرة عن معاهد العلم ودور الحديث فى أشهر الأمصار الاسلامية لذلك العهد تدلك على مكانة هؤلاء الصحابة وتابعيهم فى نشر ورواية الحديث .

ثانيا ـ رحلة العلمـــاء فى طلب الحديث

تفاوت الصحابة فى حفظ الحديث

رأيت كيف اتسعت الفتوح الاسلاميـــة وما تبع ذلك من تفـــرق الصحابة فى الأمصار المتباعدة ينشرون دين الله وأحاديث رسول الله . وبدهى أن الصحابة لم يكونوا على درجة واحدة فى حفظ الحديث وجمع السنن بل كانوا مختلفين اختلافا كبيرا فكان عنـــد بعضهم الحديث الواحد وعند بعضهم الحديثان وهكذا . فقد حدث النبى صلى الله عليه وسلم قوما بما لم يحدث به آخرين ووقع من الحوادث أمام قوم مالم يطلع عليه آخرون .ومن هنا قال مسروق — وكان من التابعين — لقد جالست أصحاب محمد فوجدتهم كالأخاذ فالأخاذ يروى الرجل والأخاذ يروى الرجلين والأخاذ يروى العشرة والأخاذ يروى المائة والأخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم .

ماذا يكون الحال اذا تفرق الصحابة كما رأيت وحالهم على مارأيت . لقد تناثرت الأحاديث فى الأمصـــار تبعا لتفرق الصحابة فى البـــلدان والأحاديث لاغنى عنها فى فهم القرآن والتفقه فى أحكام الدين نعم جمع القرآن الكريم على عهد عثمان رضى الله عنه ووزعت المصـــاحف على الأقطار وحفظه المسلمون لايختلفون فيه . أما السنة التى هى بيـــان للكتاب فلم تكتب لافى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عهـــد الخلفاء الراشـــدين الى نهاية القرن الأول لأسباب ستأتى فيما بعد .

حاجة العلماء الى الرحلة فى هذا العصر

ماذا يصنع أهل كل مصر فيما يعن لهم من الحوادث ويتجدد لهم من الأحكام والحال كما وصفنا ؟ . انه ليس أمامهم سوى باب واحد يطرقونه مهما كلفهم ذلك من عناء ومهما بذلوا فيه من أموالهم وأنفسهم . وذلك هو الرحلة من قطر الى قطر — وذلك هو الذى كان من الصحابة والتابعين بل واتباع التابعين فشمروا عن ساعد الجد وجابوا البلاد شرقا وغربا مستعذبين كل مر وصاب فى سبيل الحصول على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانك اذا تتبعت تراجم المحدثين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم الى أن دونت السنة فى بطون الكتب بل وبعد تدوينها أيضا تجد أن المؤرخين لحياتهم يقولون فى الرجل منهم مثلا هو فلان بن فلان المكى ثم المدنى ثم الكوفى ثم البصرى ثم الشامى ثم المصرى ايذانا منهم بأن هذا الراوى كان رحالة فى طلب الحديث والعلم .

أثر الرحلة فى تمحيص الأحاديث

ليس هناك من شك فى أن الرحلة الى العلماء والتقاء الحفاظ بعضهم ببعض طريق عظيم فى تثقيف العقول وتنقيح العلوم وتمحيص المحفوظ من الحديث وبها يقف الراوى بنفسه على سيرة الرواة فى بلدانهم ويعلم قوتهم من ضعفهم فضلا عن الاستزادة من الحديث وحفظ مالم يكن موجودا عند علماء بلده وأهل مصره . وقد كانت الرحلة هى سنة العلماء من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن ادرك الأمة الاسلامية التكاسل والتواكل وقعدت عن العمل النافع المجدى الذى كان عليه أسلافهم .

وقد قدمنا لك أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا بعدت به الدار يركب الى المدينة فيسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستمر أمر الصحابة على ذلك أيضا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحل بعضهم الى بعض فى طلب الحديث . الا أنه لما اتسعت الفتوح الاسلامية وتفرق بها الصحابة كما سبق شاعت الرحلة وظهر أمرها بين الصحابة والتابعين فى عصرنا هذا . ونحن نذكر لك طائفة من الآثار بعضها عن الصحابة وبعضها عن التابعين لتلمس بنفسك تلك الجهود الجبارة التى قام بها أسلافنا حيال جمع الحديث وليتضح لك عنايتهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على جمعها . فهذا أبو أيوب الأنصارى يرحل من المدينة الى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم . فلما قدم الى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر خرج اليــه فعانقه ثم قال له . ما جاء بك يا أبا أيوب ؟ قال حديث سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه منه غيرى وغير عقبة فابعث من يدلنى على منزله . فبعث معه من يدله علىَ منزل عقبة فخرج اليه عقبة فعانقه فقال . ماجاء بك ياأبا أيوب؟ فقال . حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحــد سمعه منه غيرى وغيرك . فى ستر المؤمن . قال عقبة : نعم . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من ستر مؤمنا فى الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة » فقال أبو أيوب . صدقت ثم انصرف أبو أيوب الى راحلته فركبها راجعــا الى المدينة وما حــل رحله فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد الا بعريش مصر .

فانظر رعاك الله الى همة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف هانت عليهم الدنيا وصغرت أمامهم العظائم فى سبيل المحافظــة

على سنة رسول الله فضحوا براحتهم وركبوا الأخطار وقطعوا المفاوز والقفار فى طلب الحديث . فأبو أيوب على تقدم صحبته وكثرة سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحل من المدينة الى مصر متحملا مشقة السفر ووعثاءه ثم هو يرجع من ساعته ولا تحدثه نفسه بالمقام بمصر يوما أو يومين يستجم فيه .

وهذا عمرو بن أبى سلمة يقول للأوزاعى . يا أبا عمرو أنا ألزمك منذ أربعة أيام ولم أسمع منك الا ثلاثين حديثا . قال . وتستقل ثلاثين حديثا فى أربعة أيام ؟ لقد سار جابر بن عبد الله الى مصر واشترى راحلة فركبها حتى سأل عقبة بن عامر عن حديث واحد وانصرف الى المدينة وأنت تستقل ثلاثين حديثا فى أربعة أيام ؟ . فجابر بن عبد الله معدود من المكثرين فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يستعظم أن يفوته بعض الحديث فيرحل الى مصر على بعد الشقة بينها وبين المدينة ويشترى لهذه الغاية الشريفة دابة يركبها . فانظر الى أى حد كان الصحابة يخدمون دينهم ويجمعون أحاديث نبيهم وكل همهم أن يكونوا سعداء بحمل الحديث وتبليغه والعمل به .

وهذا سعيد بن المسيب يقول . انى كنت لاسافر مسيرة الأيام والليالى فى الحديث الواحد « روى هذه الآثار كلها الحاكم فى معرفة علوم الحديث ص ٧ ، ٨ » .

وروى البخارى فى كتاب العلم عن صالح الهمدانى عن الشعبى عن أبى بردة عن أبيه أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها وأعتقها فتزوجها فله أجران . وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه

وآمن بى فله أجران وأيما مملوك أدى حق مواليه وأدى حق ربه فله أجران . فلما انتهى الشعبى من رواية هذا الحديث قال للسامع الذى يتلقاه عنه . « خذها بغير شيء قد كان الرجل يرحل فيما دونهـا الى المدينة » فكلمة الشعبى هذه وهو من التابعين تعلمنا بما كان يقوم به العلماء من الصحابة والتابعين من الرحلات الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فى طلب الحديث مهما كان قليلا .

وعن جابر بن عبد الله قال بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فابتعت بعيرا فشددت عليه رحلى ثم سرت اليه شهرا حتى قدمت الشام فاذا عبد الله بن أنيس الأنصارى فأتيت منزله وأرسلت اليه أنجابرا على الباب فرجع الىالرسول فقال جابر بن عبد الله فقلت نعم فخرج الى فاعتنقته واعتنقنى قال قلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم لم أسمعه أنا منه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الله تبارك وتعالى العباد . . . الحديث » وهذا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يقول : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل اليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ولكنى كنت أذهب اليه فأقيل على داره حتى يخرج فيحدثنى وهذا بسر بن عبد الله الحضرمى يقول : ان كنت لأركب الى المصر من الأمصار فى طلب الحديث الواحد لأسمعه رواهما ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله وقد عقد بابا لذلك خاصة سماه باب ذكر الرحلة فىطلب العلم ، وأخرج الخطيب عن أبى العالية قال : كنا نسمع عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نرضى حتى خرجنا اليهم فسمعنا منهم .

هكذا تعاون العلماء فى الأمصار المختلفة على حفظ السنة رحل بعضهم الى بعض وتلقى بعضهم عن بعض وجاهدوا فى سبيل الحديث وجمعه جهادا عظيما وضربوا المثل عاليا لمن بعدهم من أهل الحديث فساروا على ضوء نبراسهم . وقد كان للرحلة أثر عظيم فى عصور التدوين حتى لقد عد من يكتب الحديث فى بلده ولا يرحل فى طلبه ضالا طريق الرشاد بعيدا عن محجة الهدى والسداد . فهذا يحيى بن معين يقول : أربعة لا تؤنس منهم رشدا حارس الدرب ومنادى القاضى وابن المحدث ورجل يكتب فى بلده ولا يرحل فى طلب الحديث ولأمر ما يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب قلت لطالب العلم يتخذ نعلين من حديد . التفت أيها القارىء — وتصور العصر الذى نحدثك عنه وكيف كانت المواصلات فيه لم تكن هناك طرق معبدة ولا سيارات ولا طائرات بل كانت ركوبتهم الخيل والجمال يقطعون بها الفيافى المخيفة ما بين حزون وسهول وجبال وتلال وأسود وذئاب وكثيرا ماتلفحهم الصحارى بقيظها وتفرسهم الفيافى بقرها ويغشاهم الليل بظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج الواحد منهم يده لم يكد يراها . وكل هذه المخاطر كانت فى نظرهم قليلة فى جنب الله هينة فى سبيل جمعهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فجزاهم الله عن المسلمين خير الجزاء .

أثر الرحلة فى شيوع رواية الحديث وتعدد طرقه

تفرق علماء الصحابة فى البلدان ينشرون الحديث ويروون السنن ولتفاوتهم فى حفظ الحديث قلة وكثرة نشطت الرحلة ونزح العلماء من قطر الى قطر فى جمع الحديث . وتبع اتساع الفتوح تجدد الحوادث والأقضية فأبرز العلماء من الصحابة ماعندهم من أحكام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاياه وقضايا الخليفتين من بعده . فكان طبيعيا

أن يترتب على كل ذلك شيوع رواية الحديث بين العلماء فى الأقطار المختلفة فبعد أن كان المصرى مثلا يتحمل الحديث ويرويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره ممن نزل مصر أصبح يروى الحديث عن معاذ بن جبل وأبى الدرداء وأبى موسى وابن عباس وجابر بن عبد الله وعبد الله ابن عمر بن الخطاب وهكذا وبعد أن كان الحديث يقع للراوى من طريق واحد أصبح يرويه من طرق عديدة . وبعد أن كانت بعض البلدان أكثر حظا بالحديث وحملته كالمدينة مثلا أصبحت البلدان كلها تتمتع برواية الحديث وتعمل به فى أحكامها وقضاياها وعباداتها ومعاملاتها . وكل ذلك بفضل ارتحال علماء الأقطار من بلد الى بلد فى طلب الحديث وتلقيه حتى رأينا الصحابى ينزح من المدينة التى هى مهبط الوحى وملاذ الحديث الى مصر فى طلب حديث سمعه زميله من النبى صلى الله عليه وسلم .

ثالثا ـ ظهور الكذب فى الحديث ومناهضة العلماء للكذابين

كان حسنا أن تشيع رواية الحديث بين المسلمين فى الأقطار المختلفة وكان حسنا أن يتلقى التابعون عن الصحابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشغف عظيم وكان حسنا أن يطبق المسلمون أحاديث نبيهم على كل أمورهم دينية كانت أم دنيوية .

ولكن لاتنس أيها القارىء أن للاسلام كما قدمناه لك أعداء واقفين له بالمرصاد فمن الوقت الذى وقعت فيه الفتنة بين المسلمين بقتل الخليفة الثالث أولا وبافتراقهم الى شيعة وخوارج وجمهور ثانيا وجد اعداء الاسلام من الفرس وغيرهم ستارا يحجبهم فعملوا فى الخفاء ودسوا الأكاذيب كما قدمناه لك . ولما شاعت رواية الحديث واتسعت الأقطار

وجد هؤلاء الكائدون جوا صالحا لبث سمومهم والقاء أكاذيبهم فى طول البلاد وعرضها . كان الصحابة فى الدور الأول زمن الخلافة الراشدة لايبرحون المدينــة الا لحاجة ماسة وكانوا مشغولين بالحروب وكانت المدينة هى دار الحديث الوحيدة وكان أبو بكر وعمر قد أخذا الناس بالحزم وأمراهم باقلال الرواية حتى لاتفشو وتشيع فيتخذها الجهــال والمنافقون ذريعة للكذب والقاء بذور الشر والفساد وقد نجحت تلك التجربة أيما نجاح وكفى الله السنة شر الكذابين . ولما انقضى عهــد الخلافة الراشدة وانشق المسلمون بعضهم على بعض ظهــر الكذابون والمنافقون من أهل الملل الأخرى الذين لم يتجاوز الايمان حناجرهم وقد قدمنا لك بعضا من أعمالهم وخرافاتهم . فلمــا أن شاعت رواية الحديث كما رأيت بين أهل الأقطار الاسلامية ظهر هؤلاء الدجالون من أرباب الفرق المختلفة بوجوه فى نهاية التبجح والقحة فأخذوا يكذبون على الصحابة ويدعون أنهم رووهم الحديث وربما لم يكونوا قد رأوهم ولا سمعوا منهم .

أخذ هؤلاء الكذابون يأتون بالعظائم مما لم يأذن به الله ولا رسوله . فهذا جابر بن يزيد بن الحــارث الجعفى ابو عبد الله الكوفى الرافضى المتوفى سنة ١٢٧ هـ يقول . عندى خمسون ألف حديث ماحدثت منهــا بشىء . ويقول فيه سفيان سمعت جابرا يحدث بنحو ثلاثين ألف حديث ما أستحل أن أذكر منها شيئا وان كان لى كذا وكذا . وروى الحميدى عن سفيان قال . سمعت رجلا سأل جابرا عن قوله عز وجل . « لن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين » . فقال جابر لم يجىء تأويل هذه الآية . قال سفيان وكذب فقلنا وما أراد بهذا قال : ان الرافضة تقول : ان عليا فى السحاب فلا نخرج مع من خرج من

ولده حتى ينادى مناد من السماء — يريد أن عليا ينادي — اخرجوا مع فلان يقول جابر فذا تأويل هـذه الآية وكذب . كانت فى أخوة يوسف » .

وهذا همام يقول . قدم علينا أبو داود الاعمى فجعل يقول : حدثنا البراء وحدثنا زيد بن أرقم . فذكرنا ذلك لقتادة فقال كذب ما سمع منهم انما كان اذ ذاك سائلا يتكفف الناس زمن طاعون الجارف أى عام سبع وثمانين ويقول همام دخل أبو داود الأعمى على قتادة فلما قام قالوا ان هذا يزعم أنه لقى ثمانية عشر بدريا فقال قتادة : هذا كان سائلا قبل الجارف لا يعرض لشىء من هذا ولا يتكلم فيه . فوالله ماحدثنا الحسن عن بدرى مشافهة ولا حدثنا سعيد بن المسيب عن بدرى مشافهة الا عن سعد بن مالك[1] . فانظر كيف ادعى هذا الأعمى أنه سمع ثمانية عشر صحابيا ممن شهد بدرا مع أن الحسن وسعيد بن المسيب وهما أكبر منه سنا وأكثر اعتناء بالحديث وملازمة لأهله واجتهادا فى الأخذ عن الصحابة ماحدث واحد منهما عن بدرى واحد فكيف بأبى داود الأعمى يدعى أنه لقى ثمانية عشر بدريا سبحانك هذا بهتان عظيم .

ولكن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أخذوا على هؤلاء الوضاعين المسالك وشردوا بهم من خلفهم . انظر الى قول الشعبى رضى الله عنه . حدثنى الحارث الأعور وكان كذابا .وهذا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يؤتى بقضاء على كرم الله وجهه فى خريطة فيمحوه ولا يترك منه الا مقدار ذراع . وذلك لأن الشيعة أفسدوا كثيرا من علم الامام على فقاتلهم الله أنى يؤفكون . وهذا بشير بن كعب يأتى ابن عباس فيحدثه بأحاديث فيقول له ابن عباس : عد لحديث كذا وكذا فيعود له ثم يحدث

(١) هو سعد بن ابى وقاص .

فيقول له عد لحديث كذا وكذا فيعود له . فقال له : ما أدرى أعرفت حديثى كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا . فقال له ابن عباس : انا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لم يكن يكذب عليه فلما ركب الناس الصعبة والذلول تركنا الحديث عنه . وهذا مجاهد يقول : جاء بشير العدوى الى ابن عباس فجعل يحدث ويقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ابن عباس لايأذن لحديثه ولا ينظر اليه فقال : ياابن عباس . مالى أراك لاتسمع لحديثى ؟ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع ؟ فقال ابن عباس : انا كنا مرة اذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدرته ابصارنا وأصغينا اليه بآذاننا فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس الا ما نعرف ذكر هذه الآثار مسلم فى مقدمة صحيحة .

هذا وهناك صنف من الوضاعين كان شرا مستطيرا على الحديث ألا وهم القصاص الذين يستهوون العامة بالمناكير ويأخذون عليهم قلوبهم برواية الغرائب التى لا أصل لها وقد وجد منهم فى هذا الدور خلق كثير .

فهذا هو الشعبى التابعى العظيم أحد أعيان المائة الأولى للهجرة (١٧ — ١٠٤) يقول : بينما عبد الملك بن مروان جالس وعنده وجوه الناس من أهل الشام قال لهم : من أعلم أهل العراق قالوا ما نعلم أحدا أعلم من عامر الشعبى . فأمر بالكتاب الى فخرجت اليه حتى نزلت « تدمر » فوافقت يوم جمعة فدخلت أصلى فى المسجد فاذا الى جانبى شيخ عظيم اللحية قد أطاف به قوم فحدثهم قال حدثنى فلان عن فلان يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم : أن الله تعالى خلق صورين فى كل صور

نفختان نفخة الصعق ونفخة القيامة . قال الشعبى فلم اضبط نفسى أن خففت صلاتى ثم انصرفت فقلت ياشيخ اتق الله ولا تحدثنا بالخطأ أن الله تعالى لم يخلق الا صوراواحدا وانما هى نفختان نفخة الصعق ونفخة القيامة . فقال لى يافاجر انما يحدثنى فلان عن فلان وترد على ثم رفع نعله وضربنى بها وتتابع القوم على ضربا معه فوالله ماأقلعوا عنى حتى حلفت لهم أن الله تعالى خلق ثلاثين صورا له فى كل صور نفخة فاقلعوا عنى . فرحلت حتى دخلت دمشق ودخلت على عبد الملك فسلمت عليه . فقال لى ياشعبى: بالله حدثنى بأعجب شىء رأيته فى سفرك فحدثته حديث المتقدمين فضحك حتى ضرب برجليه ذكره السيوطى فى تحذير الخواص ص ٥١ ، ٥٢ .

فانظر الى أى حد بلغ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك العصر وانظر الى استماع العامة للأكاذيب وتعلقهم بها حتى أنهم اذا نصحوا ثاروا على الناصح فأهانوه وضربوه . فمن ذلك نأخذ أن مهمة المحدثين فى هذا الوقت كانتمن أشق مايكون فقد أفسد القصاص والزنادقة قلوب العامة وحشوها بالخرافات وشأن العامة فى كل زمان الاستماع للغريب من الحديث والجلوس الى القاص اذا ماكان كلامه عجيبا خارجا عن فطر العقول أو كان رقيقا يحزن القلوب ويستغزر العيون . وهذا ابن عمر يزجر القاص ويأمره بالقيام من المسجد فلا يستمع لأمره حتى يستعين عليه بصاحب الشرطة فيبعث اليه شرطيا يخرجه الى غير ذلك من الحوادث .

وقد رأينا أن نتكلم على نشأة الوضع فى الحديث وتاريخه وجهود العلماء لمناهضة الوضاعين فى فصل خاص ان شاء الله عند الكلام على

أنواع من علوم الحديث في الخاتمة لأن الوضع لم يكن خاصاً بعصر من العصور بل هو وليد العصور جميعها ونكتفي بهذا القدر الآن .

المبحث الخامس

كتابة الحديث

الكتابة عند العرب قبيل الاسلام

الخط مظهر من مظاهر التحضر ، وأثر من آثار الاجتماع والتمدن ، لذا سبق اليه الأمم المتمدينة ، وكان أبعد الناس منه الأمم البادية . والعرب لما كانوا قوما بدويين كانوا بطبيعة الحال أميين لايقرءون ولا يكتبون ، اللهم الا فى الجهات التى عرفتها الحضارة من جزيرتهم كاليمن ، فقد كان أهل هذه البلاد يخطون وكان خطهم يسمى بالخط المسند . على أنه لم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الأفراد ، بل كان ذلك فى الخاصة منهم . ومن اليمن انتقل الخط الى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الأقليمين . وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من المسند الحميرى . ومن الحيرة انتقل الخط الى مكة ، نقله حرب بن أمية ، وكان رجلا سفارا ، ومن عهده بدأ الخط بمكة ، فتعلمه بعض رجال قريش . هذه هى الجهات الثلاث التى وجدت بها الكتابة الخطية على أنها كما قلنا لم تكن بالشيء الذائع المتداول . أما بادية العرب فلم تكن تخط بل كانت ترى الخط وصمة عار وسمة عيب كما هو شأنها فى سائر الصناعات المدنية .

هذا وكأن الله تعالى اذن بنقل الكتابة من الحيرة الى مكة قبيل الاسلام لتكون فيما بعد عاملا من عوامل حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ثم انه لم تكن الكتابة منتشرة بين العرب ، بل كانت منحصرة فى أفراد قليلين مما يجعل الحكم على الأمة العربية بأنها

أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب من السهولة بمكان حتى لقد سماها القرآن عند مجىء الاسلام بذلك فقال سبحانه وتعالى « هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم » وقد كان عدم انتشار الكتابة وذيوعها بين العرب من أهم العوامل فى تنمية ملكة الحفظ فيهم ، فقد اعتمدوا على قوة الحافظة فى جمع ما يهمهم من الأشعار والأنساب والمفاخر والأيام . والملكة متى استعملت عظمت ونمت ، ولذا كان العرب من أحفظ الأمم التى عرفها التاريخ الى يومنا هذا .

الكتابة بمكة عند مجىء الاسلام

وأيا ما كان الأمر فقد جاء الاسلام وليس بمكة ممن يعرف الكتابة سوى سبعة عشر رجلا منهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان ابن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة ويزيد بن أبى سفيان ومعاوية ابن أبى سفيان وأبو سفيان بن حرب وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وبعض من نسائهم كن يكتبن أيضا منهن الشفاء بنت عبد الله العدوية وحفصة بنت عمر زوج النبى صلى الله عليه وسلم وأم كلثوم بنت عقبة وكريمة بنت المقداد وغيرهن .

الكتابة بالمدينة عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم اليها

أما فى المدينة فكانت الكتابة بين الأوس والخزرج قليلة ، وكان بعض اليهود قد علم كتابة العربية ، وكان يعلمها الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول . فجاء الاسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون ، منهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبى بن كعب وزيد بن ثابت الذى كان يكتب العربية والعبرانية ورافع بن مالك وأسيد بن حضير . وغيرهم وقد عدهم البلاذرى أحد عشر رجلا .

النبى يعمل على نشر الكتابة

هذا ولما جاء الاسلام أخذ بيد العرب الى ترقية الكتابة والنهوض بها والعمل على نشرها ، وكان للكتابة منزلة عظيمة فى حفظ الوحى وتبليغ الرسالة الى الملوك وأهل الآفاق . لذا كانت عناية النبى صلى الله عليه وسلم بها شديدة ، فقد انتهز أول فرصة لنشر الكتابة بين المسلمين فجعل فداء بعض الأسرى فى بدر ممن يعرفون الكتابة أن يعلم الواحد منهم عشرة من صبيان المسلمين بالمدينة القراءة والكتابة ، ولا يطلق الا بعد أن يتم تعليمهم .

كتابة القرآن والرسائل

وقد استعمل النبى صلى الله عليه وسلم الكتابة فى تدوين ما ينزل من القرآن ، وفى ارسال الرسائل الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، واتخذ لذلك كتابا من الصحابة . فأول من كتب له بمكة من قريش عبد الله ابن سعد بن أبى سرح لكنه ارتد وهرب من المدينة الى مكة ثم عاد الى الاسلام بعد الفتح وأول من كتب له بالمدينة أبى بن كعب وكان اذا غاب دعا النبى صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت فكتب له وكان زيد وأبى يكتبان الوحى والرسائل أيضا ثم لما فتحت مكة وأسلم معاوية بن أبى سفيان كان يكتب للنبى الوحى وغير هؤلاء كثير كانوا يكتبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كالخلفاء الراشدين وأبان بن سعيد وزيد بن آرقم وحنظلة بن الربيع [١] .

هذا وقد كتب القرآن كله بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم على الرقاع والأضلاع والحجارة الرقاق لأن الورق المعروف الآن لم يكن قد وجد عند العرب فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كان نزول

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٨ .

القرآن متفرقا على حسب الحوادث والأسئلة ، فكانت الآية تنزل على النبى صلى الله عليه وسلم فيأمر كاتب الوحى بكتابتها فى موضع كذا من سورة كذا ، وقد مكث الأمر على هذا الحال ثلاثة وعشرين عاما « على أحد الأقوال » من يوم مبعث النبى صلى الله عليه وسلم الى أن توفاه الله .

هل كتب الحديث فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كما كتب القرآن ؟

حكمة النهى عن كتابة الحديث

نزل القرآن كما قدمنا لك منجما آية آية وسورة سورة ، واتخذ النبى صلى الله عليه وسلم لكتابته أفرادا من الصحابة . والقرآن الكريم وان امتاز عن سائر كلام البشر بجزالة المعنى ، وفخامة اللفظ ، وحسن السياق ، وكمال النظم ، الأمر الذى أعجز البلغاء عن محاكاته ، فخروا لبلاغته ساجدين ، فانه مع ذلك قديلتبس الأمر على من ليسوا من فرسان البلاغة ، اذ يشتبه عليهم الآية من القرآن بالحديث من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفعا لهذا الاشتباه ، ومنعا للوقوع فى خطر التغيير والتبديل ، الذى وقع فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى من قبل ، منع رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من كتابة السنن ، وتدوين الأحاديث ، حتى يتسع المجال أمام القرآن ، ويأخذ مكانه من الحفظ والكتابة معا ، وحتى يثبت فى صدور الحفاظ وتألفه أسماعهم ، وبذلك يزول خطر الالتباس . لذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث . روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (لاتكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن

كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه) . فتراه قد منعهم من كتابة الحديث ، ووكله الى حفظهم ، وأجاز لهم روايته ونقله عنه ، مع تحـذيره لهم من الكذب عليه ، وقد كان الصحابة كما تقدم لك على جانب عظيم فى الحفظ فلم يكن هناك خوف على السنن من الضياع . وشىء آخر جعل النبى صلى الله عليه وسلم ينهاهم عن كتابة الحديث هى المحافظة على تلك الملكة التى امتازوا بها فى الحفظ فلو أنهم كتبوا لاتكلوا على المكتوب وأهملوا الحفظ فتضيع ملكاتهم بمرور الزمن . أضف الى هذا أن الكتابة لم تكن منتشرة فيهم ، ولم يكونوا أتقنوها حتى تحل محل الحفظ ، وما كان من الكتابة عند أفراد قلائل فقد انحصر عملهم فى كتابة القرآن والرسائل ولو أنهم كلفوا مع ذلك كتابة السنن لوقع الناس فى حرج عظيم ، والتبس عليهم أمر السنة والكتاب .

التوفيق بين أحاديث النهى عن الكتابة والاذن فيها : —

هذا وربما يقول قائل أن النبى صلى الله عليه وسلم كما نهى عن كتابة الحديث كذلك ورد عنه الأذن بالكتابة واباحتها ، فقـد روى البخارى فى كتاب العلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اكتبوا لأبى شاه يعنى الخطبة التى سمعها منه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وقـد سأله أبو شاه أن يكتبها له ، وروى عن أبى هريرة أنه قال ليس أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثا منى الا ماكان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب . الى غير ذلك من الآثار الدالة على اباحته صلى الله عليه وسلم كتابة الحديث عنه وهى بظاهرها تتعارض مع حديث أبى سعيد فى النهى عن ذلك .

والجواب عن هـذا التعارض : أن النهى كان خاصا بوقت نزول

القرآن خشية التباسه بغيره والأذن بالكتابة كان فى غير ذلك الوقت . أو أن النهى كان عن كتابة غير القرآن مع القرآن فى صحيفة واحدة والأذن كان بكتابة ذلك متفرقا حتى يؤمن الالتباس . أو يقال كان النهى عن الكتابة متقدما لخوف التباس القرآن بالحديث أو لخوف الاتكال على الكتابة وأهمال الحفظ أو غير ذلك وكان الأذن متأخرا ناسخا للنهى السابق عند أمن اللبس أو عدم الخوف من الاتكال على المكتوب .

على أن بعض العلماء يرى أن حديث أبى سعيد هذا موقوف عليه وليس من كلام النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك البخارى وغيره .

وعلى أى حال فان الحديث لم يكتب فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم على النحو الذى كتب عليه القرآن فلم يأمر النبى أحدا من كتاب الوحى بكتابة حديثه وأن وجد من بعض الأفراد كتابة شىء فذلك قليل جدا وقد كان جل اعتمادهم على الحفظ كما رأيت .

ثم اننا لو لم نلتفت الى قول بعض العلماء فى وقف حديث أبى سعيد وقلنا برفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم فان الذى نميل اليه ونستظهره هو أن آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الاذن بكتابة الحديث ، ودليلنا على ذلك :

أولا — ماروواه البخارى عن ابن عباس أنه قال : (لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لاتضلوا بعده . . الحديث) فقد هم النبى صلى الله عليه وسلم أن يكتب لأصحابه كتابا حتى لا يختلفوا من بعده ، والنبى صلى الله عليه وسلم لايهم الا بحق ، فهذا منه صلى الله عليه وسلم نسخ للنهى السابق فى حديث أبى سعيد .

ثانيا — روى أحمد والبيهقى فى المدخل والعقيلى من طرق مختلفة أن أبا هريرة قال : ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى الا عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب بيده ما سمع منه فأذن له . فاستئذان عبد الله ابن عمرو من النبى فى كتابة الحديث يدل على أن الكتابة كانت منهيا عنها فى أول الأمر ، وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالكتابة لما استأذنه ، ولا خصوصية لعبد الله بن عمرو على غيره . وعليه فيمكن أن يقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلتحق بالرفيق الأعلى الا وكتابة الحديث مأذون فيها [1] .

كتابة الحديث بعد زمن النبى صلى الله عليه وسلم :

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تدون السنة كما دون القرآن الكريم للحكمة التى أشرنا اليها فيما سبق . فلما كان عهد الخلفاء الراشدين — وقد رأيت أمرهم بتقليل الرواية مخافة أن يشتغل الناس بالحديث ويتركوا القرآن وأكثرهم لايزال حديث عهد به ولما يتم له جمعه فى صدره — كذلك لم يريدوا أن يدونوا الحديث فى الصحف كراهة أن يتخذها الناس مصاحف ، يضاهون بها صحف القرآن العزيز ، فيشتبه على بعضهم القرآن بالأحاديث ، وربما اشتغلوا بها عن تلاوته ودرسه . لهذا نرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشيرهم فى كتابة السنن فيشيرون عليه بكتابتها ثم يحجم عمر عن كتابتها مخافة أن يتخذها الناس مصاحف كالقرآن فيلتبس الأمر على عامتهم ومن يأتى بعدهم فيقعوا فيما وقع فيه أهل

---

(١) بل هذا هو المتعين قال فى الفتح (١ — ١٨٢) : أن السلف اختلفوا فى ذلك عملا وتركا وأن كان الأمر استقر والاجماع انعقد على جواز كتابة العلم بل على استحبابه بل على وجوبه على من خشى النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم ا هـ .

الكتاب حيث كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هذا من عند الله وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم . وقد حدثنا القرآن عنهم فقال « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » . روى البيهقى فى المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال أنى كنت أردت أن أكتب السنن وأنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وانى والله لاألبس كتاب الله بشىء أبدا [1].

وقد كان هذا رأيا من عمر رضى الله عنه يتناسب وحالة الناس فى ذلك الوقت فان عهدهم بالقرآن مايزال جديدا لاسيما من يدخل الاسلام من أهل الآفاق فلو أن السنن دونت ووزعت على الأمصار وتناولها الناس بالحفظ والدرس لزاحمت القرآن الكريم وما أمن أن تلتبس به على كثير . فأراد عمر بثاقب فكره أن يحبس الناس على القرآن الكريم حتى يتمكن حفظه من نفوسهم وترسخ صورته فى قلوبهم وينتشر بين خاصهم وعامهم فلا تحوم حوله الشبهات ، ولا تؤثر فيه الشكوك والأوهام ، فأمر بتقليل الرواية أولا ، وأحجم عن كتابة السنن ثانيا ، سدا لذرائع الفساد وغلقا لباب الفتنة .

وليس فى هذا تضييع للأحاديث فانه مازال الناس بخير وما زالت ملكاتهم قوية وحوافظهم قادرة على حفظ السنن . وقد تتابع الخلفاء على سنة عمر رضى الله عنه فلم يشأ أحدهم أن يدون السنن ولا أن يأمر

(١) تدريب الراوى ص ١٥١ .

الناس بذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بجمع الحديث لدواع اقتضت ذلك بعد حفظ الأمة لكتاب ربها وأمنها عليه أن يشتبه بالسنن

آول من أمر بتدوين السنة من الخلفاء :

كاد القرن الأول ينتهى ولم يصدر أحد من الخلفاء أمره الى العلماء بجمع الحديث بل تركوه موكولا الى حفظهم وبعض كتابات لأفراد منهم يعملونها لأشخاصهم أو لمن يطلبها منهم . ومرور مثل هذا الزمن الطويل كفيل بتركيز القرآن فى نفوسهم فقد أصبح يتلوه القاصى والدانى ويعرفه الخاص والعام لايختلف فيه أحد ولا يتشكك فى شىء من آياته ولأول وهلة يسمع المسلم حرفا من القرآن يعلم لوقته أنه هو القرآن لاغيره يحمل متانة الفاظه وجزالة أسلوبه وقوة اعجازه

ومرور هذا الزمن الطويل كفيل أيضا بأن يذهب بكثير من حملة الحديث من الصحابة والتابعين ويهيىء لكثير من أهل الأهواء كالخوارج والروافض أن يتزيدوا فى الحديث ماشاءوا وشاءت لهم أهواؤهم . ومرور مثل هذا الزمن جعل العرب يختلطون بالأعاجم فىالبلدان المختلفة فيحصل بينهم الأزدواج والتناسل فينشأ جيل جديد قليل الضبط ضعيف الحفظ .

لذلك لما أن ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فى العام التاسع والتسعين من الهجرة نظر بثاقب رأيه الى الحديث النبوى فوجد من الواجب عليه كتابته وتدوينه فقد زال المانع وتوفرت الدواعى .

فازاء هذا كله أصدر عمر بن عبد العزيز أمره الى علماء الآفاق بجمع الحديث وتدوينه . روى البخارى فى باب كيف يقبض العلم : (وكتب عمر بن عبد العزيز الى أبى بكر بن حزم أنظر ماكان من حديث رسول

الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل الا حديث النبى صلى الله عليه وسلم ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لايعلم فان العلم لايهلك حتى يكون سرا) وأخرج أبو نعيم فى تاريخ اصبهان : (ان عمر بن عبد العزيز كتب الى أهل الآفاق انظروا الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه) وروى مالك فى الموطأ — رواية محمد بن الحسن — (ان عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله وقاضيه على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أنظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فأنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء) .

من هذه الروايات ترى أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أهل الآفاق بأن يكتبوا الحديث . لكن من ذا الذى كان له فضيلة السبق فى تدوين السنن منهم المشهور على ألسن علماء الحديث وحفاظ الأثر ، أن ابن شهاب الزهرى هو أول من جمع الحديث على رأس المائة الأولى للهجرة بأمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز . ذكر الحافظ ابن حجر العسقلانى فى باب كتابة العلم من فتح البارى مانصه : (قال العلماء وكره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث واستحبوا أن يؤخذ عنهم حفظا كما أخذوه حفظا لكن لما قصرت الهمم وخشى الأئمة ضياع العلم دونوه وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير والحمد لله) اهـ (ج ١ ص ١٨٥ الأميرية) .

هذا وكانت طريقتهم فى التدوين تتبع وحدة الموضوع فهم يجمعون فى المؤلف الواحد الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد كالصلاة

مثلا يجمعون الأحاديث الواردة فيها فى مؤلف واحد وهكذا الصوم والزكاة والطلاق وهلم جرا .

الا أنه لم يبلغنا شيء من هذه الكتب الحديثية والظاهر أن العلماء فيما بعد أدمجوها ضمن مصنفاتهم لاسيما اذا كانت محفوظة لهم كما هو الغالب من حالهم .

المبحث السادس

تراجم لبعض مشاهير الرواة من الصحابة رضى الله عنهم

رأينا أن نترجم لبعض مشاهير الرواة من الصحابة حتى يتبين لنا شيء من عنايتهم بالسنة النبوية ، وحرصهم عليها تلقياوأداء . ويحسن أن نقدم بين يدى ذلك كلمة موجزة عن معنى الصحابى ، وبم تعرف الصحبة ، وعن اجماع الأمة على عدالتهم وتوثيقهم فنقول : —

من هو الصحابى ؟

المحققون من أهل الحديث . كالبخارى وأحمد بن حنبل على أن الصحابى من لقى النبى صلى الله عليه وسلم وهو مميز مؤمنا به ومات على الاسلام ، طالت مجالسته له أو قصرت ، روى عنه أو لم يرو ، غزا معه أو لم يغز . قال البخارى فى صحيحه : من صحب النبى صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه أهـ . وقال أبو المظفر السمعانى : أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابى على كل من روى عنه صلى الله عليه وسلم حديثا أو كلمة ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية من الصحابة . وهذا لشرف منزلة النبى صلى الله عليه وسلم أعطوا كل من رآه حكم الصحبة . وذكر أن اسم الصحابى من حيث اللغة والظاهر يقع على من طالت صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم

وكثرت مجالسته له على طريق التبع له والأخذ عنه قال : وهذا طريق الأصوليين أهـ . وقال ابن الصلاح فى مقدمته : روينا عن شعبة عن موسى السيلانى — وأثنى عليه خيرا — قال : أتيت أنس بن مالك فقلت : هل بقى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد غيرك ، قال : بقى ناس من الأعراب قد رأوه ، فأما من صحبه فلا » اسناده جيد حدث به مسلم بحضرة أبى زرعة اهـ . وهذا القول قريب من قول الأصوليين .

بم تعرف الصحبة ؟

يعرف كون الراوى صحابيا : (١) بالتواتر كما فى الخلفاء الأربعة ، (٢) أو بالاستفاضة والشهرة القاصرة عن التواتر كما فى ضمام بن ثعلبة وعكاشة بن محصن (٣) أو بأن يروى عن آحاد الصحابة أنه صحابى كما فى حممة بن أبى حممة الدوسى الذى مات باصبهان مبطونا فان أبا موسى الأشعرى شهد له أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم (٤) أو بقوله وأخباره عن نفسه بأنه صحابى بعد ثبوت عدالته ومعاصرته للنبى صلى الله عليه وسلم (٥) وكذلك تعرف الصحبة بأخبار أحد التابعين أن فلانا من الصحابة بناء على قبول التزكية من الواحد العدل وهو الراجح .

اجماع الأمة على عدالة الصحابة :

للصحابة بأسرهم خصيصة وهى أنه لا يسأل عن عدالة أحد منهم وذلك أمر مسلم به عند العلماء لكونهم على الاطلاق معدلين بنصوص الكتاب والسنة واجماع من يعتد به فى الاجماع من الأمة . قال الله تبارك وتعالى : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة . ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج

شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

وفى نصوص السنة الشاهدة بذلك كثرة ، منها حديث أبى سعيد المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لاتسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) ومنها حديث عبد الله بن مغفل عند الترمذى وابن حبان فى صحيحه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الله الله فى أصحابى ، لاتتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه) .

وبعد تعديل الله تعالى ورسوله لهم ، لايحتاج أحد منهم الى تعديل أحد من الخلق ، على أنه لو لم يرد من الله تعالى ورسوله الكريم شىء فى تعديلهم لأوجبت حالهم تعديلهم ، لما كانوا عليه من الهجرة ، والجهاد ، ونصرة الأسلام ، وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأبناء فى سبيل الله ، والمناصحة فى الدين ، وقوة الايمان واليقين . قال أبو زرعة الرازى : (اذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وانما أدى ذلك كله الينا الصحابة . وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، فالجرح بهم أولى) قال ابن الصلاح : « ثم أن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة ومن لابس الفتن منهم فكذلك باجماع العلماء الذين يعتد بهم فى الاجماع

احسانا للظن بهم ونظرا الى ما تمهد لهم من المآثر وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الاجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة » أهـ .

عـدد الصحـابة

هذا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرون جـدا ولا يعرف عددهم على اليقين ومن حدهم من العلماء فانما أراد التقـريب . روى البخارى فى صحيحه أن كعب بن مالك قال فى قصة تخلفه عن غزوة تبوك : (وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لايجمعهم كتاب حافظ) وقيل لأبى زرعة : أليس يقال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف حديث ؟ قال : هذا قول الزنادقة ، ومن يحصى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قبض رسول الله عن مائة ألف وأربعـة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه فقيـل له : هؤلاء أين كانوا وأين سمعوا منه ؟ قال : أهل المدينـة وأهل مكة ومن بينهما والأعراب ومن شهد معه حجة الوداع كل رآه وسمع منه بعرفة) اهـ

ومن هذا ترى أن الرواة من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير جدا — لذلك نكتفى بذكر بعضهم ممن اشتهروا بالحديث مقتصرين على الناحيـة الحديثية لكل راو مع اجمال الكلام على حياته العامة فنقول :

أبو هـريرة

هو عبد الرحمن بن صخر وكنيته أبو هريرة ، أسلم وقدم على النبى صلى الله عليه وسلم عام خيبر سنة سبع من الهجرة فى المحرم . وهـو أحفظ من روى الحديث فى دهره بشهادة الامام الشافعى رضى الله عنه وغيره ، مع قلة صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسر فى ذلك أمور نذكرها لك :

أولا — مواظبته على حضور مجالس النبى صلى الله عليه وسلم فقد روى الشيخان وغيرهما أن أبا هريرة قال : انكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، انى كنت امرأ مسكينا صحبت النبى صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى وكان المهاجرون يشغلهم الصفق فى الأسواق وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم فحضرت من النبى صلى الله عليه وسلم مجلسا فقال : من بسط رداءه حتى أقضى مقالتى ثم يقبضه اليه فلن ينسى شيئا سمعه منى فبسطت بردة على حتى قضى حديثه ثم قبضتها الىّ فوالذى نفسى بيده ما نسيت منه شيئا بعد » .

ثانياً — رغبته الشديدة في تحصيل العلم حتى نالته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ألا ينسى شيئا من العلم ، فبز أقرانه فى كثرة الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مع أنه لم يصحبه سوى ثلاث سنين . روى النسائى فى باب العلم من سننه (أن رجلا جاء الى زيد بن ثابت فسأله عن شيء فقال عليك أبا هريرة ، فانى بينما أنا جالس وأبو هريرة وفلان فى المسجد ذات يوم ندعو الله ونذكره اذ خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم حتى جلس الينا فسكتنا فقال : عودوا للذى كنتم فيه قال زيد : فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمن على دعائنا . ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم انى أسألك ما سألك صاحباى وأسألك علما لاينسى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آمين فقلنا يارسول الله : ونحن نسأل الله تعالى علما لا ينسى فقال : سبقكم بها الغلام الدوسى) وروى البخارى فى باب الحرص على الحديث من كتاب العلم عن أبى هريرة أنه قال : يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لايسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من

حرصك على الحديث — أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه أو نفسه » .

ثالثا — أدرك أبو هريرة كبار الصحابة وأخذ عنهم الشيء الكثير من الحديث فتكامل علمه به واتسع أفقه فيه .

رابعا — طول حياته بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فقد عاش بعده سبعة واربعين عاما ينشر الحديث ويبثه بين الناس بعيدا عن المناصب والمشاغل والفتن .

من هذه الأمور مجتمعة كان أبو هريرة أحفظ الصحابة للحديث ، متفوقا عليهم فى باب التحمل والرواية معا ، وكان كل ما رواه أبو هريرة مجتمعا يثبت متفرقا لدى جميع الصحابة أو كثير منهم ، لهذا كانوا يرجعون اليه ، ويعتمدون فى الرواية عليه ، حتى أن ابن عمر كان يترحم عليه فى جنازته ويقول : « كان يحفظ على المسلمين حديث النبى صلى الله عليه وسلم » قال البخارى : « روى عن أبى هريرة نحو من ثمانمائة رجل من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم » اهـ .

وجاء عنه من الحديث خمسة آلاف وثلثمائة واربعة وسبعون حديثا (٥٣٧٤) اتفق الشيخان منها على ثلثمائة وخمسة وعشرن (٣٢٥) وانفرد البخارى بثلاثة وتسعين (٩٣) ومسلم بمائة وتسعة وثمانين (١٨٩)

توفى أبو هريرة بالمدينة سنة (٥٧) سبع وخمسين من الهجرة على المعتمد عن ثمانية وسبعين عاما رضى الله عنه .

أبو سعيد الخدرى

هو سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى استشهد أبوه يوم أحد ولم يترك له مالا فتحمل أبو سعيد هموم العيش ومصاعب

الحياة صغيرا . لكن لم يمنعه ذلك عن حضور مجالس النبى صلى الله عليه وسلم وتلقى الحديث عنه فى رغبة وحرص فائقين حتى تحمل عنه مالم يتحمله من كان فى مثل متاعبه المعيشية فعد بحق من مشهورى الصحابة وفضلائهم ومحدثيهم المكثرين ورواتهم النابهين .

عاش أبو سعيد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة وستين عاما مكنته من تحمل الحديث عن كبار الصحابة ثم نشره وأدائه الى الناس لذلك كثر المروى عنه حتى جاوز الألف . فقد نقل عنه أصحاب الحديث (١١٧٠) الفا ومائة وسبعين حديثا اتفق الشيخان منها على (٤٦) ستة واربعين وانفرد البخارى (١٦) بستة عشر حديثا ومسلم باثنين وخمسين حديثا (٥٢)

روى الحديث عن أبى سعيد كثير من الصحابة والتابعين فمن الصحابة جابر وزيد بن ثابت وابن عباس وأنس وابن عمر وابن الزبير . ومن التابعين سعيد بن المسيب وأبو سلمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعطاء بن يسار وغيرهم .

وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة غزوة أولاها الخندق . وكان قوالا للحق لايرهب فيه آحدا مهما كان سلطانه وعظيم شأنه .

توفى أبو سعيد بالمدينة سنة اربع وسبعين عن بضع وثمانين سنة . نشر فيها كثيرا من الحديث وكان محل تقدير الصحابة والتابعين . فرضى الله عنه .

جابر بن عبد الله

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى السلمى الصحابى

ابن الصحابى أحد المكثرين من رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن كثير من أصحابه كأبى بكر وعمر وعلى . وروى عنه أولاده عبد الرحمن وعقيل ومحمد . وكثير من التابعين كسعيد بن المسيب وعمرو بن دينار والحسن البصرى وغيرهم .

استشهد والده فى غزوة أحد وترك بنات صغارا ودينا كبيرا مما جعل جابرا يذوق نصب الحياة وشظف العيش . الا أن النبى صلى الله عليه وسلم تلقاه بعطفه وكرمه ورعاه بعنايته حتى قضى دينه .

على أن مالقيه جابر من صعوبات الحياة لم يكن مانعا له من تحصيل العلم وتلقى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد لازمه فى كل غزواته بعد مقتل أبيه ، وأتاح له صغر سنه وامتداد عمره وشهوده عصر كبار الصحابة الاكثار من تحمل الحديث وروايته حتى كان له حلقة فى المسجد النبوى يؤخذ عنه فيها العلم .

عاش جابر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة وستين عاما قضاها فى نشر الحديث حتى روى له (١٥٤٠) ألف وخمسمائة واربعون حديثا . اتفق البخارى ومسلم منها على ستين حديثا . وانفرد البخارى بستة وعشرين حديثا ومسلم بمائة وستة وعشرين حديثا .

ومناقبه رضى الله عنه كثيرة : منها ما رواه الشيخان عنه قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية : (أنتم اليوم خير أهل الأرض) وكنا الفا واربعمائة . قال جابر : لو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة .

كف بصره فى أواخر عمره وتوفى سنة ثمان وسبعين من الهجرة على أحد الاقوال رضى الله عنه .

أنس بن مالك

هو أنس بن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى النجـارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزيل البصرة . جاءت به أمه أم سليم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة وقالت يا رسول الله : هذا غلام يخدمك ، فقبله النبى صلى الله عليه وسلم. فوجد أنس فيه أكبر العزاء عن والده ،ونشأ فى بيت النبوة ، وشاهد ما لم يشاهده غيره ، ووقف من أحوال النبى وأفعاله على الشىء الكثير . وعاش بعد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثمانين عاما ، فساعده ذلك على تلقى الكثير من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الكبار من أصحابه بعده . كما أمكنه طول حياته من نشر الحديث بين الناس .

استقر بالبصرة بعد المدينة ، وتصدر للرواية ، وتخرج عليه كثير من أئمة الحديث من التابعين ، أمثال الحسن وابن سيرين وحميد الطويل وثابت البنانى وغيرهم .

روى لأنس ألف ومائتان وستة وثمانون حديثا (١٢٨٦) اتفق الشيخان منها على مائة وثمانية وستين . وانفرد البخارى بثلاثة وثمانين . ومسلم بأحدى وسبعين .

وروى البخارى فى تاريخه عن قتادة قال لما مات أنس قال مورق : ذهب اليوم نصف العلم قيل له كيف ذلك ؟ قال كان الرجل من أهـل الأهواء اذا خالفنا فى الحديث قلنا تعال الى من سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاة أنس خارج البصرة على نحو فرسخ ونصف ، ودفن فى موضع يعرف بقصر أنس والصحيح الذى عليه الجمهور أنه توفى سـنة ثلاث وتسعين من الهجرة .

عائشة أم المؤمنين

هى عائشة بنت أبى بكر الصديق ، احدى أمهات المؤمنين ، وزوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ولدت بعد بعثة النبى بسنتين على أحد الأقوال . ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم تزوجها وهى بنت ست سنين وبنى بها وهى بنت تسع سنين فى شوال من السنة الأولى للهجرة . وقيل من السنة الثانية بعد منصرفه من بدر .

هيأ لها زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلاطها به مع ذكائها النادر وفطنتها العظيمة وفكرها الثاقب ورغبتها الشديدة فى معرفة أحكام الدين أن تحملت كثيرا من الحديث وعلوم القرآن حتى ضربت فى كل علم بسهم وافر وأصبحت المرجع فى الحكم عند الاختلاف . فلا غرابة أن تلقى عنها كبار الصحابة ، وتحمل عنها الحديث عمر بن الخطاب على كثرة ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أضف الى ذلك أنها بقيت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثين عاما يغترف الناس من بحرها الزاخر وعلمها الفياض .

فلاجرم ان كانت عائشة معدودة من المكثرين لرواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليهوسلم . روى لها الفان ومائتان وعشرة أحاديث (٢٢١٠) اتفق الشيخان من ذلك على مائة واربعة وسبعين حديثا . وانفرد البخارى باربعة وخمسين ومسلم بثمانية وستين .

قال مسروق : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض .

توفيت رضى الله عنها سنة سبع وخمسين من الهجرة .

عبد الله بن عبـــاس

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخت زوجه ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة على أحد الأقوال .

فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم ضمه اليه وقال اللهم علمه الحكمة .

كان لابن عباس بحكم قرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وصغر سنه اختلاط كثير مكنه من كثرة الرواية عنه . أضف الى هذا ميله الطبيعى الى تحصيل الحديث وشغفه العظيم به مما وجه نظر النبى صلى الله عليه وسلم اليه فسر به ودعا له . وقد ظهر لكل هذه العوامل آثارها فى شخص هذا الصحابى الجليل حتى أصبح ترجمان القرآن وحبر الأمة وعـد من المكثرين لرواية الحديث .

عاش ابن عباس بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثمانية وخمسين عاما هيأت له أسباب الأخذ والتحمل عن كبار الصحابة وصغارهم روى الدارمى فى مسنده عن عبد الله بن عباس أنه قال : (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار هلم فلنسأل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فانهم اليوم كثير . قال : واعجبا لك ، أترى الناس يفتقرون اليك قال : فتركت ذلك الرجل وأقبلت أسأل فان كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل فأتوسد ردائى على بابه يسفى الريح على من التراب فيخرج فيرانى ، فيقول يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما جاء بك ؟ هلا أرسلت الى فآتيك فأقول : لا ، أنا أحق

أن آتيك فأسألك عن الحديث فعاش ذلك الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألوننى . فقال هذا الفتى كان أعقل منى) .

من هذا الأثر يمكنك أن تستخلص مقدار عقله ، وحرصه على جمع الحديث ، وتفانيه فيه ، كما يؤخذ منه مبلغ ماوصل اليه ابن عباس من الأمامة فى الحديث ، والعمل على نشره ، حتى كان الناس يجتمعون اليه ، ويستمعون لحديثه ، وهذا عمر بن الخطاب على مهارته وحذقه ، واجتهاده لله وللمسلمين ، كان اذا جاءته قضية معضلة قال لابن عباس : انها قد طرأت علينا أقضية وعضل ، فأنت لها ولأمثالها ويأخذ بقوله .

فاق ابن عباس غيره فى العلم والفقه والحديث والتأويل والحساب والفرائض والعربية حتى لقد كان يجلس يوما لايذكر فيه الا الفقه ، ويوما التأويل ، ويوما المغازى ، ويوما أيام العرب . قالوا وما جلس اليه عالم قط الاخضع له ولا سأله الا وجد عنده علماً . حتى قال طاوس : وقد قيل له : لزمت هذا الغلام وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انى رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تدارءوا فى أمر صاروا الى قول ابن عباس) .

وقصارى القول أن ابن عباس كان أمة وحده فى العلم والحديث روى له ألف وستماية وستون حديثا . اتفق الشيخان على رواية خمسة وتسعين منها وانفرد البخارى بمائة وعشرين ومسلم بتسعة واربعين .

استعمله على رضى الله عنه على البصرة فبقى أميرا عليها ثم فارقها قبل مقتل على وعاد الى الحجاز فقضى أخريات أيامه يعلم الناس بمكة وتوفى بالطائف سنة ثمانية وستين من الهجرة فرضى الله عنه .

عبد الله بن عمر بن الخطاب

أسلم عبد الله قديما وهو صغير وهاجر مع أبيه وقيل قبله . وشهد الخندق وما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن بعده شهد اليرموك وفتح مصر وأفريقية وكان شديد الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبيه وعمه زيد وأخته حفصة أم المؤمنين وابى بكر وعثمان وعلى وبلال وزيد بن ثابت وصهيب وابن مسعود وعائشة ورافع بن خديج وغيرهم .

وروى عنه خلق كثير فمن الصحابة ابن عباس وجابر والأغر المزنى وغيرهم . ومن التابعين أولاده الأربعة بلال وحمزة وسالم وعبد الله ومولاه نافع وأسلم «مولى عمر» وزيد وخالد ابنا أسلم وعروة بن الزبير وغيرهم .

قال الزبير بن بكار : ان كان ابن عمر ليحفظ ماسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل من حضر — اذا غاب — عن قوله وفعله . وروى البيهقى فى المدخل عن الزهرى أنه قال : لايعدل برأى ابن عمر فانه أقام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستين سنة فلم يخف عليه شىء من أمره ولا من أمر أصحابه .

وعن مالك أنه قال : (أقام ابن عمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستين سنة تقدم عليه وفود الناس)

وقد جنبه ابوه الخلافة وجعل رأيه فى أصحاب الشورى استشاريا فقط لذلك كان ابن عمر على الحياد فلم يدخل فى شىء من الفتن والحروب التى وقعت بين الصحابة بل توفر على العلم والعبادة .

وقد كان عبد الله معدودا من المكثرين لرواية الحديث وساعده على ذلك أمور :

١ — تقدم اسلامه ، وانفساح عمره ، وشدة ملازمته لمجالس النبى صلى الله عليه وسلم ، وكثرة اتباعه لآثاره ، وسؤاله اذا غاب عن قوله وفعله ، مما يدل على شغفه بالعلم وتحصيل الحديث .

٢ — اتصاله بالنبى صلى الله عليه وسلم بطريق المصاهرة ، فقد كانت أخته حفصة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم فسهل عليه مخالطته فى أغلب الأوقات .

٣ — زهده فى الدنيا والامارة ، ومجانبته للحروب التى شبت بين الصحابة مما أعانه على التفرغ للحديث تحملا وأداء .

لهذا كله كان عبد الله من المكثرين ، فقد روى له ألف وستمائة وثلاثون حديثا اتفق الشيخان من ذلك على مائة وسبعين وانفرد البخارى بواحد وثمانين ومسلم بواحد وثلاثين . والباقى رواه غيرهما .

كانت وفاته رضى الله عنه سنة ٧٣ هـ بعد مقتل عبد الله بن الزبير بثلاثة أشهر وعمره سبع وثمانون عاما على المعتمد .

عبد الله بن عمرو بن العاص

هو ابو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى السهمى . أسلم قبل أبيه وكان مجتهدا فى العبادة مكثرا لتلاوة القرآن كما كان أكثر الناس أخذا للحديث والعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخارى فى كتاب العلم أن أبا هريرة قال : (ما كان أحد أكثر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب) وجاء عنه أنه كان يكتب كل ما يسمعه من النبى

صلى الله عليه وسلم فنهته الصحابة عن ذلك وقالوا له أن النبى صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الغضب والرضا فلا تكتب كل ما تسمع فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال له اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منهما الا حق يعنى شفتيه الكريمتين ، وجاء عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير : (يا ابن أختى بلغنى ان عبد الله بن عمرو مار بنا الى الحج فالقه فاسأله فانه قد حمل عن النبى صلى الله عليه وسلم علما كثيرا) — وروى ابن سعد عن مجاهد أنه قال : (رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد) .

وروى ابن سعد أيضا عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابة ماسمعت منه فأذن لى فكتبته فكان عبد الله يسمى صحيفته تلك الصادقة) اهـ .

من هذا ترى أن عبد الله بن عمرو قد توفر لديه من أسباب التحمل للحديث والاكثار منه مالم يتوفر لغيره فقد تقدم اسلامه وحفظ الحديث بصدره ووعاه بقلبه ودونه بقلمه فى الصحف حتى نقل عنه أنه قال (حفظت عن النبى صلى الله عليه وسلم ألف مثل) .

لماذا كانت مروياته أقل من مرويات أبى هريرة

وقد يقال ان أبا هريرة لم يكن يكتب الحديث مثل عبد الله بن عمرو ومع ذلك ما روى عنه أضعاف ماروى عن عبد الله فكيف يتفق هذا مع ما رواه البخارى عن أبى هريرة . والجواب أن السبب فى كثرة ما روى عن أبى هريرة وقلة ما روى عن عبد الله بن عمرو مع أنه تحمل أكثر منه أمور منها : —

أولا — أن عبد الله كان مشتغلا بالعبادة أكثر من اشتغاله بالتعليم فقلت الرواية عنه بخلاف أبى هريرة فقد كان متصدرا للتحديث .

ثانيا — ان عبد الله كان أكثر مقامه بعد الفتوح بمصر أو بالطائف ولم تكن الرحلة اليهما من طلاب الحديث كالرحلة الى المدينة . وكان أبو هريرة مقيما بالمدينة متصديا للفتوى والتحديث الى أن مات . ويظهر هـذا فى كثرة من أخذ الحديث عن أبى هريرة فقد بلغ عددهم ثمانمائة نفس من التابعين ولم يقع هذا لغيره من الصحابة على ماسبق لك .

ثالثا — مااختص به أبو هريرة من دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بألا ينسى مايحدثه به كما سبق ذلك فى ترجمته .

رابعا — ان عبد الله بن عمرو كان قد وقع له بالشام كتب من كتب أهل الكتاب فكان ينظر فيها ويحفظ منها جملا ويحدث بها فتجنب التحمل عنه لذلك كثير من أئمة التابعين .

لهذه الاسباب نجد أن ماروى عنه من الحديث لايتناسب مع غزارة علمه وكثرة ماحفظه وكتبه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصلنا عنه سوى سبعمائة حديث اتفق الشيخان منها على سبعة عشر وانفـرد البخارى بثمانية ومسلم بعشرين .

روى عن عبدالله بن عمرو خلائق كثيرون من التابعين منهم سعيد بن المسيب وعروة وأبو سلمة وحميد ابنا عبد الرحمن ، ومسروق وغيرهم وتوفى بمصر على أحد الأقوال سنة ٦٣ من الهجرة عن اثنين وسبعين عاما عاش منها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة وخمسين عاما .

عبد الله بن مسعود

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ينتهى نسبه الى هذيل بن

مدركة بن الياس واسم أمه أم عبد بنت عبدود بن سواء بن هــذيل أيضا أسلمت وهاجرت .

أسلم عبد الله قديما حين أسلم سعيد بن زيد قبل اســلام عمر بن الخطاب بزمان . جاء عنه أنه قال : (لقد رأيتنى سادس ستة ماعلى الأرض مسلم غيرنا) وهاجر الى الحبشة ثم الى المدينة ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد. وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر كما شهد اليرموك . وهــو صاحب نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبسه أياها اذا قام فاذا خلعها وجلس جعلها ابن مسعود فى ذراعه . وكان كثير الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم والخدمة له . ففى الصحيحــين أن أبا موسى الأشعرى قال : « قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا لانرى ابن مسعود وأمه الا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نرى من كثرة دخوله ودخــول أمه على رسول الله صلى الله عليه وســلم ولزومه له » .

ولتقدم اسلامه وملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم وشغفه بالأخذ عنه عد من كبار الصحابة ، وفضلائهم وفقهائهم ، والمقدمين فى القرآن والحديث والفتوى ، حتى شهد له رسول الله صلى الله عليه وســلم بالنبوغ فى القرآن وعلومه فقال فيما رواه الشيخان : (خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ومعاذ ، وأبى بن كعب) ونطق هو رضى الله عنــه متحدثا بنعمة العلم فقال كما جاء فى صحيح مسلم : (والذى لااله غيره ما من كتاب الله سورة الا وأنا أعلم حيث أنزلت وما من آية الا وأنا أعلم فيم نزلت ، ولو علمت أن أحدا هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الأبل لركبت اليه) .

وقد عرف كبار الصحابة له أيضا منزلته فى العلم ورسوخه فيه فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب الى أهل الكوفة (بعثت اليكم عمارا أميرا ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى) وناهيك بهذه الشهادة من مثل عمر ابن الخطاب لاسيما قوله « وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وعمر هو عمر الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه والذى كان يرى الرأى فينزل به القرآن وانما يعرف الفضل من الناس ذووه . وهذا أبو الدرداء يقول حين توفى ابن مسعود (ماترك بعده مثله) .

روى الحديث عن ابن مسعود خلق كثير : فمن الصحابة أبو موسى الأشعرى وعمران بن حصين وابن عباس وابن عمر وجابر وأنس وابن الزبير وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وأبورافع الى غير هؤلاء من الأعلام . ومن التابعين علقمة وأبو وائل والأسود ومسروق وعبيدة وقيس ابن أبى حازم وغيرهم من كبار التابعين .

مروياته :

روى لابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثا ، اتفق الشيخان منها على أربعة وستين حديثا ، وانفرد البخارى بأحد وعشرين حديثا ، ومسلم بخمسة وثلاثين حديثا .

كنا ننتظر أن يبلغنا عن ابن مسعود اضعاف ما بلغنا عنه من الحديث ، لما رأيت من تقدم اسلامه وشدة ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأمر الذى مكنه من تحمل كثير عنه ، فقد شاهد عصر النبوة جميعه ، مع ملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم وشدة حرصه على الحديث

وقوة حفظ وزهد فى الدنيا وتفرغ لتحصيل العلم ، ولكنه لم تطل به الحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتسع له زمن الأداء كما اتسع لأبى هريرة وغيره ممن ذكرنا .

توفى ابن مسعود بالكوفة وقيل بالمدينة سنة ٣٢ هـ عن بضع وستين سنة .

تفاوت الصحابة فى رواية الحديث

كان الصحابة رضى الله عنهم معنيين بحفظ الحديث وكانوا يختلفون فى ذلك قلة وكثرة ولذلك أسباب خاصة تعرف من ترجمة كل صحابى على حدة وأسباب عامة نجملها لك فيما يلى : —

أولا — الاشتغال بالخلافة والحروب عاق كثيرا من الصحابة عن تحمل الحديث وروايته كما فى الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير ، وعلى العكس من ذلك مكن التفرغ من هذه الشواغل لكثير من الصحابة فى كثرة التحمل والاداء كما فى أبى هريرة وعائشة وابن عمر وغيرهم

ثانيا — طول الصحبة للنبى صلى الله عليه وسلم وكثرة ملازمته سفرا وحضرا وانفساح الأجل بعد وفاته كان مدعاة للاكثار من تحمل الحديث وروايته كما فى ابن مسعود وأبى هريرة وجابر بن عبد الله وأنس وابن عمر وغيرهم ولهذا قلت أو عدمت رواية من مات فى عهد النبوة أو بعدها بقليل كما قلت رواية من لم تطل صحبته أو لم تكثر ملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم .

ثالثا — تجدد الحوادث واحتياج الناس الى بيان احكامها كان سببا فى كثرة الاداء والرواية ، والحرص على طلب الحديث ، حتى تعرف الأحكام الشرعية في مثل هذه الحوادث ، التي لم يكن لهم عهد بمثلها فلهذا

بادر الصحابة الى اظهار ما عندهم من السنن وتلقاها عنهم الناس بقبول ولهفة .

رابعا — وقوع الفتنة وظهور الكذب فى الحديث من بعض الفرق كالشيعة والخوارج الذين وضعوا كثيرا من الحديث كان داعيا الى قلة الأحاديث التى تروى والى التشدد فيمن يؤخذ عنه الحديث من الرواة . ومن هنا قلت مرويات على رضى الله عنه مما جعل أصحاب الحديث يستمدون أحاديثه من أصحاب ابن مسعود كعبيدة السلمانى وشريح وأبى وائل ونحوهم أو من أهل بيته الأثبات ويرفضون ماوراء ذلك .

خامسا — كثرة الاتباع وقلتهم ونشاطهم وخمولهم كان له أكبر الأثر فى كثرة الرواية وقلتها عن الصحابة رضى الله عنهم . فعثمان بن عفان لم يصلنامعظم أحاديثه لقلة الآخذين عنه بسبب اشتغاله بالخلافة والحروب وجمع القرآن الكريم الى غير ذلك .

سادسا — قوة الحافظة وتقييد الحديث بالكتابة كانا عاملين من عوامل الاكثار من الرواية . كما فى أبى هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص ومن على شاكلتهما .

سابعا — التفرغ للعبادة والتحرج من رواية الحديث على غير اللفظ المسموع من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل كثيرا من الصحابة يحجمون عن رواية الأحاديث أو يقلون منها مع اعتمادهم فى تبليغ الحديث على كثرة أصحاب رسول الله صلى الله عليهوسلم الذين نصبوا انفسهم لمهمة الرواية والأداء .

ثامنا — أن يكون الطريق الى الصحابى ضعيفا فيترك أصحاب الصحيح تخريج حديثه كما فى أبى عبيدة بن الجراح أمينهذه الأمة لم يصح اليه الحديث من جهة الناقلين فلم يخرج له فى الصحيحين [1] .

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١٣٠ .

أكثر الصحابة حديثا

هذه خلاصة العوامل التى أدت الى كثرة الحديث عن بعض الصحابة وقلته عن البعض الآخر لذا كان منهم المكثر ومنهم المقل فأكثرهم حديثا أبو هريرة ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب ثم أنس بن مالك ثم ابن عباس ثم جابر بن عبد الله ثم أبو سعيد الخدرى ثم عائشة أم المؤمنين . وليس فى الصحابة من يزيد حديثه على الف غير هؤلاء .

قال الامام محمد بن سعد فى الطبقات : — (قال محمد بن عمر الاسلمى : انما قلت الرواية عن الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم ماتوا قبل أن يحتاج اليهم وانما كثرت عن عمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب لانهما وليا فسئلا وقضيا بين الناس ، وكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أئمة يقتدى بهم ، ويحفظ عنهم ما كانوا يفعلون ويستفتون فيفتون وسمعوا أحاديث فأدوها فكان الاكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثا عنه من غيرهم مثل أبى بكر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبى عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبى بن كعب وسعد بن عبادة وعبادة بن الصامت وأسيد بن حضير ومعاذ بن جبل ونظرائهم ، فلم يأت عنهم من كثرة الحديث مثل ماجاء عن الأحداث من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس ورافع بن خديج وأنس والبراء ابن عازب ونظرائهم ، لأنهم بقوا وطالت أعمارهم فى الناس ، فاحتاج الناس اليهم ، فمضى كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبله وبعده بعلمه لم يؤثر عنه شيء ، ولم يحتج اليه لكثرة أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من لم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، ولعله أكثر له صحبة ومجالسة وسماعا من الذى حدث عنه ولكنا حملنا الأمر فى ذلك منهم على التوقى فى الحديث ، وعلى أنه لم يحتج اليه لكثرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الاشتغال بالعبادة والأسفار فى الجهاد فى سبيل الله حتى مضوا فلم يحفظ عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم شىء) اهـ .

الرد على شبه وردت على عدالة الصحابة وضبطهم لرواية الحديث

١ — ربما يقول قائل : كيف يعتمد فى نقل السنة المشرفة على الصحابة من غير أن نضعهم فى ميزان التعديل والتجريح وهل صنيع أبى بكر وعمر وعلى فى اشتراطهم الشهادة أو اليمين على سماع الصحابة للحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اقرار لهذا المبدأ وهو البحث عن أحوالهم كسائر الرواة .

والجواب : اننا لم نبلغ بهم درجة النبوة ولكننا اثبتنا لهم حالة من الاستقامة فى الدين تمنعهم من تعمد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه الحالة دل عليها القرآن الكريم والسنة الصحيحة واجماع من يعتد به من المسلمين قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » الآية . فهذه الآية تدل على أن الله تعالى رضى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السابقين منهم الى الاسلام واللاحقين وهو سبحانه لايرضى عن الكاذب وقد قدمنا لك الروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمدحهم والثناء عليهم .

أما من لابس الفتن منهم كطلحة والزبير ومعاوية وعلى رضى الله عنهم فكانوا فى ذلك مجتهدين يرى كل منهم أن الحق فى جانبه وعليه أن يدافع عنه وقد تقرر فى الشريعة أن المجتهد مأجور على كل حال أخطأ أم أصاب الا انه ان اصاب فله أجران وان اخطأ فله أجر واحد. وقد أخبر الله تعالى بأنه رضى عن الذين بايعوا نبيه صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة فقال : (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة) وكان من هؤلاء المبايعين الذين رضى عنهم الله سبحانه من دخل الفتن كطلحة والزبير رضى الله عنهما فثبت بهذا أن الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم .

وأما ماوقع من الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم فانما كان من قبيل التثبت عند قيام عارض الشك فى ضبط الراوى لا فى صدقه وعدالته . يدل على ذلك قول بعضهم للراوى (أما انى لم أتهمك ولكنى أحببت أن أتثبت) ولئلا يتساهل الناس فى باب الرواية على ما قدمنا .

هذا وقد اعتاد فريق من كتاب هذا العصر أن يطلقوا ألسنتهم فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كمعاوية وعمرو بن العاص وأبى هريرة رضى الله عنهم وهذا أثم كبير باتفاق علماء المسلمين قال شيخ الاسلام ابن تيمية : « من لعن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم كمعاوية وعمرو بن العاص أو من هو أفضل من هؤلاء كأبى موسى الأشعرى وأبى هريرة أو من هو أفضل من هؤلاء كطلحة والزبير وعثمان وعلى وأبى بكر وعمر وعائشة فانه يستحق العقوبة البليغة باتفاق المسلمين وتنازعوا هل يعاقب بالقتل أو مادون القتل وقد ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : (لاتسبوا أصحابى فوالذى

نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) واللعنة أعظم من السب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (لعن المؤمن كقتله) وأصحابه خيار المؤمنين كما قال (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم) وكل من رآه وآمن به فله من الصحبة بقدر ذلك » اهـ [1].

٢ — كيف نعتمد فى نقل السنة وروايتها على الصحابة وهم بشر كغيرهم من الرواة يقع منهم الخطأ ويدركهم السهو والنسيان .

والجواب : ان هذا قول من لم يقف على مبلغ استعدادهم الفطرى للحفظ ، وحميتهم الدينية فى المحافظة على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالصحابة رزقوا حوافظ قوية ، وقرائح وقادة ، ساعدتهم كثيرا على حفظ الحديث وضبطه ، وهم يعلمون أن الحديث أصل من أصول الدين ، فضبطوه بالمذاكرة ، وتعهدوه بالدرس والتعليم ، حتى تثبتوا منه كل التثبت . يضاف الى ذلك أن الخلفاء الراشدين انتهجوا فى رواية السنة خطة حكيمة ، فسنوا للناس سنة التثبت ، وطالبوا الراوى بالبينة عند عروض الشك . وكل هذه العوامل أثرت فى اتجاه الرواية ، فلم يندفع الصحابة فى الاكثار الذى لايؤمن عثاره . لذلك قل السهو والنسيان منهم وانعدم الخطأ أو ندر وكان أحدهم اذا سها أو أخطأ فى الرواية ذكره غيره ممن يحفظ الحديث على وجهه . وما جاء من اختلاف بعض الأحاديث فذلك من قبيل الرواية بالمعنى ، وقد أجازها علماء المسلمين من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين كأبى حنيفة والشافعى والحسن البصرى . ويستأنس لذلك بما رواه الطبرانى فى معجمه الكبير وابن منده فى معرفة الصحابة من حديث سليمان ابن اكيمة الليثى أنه قال : قلت يا رسول الله انى أسمع منك الحديث

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٤٧٨ وما بعدها .

لاأستطيع أن أؤديه كما أسمع منك أزيد حرفا أو أنقص حرفا فقال : اذا لم تحلوا حراما أو تحرموا حلالا واصبتم المعنى فلا بأس .

٣ — فان قلت ماتقول فى الحديث الصحيح وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « ليردن على الحوض أقوام ثم ليختلجن دونى فأقول يارب أصيحابى أصيحابى فيقال لى أنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك انهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » وهو يفيد أن فريقا من الصحابة قد ارتد بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وهـذا ينافى القول بعدالتهم على الاطلاق .

والجواب : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يرد بالاقوام فى الحديث أصحابه الذين صدقوا فى الايمان وانما أراد بهم نفرا قليلا كانوا من المنافقين الذين لم يخلصوا الايمان وفيهم يقول الله تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم) وهؤلاء كانوا يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ويحضرون معه المغازى لا لاعلاء كلمة الله بل لأغراض أخرى كطلب الغنيمة أو تثبيطهم المؤمنين أو نحو ذلك فكانوا فى الظاهر معدودين من الصحابة وهم فى الواقع كفار وقد أظهروا ماكانوا يضمرون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفر والعداوة للمؤمنين وارتدوا عن الأسلام وأما الأصحاب الصادقون فلم يكن من أحد منهم ردة أصلا وجميعهم مات على الايمان والحمد لله .

٤ — « أبو هريرة رضى الله عنه وما قيل فيه »

طعن أرباب الأهواء قديما وحديثا فى أبى هريرة رضى الله عنه

ليتخلصوا من أحاديثه التى تقف دون أهوائهم ، وترد كيدهم فى نحورهم ، وسندهم فى هذه المطاعن اما روايات مكذوبة أو ضعيفة واما روايات صحيحة لم يفهموها على وجهها بل تأولوها تأويلا باطلا يتفق وأهواءهم وانا لذاكرون لك بعضا من هـذه الطعون والجواب عنها بايجاز ليكون ذلك نموذجا يحتذى فى الدفاع عن هذا الصحابى الجليل فنقول وبالله التوفيق :

(ا) مما طعن به أهل الأهواء فى صدق أبى هريرة رضى الله عنه « حديث الوعاءين » وهو ماروااه البخارى فى باب حفظ العلم من كتاب العلم عن أبى هريرة قال : « حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم » .

قالوا : هذا الحديث لو صح لترتب عليه أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد كتم شيئا من الوحى عن جميع الصحابة سوى أبى هريرة وذلك لايجوز باجماع المسلمين .

والجواب : أنه ليس فى الحديث مايفيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختصه بهذا الوعاء دون غيره من الصحابة وعلى تقدير أنه اختصه بهذا الوعاء دون غيره من الصحابة فليس فيه شيء من كتمان الوحى الذى أمر الله رسوله أن يبلغه الناس قال ابن كثير : « هذا الوعاء الذى كان لا يتظاهر به هو الحروب والفتن والملاحم وما وقع بين الناس من الحروب والقتال وما سيقع » اهـ فالأخبار عن بعض الحروب والملاحم التى ستقع ليس مما يتوقف عليه شيء من أصول الدين أو فروعه فيجوز للنبى صلى الله عليه وسلم أن يخص بمثل هـذا النوع من الوحى شخصا دون آخر أو فريقا دون فريق .

(ب) ومما اتخذ شبهة على صدق أبى هريرة فى الحديث أنه كان يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدرك الصبح وهو جنب فلا يصم » ويفتى به الناس فبلغ ذلك عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما فأنكرتا عليه وذكرتا « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم » فرجع الى حديثهما وقال : كذلك حدثنى الفضل بن العباس وأسامة بن زيد عنه صلى الله عليه وسلم ، وأمهات المؤمنين أعلم بمثل ذلك من الرجال .

والجواب : أن أبا هريرة لم يسمع الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما سمعه من الفضل وأسامة عنه صلى الله عليه وسلم وهما من أهل الصدق والأمانة ولكن لما ترجح لديه حديث عائشة وأم سلمة رجع اليه وترك فتواه اتباعا للحق وأما حديث الفضل وأسامة فقد أجاب عنه العلماء بأجوبة (منها) أنه معارض بما هو أقوى منه فيترك العمل به الى الأرجح (ومنها) أنه كان فى مبدأ فرض الصيام حين كان الأكل والشرب والجماع محرما بعد النوم ثم أباح الله ذلك كله الى طلوع الفجر فكان للمجامع أن يستمر الى طلوعه فيلزم أن يقع اغتساله بعد طلوع الفجر فدل على أن حديث عائشة وأم سلمة ناسخ لحديث الفضل وأسامة ولم يبلغهما ولا أبا هريرة الناسخ فاستمر أبو هريرة على الفتيا به ثم رجع عنه بعد ذلك لما بلغه قال فى فتح البارى (٤ — ١٢٨) : « وفيه فضيلة لأبى هريرة لاعترافه بالحق ورجوعه اليه » .

(جـ) قالوا : روى أبو هريرة حديث (لاعدوى ولا صفر ولا هامة) فقال أعرابى يارسول الله فما بال الابل تكون فى الرمل كأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فمن أعدى الأول) .

وروى أيضا حديث (لا يوردن ممرض على مصح) أى صاحب ابل مريضة على صاحب ابل صحيحة مخافة العدوى .

قالوا : وبين الحديثين تناقض اذ الحديث الأول ينفى العدوى والثانى يثبتها والنبى صلى الله عليه وسلم لايتكلم بمثل هذا فدار الأمر بين كذب أبى هريرة أو نسيانه فى الرواية فان قلنا بكذبه ارتفعت الثقة بمروياته وان قلنا بنسيانه ناقض حديث ضم الرداء وقوله فيه (فوالذى نفسى بيده مانسيت منه شيئا بعد) .

والجواب : أنه لاتناقض بين الحديثين فحديث (لاعدوى) معناه نفى أن تكون العدوى مؤثرة بذاتها دون ارادته تعالى ، وحديث (لايوردن ممرض على مصح) المقصود منه ألا يورد صاحب الابل المريضة ابله على ابل صحيحة لئلا تمرض فيتوهم الناس أن ذلك المرض جاء للابل الصحيحة من طريق العدوى بدون اذنه تعالى ولك أن تقول أن المقصود من الحديث الثانى هو اثبات العدوى من طريق السببية العادية التى يجوز فيها تخلف المسبب عن سببه فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تلك المخالطة من باب اتقاء أسباب الهلاك العادية امتثالا لقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) — واذا لم يكن بين الحديثين تناقض فلا كذب ولا نسيان .

نعم ثبت أن أبا هريرة كان يروى الحديثين جميعا فى بعض المجالس وكان يقتصر على رواية أحدهما فى بعضها فاقتصر مرة على رواية الحديث الثانى فقيل له انك رويت حديث (لاعدوى) فرطن بالحبشية وأنكر على من قال له ذلك فظن أبو سلمة «الراوى للحديثين عنه » أن أعراضه عن رواية حديث (لاعدوى) فى ذلك المجلس نسيان منه لروايته ويجاب عن

ذلك بأن اعراضه عن روايته هذا الحديث ليس من قبيـل النسيان كما فهم أبو سلمة وانما هو من باب مراعاة حال من يحدثهم ولذلك يقول القرطبى فى المفهم : (يحتمل أن يكون أبو هريرة خاف اعتقاد جاهـل يظنهما متناقضين فسكت عن أحدهما وكان اذا أمن ذلك حـدث بهما جميعا) اهـ وان أردت زيادة على ذلك فارجع الى فتح البارى فى باب لاهامة من كتاب الطب .

(د) قالوا : كان أبو هريرة يدلس فى الحديث فيروى عن النبى صلى الله عليه وسلم مالم يسمعه منه كما فى حديث (من أصبح جنبا فلا صوم له) وقد تقدم والتدليس أخو الكذب .

والجواب عن ذلك : أن أبا هريرة بحكم تأخر اسلامه الى سـنة سبع من الهجرة قد فاته كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عليه ليستكمل علمه بالحديث أن يأخذه عن الصحابة الذين سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم شأنه فى ذلك شأن سائر الصحابة الذين لم يحضروا مجالسه صلى الله عليه وسلم ، اما لاشتغالهم ببعض أمور الدنيا ، واما لحداثة أسنانهم ، وأما لتأخر اسلامهم ، أو لغير ذلك ، يؤيد ذلك ما ثبت عن حميد قال : كنا مع أنس بن مالك فقال : « والله ما كل ما نحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعناه منه ، ولكن لم يكن يكذب بعضنا بعضا » رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح . وعن البراء قال : « ما كل الحديث سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يحدثنا أصحابه عنه ، كانت تشغلنا عنه رعية الابل » رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ورواه الحاكم أيضا فى المستدرك بلفظ : « ليس كلنا سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لنا ضيعة

واشغال ولكن الناس كانوا لا يكذبون يومئذ ويحدث الشاهد الغائب »
قال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

ولا ينبغي أن يعد حذف الصحابي الذي سمع الحديث ولقنهم اياه من قبيل التدليس اذ الصحابة كلهم عدول باجماع أهل الحق . وخلاف العلماء في الاحتجاج بالمرسل انما كان للجهل بحال المحذوف وذلك لا يتأتى ههنا ولذلك يقول ابن الصلاح في مقدمته : « مرسل الصحابي مثل ما يرويه ابن عباس وغيره من أحـداث الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمعوه منه في حكم الموصول المسند لأن روايتهم عن الصحابة والجهالة بالصحابي غير قادحة لأن الصحابة كلهم عدول » اهـ وقال السيوطي في التدريب : (أما مرسل الصحابي كأخباره عن شيء فعله النبي صلى الله عليه وسلم أو نحوه مما يعلم أنه لم يحضره لصغر سنه أو تأخر اسلامه فمحكوم بصحته على المذهب الصحيح الذي قطع به الجمهور من أصحابنا وغيرهم وأطبق عليه المحدثون المشترطون للصحيح القائلون بضعف المرسل وفي الصحيحين من ذلك ما لا يحصى لأن أكثر رواياتهم عن الصحابة وكلهم عدول ورواياتهم عن غيرهم نادرة واذا رووها بينوها بل أكثر ما رواه الصحابة عن التابعين ليس أحاديث مرفوعة بل اسرائيليات أو حكايات أو موقوفات) أ هـ ومن ذلك كله يتبين أنه لا كذب من أبي هريرة اذ أنه لم يقل في هذا الضرب من الحديث : « سمعت رسول الله يقول كذا أو رأيته يفعل كذا » بل كان يقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا أو فعل كذا وما شابه ذلك » — كما أنه لاتدليس منه أيضا لأن الراوي المحذوف من الصحابة والاجماع قائم على عدالتهم .

(هـ) قالوا : نهاه عمر عن التحديث ، وقال له : « لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس » وهذا من عمر يدل على كذب أبى هريرة .

والجواب : ان أبا هريرة كان يرى لزاما عليه أن يحدث الناس بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خروجا من اثم كتمان العلم ، وقد ألجأه ذلك الى أن يكثر من رواية الحديث ، فكان فى المجلس الواحد يسرد الكثير من أحاديثه صلى الله عليه وسلم . ولكن عمر رضى الله عنه كان يرى أن يشتغل الناس أولا بالقرآن ، وأن يقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير أحاديث العمل ، وأن لا يروى للناس أحاديث الرخص لئلا يتكلوا عليها ولا الأحاديث المشكلة التى تعلو على أفهامهم ، كما أنه كان يخاف على المكثرين الخطأ فى رواية الحديث الى غير ذلك ، ومن أجل ذلك كله نهى عمر الصحابة عن الاكثار من الرواية ، وأغلظ لأبى هريرة القول وهدده بالنفى لأنه كان أكثر الصحابة رواية للأحاديث أفاد ذلك الحافظ ابن كثير ثم قال : « وقد جاء أن عمر أذن له بعد ذلك فى التحديث فقال مسدد حدثنا خالد الطحان حدثنا يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبى هريرة قال : بلغ عمر حديثى فأرسل الىّ فقال : كنت معنا يوم كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت فلان قال قلت نعم ، وقد علمت لم تسألنى عن ذلك ، قال ولم سألتك ، قلت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يومئذ : (من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) قال أما اذن فاذهب فحدث » أ هـ من البداية والنهاية (٨ — ١٠٦ ، ١٠٧) .

(و) قالوا : ولم يكن عند أبى هريرة رصيد من الأحاديث أكثر

من غيره ، وانما الذى جعله يتفوق على غيره من الصحابة فى كثرة الرواية أنه استجاز لنفسه أن ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام حسن ، قاله أو لم يقله ، مما هو خارج عن دائرة الحلال والحرام ، كالحث على مكارم الأخلاق ، وأخبار الجنة والنار . قالوا : وسند أبى هريرة فى ذلك أحاديث رواها عن النبى صلى الله عليه وسلم منها :

١ — « اذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس » .

٢ — « اذا حدثتم عنى بحديث يوافق الحق فخذوا به حدثت به أو لم أحدث » .

٣ — « ما بلغكم عنى من قول حسن لم أقله فأنا قلته » .

والجواب عن ذلك : أن كثرة أحاديث أبى هريرة مع تأخر اسلامه لا ترجع الى ما زعموه ، وانما ترجع الى انقطاعه عن الدنيا الى مجالسه صلى الله عليه وسلم وملازمته اياه سفرا وحضرا ، والى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم له ألا ينسى شيئا من حديثه ، والى أنه عاش بعد وفاته صلى الله عليه وسلم نحوا من خمسين عاما يأخذ عن الصحابة ما فاته من الأحاديث ثم يرويها للناس .

وأما زعمهم أنه استجاز لنفسه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير الحلال والحرام فباطل من وجوه :

١ — أن أبا هريرة من رواة حديث (من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) وثبت عنه أنه كان يذكره بين يدى ما يريد أن يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كثير من مجالسه .

٢ — وأن الصحابة قد أقروه على رواية الأحاديث ، ورووها عنه ،

ومن هؤلاء عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصارى وابن عباس وعائشة وجابر وعبد الله بن عمر وأبى بن كعب وأبو موسى الأشعرى « راجع فى ذلك مستدرك الحاكم ج ٣ — ص ٥١٣ وتاريخ ابن كثير ج ٨ — ص ١٠٨ » وهذا اجماع منهم على صدقه وأمانتــه .

٣ — وأن الأحاديث التى رواها أبو هريرة وجد أكثرها عند غيره من الصحابة .

وأما الأحاديث التى نسبوها الى أبى هريرة فنجيب عنها بما يلى :

١ — الحديث الأول فى الرواية بالمعنى لا فيما زعموه من اباحة الكذب عليه صلى الله عليه وسلم ولم يروه أبو هريرة بل رواه غيره ففى مجمع الزوائد (١ — ١٥٤) عن يعقوب بن عبد الله بن سليمان بن أكيمة الليثى عن أبيه عن جده قال : أتينا النبى صلى الله عليه وسلم فقلنا له بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ، انا نسمع منك الحديث فلا نقدر أن نؤديه كما سمعنا قال : « اذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس » رواه الطبرانى فى الكبير ولم أر من ذكر يعقوب ولا أباه أ هـ وعزاه السيوطى فى تدريب الراوى (ص ١٦١) الى ابن منده فى معرفة الصحابة والطبرانى فى الكبير .

٢ ، ٣ — والحديثان الثانى والثالث مكذوبان على أبى هريرة اذ فى سند الأول منهما أشعث بن براز : « كذاب ساقط لا يؤخذ حديثه » — وفى سند الثانى منهما عبد الله بن سعيد ، « كذاب مشهور » . قال ابن حزم فى الأحكام . (ج ٢ — ص ٧٦ وما بعدها) : « وقد ذكر قوم لا يتقون الله عز وجل أحاديث ، فى بعضها ابطال شرائع الاسلام ، وفى

بعضها نسبة الكذب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واباحة الكذب عليه » ثم سرد تلك الأحاديث ، وفيها هذان الحديثان ، وأبطلهما بما ذكرناه ، ثم قال ردا على من أباح أن ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقله : « حسبنا أنهم مقرون على أنفسهم بأنهم كاذبون ، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين) » .

(ز) دائرة المعارف الاسلامية — رأيها فى أبى هريرة

كتب أستاذنا العلامة الجليل الشيخ « محمد عرفة » عضو جماعة كبار العلماء ، بمجلة نور الاسـلام « مجلة الأزهر الآن » ص ٦٣٩ وما بعدها من المجلد الخامس ، مقالا قيما فى الدفاع عن راوية الاسلام (أبى هريرة) رضى الله عنه ، يفند فيه مزاعم أصحاب دائرة المعارف الاسلامية المترجمة عن الانجليزية . ونحن نأتى هنا بخلاصة هذا المقال قال حفظه الله :

« للمستشرق جولد سيهر » رأى فى الصحابى الجليل أبى هريرة رضى الله عنه ، نشره فى العدد السابع من المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية — هذا الرأى لا يستند الى بحث تاريخى ولا سند علمى .

طعن جولد سيهر فى أبى هريرة طعونا عدة ، كلها تدور حـول عدم أمانته فى نقل الأحاديث ، فقد ذكر أنه مختلق ، ومسرف فى الاختلاق ، وأنه كان يفعل ذلك بداعى الورع ، وان الذين أخذوا عنه مباشرة قد شكوا فيما ينقل ، وعبروا عن هذا الشك بأسلوب ساخر ، وأنه كان يضمن أحاديثه أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر ، وذلك يدل على روح المزاح التى كانت فيه ، والتى كانت سببا فى ظهور كثير من القصص ، وصاحب

هذه المطاعن يعزو مطاعنه الى كتب اسلامية ، ليلقى عليها ثوبا خلابا ، وليوقع فى روع الناس أنها صحيحة ، وهذه طريقة فيها كثير من الخداع واللبس والتزوير ، وسنميط اللثام عما فيها وبالله التوفيق :

« ان أبا هريرة الذى يجرحونه هذا التجريح ، ويسيئون اليه هذه الاساءة ، هو من جلة الصحابة ومن أوسعهم رواية ، بل هو أوسعهم رواية لا مستثنيا أحدا الا ابن عمرو ، وتجريح هذا البحر الذى ملىء علما ، وأداه الى من حملوه عنه ، وأدوه الى من بعدهم حتى وصل الينا ، تجريح لهذا العلم الغزير ، ورفع للثقة عن كل مروياته ، وفيه افساد كبير ، ولو كان لهذا الطعن وجه من الصحة لاحتمل ، ولكنه طعن باطل ، لا حق فيه .

« هذا الامام قد روى عنه ثمانمائة من أهل العلم كما قال البخارى ، وهذا فيه الدلالة على ثقتهم به ، لأنهم لو لم يثقوا به لما رووا عنه ، وهو ثقة ثبت عند الصحابة وأهل الحديث . قال ابن عمر : أبو هريرة خير منى وأعلم بما يحدث . وقال طلحة بن عبيد الله أحد العشرة : ولا شك أن أباهريرة سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم نسمع. وروى النسائى: « أن رجلا جاء الى زيد بن ثابت فسأله عن شىء فقال زيد عليك أبا هريرة .. الحديث » وقد ذكره بتمامه [1] .

« وكان كثير الحفظ شديد الضبط ، شهد له بذلك أهل العلم والثقات ، قال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره . وحدث الأعمش عن أبى صالح قال : كان أبو هريرة أحفظ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقال أبو الزعيزعة كاتب مروان : أرسل

(١) تقدم هذ الحديث فى ترجمة أبى هريرة .

مروان الى أبى هريرة فجعل يحدثه ، وكان أجلسنى خلف السرير أكتب ما يحدث به ، حتى اذا كان فى رأس الحول أرسل اليه فسأله وأمرنى أن أنظر ، فما غير حرفا عن حرف .

« هذه آراء الثقات أصحاب هذا الشأن فيه ، فمن عدلوه فهو الثبت الذى لا يجرح ، ومن بهرجوه فهو الزائف الذى لا يعدل ومن حظى بمثل هذا الثناء من هؤلاء العلماء الأفاضل ، فلا يضيره ما يقال بعد ذلك فيه :

اذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضبانا علىّ لئامها

ولا بد لنا — بعد هذا الاجمال — أن نعرض لهذه الشبه التى أثاروها ونفندها :

١ — زعموا أن علمه الواسع بالأحاديث أثار الشك فى نفوس الذين أخذوا عنه مباشرة فلم يترددوا فى التعبير عن شكوكهم بأسلوب ساخر — وأحالوا القارىء على البخارى فى كتاب فضائل الأصحاب رقم ١١ — يريدون بذلك حديث أبى هريرة : أن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة ، وأنى كنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنى ، حتى لاآكل الخمير ، ولا ألبس الحبير ، ولا يخدمنى فلان ولا فلانة ، وكنت ألصق بطنى بالحصباء من الجوع — الى آخر الحديث (٥ — ١٩ من الأميرية) والمنصف يرى من هذا الأثر أن بعض الناس قال : أكثر أبو هريرة تعجبا من كثرة حفظه وروايته ، وقد أظهر لهم السبب فى كثرة روايته وحفظه وهو أنه كان ألزم الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه ما كان يعنيه الغنى ، وانما كان يعنيه الأخذ عن رسول الله ، وكان يلصق بطنه بالحصباء من الجوع ، وما كان يشغله عن رسول الله تجارة

ولا زراعة ، فحفظ مالم يحفظوا ، وسمع مالم يسمعوا ، فلما بين لهم السبب سكتوا عنه .

ولنسلم ما زعموه من أنهم كانوا شاكين لا متعجبين ، أفما كان ينبغى أن يأخذوا من تركهم اياه يحدث بعد ذلك مدة عمره — وقد عمر بعد رسول الله نحوا من خمسين سنة — أنهم اقتنعوا بتعليله ، وزال هـذا الشك من نفوسهم ، اذ لو كانوا يرون فى حديثه بأسا لكفوه عن التحديث ، وهم من نعلم فى المحافظة على حديث رسول الله ، والخوف أن يتسع الناس فيه ، ويدخله التدليس والكذب .

٢ — وأما زعمهم أن روايته ضمنها أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر ، وذلك يدل على ما امتاز به من روح المزاح ، الأمر الذى كان سببا فى ظهور كثير من القصص ، وعزوهم ذلك الى ابن قتيبة ، فليس شىء أو غل فى التضليل والابهام من هذا — نحن لا ندرى ما هى هذه الأحاديث التى زعموها ، وكان يجب عليهم أن يبينوها لنا لنناقشهم فيها . وكان يجب عليهم أيضا اذ عزوا لابن قتيبة ، أن يذكروا اسم ذلك الكتاب ، فان لابن قتيبة مؤلفات كثيرة ، طبع منها كثير ، انهم لو فعلوا ذلك لكنا نبين لهم أن ما فى ابن قتيبة ليس كما فهموه ، اذ لا يعقل أن يثنى ابن قتيبة الثناء المستطاب على أبى هريرة فى كتـابه (تأويل مختلف الحديث) ص ٤٨ وما بعدها ثم هو ينسب اليه ما ذكره أصحاب الدائرة .

٣ — وأما ما نقلوه من وصف (شبرنجر) لأبى هريرة من أنه المتطرف فى الاختلاق ورعا ، فلسنا ممن يؤمن بقول (شبرنجر) وغير (شبرنجر) ، من المتطرفين فى الاختلاق على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تضليلا للمسلمين ، وتشويشا على الدين ، وايذاء للحقيقة ، وسترا

للواقع ، وبحسبنا أن نقول : هذا طعن لا مبرر له ، وتجريح لا يستند على سند :

والدعاوى أن لم تقيموا عليها بينـات أبنـاؤها أدعيـاء

وقولهم انه المتطرف فى الاختلاق ورعا ، كلام متهافت ، لأنا لا نعلم الورع الا مانعا من الاختلاق على الناس ، فضلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وكيف يختلق أبو هريرة على رسول الله ، وهو راوى حديث « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وكان يبدأ به عندما يريد أن يحدث — فرجل سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، ووعاه وأداه ، وكان يستذكره ويذكر به ، ويقدمه أمام تحديثه عن رسول الله ، وهو مؤمن ورع تقى ، يستحيل فى العادة أن يكذب على رسول الله ، فضلا عن أن يتطرف فى الكذب عليه ، ويرى أن الاختلاق والكذب عليه دين وورع .

٤ — وأما قولهم أن كثيرا من الأحاديث التى عزيت الى أبى هريرة نحلت عليه فى عصر متأخر ، فنحن نسلم أن أحاديث كثيرة وضعت وعزيت زورا الى أعاظم المحدثين مثل أبى هريرة ، ولكن رجال نقد الحديث قد عنوا ببيان الموضوع منها ، وبهرجوا الزائف ، ولم يخف عليهم بطله ، وأفسدوا على الوضاعين طريقهم .

وبعد : فاذا كان أصحاب (دائرة المعارف) قد ألفوها لغرض أن تكون صورة صحيحة للمعارف الاسلامية فما أبعدها عن أن تكون كذلك وما أبعدهم فيها عن نيل هذا الغرض . واذا كانوا قد ألفوها لغرض تقبيح حال المسلمين فى نظر الغربيين وتشويش عقائد المسلمين ، وفتنة الشباب فى دينهم فهى صالحة لهـذا الغرض مؤدية له » أ هـ ما أردنا نقله من كلام الباحث الجليل الشيخ محمد عرفه .

كلمة الختام فى راوية الإسلام

وبعد فقد طفحت كتب المبتدعة والمستشرقين ، وأعداء الدين ، ومن تتلمذ لهم من جهلة المسلمين المأجورين ، قديما وحديثا ، بالكيد للاسلام فى أشخاص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما أبو هريرة راوية الاسلام الأول .

وفى هذه الأزمان المتأخرة ، ظهرت شرذمة من أدعياء العلم والخلق التافهين ، جمعوا كناسة العصور كلها من الطعون والأزراء على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عامة ، وأبى هريرة خاصة ، يريدون ليهدموا ركنا شامخا من أركان الدين ، وأصلا وطيدا من أصـــوله ، ألا وهو سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فلم يكتفوا بما أوردناه من مزاعمهم الباطلة ، ولكنهم ضموا اليها تافها من القول وزورا ، ولا بأس أن نذكر لك شيئا منهامع الرد عليها بايجاز فنقول :

١ — زعموا أن أبا هريرة انما أسلم حبا فى الدنيا لا رغبة فى الدين . وهذه دعوى يكذبها ما كان عليه أبو هريرة من التقشف والانقطاع الى العلم والعبادة ، والجهاد فى سبيل الله ، والتفانى فى تبليغ أحاديثه صلى الله عليه وسلم .

٢ — وزعموا أن أبا هريرة كان خفيف الوزن فى العلم والفقه وهذا محض افتراء على التاريخ والواقع قال ابن سعد : كان ابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وجابر ورافع بن خديج وسلمة بن الأكوع وأبو واقد الليثى وعبد الله بن بحينة مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتون بالمدينة ويحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن توفى عثمان الى

أن توفوا أ هـ ومعنى هذا أن أبا هريرة مكث يفتى الناس على ملأ من الصحابة والتابعين ثلاثة وعشرين عاما .

وقد ذكر ابن القيم فى اعلام الموقعين (١ — ٩) المفتين من الصحابة وذكر أنهم كانوا بين مكثر منها ومقل ومتوسط ، وذكر أبا هريرة فى المتوسطين مع أبى بكر الصديق وعثمان بن عفان وأبى سعيد الخدرى وأم سلمة وأبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل وسعد بن أبى وقاص وجابر بن عبد الله وغيرهم » فمن زعم أن أبا هريرة غير فقيه فهو العارى عن الفقه .

٣ — وزعموا أن عمر استعمل أبا هريرة على البحرين ، ثم بلغه عنه ما يخل بأمانة الوالى العادل ، فعز له وأخذ ما بيده من أموال ، وضربه حتى أدماه . وهذا كلام من لم يميز بين الحق والباطل من أقوال المؤرخين. والرواية التى يعول عليها أن عمر لما استحضر أبا هريرة من البحرين قال له استأثرت بهذه الأموال فمن أين لك قال أبو هريرة : خيل تنتجت ، وأعطية تتابعت ، وخراج رقيق لى ، فنظر عمر فوجدها كما قال ، ثم دعاه عمر ليستعمله أيضا فأبى ، فقال له عمر : لقد طلب العمل من كان خيرا منك ، قال أبو هريرة : أنه يوسف نبى الله بن نبى الله ، وأنا أبو هريرة ابن أميمة . ومن ذلك يتبين أن عمر حاسبه على ما بيده من مال — كما حاسب غيره من العمال — فوجد الأمر كما قال ، فعرض عليه أن يوليه ثانية فأبى ، وهذا من عمر يدل على وثوقه بأبى هريرة وأنه كان لديه أمينا حق أمين .

٤ — وزعموا أنه كان فى الفتنة يصلى خلف على ويأكل مع معاوية فاذا حمى الوطيس لحق بالجبل فاذا سئل قال : على أعلم ومعاوية أدسم

والجبل أسلم . وهذا من افكهم وأباطيلهم ، والثابت تاريخيا أن أبا هريرة رضى الله عنه اعتزل الفتنة وأقام بالمدينة ولم يبرحها .

٥ — وزعموا أنه كان متشيعا لبنى أمية ، ويأخذ من معاوية جعلا على وضع الأحاديث فى ذم على رضى الله عنه . والتاريخ الصحيح يسجل أن أبا هريرة روى من الأحاديث ما فيه الثناء المستطاب على علىّ رضى الله عنه وآل البيت ذكر أحمد فى مسنده طرفا منها وكذلك صاحب مجمع الزوائد ، وقصته مع مروان حين أرادوا دفن الحسن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهد عدل على مبلغ حبه لآل البيت وقد ذكرها ابن كثير فى تاريخه (٨— ١٠٨) ثم أين هى تلك الأحاديث التى وضعها أبو هريرة فى ذم على رضى الله عنه ومن رواها من الثقات . أنها لا وجود لها الا فى أدمغتهم وخيالاتهم . ان الذى نقرؤه عن أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس هو الازراء على أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه ، وانما هو الاشارة الى ما سيكون من بعض حكام الأمويين من ظلم . ومن تلك الأحاديث : « هلاك أمتى على يدى غلمة من قريش فقال مروان غلمة ، قال أبو هريرة : ان شئت أن أسميهم بنى فلان وبنى فلان » . « يهلك الناس هذا الحى من قريش قالوا فما تأمرنا قال لو أن الناس اعتزلوهم » وفى هذا وذاك تعريض ظاهر ببعض أمراء بنى أمية وتحريض على اعتزالهم . ومما كان يدعو به كما فى الصحيح « اللهم انى أعوذ بك من رأس الستين وأمارة الصبيان » وقد استجاب الله دعاء أبى هريرة فمات سنة ثمان وخمسين . ولم يدرك سنة ستين التى تولى فيها يزيد وكان منه ما كان .

ثناء الحاكم في المستدرك على راوية الإسلام

عقد الحاكم أبو عبد الله فى كتابه « المستدرك » [١] فصلا قيما فى الثناء على راوية الاسلام ذكر فيه كثيرا من الأحاديث الدالة على فضله وعلو شأنه ثم ختم هذا الفصل بقوله نقــلا عن شيخه أبى بكر قال : « وانما يتكلم فى أبى هريرة لدفع أخباره من قد أعمى الله قلوبهم ، فلا يفهمون معانى الأخبار : أما معطل جهمى يسمع أخباره التى يرونها خلاف مذهبهم الذى هو كفر فيشتمون أبا هريرة ، ويرمونه بما الله تعالى قد نزهه عنه ، تمويها على الرعاء والسفلة ، أن أخباره لا تثبت بها الحجة . وأما خارجى يرى السيف على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يرى طاعة خليفة ولا امام ، اذا سمع أخبار أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم خلاف مذهبهم الذى هو ضلال ، ولم يجد حيلة فى دفع أخباره بحجة وبرهان ، كان مفزعه الوقيعة فى أبى هريرة . أو قدرى اعتزل الاسلام وأهله ، وكفر أهل الاسلام ، الذين يتبعون الأخبار الماضية التى قدرها الله تعالى ، وقضاها قبل كسب العباد لها ، اذا نظر الى أخبار أبى هريرة التى قد رواها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى اثبات القدر ، ولم يجد حجة يؤيد بها صحة مقالته التى هى كفر وشرك ، كانت حجته عند نفسه أن أخبــار أبى هريرة لا يجوز الاحتجاج بها . أو جاهل يتعاطى الفقه ويطلبه من غير مظانه ، اذا سمع أخبار أبى هريرة فيما يخالف مذهب من قد اجتبى مذهبه واختاره تقليدا بلا حجة ولا برهان ، تكلم فى أبى هريرة ودفع أخباره التى تخالف مذهبه ، ويحتج بأخباره على من خالفه اذا كانت أخباره موافقة لمذهبه ..

---

(١) ٣ ـ ٥٠٦ وما بعدها

قال الحاكم : وأنا ذاكر بمشيئة الله عز وجل فى هذا رواية أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين عن أبى هريرة فقد روى عنه : زيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصارى وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن الزبير وأبى بن كعب وجابر وعائشة والمسور بن مخرمة وعقبة بن الحارث وأبو موسى الأشعرى وأنس بن مالك والسائب بن يزيد وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو أمامة بن سهل وأبو الطفيل وأبو نضرة الغفارى وأبو رهم الغفارى وشداد بن الهاد وأبو حدرد عبد الله بن حدرد الأسلمى وأبو رزين العقيلى وواثلة بن الأسقع وقبيصة ابن ذؤيب وعمرو بن الحمق والحجاج الأسلمى وعبد الله بن عكيم والأغر الجهنى والشريد بن سويد رضى الله عنهم أجمعين ، فقد بلغ عدد من روى عن أبى هريرة من الصحابى ثمانية وعشرين رجلا — فأما التابعون فليس فيهم أجل ولا أشهر ولا أشرف ولا أعلم من أصحاب أبى هريرة ، وذكرهم فى هذا الموضع يطول لكثرتهم . والله يعصمنا من مخالفة رسول رب العالمين ، والصحابة المنتخبين ، وأئمة الدين من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين، رضى الله عنهم أجمعين، فى أمر الحافظ علينا شرائع الدين ، أبى هريرة رضى الله عنه » أ هـ . كلام هذا الامام الكبير ، فى راوية الاسلام الجليل .

ومما يؤسف له كل الأسف بعد هذا كله أن نابتة من أدعياء الاسلام لم يذوقوا للعلم طعما ، ولم يعرفوا للاسلام قدرا ، يكيدون لهذا الدين ، بالنيل من أصحاب سيد المرسلين ، ولا هم لهؤلاء سوى جمع الحطام . ومن عجب أنهم يرمون أبا هريرة رضى الله عنه بأنه كان يضع الأحاديث فى ذم على رضى الله عنه ، على جعل يتقاضاه من معاوية رضى الله عنه ،

فى الوقت الذى هم فيه يشتغلون صنائع وعملاء لجمعيات « التبشير » ، وهذه الجمعيات تغدق عليهم الأموال الطائلة ، لقاء تسخيرهم فى الطعن على الاسلام ، والحط من قدر علمائه الأجلاء : « ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا » .

المبحث السابع

« تراجم لبعض رواة الحديث من التابعين »

من هم التابعــون : قال الخطيب : التابعى من صحب صحابيا ، ولا يكتفى فيه بمجرد اللقى ، بخلاف الصحابى مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فانه يكتفى فيه بذلك ، لشرف النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلو منزلته ، فالاجتماع بهيؤثر فى النور القلبى أضعاف ما يؤثره الاجتماع الطويل بالصحابى وغيره من الأخيار . وقال أكثر المحدثين : هو من لقى صحابيا وان لم يصحبه ولذلك ذكر مسلم وابن حبان « الأعمش » فى طبقة التابعين لأن له لقيا وحفظا ، رأى أنس بن مالك وأن لم يصح له سماع المسند عنه .وعد الحافظ عبد الغنى فيهم « يحيى بن أبى كثير » لكونه لقى انسا . وعد فيهم أيضا « موسى بن أبى عائشة » لكونه لقى عمرو بن حريث . واشترطابنحبان التمييز عند اللقى فان كان صغيرا لم يضبط فلا عبرة برؤيته كخلف بن خليفة عده من أتباع التابعين وان رأى عمرو بن حريث لكونه كان صغيرا لا يميز. قال العراقى: «وما اختاره ابن حبان له وجه كما اشترط فى الصحابى رؤيته للنبى صلى الله عليه وسلم وهو مميز » . قال : « وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى الصحابة والتابعين بقوله (طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى لمن رآى من رآنى ..) الحديث . فأكتفى فيهما بمجــرد الرؤية » (التدريب ص ٢١٢) .

هذا والتابعون كثيرون لا يحصون لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى الأمصار المختلفة وكل من التقى بواحد منهم فهو تابعى .

هذا ومن أشهر الرواة من التابعين بالمدينة : سعيد بن المسيب المتوفى سنة (٩٣ هـ) وعروة بن الزبير المتوفى سنة (٩٤) وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المتوفى سنة (٩٤) وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة المتوفى سنة (٩٩) وسالم بن عبد الله بن عمر المتوفى سنة (١٠٦) وسليمان بن يسار المتوفى سنة (٩٣) والقاسم بن محمد ابن أبى بكر المتوفى سنة (١١٢) ونافع مولى ابن عمر المتوفى سنة (١١٧) وابن شهاب الزهرى المتوفى سنة (١٢٤) وأبو الزناد المتوفى سنة(١٣٠).

ومن أشهرهم بمكة : عكرمة مولى ابن عباس (١٠٥) وعطاء بن أبى رباح (١١٥) وأبو الزبير محمد بن مسلم (١٢٨) .

ومن أشهرهم بالكوفة : الشعبى عامر بن شراحيل (١٠٤) وابراهيم النخعى (٩٦) وعلقمة بن قيس بن عبد الله النخعى (٦٢) .

ومن أشهرهم بالبصرة : الحسن بن أبى الحسن البصرى (١١٠) ومحمد بن سيرين (١١٠) وقتادة بن دعامة السدوسي (١١٧) .

ومن أشهرهم بالشام : عمر بن عبد العزيز (١٠١) ومكحول (١١٨) وقبيصة بن ذؤيب (٨٦) وكعب الأحبار (٣٢) .

ومن أشهرهم بمصر : أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزنى (٩٠) ويزيد ابن أبى حبيب (١٢٨) .

ومن أشهرهم باليمن : طاوس بن كيسان اليمانى الحميرى (١٠٦) ووهب بن منبه (١١٠) .

وقد تكفلت كتب الرجال بتراجمهم وبيان من أخذوا عنه ومن أخذ عنهم ، ولنترجم باختصار لطائفة يسيرة منهم فنقول :

ابن شـــهاب الزهرى

هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد اللهِ بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة القرشى الزهرى المدنى . سكن الشام . يقولون تارة الزهرى وتارة ابن شهاب نسبة الى جد جده ، وهو معدود فى صغار التابعين . سمع أنس بن مالك وسهل بن سعد والسائب بن يزيد وشبيبا أبا جميلة وعبد الرحمن بن أزهر وربيعة بن عتاد ومحمود ابن الربيع وأبا الطفيل وغيرهم من الصحابة ، كما سمع من كبار التابعين . وروى عنه الحديث خلق كثير من كبار التابعين وصغارهم ، ومن أتباع التابعين وشيوخهم . اتفق العلماء على امامته فى الحديث وكثرة حفظه له وتمكنه فيه مع أمانته وثقته . وشهادات المحدثين له أشهر من أن تذكر فهذا عمرو بن دينار يقول : « ما رأيت أنص للحديث من الزهرى». وهذا ابراهيم بن سعد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف يقول : قلت لأبى بم فاقكم الزهرى ، قال : كان يأتى المجالس من صدرها ولا يأتيها من خلفها ولا يبقى فى المجلس شابا الا سأله ولا كهلا الا سأله ولا فتى الا سأله ولا عجوزا ولا كهلة الا سألها حتى يحاول ربات الحجال » وقال الليث بن سعد : ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علما منه » . ويروى البخارى عن على بن المدينى انه قال : « للزهرى نحو ألفى حديث » وهذا أحمد بن الفرات يقول : « ليس فيهم أجود مسندا من الزهرى » .

رزق الزهرى حافظة قوية متقدة حتى لقد روى البخارى فى تاريخه

أنه حفظ القرآن فى ثمانين ليلة . وقال الزهرى : ما استودعت حفظى شيئا فخاننى » . وعن سعد بن ابراهيم أنه قال : « ما أرى أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع ماجمع الزهرى » .

وقد جمع الزهرى الى حفظ الحديث كتابته وتدوينه حتى فاق أقرانه ، قال صالح بن كيسان : كنت أطلب العلم أنا والزهرى فقال : تعال نكتب السنن فكتبنا ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال تعال نكتب ما جاء عن الصحابة فكتب ولم نكتب فنجح وضيعنا .

لقد كان ابن شهاب أول من كتب الحديث وجمعه بأمر عمر بن عبد العزيز أيام خلافته وبالجملة فقد كان ابن شهاب أمة وحده فى العلم والحفظ والضبط ، جماعا للحديث ثقة فيه . سأله هشام بن عبد الملك يوما أن يملى على بعض ولده شيئا فأملى عليه أربعمائة حديث ثم لقيه هشام بعد شهر أو نحوه فقال له ان ذلك الكتاب قد ضاع فدعا بكاتب فأملاها عليه ثم قابل ذلك بالكتاب الأول فما غادر منها حرفا واحدا .

توفى الزهرى سنة مائة وأربع وعشرين ودفن بالشام بقرية تسمى (شغبدا) أنظر تهذيب الأسماء واللغات (ج ١ — ص ٩٠) وتهذيب التهذيب (٩ — ٤٤٥) .

عكرمة مولى ابن عباس

هو التابعى الكبير أبو عبد الله عكرمة مولى ابن عباس وراويته . أصله بربرى من أهل المغرب تملكه عبد الله بن عباس وهو وال على البصرة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . وعنى بتعليمه القرآن والسنن أشد العناية حتى حدث عكرمة عن نفسه أن ابن عباس كان يضع فى رجله القيد ويعلمه القرآن والسنن . ومازال عكرمة ينهل من مناهل ابن عباس

حتى تأهل للفتيا وأذنه مولاه بها فقصده الناس من كل صوب وطرقوا بابه للرواية والفتيا ، وكان الى جانب علمه بالسنة والفقه من مشاهير القراء والمفسرين . وقد ظل على الرق حتى مات ابن عباس وصار الى ولده على فباعه الى خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار فجاء عكرمة الى على وقال له ما خير لك . بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار فاستقال على من بيعه وأعتقه .

عاش عكرمة الى سنة ١٠٥ من الهجرة وله من العمر نيف وثمانون سـنة .

شيوخه وتلاميذه ومنزلته فى الرواية :

أخذ عكرمة الحديث عن كثير من الصحابة منهم عبد الله بن عباس مولاه والحسن بن على وأبو قتادة وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد ومعاوية وابن عمرو بن العاص .

وتلقى عنه الحديث جماعات من التابعين منهم أبو الشعثاء والشعبى والنخعى وأبو اسحاق السبيعى وابن سيرين وعمرو بن دينار وكثير من التابعين وغيرهم .

وقد وثق الأئمة والمحققون عكرمة واحتجوا به ، ومن هؤلاء البخارى وأصحاب السنن ، ولكن مسلما تركه فلم يخرج له الا حديثا واحدا فى الحج مقرونا بسعيد بن جبير . وانما تركه لطعن طائفة من العلماء فيه بأنه كذاب ، وبأنه كان يرى رأى الخوارج ، وبأنه كان يقبل جوائز الأمراء . وقد صنف كثير من الأئمة كتبا فى الذب عن عكرمة منهم أبو جعفر بن جرير الطبرى ومحمد بن نصر المروزى وأبو عبد الله بن منده وأبو حاتم ابن حبان وأبو عمر بن عبد البر وغيرهم . وممن تصدى للدفاع عنه

أيضا الحافظ ابن حجر فى مختصره لتهذيب الكمال وفى مقدمته لفتح البارى ، وكلهم مجمعون على تبرئته من الكذب وأن الأثر الوارد عن ابن عمر أنه قال لنافع: « لا تكذب علىّ كما كذب عكرمة على ابن عباس » لم يثبت لأنه من رواية أبى خلف الجزار عن يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر يقول ذلك . ويحيى البكاء متروك الحديث . ومن المحال أن يجرح العدل بكلام المجروح . وهم مجمعون أيضا على أنه لم يثبت عنه أنه كان يرى رأى الخوارج وغاية ما هناك أنه كان يرى فى بعض المسائل ما يوافق آراءهم من غير أن يقصد الى هذا الوفاق ولكن بناء على ما قام لديه من الأدلة فنسبوه اليهم عن غير بينة ولا برهان ، ولو كان من ادعى عليه أنه ينتحل مذهبا رديئا يعد مجروحا لمجرد الدعوى لسقطت عدالة أكثر المحدثين لأنه ما من أحد منهم الا وقد نسبه قوم الى ما يرغب به عنه .

وأما قبول جوائز الأمراء فالأئمة والنقاد وجماهير المحدثين لا يرون ذلك مانعا من قبول الرواية ، وهذا محمد بن شهاب الزهرى كان فى ذلك أشهر من عكرمة ومع ذلك لم يترك أحد من الأئمة الرواية عنه بسبب ذلك .

طرف من ثناء العلماء عليه :

قال البخارى : « ليس أحد من أصحابنا الا احتج بعكرمة » وعن ابن معين : « اذا رأيت انسانا يقع فى عكرمة فاتهمه على الاسلام » . وقال أبو عبد الله محمد بن نصر المروزى : « أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا ، منهم أحمد بن حنبل واسحاق بن راهوية وأبو ثور

ويحيى بن معين . ولقد سألت اسحاق عن الاحتجاج بحديثه فقال : عكرمة عندنا أمام أهل الدنيـــا وتعجب من سؤالى اياه » . وقال ابن منده : « عدله أمة من التابعين تزيد على سبعين رجلا من خيار التابعين وهـــذه منزلة لا تكاد توجد لأحد من كبار التابعين على أن من جرحه من الأئمة لم يمسك عن الرواية عنه ولم يستغن عن حديثه . وكان حديثه متلقى بالقبول قرنا بعد قرن الى زمن الأئمة الذين أخرجوا الصحيح . على أن مسلما وكان أسوأهم رأيا فيه قد أخرج له مقرونا بغيره » أ هـ .

وقال أبو عمر ابن عبد البر : « كان عكرمة من جلة العلماء ولا يقدح فيه كلام من تكلم فيه لأنه لا حجة مع أحد منهم » قال : « وزعموا أن مالكا أسقط ذكر عكرمة من الموطأ ولا أدرى ما صحته لأنه قد ذكره فى الحج وصرح باسمه ومال الى روايته عن ابن عباس وترك عطاء فى تلك المسألة مع كون عطاء أجل التابعين فى علم المناسك » أ هـ .

ومن ذلك يتضح أنه اذا روى الثقات عن عكرمة حديثا فلا ينبغى أن يرتاب فيه (تهذيب الأسماء ١ — ٣٤٠ ومقدمة فتح البارى ٢ — ١٤٨ وما بعدها وتهذيب التهذيب ٧ — ٢٦٣) .

عمر بن عبد العزيز

هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص ابن أمية القرشى الأموى التابعى العظيم الخليفة الراشد والامام العادل والعالم الكامل . ولد عمر بمصر ببلدة حلوان وأبوه أمير عليها ســنة احدى وستين . جمع القرآن وهو صغير وبعثه أبوه الى المدينة يتأدب بها ويتعلم الدين ويحفظ السنن فكان يختلف الى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، فلما توفى أبوه طلبه عبد الملك بن مروان الى دمشق وزوجه ابنته

فاطمة . وولى امارة المدينة زمنا فى خلافة الوليد ثم قدم الشام سنة ٩٣ وبويع بالخلافة سنة ٩٩ .

سمع الحديث من أنس بن مالك والسائب بن يزيد ويوسف بن عبد الله بن سلام وخولة بنت حكيم وغيرهم من الصحابة ومن التابعين كابن المسيب وعروة وأبى بكر بن عبد الرحمن والربيع بن سبرة وغيرهم . وروى عنه كثير من التابعين أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم والزهرى ويحيى الأنصارى ومحمد بن المنكدر وحميد الطويل وآخرون .

أجمع العلماء على كثرة علمه وصلاحه وزهده وورعه وعدله وحرصه على اتباع آثار النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين . كان عمر كثير الاهتمام بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفظا وجمعا حتى أنه لما أن تولى الخلافة أصدر أمره الى علماء الآفاق بكتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما أمرهم بالجلوس للتحديث والرواية حتى لا تضيع الأحاديث بموت كبار العلماء من التابعين ، وهو أول خليفة أمر بذلك . وكان عمر ثقة حجة حافظا شهد له بذلك العلماء حتى لقد كان يقرن بالزهرى فى علمه . قال مجاهد : أتيناه لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه . وما زال هذا شأنه حتى وافته منيته سنة احدى ومائة من الهجرة . أنظر تاريخ الخلفاء ص ١٥٣ ، تهذيب الأسماء ٢ — ١٧ وتهذيب التهذيب ٧ — ٤٧٥ .

كعب الأحبار

هو أبو اسحق كعب بن ماتع الحميرى كان من أحبار اليهود وأوسعهم اطلاعا على كتبهم ويقال له كعب الحبر وكعب الأحبار وهو

من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ولد باليمن وأقام بها ، وفى خلافة عمر رضى الله عنه أسلم وانتقل الى المدينة فأخذ عن الصحابة الكتاب والسنة وشارك فى غزو الروم ثم انتقل الى الشام فى خلافة عثمان رضى الله عنه وأقام بمدينة حمص الى أن مات بها سنة ثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين ، وقد بلغ مائة وأربع سنين . وذكر ابن سعد بطريق حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن ابن المسيب أن العباس قال لكعب ما منعك أن تسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر حتى أسلمت فى خلافة عمر قال أن أبى كان كتب لى كتابا من التوراة فقال اعمل بهذا وختم على سائر كتبه وأخذ علىّ بحق الوالد على الولد أن لا أفض الختم عنها فلما رأيت ظهور الاسلام قلت لعل أبى غيب عنى علما ففتحتها فاذا صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلما أهـ وفى سند هذا الخبر حماد بن سلمة وهو مختلط تحاماه البخارى وتحاماه مسلم أيضا لكن فى غير روايته عن ثابت لبقائها فى ذهنه كما هى بعد الاختلاط وفيه أيضا على بن زيد بن جدعان وضعفه غير واحد .

روى كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرسلا وعن عمر وصهيب وعائشة وروى عنه معاوية وأبو هريرة وابن عباس وعبد الله ابن عمرو ، وعبد الله بن عمر ، وابن الزبير ، وأنس ، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم وأخرج له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

ثناء العلماء عليه : ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام واتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيقه ولذا لا تجد له ذكرا فى كتب الضعفاء والمتروكين وترجم له النووى فى تهذيبه وقال : اتفقوا على كثرة علمه وتوثيقه . قالوا : ذكر أبو الدرداء كعبا فقال : ان عند ابن الحميرية لعلما كثيرا وذكره معاوية فقال : ألا أن كعب الأحبار أحد العلماء ان كان عنده لعلم كالبحار وأن كنا لمفرطين ، ولقيه عبد الله بن سلام عند أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فقال له يا كعب : من العلماء

قال : الذين يعملون بالعلم قال : فما يذهب العلم من قلوب العلماء قال : الطمع وشره النفس وتطلب الحاجات الى الناس قال : صدقت .

طعن بعض المعاصرين فيه وتفنيد ذلك : ومع ثناء العلماء عليه وتوثيق النقاد له واخراج البخارى ومسلم وأصحاب السنن عنه نجد بعض المغرورين فى هذا العصر من أدعياء العلم يطعن فى كعب بأنه كان يكذب فى الأخبار وأن له يدا فى مقتل عمر رضى الله عنه .

أما أنه كان يكذب فى الأخبار فدليله عندهم ما رواه البخارى فى كتاب الاعتصام عن حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : ان كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وان كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب » . والجواب عن ذلك أن هذا القول من معاوية توثيق لكعب وثناء عليه بأنه أصدق المحدثين عن أهل الكتاب ، وان فى بعض تلك الأخبار التى ينقلها بأمانة ما لا يطابق الواقع فالكذب حينئذ مضاف الى تلك الكتب التى ينقل عنها لا الى كعب ولذلك يقول ابن الجوزى : المعنى أن بعض الذى يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذبا لا أنه يتعمد الكذب ، والا فقد كان كعب من أخيار الأحبار » . أهـ فما أشبه قول معاوية :« وان كنا لنبلو عليه الكذب » بقول ابن عباس فيه : « بدل من قبله فوقع فى الكذب » .

وأما قولهم : أن له يدا فى مقتل عمر رضى الله عنه فدليله عندهم ما رواه ابن جرير أن كعبا جاء الى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام ، وقال له : اعهد فانك ميت فى ثلاثة أيام ، قال وما يدريك ، قال : أجده فى كتاب الله عز وجل فى التوراة ، قال عمر : أنك لتجد عمر بن

الخطاب فى التوراة ، قال : اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك ، وأنه قد فنى أجلك » قالوا : فهذه القصة تدل على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، بل على اشتراكه فيها ، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الاسرائيلية ليدفع عن نفسه التهمة ، ولينال ثقة المسلمين فيما يخبرهم به عن التوراة وغيرها . والجـواب أن ابن جرير وغيره من المؤرخين لم يلتزموا الصحة فيما ينقلون ويحكون ، ولذا تجد فى كتبهم الضعيف والموضوع ، والباحث المنصف اذا نقل خبرا من هذه الكتب ينبغى أن يمحصه سندا ومتنا ، ولا يأخذه قضية مسلمة . ونحن اذا نظرنا فى هذه القصة لا نشك فى أنها تنادى على نفسها بالكذب والاختلاق ، وذلك :

١ — لأنها لو كانت فى التوراة لما اختص بعلمها كعب وحده ، ولكن كان يشاركه العلم بها أمثال عبد الله بن سلام ممن لهم علم بالتــوراة .

٢ — ولأنها لو صحت لكان المنتظر من عمر حينئذ أن لا يكتفى بقول كعب ، ولكن يجمع طائفة ممن أسلم من أهل الكتاب ، ولهم احاطة بالتوراة ، ويسألهم عن هذه القصة ، وهو لو فعل لافتضح أمر كعب ، وظهر للناس كذبه ، ولتبين لعمر أنه شريك فى مؤامرة دبرت لقتله ، أو أنه على علم بها ، وحينئذ يعمل عمر على الكشف عنها بشتى الوسائل ، وينكل بمدبريها ومنهم كعب . هذا هو المنتظر من أى حاكم عادى يقال له مثل ذلك ، فضلا عن عمر ، المعروف بكمال الفطنة ، وحدة الذهن ، وتمحيص الأخبار . لكن شيئا من ذلك لم يحصل ، فكان ذلك دليلا على اختلاقها .

٣ — وأيضا فانها لو صحت لكان معناها أن كعبا له يد فى المؤامرة وأنه يكشف عن نفسه بنفسه ، وذلك باطل لمخالفته طباع الناس ، اذ المعروف أن من اشترك فى مؤامرة ، يبالغ فى كتمانها بعد وقوعها ، تفاديا من تحمل تبعتها ، ويشتد حرصه ، وتزداد مبالغته فى الكتمان قبل وقوعها ، حرصا على نجاحها ، فالكشف عن المؤامرة قبل وقوعها لا يكون الا من مغفل أبله ، وهذا خلاف ما كان عليه كعب ، من حدة الذهن ، ووفرة الذكاء .

٤ — ثم ما للتوراة وتحديد أعمار الناس ، وتاريخ وفياتهم ؟ ان الله انما أنزل الكتب نورا وهدى للناس ، لا لمثل هذه الأخبار التى لا تعدو أصحابها .

ومن ذلك كله يتبين لك أن هذه القصة مفتراة بدون أدنى اشتباه ، وان رمى كعب بالكيد للاسلام فى شخص عمر ، والكذب فى النقل عن التوراه ، اتهام باطل لا يستند على دليل أو برهان ، ومن عجيب أمر هؤلاء الطاعنين ، أنهم يجعلون روايات المؤرخين حجة لا يأتيها الباطل بحال اذا كان لهم غرض فى اثبات مضمونها ، ويتشككون فى روايات البخارى ومسلم اذا جاءت على غير ما يشتهون .

وهب بن منبه

هو التابعى العابد الثقة ، أبو عبد الله وهب بن منبه ، اليمانى الصنعانى ، عالم أهل اليمن وحافظهم ، وقاضيهم على مدينة صنعاء ، كان من أبناء فارس ، وأصل والده (منبه) من خراسان ، من أهل هراة ، بعثه كسرى فيمن بعثه لأخذ اليمن ، وأسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وولد له وهب هذا سنة أربع وثلاثين وهو باليمن

وكانت له — الى جانب علمه بالكتاب والسنة — خبرة واسعة بكتب أهل الكتاب والتاريخ والشعر ، حتى اجتمع له علم عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ، روى عنه أنه قال : يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه ، وكعب أعلم أهل زمانه ، أفرأيت من جمع علمهما ، (يعنى نفسه) — روى الحديث عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبى سعيد الخدرى وجابر وغيرهم . وروى عنه ابناه عبد الله وعبد الرحمن وابن أخيه عبد الصمد وعمرو بن دينار وسماك بن الفضل وعوف الأعرابى وآخرون . وأخرج له البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى — وكانت وفاته سنة مائة وعشر فى أحد الأقوال .

ثناء العلماء عليه : قال العجيلى : كان وهب ثقة تابعيا ، وقال الذهبى : كان ثقة صادقا كثير النقل من كتب الاسرائيليات ، وقال النسائى : ثقة ، وقال أحمد : كان يتهم بشىء من القدر ثم رجع ، وقال ابن حجر : وثقة الجمهور وشذ الفلاس فقال : كان ضعيفا وشبهته فى ذلك أنه كان يتهم بالقول فى القدر ، وقال مثنى بن الصباح : لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين الفجر والعشاء وضوأ . وممن أثنى عليه عمر ابن عبد العزيز ، كتب اليه وهب : انى فقدت من بيت مال اليمن دنانير ، فكتب اليه عمر : أما بعد فانى لست أتهم دينك ولا أمانتك ، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك ، وانما أنا حجيج المسلمين فى مالهم ، وانما لأشحهم يمينك فاحلف لهم ، والسلام .

واذ قد تبين لك مما أسلفنا أن كعبا ووهبا كانا من خيار التابعين ، نرانا مسوقين الى ذكر كلمة عن « الاسرائيليات » يتبين لك منها — ان شاء الله — مدى كذب من يقدحون فيهما وفيمن أخذ عنهم فنقول :

الاسرائيليات

«على أى وجه كانت تروى وتؤخذ ، أخذها بالميزان الشرعى لا يعد طعنا فى الصحابة والتابعين ، لا خطر من الأسرائيليات اذا وزنت بميزان الشرع ، التوفيق بين النهى عن سؤال أهل الكتاب والاذن بالتحديث عنهم ، ذكر الاسرائيليات فى كتب الأئمة لايفيد انها صحيحة . كعب ووهب ليسا من اليهود »

١ — ما رواه الصحابة رضوان الله عليهم عن كعب الأحبار ووهب ابن منبه وأضرابهما ليس هو الحديث النبوى ، وانما هو أخبار اسرائيلية ، نقلها هؤلاء عن كتب أهل الكتاب .

٢ — وقد أخبر الله عن أهل الكتاب أنهم غيروا فى كتبهم وبدلوا ، فامتزج الحق فيها بالباطل ، والصدق بالكذب ، ومن أجل ذلك كان موقف الصحابة ازاء ما يروى لهم منها : (١) أن يصدقوا ما وافق القرآن أو السنة ، لأن هذه الموافقة دليل على أن الموافق لم تتناوله يد التحريف والتبديل (٢) ، وأن يكذبوا ما جاء على خلاف القرآن أو السنة ، لأن المخالفة دليل على أن أيديهم قد امتدت اليها بالعبث والتغيير ، (٣) وأما ما لايصدقه شرعنا ولا يكذبه ، واحتمل أن يكون وأن لايكون، فقد جاء فيه حديث البخارى عن أبى هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل اليكم .. الآية » وحديث ابن عبد البر عن عطاء بن يسار قال : « كانت يهود يحدثون أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيسبحون كأنهم يتعجبون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى

أنزل الينا وأنزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ، وحكمة النهى عن التصديق والتكذيب فى هذا الضرب من أخبارهم أفصح عنها حديث أبى نملة الأنصارى عند ابن عبد البر : « انه بينا هو جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من اليهود ، فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أعلم ، فقال اليهودى : أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فان كان حقا لم تكذبوهم ، وان كان باطلا لم تصدقوهم » ولفظ عبد الرزاق فى هذا الحديث : « فان كان باطلا لم تصدقوه ، وان كان حقا لم تكذبوه » ، وقد أشار الى ما أسلفنا صاحب فتح البارى اذ يقول : « قوله لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » أى اذا كان ما يخبرونكم به محتملا ، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقا فتكذبوه ، أو كذبا فتصدقوه ، فتقعوا فى الحرج ، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، نبه على ذلك الشافعى رحمه الله أ هـ (ج ٨ — ص ١٢٩ من الأميرية) .

٣ — ولا ينبغى أن يجعل من تلقى الاسرائيليات على هذا الوجه ، ذريعة للطعن فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم كانوا يزنونها بالميزان الشرعى كما أسلفنا ، وكان ذلك منهم بعد استقرار أصول الشريعة وارساء قواعدها ، وكان فى الأخبار والقصص لا فى العقائد والأحكام ، فلم تكن رواية هذه الأخبار بالتى تزلزل عقائدهم ، أو تشوش أفكارهم ، ومنزلتهم معروفة فى العلم والدين — كما لا ينبغى أن يتخذ من رواية هذه الاسرائيليات ، وسيلة للطعن فى رواتها من

أمثال كعب ووهب ممن أثنى عليهم الصحابة ، وزكاهم أهل البصر بالتعديل والتجريح ، وذلك لأنهم حكوها عن الكتب غير مصدقين لها على الاطلاق ، بل كانت عقيدتهم فيها كعقيدة الصحابة ما جاء على وفق شرعنا صدقوه ، وما خالفه كذبوه ، ومالم يوافق أو يخالف شرعنا ردوا فيه العلم الى الله عز وجل ، وما مثلهم فيما ينقلون ويحكون الا كمثل رجل أمين أراد أن يطلعك على كتاب مؤلف بغير لسانك ، فترجمه الى لغة تفهمها ، لتعرف ما فيه ان صدقا وان كذبا ، والصدق أو الكذب حينئذ يضاف الى الكتاب لا الى الناقل ، وليس أمثال ابن مسعود وابن عباس وأبى هريرة وابن عمرو بالقاصرين عن تمييز الخبيث من الطيب حتى يقال : أن نقلها أليهم يشوش على أفكارهم وعقائدهم .

٤ — أما اذا أخذت الاسرائيليات على غير المنهج الشرعى ، كأن صدق الآخذ جميع ما فيها أو كذبه ، أو كان غير ملم بأصول الشريعة وقواعدها ، أو لم يكن لديه من قوة النظر وشفوف الذهن ما به يستطيع أن يميز بين حقها وباطلها ، أو جعلها من موارد الشريعة يأخذ عنها العقائد والأحكام ، فانه حينئذ يكون لها أكبر الأثر فى افساد العقيدة ، وتشويش الأفكار ، وقد نهى الشارع عن أخذها كذلك أعظم النهى ، روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث ، تقرؤونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا هو من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم » وروى عبد الرازق عن عبد الله « هو ابن مسعود » قال : لا تسألوا أهل

الكتاب عن شيء ، فانهم لن يهدوكم ، وقد أضلوا أنفسهم ، فتكذبون بحق ، وتصدقون بباطل ، (زاد فى رواية) ان كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه » وروى ابن عبد البر عن يحيى بن جعدة قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب فى كتف ، فقال : كفى بقوم حمقا وضلالة ، أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم الى نبى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم ، فأنزل الله عز وجل : أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .. الآية » وأخرج ابن عبد البر باسناد فيه « مجالد » : أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض الكتب ، فقال : يا رسول الله أنى أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب ، قال : فغضب وقال : أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيحدثونكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه ألا أن يتبعنى» ، الى غير ذلك من الأحاديث والآثار ، وان يكن فى بعضها مقال ، فتعدد طرقها يعطيها قوة تجعلها صالحة للاحتجاج .

٥ — وقد التبس على بعض المعاصرين ، الذين اعتادوا أن يتلقفوا عن الكتب كل صحيح وسقيم ، وجه التوفيق بين هذه الأحاديث والآثار التى تفيد النهى عن سؤال أهل الكتاب ، وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص فى جواز الاذن بالتحديث عن أهل الكتاب ، وهو ما رواه البخارى عنه ، رضى الله عنه ، ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » فزعم أن الحديث باطل غير صحيح ، والحديث صحيح والحمد لله ، ويكفيك أنه فى صحيح البخارى مسندا موصولا ،

ولم يتكلم فيه أحد من أهل هذا الشأن بكلمة ، ولا تعارض بينه وبين ما ذكرنا من الأحاديث والآثار ، وذلك لأن المعنى حدثوا عنهم بما تعلمون صدقه ، وهو ما يوافق القرآن أو السنة الصحيحة ، لما فى الحديث عنهم من العظة والاعتبار ، ولا يجوز أن يكون المعنى ، حدثوا عنهم بكل حديث حق أو باطل ، اذ من المعلوم ضرورة أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجيز التحديث بالكذب ، كما لا يجوز أن يكون المعنى ، حدثوا عنهم بما لا تعلمون كذبه ، لما سنذكره ، وقوله فى الحديث « ولا حرج » أى لا ضيق عليكم فى الحديث عنهم ، لأنه كان قد تقدم منه صلى الله عليه وسلم الزجر عن الأخذ عنهم ، والنظر فى كتبهم ، على ما سمعت ، ثم حصل التوسع فى ذلك ، لا لكل أحد ، ولكن لمن رسخ فى علوم الشريعة ، وتمكن من معرفة أصولها ، وصار لديه من قوة النظر ، ما به يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، كما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص ، أصاب يوم « اليرموك » زاملتين من علوم أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما أذن به الشارع لا بكل ما فيهما « كما يقول الجاهلون والمقصرون » — هذا وحذاق العلماء قديما وحديثا ، من دأبهم أن ينظروا فى كتب أهل الكتاب ، ليجادلوهم بالتى هى أحسن ، وليقيموا عليهم الحجة على صحة الرسالة المحمدية بما يعتقدون ، وقد قال تعالى : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » وقال : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » وقال : « ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » أى التوراة . قال الحافظ فى الفتح (ج ٦ — ص ٣٦١ من الأميرية) : « وكأن النهى وقع قبل استقرار الأحكام الاسلامية ، والقواعد الدينية ،

خشية الفتنة ، ثم لما زال المحذور وقع الاذن فى ذلك ، لما فى سماع الأخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار » أ هـ وينبغى أن يخص الاذن بمن تمكن فى علوم الشريعة ، وقويت معرفته بأصولها كما ذكرنا ، وألا لحدث اللبس والتخليط فى العقائد [1] وقد صرح بذلك الحافظ نفسه فى موضع آخر من فتح البارى (ج ١٣ — ص ٤٣٨) اذ يقول : « والأولى فى هذه المسألة التفرقة بين من لم يتمكن ويصر من الراسخين فى الايمان فلا يجوز له النظر فى شيء من ذلك ، بخلاف الراسخ فيجوز له ، ولا سيما عند الاحتياج الى الرد على المخالف ، ويدل على ذلك نقل الأئمة قديما وحديثا من التوراة ، والزامهم اليهود بالتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بما يستخرجونه من كتابهم ، ولولا اعتقادهم جواز النظر فيه لما فعلوه وتواردوا عليه » ا هـ وبهذا البيان تجتمع لديك الأحاديث والآثار ، ولا يكون بينها تناقض أو اختلاف — ويرى بعضهم أن معنى حديث عبد الله بن عمرو : حدثوا عن بنى اسرائيل بمالم يثبت لديكم كذبه فى المواعظ والقصص ، لا فى العقائد والأحكام — وحمل

(١) من هنا تستطيع التوفيق بين منع ابن مسعود وابن عباس عن سؤال أهل الكتاب والنظر فى كتبهم ، وما كان منهما من الأخذ عن كعب وغيره من مسلمى أهل الكتاب . كما تستطيع أن تفهم سر منع عمر بن الخطاب كعبا من رواية الاسرائيليات ، وقوله له « ان كنت تعلم أنها التوراة التى انزلها الله على موسى فاقرأها آناء الليل والنهار » فعمر يخشى على عامة الناس أن لا يميزوا بين الحق والباطل ، فتتشوش عليهم عقائدهم ، ويرى أن مدارسة القرآن والحديث أهم من هذا ، وكعب يرى أن ذكرما فى التوراة من البشائر النبوية وغيرهما مما أخبر عنه القرآن والحديث ، يزيد المؤمنين ايمانا ، « ولكل وجهة هو موليها » ، هذا هو الباعث لكل منهما ، لا ما يزعمه المبشرون وأذنابهم من أن كعبا كان كاذبا فى الحديث عن التوراة ، وأنه كان يهوديا يتظاهر بالاسلام ليفسد عقائد المسلمين ومن أجل ذلك منعه عمر فيما يزعمون .

الحديث على هذا المعنى غير مرضى عندنا ، وذلك لأن مالم يثبت كذبه نوعان : « أحدهما » ما ثبت صدقه ، وهذا تجوز حكايته باطلاق ، ولا ينبغى أن يخص بالمواعظ والقصص ، و « ثانيهما » مالم يثبت صدقه ولا كذبه ، ولا فائدة تعود على المسلمين من التحديث بهذا النوع ، بعد قوله صلى الله عليه وسلم فيه : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم.. الحديث » وشرعنا والحمد لله مكتف بنفسه ، وليس بحاجة الى مثل هذا ، ففيه من العقائد والأحكام ، والأخلاق والآداب ، والمواعظ والأمثال ، ما فيه كفاية وذكرى ، لكل من كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد .

٦ — وفى تفاسير كبار الأئمة كثير من الاسرائيليات المنسوبة الى كعب ووهب وغيرهما ، كما تراه فى تفسير ابن جرير وغيره ، ولا ينبغى أن يذم هؤلاء الأئمة بذكرها فى كتبهم ، لأنهم رووها على أنها اسرائيليات توزن بميزان الشرع ، ولأنهم قد ذكروا أسانيدها الى قائليها ، تاركين تمييز صحيحها من باطلها لمن يأتى بعدهم ، كما فعل المحدثون عند تدوين الحديث ، ولأنهم بذكر الأسناد قد برئوا من عهدتها ، لأن أحوال الرجال كانت معروفة لمعاصريهم ، على خلاف ما نحن عليه اليوم .

هذا وليس كل ما ينسب الى كعب ووهب وأضرابهما صحيحا ، فقد اختلق عليهم الوضاعون كثيرا ، ليروجوا باطلهم بنسبته اليهم ، وتناقل هذه الأخبار المكذوبة بعض القصاص والمؤرخين والأدباء ، وبعض القاصرين من المفسرين ، على أنها حقائق ، من غير أن يتثبتوا من صحة نسبتها الى من عزيت له ، وبدون أن يفطنوا الى أنهم كانوا يروونها على أنها اسرائيليات بتقدير صحتها عنهم ، فضلوا وأضلوا ، والذنب ليس ذنب كعب ووهب ، ولكنه ذنب القصور والتقصير .

٧ — ومن المضحكات المبكيات ، ما زعمه بعض أدعيـاء العلم فى عصرنا ، من أنه قد عنى بمطالعة الكتب التى ألفها أعـداء الدين فوجد أكثر المطاعن التى تتخذ شبهة على الاسـلام ، مأخـوذة عن اسرائيليات تروى عن كعب ووهب ، وهذا يدل — فى نظره القاصر — على أنهما من اليهود الذين تظاهروا بالاسلام ليفسدوه ، وزعم هذا الدعى أيضا أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الجـرح والتعديل ، قد أثنوا عليهما خيرا وعدلوهما ، من غير أن يفطنوا الى ما فطن له هو من أمرهما — وهذا الزعم بنوعيه لا يصدر الا عن جاهل قد ملأه الغرور ، أو مجنون لا يدرى ما يقول ، ولو أنه كلف نفسه النظر فى أسانيد هذه الروايات التى تنسب اليهما ليتبين أصحيحة هى عنهما أم باطلة ، ثم تأمل بعد ذلك الى أنهمـا كانا يرويانها على أنهـا اسرائيليات ، ما رمى الصحابة والتابعين ومن بعدهما من حذاق الناقدين ، بهذا البهتان المبين .

سعيد بن المسيب

هو التابعى الجليل ، أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشى المخزومى ، أبوه وجده صحابيان ، أسلما يوم فتح مكة .

ولد سعيد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب . ورأى عمر وسمع منه ومن عثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص وابن عباس وابن عمر وجبير بن مطعم وعبد الله بن زيد بن عاصم وحكيم بن حزام وأبى هريرة ومعاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة وأم سلمة وغيرهم من الصحابة .

وروى عنه جماعات من أعلام التابعين ، كعطاء بن أبى رباح ومحمد

الباقر وعمرو بن دينار ويحيى الأنصارى والزهرى (الذى أكثر عنه من الرواية) وخلائق غيرهم .

اتفق العلماء على امانته وجلالته ، وتقدمه على أهـل عصره فى الحديث والعلم والفضل ، فقد كان رئيس أهل المدينة ، فى الفتـوى والفقه حتى كانوا يسمونه « فقيه الفقهاء » قال قتادة : « ما رأيت أحدا أعلم بحلال الله وحرامه من سعيد بن المسيب » وقال مكحول : « طفت الأرض كلها فى طلب العلم فما لقيت أحدا أعلم من سعيد بن المسيب » وكان سعيد يقول : « كنت أرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد » .

أجمع أهل الحديث على ثقته ، وعدالته وضبطه ، وجدارته وشدة حرصه فى طلب الحديث ، وشغفه بحفظه وجمعه .

كان سعيد لا يأخذ عطاء السلطان ، ويتعيش من تجارته فى الزيت ، وكان شديد الورع فى الدين ، زاهدا فى الدنيا ، توفى سنة ٩٣ هـ .

عـروة بن الزبير

هو أبو محمد عروة بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى المدنى ، التابعى الجليل ، كان من حفاظ الحديث المتقنين . سمع أباه الزبير وأخاه عبـد الله وأمه أسماء بنت أبى بكر الصـديق وخالته عائشة أم المؤمنين وسـعيد بن زيد وحكيم بن حزام وأبا هريرة وكثيرا من الصحابة والتابعين ، وروى عنه عطاء وابن أبى مليكة وأبو سلمة بن عبد الرحمن والزهرى وعمر بن عبد العزيز ، كما روى عنه أبناؤه الخمسة هشام ومحمد ويحيى وعبد الله وعثمان وغيرهم .

كان عروة كثير الحديث ، بحكم اختلاطه بخالته عائشة أم المؤمنين ،

وشدة حرصه فى طلب العلم وروايته ، مع الثقة التامة والضبط والأمانة . شهد له بذلك علماء الحديث من التابعين وغيرهم . فابن شهاب الزهرى يقول : « كان عروة بحرا لا يكدر » .

وهذا ابنه هشام يقول : « والله ما تعلمنا منه جزءا من ألفى جزء من حديثه » وابن عيينة يقول : « كان أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة ، القاسم وعروة وعمرة » وقال محمد بن سعد : « كان ثقة كثير الحديث ، فقيها مأمونا عالما ثبتا » ، توفى عروة سنة ٩٤ هـ . على أحد الأقوال .

نافع مولى ابن عمر

هو أبو عبد الله نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم . مكنت له سماحة الاسلام ، أن أصبح من الأئمة الأعلام ، مع أنه كان مملوكا لعبد الله بن عمر ، فلم تلهه خدمة سيده عن التفقه فى الدين ، وحفظ كثير من حديث سيد المرسلين ، فسمع سيده عبد الله بن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وأبا لبابة ورافع بن خديج وعائشة وغيرهم من الصحابة ، وخلائق من التابعين ، منهم القاسم وسالم ويزيد ابن عبد الله وأسلم مولى عمر وعبد الله بن محمد بن أبى بكر الصديق وغيرهم . وروى عنه أبو اسحق السبيعى والحكم بن عيينة ويحيى الأنصارى ومحمد بن عجلان والزهرى وصالح بن كيسان وأيوب وحميد الطويل وميمون بن مهران وموسى بن عقبة وابن عون والأعمش وغيرهم من التابعين .

وروى عنه من غير التابعين ابن جريج والأوزاعى ومالك والليث ويونس بن عبيد وابن أبى ذؤيب وبنو نافع عبد الله وعمر وأبو بكر ، وابن أبى ليلى والضحاك بن عثمان وكثير غيرهم .

أجمعوا على توثيقه وأمانته وعلوّ منزلته فى رواية الحديث حتى قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال مالك اذا سمعت من نافع حديثا عن ابن عمر لا أبالى الا أسمعه من غيره » . وقال عبيد الله بن عمر : لقد من الله علينا بنافع » وقال ابن عيينة : أى حديث أوثق من حديث نافع » ، ولبعد شأوه فى الحديث والفقه ، ومعرفته بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتندبه عمر بن عبد العزيز الخليفة العالم ، بمصر يعلمهم أحكام الدين ويرويهم الحديث .

قال محمد بن سعد : « بعث عمر بن عبد العزيز نافعا الى مصر يعلمهم السنة » قال « وكان كثير الحديث » ، توفى نافع بالمدينة سنة سبع عشرة ومائة .

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

هو التابعى الجليل ، والحافظ المتقن ، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود الهذلى المدنى . اتفقوا على أمامته وجلالته ، وكثرة حفظه للحديث ، وضبطه له وثقته فيه ، حتى كان ابن عباس يعزه ويكرمه ، لنباهته وعلو شأنه فى الحديث والفقه ، ويقول الزهرى : « ما جالست عالما الا ورأيت أنى أتيت على ما عنده ، الا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فانى لم آته الا وجدت عنده علما طريفا » قال عبيد الله : ما سمعت حديثا قط فأشاء أن أعيه الا وعيته » ، ولعلو كعبه فى علوم الدين وحفظه لكثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم اختير لأن يكون معلما لعمر بن عبد العزيز . قال ابن سعد : « كان عالما ثقة فقيها كثير الحديث » .

أخذ عبيد الله العلم عن جماعات من الصحابة ، فسمع ابن عباس وابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وأبا واقد الليثى وزيد بن

خالد والنعمان بن بشير وعائشة وفاطمة بنت قيس وغيرهم من الصحابة ، كما سمع كثيرا من كبار التابعين . وروى عنه الحديث عراك بن مالك والزهرى وأبو الزناد وصالح بن كيسان وغيرهم . وتوفى سنة ٩٩ على أحد الأقوال .

سالم بن عبد الله بن عمر

هو أبو عبد الله سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوى المدنى التابعى الامام ، سمع أباه وأبا أيوب الأنصارى ورافع بن خديج وأبا هريرة وعائشة ، كما سمع جماعات من التابعين ، وروى عنه من التابعين عمرو بن دينار ونافع مولى أبيه والزهرى وموسى بن عقبة وحميد الطويل وصالح بن كيسان وغيرهم من التابعين كما يروى عنه خلائق من أتباع التابعين .

أجمعوا على جلالته وامامته فى الفقه والحديث حتى قال اسحاق ابن راهويه أصح الأسانيد الزهرى عن سالم عن أبيه ، وقال محمد ابن سعد : « كان سالم كثير الحديث عاليا فى الرجال ورعا » .

توفى سالم سنة ست ومائة فى قول البخارى وأبى نعيم .

الشعبى

هو عامر بن شراحيل علامة التابعين . ولد الشعبى فى خلافة عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة . وكان اماما حافظا وفقيها بارعا . روى الحديث عن على بن أبى طالب وعن أبى هريرة وابن عباس وعائشة وابن عمر وغيرهم . وهو أكبر شيخ للامام أبى حنيفة رضى الله عنه . ولى قضاء الكوفة زمنا وظهرت فتواه زمن الصحابة ، مما يدل على أنه كان على جانب عظيم فى الحديث والفقه .

وقد اتفق العلماء على امامته وثقته ، وأثنـوا على علمه وفضله وتواضعه ونبله . قال مكحول : ما رأيت أعلم من الشعبى ، وقال عنه أبو حصين : ما رأيت أحدا قط أفقه من الشعبى ، وقال ابن سيرين لأبى بكر الهذلى : الزم الشعبى فقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون وقال ابن أبى ليلى كان الشعبى صاحب آثار وكان ابراهيم صاحب قياس وجاء عن الشعبى أنه كان يقول : « انا لسنا بالفقهاء ولكنا سمعنا الحديث ورويناه ، الفقيه من اذا علم عمل » . توفى رحمه الله سنة ١٠٤ مائة وأربع هجرية .

ابراهيم النخعى

هو أبو عمران ابراهيم بن يزيد بن قيس النخعى الكوفى ، فقيه أهل الكوفة، التابعى الجليل ، دخل على عائشة رضى الله عنها ، ولم يثبت له سماع عنها بل سمع جماعة من كبار التابعين ، منهم علقمة وخالاه الأسود وعبد الرحمن بنا يزيد ومسروق وغيرهم . وروى عنه جماعة من التابعين منهم السبيعى وحبيب بن أبى ثابت وسماك بن حرب والأعمش وحماد ابن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة .

أجمع العلماء على توثيقه وبراعته فى الفقه ، فالشعبى يقول حين توفى ابراهيم : ما ترك أحدا أعلم منه أو أفقه قيل ولا الحسن وابن سيرين قال ولا الحسن وابن سيرين ولا من أهل البصرة ولا الكوفة ولا الحجاز ولا الشام .

وابراهيم وان لم يحدث عن أحد من الصحابة مع أنه أدرك جماعة منهم ، فقد كان على منزلة فى الحديث ، ومكانة فى علم الرواية ، حتى قال الأعمش فيه : « كان النخعى صيرفى الحديث » وهذه كلمة لها

مغزى عظيم ، فان العالم لا يبلغ أن يكون نقادة فى الحديث الا اذا حفظ كثيرا منه ، وعرف كثيرا من أحوال رواته ، وكذلك كان ابراهيم .

قال أبو زرعة : « النخعى علم من أعلام الاسلام » ، وقال العجلى : كان النخعى فقيها متوقيا قليل التكلف .. توفى سنة ٩٦ هـ سنة ست وتسعين .

علقمة

هو التابعى الكبير ، والفقيه الجليل ، أبو شبل علقمة بن قيس بن عبد الله النخعى الكوفى عم الأسود وعبد الرحمن ابنى يزيد وخالى ابراهيم النخعى .

سمع عمر بن الخطاب وعثمان وعليا وابن مسعود وسلمان الفارسى وخبابا وحذيفة وأبا موسى وعائشة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم . وروى عنه أبو وائل وابراهيم النخعى والشعبى وابن سيرين وعبد الرحمن بن يزيد وأبو الضحى وغيرهم من التابعين .

أجمعوا على جلالته ووفور علمه وجميل سيرته حتى قال ابراهيم : « كان علقمة يشبه ابن مسعود » وقال السبيعى : كان علقمة من الربانيين وقال أحمد بن حنبل : « علقمة ثقة من أهل الخير » وقال أبو سعد السمعانى : « كان علقمة أكبر أصحاب ابن مسعود وأشبههم هديا ودلا به » . وتوفى سنة ٦٢ هـ .

المبحث الثامن

« الرد على شبه وردت على رواية الحديث وكتابته فى القرن الأول »

ظهر لنا مما تقدم أن الحفظ والكتابة تعاونا على جمع الحديث وصيانته فى القرن الأول حتى جاء عصر التدوين ، ولكن بعض الزنادقة

أبوا ألا أن يشككوا المؤمنين فى رواية السنة وحملتها فى عهودها المختلفة ، بزخرف من القول ، وباطل من الأدلة ، ونحن نورد مقالتهم ، ثم نتبعها بما يدحضها ، معتمدين على الله ، فنقول :

« كيف كانت تروى الأحاديث النبوية »

ردّ شبه أثيرت حول الرواية بالمعنى

يقول دعاة الإلحاد : ان الأحاديث قد رواها الرواة بالمعنى ، لا بالألفاظ المسموعة منه صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا شأن الرواة فى كل طبقة ، يسمعون الأحاديث بألفاظ ثم يروونها بألفاظ أخرى ، وهكذا ، حتى وصلت الينا ، وقد انطمست معالم ألفاظها ومعانيها ، فكان للرواية بالمعنى ضرر كبير فى الدين واللغة والأدب ، ولهذا لم يثق العلماء على اختلاف مشاربهم بالأحاديث ، فالمتكلمون ردوا منها ما لا يتفق وما ذهبوا اليه من أصول ، والفقهاء أخذوا منها وتركوا ، وعلماء العربية لما رأوا الأحاديث قد رويت بالمعنى ، ولم يعلموا على اليقين لفظه صلى الله عليه وسلم الذى نطق به ، رفضوا أن يستشهدوا بها فى اثبات اللغة أو قواعد النحو ، فى الوقت الذى يستشهدون فيه بكلام أجلاف العرب الذين كانوا يبولون على أعقابهم .

قالوا : وقد كان الواجب يقضى أن تكتب الأحاديث بين يديه صلى الله عليه وسلم كالقرآن ، ويتلقاها الرواة طبقة بعد طبقة ، مضبوطة الألفاظ ، متواترة الاسناد ، حتى يمكن الوثوق بها .

الجواب

ولتفنيد هذه الشبهة ينبغى أن نتعرض للبحث فى الموضوعات الآتية :

(١) لماذا لم تدون السنة بين يديه صلى الله عليه وسلم كالقرآن ؟

(٢) رواية السنة بالمعنى لا تجوز بعد تدوينها فى الكتب .

(٣) الصحابة ومن بعدهم كانوا يحرصــون على الرواية باللفظ النبوى . لا يعدلون عنه الا عند الاضطرار .

(٤) اختــلاف ألفاظ الأحاديث التى تتوارد على معنى واحــد ، لا يرجع الى الرواية بالمعنى وحدها .

(٥) قبول التشكيك فى الأحاديث يرفع الثقة عن جميع العلوم .

(٦) لماذا أخذ العلماء من الأحاديث وتركوا .

(٧) المحققون من أئمة العربيــة على جواز الاستشهاد بالأحاديث فى اللغة والنحو .

واليك هذه المباحث بايجاز حتى تنجاب عنك تلك الظلمات :

١ — « لماذا لم تدون السنة بين يديه صلى الله عليه وسلم كالقرآن »

اعلم أن كتابة القرآن بين يديه صلى الله عليه وسلم كان بوحى من الله عز وجل ، لأنه متعبد بتلاوته ، معجز بنظمه ، ومن أجل ذلك لاتجوز روايته بالمعنى ، بل لابد من المحافظة على لفظه المنزل ، فلو ترك لحوافظ العرب تعيه ، بدون أن تستعين على وعيه بالكتابة ، لما أمن أن يزيدوا فيه حرفا أو ينقصوه ، أو يبدلوا كلمة بكلمة ، أو جملة بأخرى ، الى غير ذلك من أنواع التغيير والتبديل ، فيختل بذلك ركن من أركانه وهو النظم .

وكذلك ترك كتابة السنة بين يديه صلى الله عليه وسلم كان بوحى من الله جل شأنه ، لأن المقصود منها المعنى دون اللفظ ، ولذلك لم يتعبد بتلاوتها ، ولم يقع التحدى بنظمها ، وتجوز روايتها بالمعنى .

هــذا الى أن فى المحافظة على لفظ القرآن صيانة الشريعة ، وفى الاكتفاء برواية السنة بالمعنى التيسير على الأمة ، والتخفيف عنهـا ،

فى تحملها وأدائها ، وذلك لأن السنة لو كانت كالقرآن فى وجوب أخذها وأدائها باللفظ المسموع منه صلى الله عليه وسلم ، لتحملت الأمة فى روايتها من ضروب الضيق والحرج ما لا يحصى ، ولو كان القرآن كالسنة فى جواز روايته بالمعنى لما كانت النفوس تطمئن الى الشريعة ، ولكان فى القرآن منفذ للزنادقة والملحدين ، اذ يقولون لا ثقة لنا بأنه تنزيل من الله ، ولكن الله عز وجل صان الشريعة ، وخفف عن الأمة .

ولا يغيب عنك أن رواية السنة بالمعنى ، يشترط فيها أن يكون الراوى خبيرا باللغة وأسرارها ، وبالشريعة ومقاصدها ، ذا ملكة قوية فيهما ، وأن يكون الحديث الذى يريد روايته بالمعنى ليس من جوامع الكلم ، ولا مما يتعبد بلفظه ، ولا مما تعيه ذاكرته ، فان كان الراوى غير عالم بأساليب العرب ، أو بعلوم الشريعة ومقاصدها ، أو كان الحديث من جوامع الكلم ، أو مما يتعبد بلفظه كأحاديث الدعاء ، أو كان محفوظا للراوى ، لم تجز الرواية بالمعنى فى هذه الأحوال كلها ، ومن ذلك كله يتبين لك أن الرواية بالمعنى لا يترتب عليها اخلال بالسنة أو عبث بها .

فان قال قائل بعد هـذا البيان : « ان ترك كتابة السنة بين يديه صلى الله عليه وسلم مما يرفع الثقة بها » قلنا له : معنى ذلك رمى النبى صلى الله عليه وسلم — وحاشاه — بالتقصير فى تبليغ الوحى الالهى ، أو معناه أن السنة ليست من الدين ، والقول بهذا أو ذاك ، ضلال مبين ، واتباع لغير سبيل المؤمنين .

٢ — الرواية بالمعنى لا تجوز بعد تدوين الحديث

الرواية بالمعنى لم تكن من الرواة بعد تدوين الحديث ، وذلك لأن الأصل فى الرواية أن تكون على اللفظ المسموع منه صلى الله عليه

وسلم ، فاذا نسى اللفظ جازت الرواية بالمعنى على سبيل التخفيف والرخصة ، وبتدوين الأحاديث زال هذا المعنى الذى أوجب التيسير والرخصة ، فوجب أخذ الحديث وروايته بلفظه ، ولقد بدأ تدوين الحديث بشكل ظاهر منظم على رأس المائة الأولى ، بأمر من الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، فأخذ العلماء فى جميع الأمصار يدونون ما وعته حوافظهم القوية ، أو صحفهم المصونة ، وتتابعوا على تدوين السنة فى مراحل مختلفة ، وبطرق متنوعة ، الى أن انتهت تلك المراحل والطرق بظهور الأصول الخمسة « البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود والترمذى » فى القرن الثالث ، الذى يعد بحق العصر الذهبى لتدوين السنة ، ولقد كانوا فى تدوينهم للسنة يقابلون ما يكتبون على الأصول ، خشية الزيادة أو النقص بسبب الخطأ أو النسيان ، حتى اذا اطمأنوا الى ما كتبوا صانوا تلك الكتب أو الصحف عن أن تمتد اليها يد تغير أو تبدل ، هذا مع بقائهم على ما كان عليه أسلافهم من حفظ الحديث فى الصدور ، واتقانه فى الأداء ، وتلقيه من أفواه المشايخ بالأسانيد المتصلة ، فكان التدوين عاملا جديدا من عوامل حفظ السنة وصيانتها ، أضيف الى ما كانوا عليه من حفظ السنة فى الصدور ، ووعيها فى القلوب.

وما ذكرنا من أن الرواية بالمعنى لم تكن بعد تدوين الكتب ؛ ولا تجوز بعدها ، نص عليه علماء الحديث الأعلام ، منهم الامام أبو عمرو ، عثمان بن عبد الرحمن ، المعروف بابن الصلاح ، المتوفى سنة ٦٤٢ هـ اذ يقول فى مقدمته بعد أن ذكر اختلاف العلماء فى جواز الرواية بالمعنى : « ثم أن هذا الخلاف ، لا نراه جاريا ولا أجراه الناس — فيما نعلم — فيما تضمنته بطون الكتب ، فليس لأحد أن يغير لفظ شىء من كتاب مصنف ، ويثبت بدله فيه لفظا آخر بمعناه ، فان الرواية

بالمعنى رخص فيها من رخص ، لما كان عليهم فى ضبط الألفاظ والجمود عليها من الحرج والنصَب ، وذلك غير موجود فيما اشتملت عليه بطون الأوراق والكتب ، ولأنه ان ملك تغيير اللفظ فليس يملك تغيير تصنيف غيره والله أعلم » أهـ ومثله فى تقريب النواوى وشرحه تدريب الراوى .

وبذلك يسقط قول الملحدين : « ان الرواة تناقلوا الحديث بألفاظهم فى جميع العصور » .

٣ — « الصحابة والتابعون كانوا يحرصون فى رواية الحديث على اللفظ النبوى »

الرواية بالمعنى كانت فى المائة الأولى للهجرة ، أى فى عصر الصحابة والتابعين قبل أن يشيع تدوين الحديث ، ولم يكونوا على وفاق فى الرواية بها ، فبعضهم كان يحجم عن رواية الحديث اذا نسى لفظه صلى الله عليه وسلم ، تورّعا خشية أن لا يصيب المعنى ، ويرى بأنه قد خرج من اثم كتمان العلم ، بأداء غيره ممن هو أحفظ منه وأضبط ، وبعضهم كان اذا نسى لفظ الحديث أو بعضه رواه على المعنى اذا كان ضابطا له ، خروجا من اثم كتمان العلم ، وعملا بحديث « اذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس » قاله صلى الله عليه وسلم لمن قال له من الصحابة : « يارسول الله انى أسمع منك الحديث لا أستطيع أن أؤديه كما أسمع منك يزيد حرفا أو ينقص حرفا ، قال الحسن : « لولا هـذا ما حدثنا » ، ولأن تبليغ الأحاديث واجب ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، فاذا ندّ اللفظ عن الذهن وعلم المعنى وجب أداؤه بلفظ مماثل ، روى البيهقى عن مكحول قال : دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع ، فقلنا له يا أبا الأسقع ، حدثنا

بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فيه وهم ولا مزيد ولا نسيان ، فقال : هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئا ، فقلنا نعم ، وما نحن له بحافظين جدا ، انا لنزيد الواو والألف وننقص ، قال : « فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم ، لا تألونه حفظا ، وأنتم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون ، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عسى أن لا نكون سمعناها منه الا مرة واحدة ، حسبكم اذا حدثناكم بالحديث على المعنى » ، وأسند عن أبى أويس قال : سألنا الزهرى عن التقديم والتأخير فى الحديث فقال : « أن هذا يجوز فى القرآن [1] ، فكيف به فى الحديث ، اذا أصبت معنى الحديث ، فلم تحل به حراما ولم تحرم به حلالا فلا بأس » ، وأسند عن وكيع قال : « ان لم يكن المعنى واسعا فقد هلك الناس » ، وعلى جواز الرواية بالمعنى عند نسيان اللفظ النبوى جمهور السلف ، وعليه كان العمل كما بينا ، ومن هنا أخذ الماوردى اشتراط نسيان لفظه صلى الله عليه وسلم ، فى جواز الرواية بالمعنى ، اذ يقول : « ان نسى اللفظ جاز ، لأنه تحمل اللفظ والمعنى ، وعجز عن أداء أحدهما ، فيلزمه أداء الآخر ، لا سيما أنّ تركه قد يكون كتما للأحكام ، فان لم ينسه لم يجز أن يورده بغيره ، لأن فى كلامه صلى الله عليه وسلم من الفصاحة ما ليس فى غيره » اهـ ونعم ما قال ، رحمه الله ، قال السيوطى : ولا شك فى اشتراط أن لا يكون مما تعبد بلفظه ، قال : وعندى أنه يشترط أن لا يكون من جوامع الكلم اهـ وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه

(١) أى فى مقام الشرح والبيان ، لا فى مقام التلاوة والأداء . ويجوز أن يكون فى مقام التلاوة والأداء ولكن فى الجملة الوافرة من السورة ، كأن يقرأ سورة الكهف من منتصفها ، ثم ينشط فيقرأ باقيها من أولها ..

وسلم اذا اضطروا الى الرواية بالمعنى ، أو شكوا فى اللفظ النبوى أو فى بعضه ، أوردوا عقب الحديث لفظا يفيد التصون والاحتياط ، وهم أعلم الناس بمعانى الكلام ، لعلمهم بما فى الرواية بالمعنى من الخطر، روى ابن ماجه وأحمد والحاكم عن ابن مسعود أنه قال يوما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاغرورقت عيناه ، وانتفخت أوداجه ، ثم قال : « أو مثله أو نحوه أو شبيه به » ، وفى مسند الدارمى والكفاية للخطيب عن أبى الدرداء أنه كان اذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أو نحوه أو شبهه » ، وروى ابن ماجه وأحمد عن أنس بن مالك أنه كان اذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرغ قال : « أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

هذا ما كان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين عند رواية الحديث النبوى ، لا يترخصون فى الرواية بالمعنى الا عند نسيان اللفظ المسموع منه صلى الله عليه وسلم ، وفى غير جوامع الكلم ، وما تعبد بلفظه [١] ، ثم بعد هذا كله يتتبعون الحديث بقول يفيد احتياطهم فى روايته ، وينبهون أثناء سياق الحديث على موضع السهو أو التردد ، بما لا تجده لأمة من الأمم فى أى عصر من العصور ، وان شئت فاقرأ طرفا من كتب السنة المصونة كالصحيحين أو السنن لتلمس ما كان عليه القوم من حفظ وضبط ، ومن أمانة تامة ، وبيان لحقيقة ما يروون :

« أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ... اذا جمعتنا ياجرير المجامع »

وأكثر ما كانوا يفعلون ، الرواية على اللفظ النبوى المسموع منه

---

(١) كألفاظ الدعاء أو الأذان والاقامة أو التشهد فى الصلاة .

صلى الله عليه وسلم ، يحرصون على ذلك أشد الحرص وأبلغه ، لأن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم أفصح العرب ، ولأن أحاديثه دين ، « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » ، وســاعدهم على ذلك أمور :

أولا : حوافظهم الواعية ، وأذهانهم الصافية ، وقلوبهم العاقلة ، وسجل لهم التاريخ الصحيح من ذلك ، العجب العجاب ، فقد كانوا يحفظون القصائد والخطب الطويلة ، بسماعها مرة أو مرتين أو ثلاثا ، ثم تبق في أذهانهم ما بقوا ، لأنهم قـوم أميـون ، دواوينهــم صــدورهم ، وكتبهم حوافظهم ، نمت فيهم ملكة الحفظ بالممارسة ، ومن الخطأ أن يقاسوا على الأمم الأخرى ، أو يقاسوا علينا فى هذا العصر .

ثانيا : تدوين كثير منهم لأحاديثه صلى الله عليــه وسلم كتابة ، خشية أن يضيع منها شيء عن أذهانهم ، بسبب السهو أو الخطأ أو تقدم السن ، وكانت الكتابة فى التابعين أكثر منها بين الصحابة ، فكان هذا التدوين الشخصى الى جانب الحفظ فى الصدور من أكبر العوامل على صون الحديث كما سمع منه صلى الله عليه وسلم ، ومن كره تدوين الحديث من الصحابة أو التابعين كان خشية الاعتماد على الكتابة وترك الحفظ ، أو لأنهم تلقوها حفظا فأحبوا أن تؤخذ عنهم كذلك ، أو لأنهم خافوا أن تضعف ملكة الحفظ فيهم بسبب التدوين ، الى غير ذلك مما تقدم لنا تفصيله .

ثالثا : تلك المجالس التى كانوا يعقدونها لتحمل الحديث وروايته ، وتلك الرحلات الى الأمصار المختلفة لذلك ، فكانت هذه وتلك مما أعانت على بقاء حفظ السنة فى أذهانهم ، وضبطها فى صدورهم ، وتثبيتهم فيما عسى أن يكونوا قد شكوا أو ترددوا فيه ، وتلقيهم ما فاتهم من حديثه

صلى الله عليه وسلم . وقد رغبهم صلى الله عليه وسلم فى التبليغ عنه ، فصدعوا بما أمروا ، وتفانوا فى القرآن والحديث أخذا وتحملا ، فرضى الله عنهم ، وأثابهم أعظم المثوبة .

من أجل ذلك كله نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون : ان الرواية بالمعنى كانت قبل فساد اللسان العربى ، ومن أئمة كبار فى اللغة والشرع معا ، وكانوا يرونها رخصة عند الاضطرار ، وكان نسيانهم قليلا بل نادرا فان كان ففى بعض حروف العطف ، أو المفردات ، أو بعض الجمل

٤ — « اختلاف ألفاظ الأحاديث لا يرجع الى الرواية بالمعنى وحدها »

من الخطأ البين أن يعزى اختلاف ألفاظ الأحاديث التى تتوارد على معنى واحد ، الى الرواية بالمعنى وحدها ، بل كان لمجالسه صلى الله عليه وسلم المتعددة بتعدد الأزمنة والأمكنة ، والحوادث والأحوال ، والسامعين والمستفتين ، والمتخاصمين والمتقاضين ، والوافدين والمبعوثين، أثر فى ذلك كبير ، فكانت ألفاظه صلى الله عليه وسلم تختلف فى كل ذلك ، ايجازا واطنابا ، ووضوحا وخفاء ، وتقديما وتأخيرا ، وزيادة ونقصانا ، بحسب ما تقتضيه الحال ، ويدعو اليه المقام ، فقد يسأل عن أفضل الأعمال مثلا فيجيب كل سائل بجواب غير جواب صاحبه ، أو عن أفضل الجهاد فيذكر لكل مستفت نوعا من أعمال البر غير مايذكره للآخر ، أو عن أحب أنواع الصدقة فيذكر لهذا غير ما يذكره لذاك ، أو يسأل عن معنى البر والاثم فتتعدد أجوبته بتعدد السائلين ، وهكذا ، فيظن من لا علم عنده أن هذا من باب التعارض ، أو من عدم ضبط الرواة ، وواقع الأمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان طبيب

النفوس ، فيجيب كل انسان عن مسألته بما يناسبه ، وبما يكون أنفع له أو للناس فى جميع الظروف أو فى الظرف الذى كان فيه الاستفتاء .

وانظر الى اختلاف ألفاظ الأذان والاقامة والتشهد ، والأذكار فى الصلوات وبعدها ، والأدعية فيها وفى غيرها ، والرواة فى الجميع عدول ضابطون ، فيظن من لا علم عنده أن هذا من باب التناقض ، أو أنه من عدم ضبط الرواة ، أو من الرواية بالمعنى ، والواقع أن كل ذلك كان بتعليم منه صلى الله عليه وسلم ، اشارة الى جواز الجميع ، وأن فى الأمر سعة وتيسيرا على الأمة — ثم انظر تعاليمه صلى الله على وسلم للوفود ، ووصاياه القيمة لمن يبعثهم الى الأقطار المختلفة ، معلمين ومرشدين ، ومبشرين ومنذرين ، والى كتبه للملوك والرؤساء والحكام ، تجدها حافلة ببالغ العظات ، ونافع الوصايا ، مع تفنن فى القــول ، ورعاية للمناسبات ، وخطاب للناس على مقدار عقولهم .

ولقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فى الجمع والأعياد ، والغزوات والحروب ، ومهمات المسائل وجسام الأمور ، يحذر فيهــا وينذر ، ويبصر فيها ويرشد ، ويذكر قواعد الاسلام ، ومعالم الأحكام ، وأحوال الجنة والنار ، وأشراط الساعة ، وعذاب القبر ، وألفاظه فى ذلك تختلف باختلاف المناسبات ، وتطول وتقصر تبعا لما تقتضيه الأحوال .

ولقد كانت مجالسه المباركة على كثرتها سفرا وحضرا ، حافلة ببيان الأحكام ، وتصحيح الأخطاء ، والوصايا بتقوى الله عز وجل ، والحث على مكارم الأخلاق ، والتحذير من مساوئها ، وربما قص عليهم فيها من أنباء الأمم الخالية ، ما فيه عبرة وذكرى ، يصرف القول فى جميع

ذلك بما يتلاءم وحال السامعين ، من البسط والايجاز ، والوضــوح والخفاء [١] .

فهل ترى فى أحاديثه صلى الله عليــه وسلم فى جميــع ما ذكرنا ، وتنويعها حسب ما يليق بكل حال ، تناقضا واختلافا ، أو أن الرواة لم يضبطوا ما ســمعوا فترخصوا فى الرواية بالمعنى فكان من ذلك التناقض والاختلاف ؟ اللهم لا هذا ولا ذاك ، ولكنه الحكمة فى التعليم ، والرعاية للمناسبات ، والتلطف فى تبليغ الوحى الآلهى ، واعطاء مايناسب الأفراد والجماعات ، من العظات وبيان الأحكام .

ومالنا نذهب بعيدا ، وهذا كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيه القصة الواحدة لنبى من الأنبياء ، تذكر فى جملة سور منه على وجوه شتى ، فتارة تذكر كلها كاملة ، موجزة أو مبسوطة ، وتارة يذكر طرف منها فى سورة وطرف آخر فى سورة أخرى ، موجزا ذلك الطرف أو مبسوطا ، كل ذلك مع اختــلاف الألفاظ ، وتنوع العبارات ، كما تراه فى قصة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . أترى فى تصريف القول فى كل قصة من قصص الأنبياء مثلا تناقضا واختلافا ، كما يراه من فى قلوبهم مرض ، أم أنه الحق من ربك ، يصدق بعضه بعضا ، ويشرح المجمل فيه بالمفصل ، ويضم طرف من القصة الواحدة فى موضع الى طرف منها فى موضع آخر ، فتلتئم أطراف القصة ، وان ذلك كله كان لاختلاف المقام ، ورعاية الحال ، كما يعلمه الراسخون فى العلم ، قائلين « كل من عند ربنا » .

---

(١) فاذا أضفت الى هذا كله ، أن رواة أحاديثه صلى الله عليه وسلم فى كل مجلس ، قد يروون جميع ما ســمعوا ، وقد يقتصرون على بعضــه ، وما يقتصر عليــه هذا غير ما يقتصر عليه ذاك تبعا لمواطن الاستشهاد مع المحافظة على اللفظ المسموع ، استــبان لك أن شبهات الملحدين قد ذهبت هبــاء .

أما أنه لو لم يثبت القرآن بالتواتر حفظا وكتابة ، وكان ثبوته عن طريق الآحاد كالسنة ، لكانت الشبهة هى الشبهة ، ولكن الله عز وجل قد صانه عن الشبهات بالتواتر ، ليضرب لنا فيه الأمثال على صدق السنة « وما يذكر الا أولوا الألباب » .

٥ — اعتبار التشكيك فى الأحاديث يرفع الثقة بجميع العلوم .

ليس لدينا علم من العلوم سعد باتصال الأسانيد بالثقات الضابطين ، وتنوع تلك الأسانيد ، ومعرفة أحوال الرواة ، من جهة شيوخهم وتلاميذهم ، وتعديلهم وتجريحهم ، وحلهم وترحالهم ، ومواليدهم ووفياتهم ، مثل علم الحديث النبوى ، ففيه من كتب الرجال والطبقات فى جميع العصور والأمكنة ، ما تستطيع به أن تطلع على تاريخ كل راو من رواة السنة وما قيل فيه ، ولو حاولت أن تفعل ذلك أو بعضه مع رواة الأدب أو مع رواة التاريخ أو غيرهما من العلوم ، لالتوى عليك البحث ، وأدركك العجز ، مهما أوتيت من سعة الذهن ، ووفرة المراجع ، وسعة الاطلاع .

وقد أتاح الله عز وجل لهذه السنة النبوية المباركة ، أن يخدمها فى كل عصر ومصر أئمة كرام بررة ، وأعلام ثقات مهرة ، لأنها شارحة للقرآن ، ومفصلة لمقاصده ، بمقتضى قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » ، فكان حفظها حفظا للقرآن ، والعناية بها أخذا وتحملا ، سندا ومتنا ، عناية بالقرآن ، الذى ضمن الله بقاءه على الدهر ، بقوله : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

ولو أننا ذهبنا نستمع الى من فى قلوبهم مرض ، من دعاة الالحاد ، وخصوم الاسلام ، وصرنا الى ما صاروا اليه من الشبهات ، المؤسسة

على شفا جُرف هار ، لذهبت ثقتنا بجميع العلوم ، ذلك لأن علماءها لم يبذلوا فيها ، من الدرس والتمحيص ، والدقة والتحرى ، عشر معشار ما بذله علماء الحديث ، فى حفظ السنة ورعايتها ، وتمييز صحيحها من ضعيفها ، ومعرفة أحوال رواتها على اختلاف طبقاتهم وأزمنتهم وأمكنتهم ، كما بينا ، فاذا انهار حصن السنة الحصين ، بعد تلك العناية البالغة ، التى يشهد بها التاريخ والواقع ، لم يبق هناك علم نرجع إليه أو نثق به ، وكفى بذلك حمقا وجهلا .

انك لو فتشت عما يريده هؤلاء المارقون ، لرأيتهم يريدون الاتيان على الاسلام من القواعد ، لذلك ترى فريقا منهم يحاول صد الناس عن اتباع السنة ، عن طريق النيل من حماتها ، وتسفيه حملتها ، ورميهم بكل نقيصة ، بغيا وحسدا ، باسم البحث الحر ، والدراسة التحليلية ، والطريقة العلمية ، ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم يحملون علماء السنة وحماتها ، أوزار الوضاعين ، من الجهلة والزنادقة والمغرضين ، ويردون ما صح من الأحاديث باجماع الأئمة ، بأخبار ضعيفة ، وآثار واهية ، ينقلونها عن كتب الأدب والتاريخ ، وعن جهلة الشيعة والمعتزلة ، وهى اذا وزنت بميزان النقد الصحيح انهارت أسانيدها ومتونها وذهبت هباء منثورا ، بل ويذهبون بتسعة أعشار السنة التى تلقاها العلماء بالقبول فى جميع الأعصار والأمصار ، بحديث من وضع الزنادقة لا وزن له عند علماء السنة ، وهو « ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ... الخ » ، ويتظاهرون باجلال القرآن واحترامه ، وانه الحجة التى ليس وراءها حجة ، هذا حال فريق منهم ازاء السنة ، وهناك فريق آخر يحاولون أن يتلاعبوا بالقرآن عن طريق التأويلات الباطلة ، والأفهام الزائفة ، باسم التجديد ، ونبذ القديم ، ويلتقى هذا الفريق وذاك عند هدف

واحد ، هو هدم الاسلام ، وصد الناس عن اتباعه « أتواصوا به بل هم قوم طاغون » . ولكن الله قد حمى عرين الدين بهؤلاء العلماء ، الثقات الأمناء ، فردوا كيدهم فى نحورهم ، وذهبوا بأباطيلهم « ويأبى الله ألا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

٦ — ترك العلماء لبعض الأحاديث وسببه

لم يكن ذلك منهم استهانة بالسنة ومسايرة للأغراض والشهوات ، معاذ الله أن يكون منهم هذا ، وهم أئمة الهدى ، ومصابيح الدجى ، وحملة السنة وحماتها ، وفى القرآن الكريم : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » وفى الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وانما كانوا يفعلون ذلك ، لأن الحديث لم يبلغهم ، أو بلغهم ولم يصح لديهم ، أو صح ولكن عارضه ما هو أقوى من أدلة الشريعة أو رأوه منسوخا ، الى غير ذلك من الاعتبارات الشرعية ، التى بسطها ابن تيمية فى رسالته (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) . وقد تكلمنا عن أمثلة منها فى المقدمة ، ونزيد الآن على ما أسلفنا تلك الفوائد ، حتى لا يختلط عليك الحق بالباطل ، فنقول وبالله التوفيق :

أولا : العقائد التى يتوقف عليها صحة الاسلام ثابتة بالأدلة القطعية من العقل والنقل ، وذلك كالايمان بوجود الله ووحدانيته ، ووصفه بأوصاف الكمال والجلال ، وتنزيهه عن سمات الحدوث والنقصان ، وكالايمان بملائكة الله وكتبه ورسله والقدر خيره وشره ، وكالايمان

بالبعث بعد الموت ، والمجازاة على الأعمال بالنعيم فى الجنة أو العذاب فى النار يوم القيامة .

هذا النوع من العقائد لا يثبت الا بصريح العقل ونصوص القرآن وما تواتر لفظا أو معنى من أحاديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فان رأيت فيه حديثا غير متواتر فلا ترده لأنه عاضد للدليل القطعى ، أما العقائد التى لا يتوقف عليها أصل الايمان ولا تحقق الاسلام فهذه يجوز اثباتها بأخبار الآحاد الصحيحة التى لا تعارض قرآنا ولا سنة متواترة ولا اجماعا ولا عقلا صريحا وذلك كوصف الله تعالى بشىء من أوصاف الكمال تفصيلا ، وتسميته ببعض أسمائه الحسنى ، وكالأخبار عن بعض المغيبات الكائنة أو المستقبلة ، وكعذاب القبر ونعيمه وما يكون فيه ، وكتفاصيل ما يكون يوم القيامة من الشفاعة ووزن الأعمال ورؤية الله عز وجل .

على أن الأحاديث الاحادية فى هذا النوع من العقائد كثيرا ما تتعدد طرقها فتكتسب الشهرة أو التواتر ، وقد يحتف بها من القرائن أو يعاضدها من ظواهر القرآن الكريم واجماع العلماء الذين يعتد باجماعهم مايجعلها فى درجة الأدلة اليقينية ، وجاحد هذا النوع من العقائد ضال مضل وفاسق مبتدع .

ثانيا : علمت مما تقدم أن ما لم يتواتر من الأحاديث « وهو خبر الواحد فى اصطلاح المحدثين » يحتج به فى العقائد التى لا يتوقف عليها أصل الايمان ، وذلك بناء على أن مثل هذه العقائد يكتفى فيها بالظن القوى ، أو بناء على ما يراه كثير من المحققين من أن خبر الواحد يفيد

العلم [١] لا سيما ان تعددت طرقه أو انضم اليه ظاهر القرآن الكريم أو اجماع علماء الدين .

ونفيد هنا أن الامام البخارى فى آخر صحيحه عقد كتابا خاصا بالتوحيد ، أثبت فيه لله عز وجل كثيرا من أوصاف الكمال والجلال ، بمقتضى الأحاديث الصحيحة ، قال الحافظ فى فتح البارى : « الذى يظهر من تصرف البخارى فى كتاب التوحيد أنه يسوق الأحاديث التى وردت فى الصفات المقدسة ، فيدخل كل حديث منها فى باب ، ويؤيده بآية من القرآن ، للاشارة الى خروجها عن أخبار الآحاد ، على طريق التنزل فى ترك الاحتجاج بها فى الاعتقاديات وأن من أنكرها خالف الكتاب والسنة جميعا ، وقد أخرج ابن أبى حاتم فى كتاب الرد على الجهمية بسند صحيح عن سلام بن أبى مطيع وهو شيخ شيوخ البخارى ، أنه ذكر المبتدعة فقال : ويلهم ماذا ينكرون من هذه الأحاديث ، والله ما فى الحديث شىء الا وفى القرآن مثله ، يقول الله تعالى : « ان الله سميع بصير » « ويحذركم الله نفسه » « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » « وكلم الله موسى تكليما » « الرحمن على العرش استوى » ونحو ذلك فلم يزل — أى سلام بن أبى مطيع — يذكر الآيات من العصر الى غروب الشمس » أ هـ (١٣ — ٣٠٤) من الأميرية .

---

(١) روى عن مالك وأحمد وجماعة من أهل الحديث أن خبر الواحد الصحيح يفيد القطع وحكاه ابن حزم عن داود وانتصر له ، وأفاد الحافظ فى شرح النخبة أنه يفيد العلم اذا احتف بالقرائن ، ومثل له بما أخرجه الشيخان فى صحيحيهما ، وبالمشهور اذا كانت له طرق متباينة سالمة من ضعف الرواة والعلل ، وبالمسلسل بالأئمة الحفاظ حيث لا يكون غريبا .

ثالثا : أسند اللالكائى عن محمد بن الحسن الشيبانى قال : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب على الايمان بالقرآن وبالأحاديث التى جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير ، فمن فسر شيئا منهـا وقال بقول جهم فقد خرج عما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وفارق الجماعة ، لأنه وصف الرب بصفة « لاشىء » وأخرج ابن أبى حاتم فى مناقب الشافعى عن يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعى يقول : « لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجـة عليه فقد كفـر ، وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل ، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرويّة والفكر ، فنثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال : ليس كمثله شىء » وقال الترمذى فى باب فضل الصدقة من جامعه : « قد ثبتت هذه الروايات فنؤمن بها ولا نتوهم ولا يقال كيف ، كذا جاء عن مالك وابن عيينة وابن المبارك أنهم أمرّوها بلا كيف ، وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكروها وقالوا هذا تشبيه ، وقال اسحق بن راهويه : انما يكون التشبيه لو قيل : يد" كيد ، وسمع كسمع ، وقال فى تفسير المائدة : قال الأئمة نؤمن بهذه الأحاديث من غير تفسير ، منهم الثورى ومالك وابن عيينة وابن المبارك » وقال ابن عبد البر : « أهل السنة مجمعون على الاقرار بهذه الصفات الواردة فى الكتاب والسنة ولم يكيفوا شيئا منها ، وأما الجهمية والمعتزلة والخوارج فقالوا : من أقر بها فهو مُشَبِّه ، فسماهم من أقر بها معطلة » وقال امام الحرمين فى الرسالة النظامية : « اختلفت مسالك العلماء فى هـذه الظواهر : فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف ، الى الانكفاف

عن التأويل ، واجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها الى الله تعالى ، والذى نرتضيه رأيا ، وندين الله به عقيدة ، اتباع سلف الأمة ، للدليل القاطع على أن اجماع الأمة حجة ، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتما لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، واذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الاضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع » أهـ راجع فتح البارى « ١٣ — ٣٤٢ ، ٣٤٣ ط الأميرية » .

ومن ذلك يتبين لك أن الأحاديث الصحيحة التى اشتملت على الصفات الالهية المقدسة ، لم يردها أئمة السلف ، ولكنهم آمنوا بها كما جاءت ، من غير أن يخوضوا فى حقيقة معناها ، ومع تنزيه ربنا عز وجل عن مشابهة الخلق ، ولكن الذى أنكرها انما هم الجهمية وأضرابهم من المبتدعة ، وهؤلاء ليس لهم وزن عند علماء القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير ، قال صاحب فتح البارى : « ردّ الروايات الصحيحة ، والطعن فى أئمة الحديث الضابطين ، مع امكان توجيه ما رووا ، من الأمور التى أقدم عليها كثير من غير أهل الحديث ، وهو يقتضى قصور فهم من فعل ذلك منهم ومن ثم قال الكرمانى : لا حاجة لتخطئة الرواة الثقات بل حكم هذا حكم سائر المتشابهات أما التفويض وأما التأويل » أهـ « ١٣ — ٣٣٩ ط الأميرية » وقد علمت أن التفويض هو ما كان عليه السلف فى عصور الخير ، ولا ندين الله بغيره .

رابعا : النصوص الشرعية على ظواهرها ، ما لم يكن هناك موجب لصرفها عن هذا الظاهر من عقل صريح أو نقل صحيح أو اجماع ظاهر ، ولا يجوز رد النصوص أو صرفها عن ظاهرها بالهوى أو بقياس الغائب

على الشاهد أو بناء على الاستبعاد العادى ، أو لأنها خارقة للنواميس العادية التى يسير عليها عالمنا الذى نعيش فيه ، فان لكل عالم نظاما يخصه، ونواميس يجرى عليها ، وبناء على ما قدمنا فمن الخطأ رد أحاديث الدجال أو نزول عيسى عليه السلام أو طلوع الشمس من مغربها ، أو رد أحاديث عذاب القبر أو الشفاعة أو رؤية الله عز وجل فى الآخرة ، كما أن من الخطأ رد أحاديث شق الصدر الشريف وانشقاق القمر أو الاسراء والمعراج أو معجزاته صلى الله عليه وسلم الحسية ، والفاعل هو الله ، والله عز وجل لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومبنى المعجزات خرق النواميس العادية ، والا لما كانت معجزات ، ولله عز وجل أن يكرم من شاء بما شاء ، وهو العليم الحكيم ، وأما قوله تعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » فهذا فى قتال أهل الحق مع أهل الباطل ، يبتلى الله أولياءه بأعدائه ، ثم تكون العاقبة للمتقين ، وفى الأمم مع رسل ربها اذا كذبت وبغت يأخذها الله أخذ عزيز مقتدر ، « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ، وعذبناها عذابا نكرا، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التى قد خلت من قبل » ، هذا ما يرشد اليه السياق فى جميع الآيات ، ومن الحمق أن ترد تلك الأحاديث لمجرد الظاهر من غير تأمل السياق ، وقد صرح القرآن نفسه بمعجزات حسية لبعض أنبياء الله ، كموسى وعيسى وابراهيم ، عليهم السلام ، فهل ترد تلك المعجزات لمخالفتها للنواميس العادية ، كما هو دأب الزنادقة والملحدين ، أو تقبل النصوص كلها ، ولا يرد بعضها ببعض ، كما هو دأب الراسخين فى العلم ، يقولون « آمنا به كل من عند ربنا » لاشك أن مسلك أهل الحق هو المتعين ، لأن ذلك جميعه

تنزيل من الله « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » .

٧ — الاستشهاد بالأحاديث فى اللغة والنحو

علمت مما قدمنا أن الرواية بالمعنى لم تكن بعد تدوين السنة ، وانما كانت فى القرن الأول قبل فساد اللسان العربى ، على قلة وفى حدود ضيقة ، وأن رواة الأحاديث كانوا أحرص ما يكون على نقل الألفاظ النبوية نفسها ، ومن ثم أجاز المحققون من أئمة العربية الاستشهاد بالأحاديث على اثبات اللغة وقواعد النحو ، ومن هؤلاء ابن مالك والرضى والبدر الدمامينى ، وصاحب خزانة الأدب ، واليك عبارة صاحب الخزانة ، وهى أجمع العبارات وأوفاها فى تقرير هذا البحث ، قال فى الجزء الأول (ص ٥ وما بعدها) :

« وأما الاستدلال بحديث النبى صلى الله عليه وسلم فقد جوزه ابن مالك ، وتبعه الشارح المحقق « الرضى » فى ذلك ، وزاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت رضى الله عنهم ، وقد منعه ابن الضائع وأبو حيان وسندهما أمران :

أحدهما : أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم ، وانما رويت بالمعنى

وثانيهما : أن أئمة النحو المتقدمين من المصرين « البصرة والكوفة » لم يحتجوا بشىء منها

وردّ الأول — على تقدير تسليمه — بأن النقل بالمعنى انما كان فى الصدر الأول قبل تدوينه فى الكتب ، وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق ، على أن اليقين غير مشروط بل الظن كاف .

وردّ الثانى بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به

والصواب : جواز الاحتجاج بالحديث للنحوى فى ضبط ألفاظه ، ويلحق به ما روى عن الصحابة وأهل البيت ، كما صنع الشارح المحقق .

ثم قال صاحب الخزانة نقلا عن الدمامينى فى رد المذهب الذى لا يحتج بالحديث :

« وقد رد هذا المذهب الذى ذهبوا اليه البدر الدمامينى فى شرح التسهيل — ولله دره فانه قد أجاد فى الرد — قال : قد أكثر المصنف (يريد به ابن مالك صاحب التسهيل) من الاستدلال بالأحاديث النبوية ، وشنع أبو حيان عليه ، وقال أن ما استند اليه من ذلك لا يتم له ، لتطرق احتمال الرواية بالمعنى ، فلا يوثق بأن ذلك المحتج به لفظه صلى الله عليه وسلم حتى تقوم به الحجة ، وقد أجريت ذلك لبعض مشايخنا فصوّب رأى ابن مالك فيما فعله ، بناء على أن اليقين ليس بمطلوب فى هـذا الباب ، وانما المطلوب غلبة الظن ، الذى هو مناط الأحكام الشرعية ، وكذا ما يتوقف عليـه من نقل مفردات الألفاظ ، وقوانين الأعراب ، فالظن فى ذلك كله كاف ، ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك المنقول المحتج به لم يبدل ، لأن الأصل عدم التبديل ، لا سيما والتشديد فى الضبط والتحرى فى نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين . ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى فانما هو عنده بمعنى التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون مع قولهم بجواز النقل بالمعنى ، فيغلب على الظن من هـذا كله أنها لم تبدل ، ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحا فيلغى ، ولا يقدح فى صحة الاستدلال بها .

« ثم أن الخلاف فى جـواز النقل بالمعنى انما هو فيما لم يدون ولا كتب ، وأما ما دون وحصل فى بطون الكتب فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بينهم ، قال ابن الصلاح بعد أن ذكر اختلافهم فى نقل الحديث بالمعنى : (ان هذا الخلاف لا نراه جاريا ولا أجراه النـاس — فيما نعلم — فيما تضمنته بطون الكتب ، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف ، ويثبت فيه لفظا آخر) اهـ وتدوين الأحاديث والأخبار — بل وكثير من المرويات — وقع فى الصدر الأول ، قبل فساد اللغة العربية ، حين كان كلام أولئك المبدلين — على تقدير تبديلهم — يسوغ الاحتجاج به ، وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به ، فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال ، ثم دون ذلك المبدل — على تقدير التبديل — ومنع من تغييره ونقله بالمعنى ، كما قال ابن الصلاح ، فبقى حجة فى بابه ، ولا يضر توهم ذلك السابق فى شيء من استدلالهم المتأخر والله أعلم بالصواب أهـ كلام صاحب الخزانة .

موقف صاحب مجلة المنار

من الأحاديث والآثار الواردة فى كتـابة الحـديث

كتب المرحوم الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار فى الجزء العاشر من المجلد العاشر من هذه المجلة مقالا فى تدوين الأحاديث فى القرن الأول خالف فيه طريق العلماء من وجـوه نذكرها ثم تتبعها بالرد عليها فنقول :

أولا — يرى أن أول من دون الحديث هو خالد بن معدان الحمصى فيقول فى ص ٧٥٤ : « لعل أول من كتب الحديث وغيره من التابعين فى القرن الأول وجعل ما كتبه مصنفا مجموعا هو خالد بن معدان الحمصى

روى عنه أنه لقى سبعين صحابيا . قال فى تذكرة الحفاظ وقال بحير . ما رأيت أحدا ألزم للعلم منه . وكان علمه فى مصحف له أزرار وعرى » ثم قال : « فخالد بن معدان جمع علمه فى مصنف واحد جعل له وقاية لها ازرار وعرى تمسكها لئلا يقع شيء من تلك الصحف وكان ذلك فى القرن الأول فانه مات سنة ١٠٣ أوسنة ١٠٤ . ولكن المشهور أن أول من كتب الحديث ابن شهاب الزهرى القرشي . ولعل سبب ذلك أخذ أمراء بنى أمية عنه » اهـ .

خالف الشيخ المشهور عند العلماء قديما وحديثا من أن أول من دون الأحاديث بأمر الخليفة لتنشر فى جميع الأقطار الاسلامية هو ابن شهاب الزهرى . ولا دليل يستند اليه سوى قول بحير فى خالد بن معدان « وكان علمه فى مصحف له أزرار وعرى » مع انه لا دلالة فيه على أولية التدوين وهذا تدوين لنفسه خاصة سبقه به كثير كعبد الله ابن عمرو بن العاص وكل ما هنالك أنه شهد له بغزارة العلم وانه كان يكتبه فى صحف خشية أن يضيع والثابت ان ابن شهاب كان ألزم للعلم من خالد وأحرص على التدوين منه وأقوى حفظا من غيره وأنه أول من دون الحديث على الاطلاق من التابعين لينشر فى الأقطار الاسلامية . وقد نقل الشيخ نفسه من ثناء العلماء على الزهرى ما هو أبلغ من قول بحير فى خالد حفظا وكتابة فهلا كان ذلك عنده مبررا لأوليته فى التدوين .

ثانيا — يرى أن الأحاديث التى صحت فى الاذن بكتابة السنة لاتدل لكتابتها على الاطلاق بل هى فى موضوعات خاصة لا تتعداها . وان الأحاديث الضعيفة التى تدل للكتابة مطلقا ساقطة لا يحتج بها ولا ينظر اليها . قال فى ص ٧٦٥ و ٧٦٦ :—

١ — حديث أبى هريرة « اكتبـــوا لأبى شـــاه » فى الصحيحين وموضوعه خاص . وروى عنه البخارى قوله « ان عبد الله بن عمرو كان يكتب وانه هو لم يكن يكتب » وله حديث عند الترمذى « أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن لرجل سيىء الحفظ بأن يستعين بيمينه » .

٢ — حديث أنس « قيدوا العلم بالكتاب » ضعيف .

٣ — حديث أبى بكر « من كتب عنى علما أو حديثا لم يزل يكتب له الأجر ما بقى ذلك العلم أو الحديث » رواه ابن عساكر فى تاريخه . ضعيف .

٤ — حديث رافع بن خديج « قلت يا رسول الله انا نسمع منك أشياء فنكتبها قال اكتبوا ولا حرج » رواه الحكيم الترمذى والطبرانى والخطيب ضعيف .

٥ — حديث حذيفة « اكتبوا العلم قبل ذهاب العلماء » عنـــد ابن النجار فى تاريخه . ضعيف أيضا بل يشم منه رائحة الوضع .

٦ — حديث على فى الصحيفة رواه أحمـــد والبخارى والثلاثة وموضوعها خاص ومنسوب الى الوحى — والحديث المشـــار اليه هو ما رواه هؤلاء الأئمة عن مطرف بن طريف . قال سمعت الشعبى يقول . أخبرنى أبو جحيفة قال . قلت لعلى بن أبى طالب : هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن . قال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة الا أن يعطى الله عبدا فهما فى كتابه وما فى هذه الصحيفة . قلت وما فى الصحيفة . قال : العقل وفكاك الأسير والا يقتل مسلم بكافر»

٧ — كتاب الصـــدقات والديات والفرائض لعمرو بن حزم . رواه أبو داود والنسائى وابن حبان والدارمى وموضوعه خاص . وانما كتب

له ذلك ليحكم به اذ ولى عمل نجران — والحديث المذكور هو ما رواه الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره .

٨ — حديث عبد الله بن عمرو بن العاص هو أكثر ما ورد فى الباب وهو كما فى بعض رواياته « قلت يا رسول الله اكتب كل ما أسمع منك قال نعم . قلت فى الرضا والغضب . قال نعم ، فانى لا أقول فى ذلك كله الا حقا » قال الشيخ وقد جاء بألفاظ مختلفة من طريقين فيما أعلم الآن عند أحمد وأبى داود والحاكم . فالطريق الأول عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أى عبد الله بن عمرو بن العاص فهو جده . وهذا الطريق فيه مقال مشهور للمحدثين لم يمنع بعض المتأخرين من الاحتجاج به وهو تساهل منهم . ونقل هنا مقالة المتقدمين فى هذا الطريق عن الميزان للذهبى . ثم قال والطريق الثانى عن عبد الله بن المؤمل عن ابن جريج عن عطاء عنه بلفظ : « قيدوا العلم » وعبد الله بن المؤمل ، قال أحمد أحاديثه مناكير وقال النسائى والدارقطنى ضعيف .... أما ما رواه ابن عبد البر عن عبد الله بن عمرو بن العاص من قوله : ما يرغبنى فى الحياة الا خصلتان الصادقة والوهط ، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما الوهط فارض تصدق بها عمرو ابن العاص كان عبد الله يقوم عليها — ففى سنده ليث عن مجاهد وليث هذا هو ابن سليم . ضعفه يحيى والنسائى . وقال عبد الله بن أحمد ابن حنبل حدثنا أبى قال : ما رأيت يحيى بن سعيد أسوأ رأيا فى أحد منه فى ليث ومحمد بن اسحاق وهمام لا يستطيع أحد أن يراجعه فيهم . ذكره فى الميزان وذكر أنه اختلط فى آخر عمره . اهـ ونحن نناقش الشيخ فى بعض مقالته هذه لئلا يطول بنا المقال فنقول : —

مناقشته فى أحاديث أبى هريرة الثلاثة

ادعى أن حديث أبى هريرة عند الشيخين خاص بأبى شاه ولم يبين لنا وجه تلك الخصوصية . ومن المقرر عند العلماء أن دعوى الخصوصية بلا دليل غير مقبولة . فان أراد بالخصوصية أن قوله صلى الله عليه وسلم : اكتبوا لأبى شاه ، خاص بخطبته عام فتح مكة فذلك صريح الحديث . لكن لا يدل على منع الكتابة فى غير خطبته هذه أو لغير أبى شاه لأنه لا فارق بين خطبته فى هذا المقام وبين سائر أحاديثه فى وجوب العناية بحفظها ووجوب تبليغها ، كما أنه لا خصوصية لأبى شاه عن غيره من سائر الصحابة رضى الله عنهم بل عن جميع المكلفين . فان قيل : يحتمل أنه كان سىء الحفظ قلنا : ويحتمل أنه أراد أن يضم الكتابة الى الحفظ ، والاحتمالات بابها واسع . فالمصير الى احتمال معين ودعوى أن ما عداه باطل محض تحكم .

وأما حديث أبى هريرة الثانى فقد سكت عنه . وهو ما رواه البخارى فى صحيحه عن همام ابن منبه قال : سمعت أبا هريرة يقول : ما من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب » ولا يلتفت الى الطعن فى همام بعد تخريج البخارى له فى الصحيح . ونحن نستدل بهذا الحديث على أن كتابة الحديث جائزة بل مستحبة فان ابن عمرو فعلها وأبو هريرة لم ينكر عليه بل جعل ذلك من محاسنه وانه من أجل ذلك كان أكثر حديثا منه : قال فى فتح البارى وروى أحمد والبيهقى فى المدخل من طريق عمرو بن شعيب عن مجاهد والمغيرة بن حكيم قالا : سمعنا أبا هريرة يقول : ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه

وسلم منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب بيده ويعى بقلبه وكنت أعى ولا أكتب استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتابة عنه فأذن له[1] اسناده حسن . أفاد هذا الحديث ان عبد الله ابن عمرو استأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابة الحديث فأذن له وانه لم يكن به آفة تضطره الى الكتابة ، بدليل قول أبى هريرة (فانه كان يكتب بيده ويعى بقلبه) وأن موضوعه ليس بخاص بل هو عام فى الأحاديث كلها .

وأما حديث أبى هريرة الثالث عند الترمذى : (أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن لرجل سيء الحفظ بأن يستعين بيمينه) فواضح الدلالة على أنه يجوز لمن كان على مثل حال هذا الرجل أن يستعين بالكتابة وذلك لا يمنع جواز الكتابة لمن كان حسن الحفظ فأن ذلك آكد لحفظه . ولعل صاحب المنار يقصد بايراد حديث الترمذى المذكور عقب حديث البخارى فى كتابة عبد الله بن عمرو أن عبد الله هو ذلك الرجل الذى كان سيىء الحفظ وقد ذكرنا ما يبطل ذلك . وقد مر بك فى ترجمة عبد الله بن عمرو السبب فى قلة ما وصل الينا من حديثه بالنسبة لأبى هريرة ، مع أنه جمع الى حفظ الحديث كتابته .

مناقشته فى حديث صحيفة على وكتاب عمرو بن حزم

بعد أن سلم الشيخ بصحة الحديثين ادعى أن كلا منهما فى موضوع خاص . وقد أبطلنا فيما سبق أن خصوص المكتوب أو الكاتب لا يدل على المنع من الكتابة فى غير المكتوب أو لغير الكاتب . فان السنة وحى من الله يجب على الناس تبليغها ومن وسائل ذلك التبليغ : الكتابة .

---

(١) أنظر ج ١ ص ١٤٨ .

ومن العجيب قول الشيخ فى كتاب عمرو بن حزم (أن موضوعه خاص وانما كتب له ذلك ليحكم به اذ ولى عمل نجران) مع أن لفظ الحديث كما سبق : (كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره) فالكتابة لم تكن لعمرو بن حزم وحده بل كانت له ولغيره وموضوعها ليس بخاص كما هو ظاهر — وكأن الشيخ فهم أن الكتابة للحكم يلزم منها منع الكتابة للحفظ مع أن الحفظ من وسائل الحكم وعوامل الاصابة فيه ، واليك عبارة العلامة ابن القيم فى زاد المعاد جـ ١ ص ٥٩ قال — فى معرض كلامه على كتبه صلى الله عليه وسلم الى أهل الاسلام فى الشرائع — ما نصه : ومنها كتابه الى أهل اليمن وهو الكتاب الذى رواه أبو بكر بن عمرو ابن حزم عن أبيه عن جده وكذلك رواه الحاكم فى صحيحه والنسائى وغيرهما مسندا متصلا ورواه أبو داود وغيره مرسلا وهو كتاب عظيم فيه أنواع كثيرة من الفقه فى الزكاة والديات والأحكام وذكر الكبائر والطلاق والعتاق وأحكام الصلاة فى الثوب الواحد والاحتباء فيه ومس المصحف وغير ذلك . قال الامام أحمد لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبه واحتج الفقهاء كلهم بجملة ما فيه من مقادير الديات اهـ فأنت ترى أن موضوع هذا الكتاب لم يكن خاصا والمكتوب اليهم هم أهل اليمن عامة .

مناقشته فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص
ان النبى صلى الله عليه وسلم أذن له أن يكتب كل ما يسمع منه

نقول . هذا الحديث صححه الحفاظ وهو من أقوى الأدلة وأصرحها على أن كتابة الحديث جميعه جائزة بل مستحبة . وقد روى من عدة طرق يقوى بعضها بعضا . قال الحافظ فى فتح البارى : وعند أحمد

وأبى داود من طريق يوسف ابن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال . كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا تكتب كل شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الرضا والغضب . فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ باصبعه الى فيه وقال اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه الا حق » ولهذا طرق أخرى عن عبد الله ابن عمرو يقوى بعضها بعضا اهـ [1] ولكن الشيخ لما وجد هذا الحديث يحول بينه وبين ما يرمى اليه من النتائج أخذ يتكلم فى متنه تارة وفى اسناده تارة أخرى . فقال عن المتن : قد جاء بألفاظ مختلفة من طريقين فيما أعلم » ونقول له : ان اختلاف ألفاظ الحديث الواحد لا يعد طعنا فيه اذا كانت غير متعارضة ولا متدافعة . والحديث الذى معنا كذلك اختلفت ألفاظه طولا وقصرا ولكن لا تنافى بينها فلا يجوز أن يتخذ ذلك طعنا فيه . وقال عن السند : جاء من طريقين الأول عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وفيه مقال مشهور للمتقدمين من علماء الحديث ولكن هذا المقال لم يمنع بعض المتأخرين من الاحتجاج به وهو تساهل منهم ثم أخذ يسرد ما قاله المتقدمون نقلا عن الميزان للذهبى [2] والطريق الثانى عن عبد الله بن المؤمل وعبد الله بن المؤمل قال أحمد ان حديثه مناكير وقال النسائى والدارقطنى ضعيف .

ونحن نقول له : أما الطريق الأول فالذى عليه المحققون والجماهير من المتقدمين والمتأخرين أنه يحتج به . قال ابن الصلاح فى النوع الخامس والأربعين من مقدمته : لعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

---

(١) أنظر جـ ١ ص ١٤٩ (٢) سيأتى لك فى ردنا عليه أن الذهبى اعتمد طريق عمرو بن شعيب هذا ورد على ابن حبان

بهذا الاسناد نسخة كبيرة أكثرها فقهيات جياد . وشعيب هذا هو ابن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص . وقد احتج أكثر أهـل الحديث بحديثه حملا لمطلق الجد فيه على الصحابى عبد الله بن عمرو بن العاص دون ابنه محمـد والد شعيب لما ظهر لهم من اطلاقه ذلك . اهـ وقال السيوطى فى التدريب قال البخارى : رأيت أحمد بن حنبل وعلى بن المدينى واسحاق بن راهويه وأبا عبيدة وعامة أصحابنا يحتجون بحديثه ما تركه أحد من المسمين وقال مرة : اجتمع على ويحيى بن معين وأحمد وأبو خيثمة وشيوخ من أهل العلم فتذاكروا حديث عمرو بن شعيب فثبتوه وذكروا أنه حجة وقال أحمد بن سعيد الدرامى : احتج أصحابنا بحديثه . قال النووى فى شرح المهذب وهو الصحيح المختار الذى عليه المحققون من أهل الحديث وهم أهل هذا الفن وعنهم يؤخذ حملا لجده على عبد الله الصحابى دون محمد التابعى لما ظهر لهم فى اطلاقه ذلك . وسماع شعيب من عبد الله بن عمرو ثابت . وقال اسحق بن راهويه : عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كأيوب عن نافع عن ابن عمر . قال النووى . وهذا التشبيه غاية الجلالة من مثل اسحاق وقد ألف العلائى جزءا مفردا فى صحة الاحتجاج بهذه النسخة والجواب عما طعن عليها قال ومما يحتج به لصحتها احتجاج مالك بها فى الموطأ فقد أخرج عن عبد الرحمن بن حرملة عنه حديث الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب ! قال وذهب قوم الى ترك الاحتجاج به لأن روايته عن أبيه عن جده كتاب ووجادة فمن هنا جاء ضعفه لأن التصحيف يدخل على الراوى من الصحف ولذا تجنبها أصحاب الصحيح وقال ابن حبان ان أراد جده عبد الله فشعيب لم يلقه فيكون منقطعا وان أراد محمـدا فلا صحبة له فيكون مرسلا . قال الذهبى وغيره . وهذا القول لاشىء

لأن شعيبا ثبت سماعه من عبد الله وهو الذى رباه لما مات أبوه محمد . اهـ كلام السيوطى بحذف يسير .

وقال ابن تيمية « وكان عند آل عبد الله بن عمرو بن العاص نسخة كتبها عن النبى صلى الله عليه وسلم وبهذا طعن بعض الناس فى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه شعيب عن جده وقالوا هى نسخة وشعيب هو شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص . وقالوا ان عنى جده الأدنى محمدا فهو مرسل فانه لم يدرك النبى صلى الله عليه وسلم وأن عنى جده الأعلى عبد الله فهو منقطع فان شعيبا لم يدركه وأما أئمة الاسلام وجمهور العلماء فيحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده اذا صح النقل اليه مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة ونحوهما ومثل الشافعى وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وغيرهم . قالوا الجد هو عبد الله فانه يجيىء مسمى وشعيب أدركه . قالوا واذا كانت نسخة مكتوبة من عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان هذا أوكد لها وأدل على صحتها ولهذا كان فى نسخة عمرو بن شعيب من الأحاديث الفقهية التى فيها مقدرات ما احتاج اليه عامة علماء الاسلام (١) . ا هـ

وأما الطريق الثانى الذى ضعفه الأئمة كما قال الشيخ فهو وان لم يصلح للاحتجاج به لكتابة الحديث فهو يصلح شاهدا على ذلك والحجة قائمة بغيره من الأحاديث الصحيحة .

مناقشته فى أهدار الأحاديث الضعيفة اذا تعددت طرقها

وضعف حديث أنس وحديث أبى بكر وحديث رافع بن خديج وحديث حذيفة الى غير ذلك . ونسى ما قرره العلماء من أن الاحاديث

---

(١) أنظر قواعد التحديث ص ٣٦ و ٣٧

الضعيفة اذا تعددت طرقها قوى بعضها بعضا وأصبحت صالحة للاحتجاج فضلا عن الاعتبار اذا كان الضعف ناشئا عن سوء حفظ الراوى الصدوق الأمين كما هنا . فكيف وقد ورد فى الاذن بالكتابة أحاديث صحيحة بعضها يفيد العموم نصا وبعضها يفيده دلالة .

ثالثا — وبناء على ما سبق للشيخ من أن أحاديث الاذن بالكتابة لا تدل للكتابة يرى أن الأحاديث الواردة فى المنع من كتابة الحديث أرجح من أحاديث الاذن بها ويضيف الى ذلك أن أقوى أحاديث المنع على الاطلاق هو حديث أبى سعيد الخدرى عند مسلم وأحمد . فيقول : « وأما ما ورد فى المنع فأقواه حديث أبى سعيد الخدرى (لا تكتبوا عنى شيئا الا القرآن فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه) وهو فى صحيح مسلم ومسند الامام أحمد وهو أصح ما ورد فى باب النهى عن كتابة الحديث والسنة » اهـ .

ونحن نقول فى الرد عليه . علمت أن أحاديث الاذن بالكتابة منها صحيح يدل عليها نصا أو دلالة ومنها ضعيف تعـددت طرقه فيصلح للاعتبار أن قصر عن درجة الاحتجاج . فلم يبق الا الجمع بينهما وبين حديث أبى سعيد . وطريق الجمع أن يقال : ان النهى عن كتابة الحديث خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره والاذن بها فى غير ذلك . أو أن النهى خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن فى صحيفة واحدة والاذن فيما اذا كتب الحديث فى غير صحيفة القرآن . أو أن النهى خاص بمن خشى عليه الاتكال على الكتابة دون الحفظ والاذن لمن أمن منه ذلك .

رابعا — حاول الشيخ أن يجمع بين أحاديث الاذن بالكتابة والنهى عنها بما لا يصلح . فقال : (ولذلك وجوه أحدها . أن ما أمر بكتابته

لأبى شاه يحتمل أن يكون خاصا به . ثانيها . لعله كان سيىء الحفظ فأمر أن يكتب له كما طلب . ثالثها . أن حديث النهى عن الكتابة مقيد بابقاء المكتوب وفيه الرخصة الصريحة لمن يكتب مؤقتا ثم يمحوه ويؤيد هذا المعنى ما رواه ابن عبد البر عن زيد بن ثابت وابن مسعود وعلى فى محو المكتوب . وما رواه من قول مالك : فمن كتب منهم الشيء فانما كان يكتبه ليحفظه فاذا حفظه محاه . وهذا الوجه يصلح جوابا عن حديث الاذن لعبد الله بن عمرو بالكتابة ويؤيده قول عبد الله . كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فصرح بأنه كان يكتب ليحفظ . وقد علمت ما قاله أئمة الحديث فى رواية حفيده عن النسخة المكتوبة ويصلح أيضا جوابا عن صحيفة على وكتاب عمرو ابن حزم) اهـ .

ونحن نقول فى الرد عليه : أن الخصوصية لا تثبت لمجرد الاحتمال ودعوى أنه سيىء الحفظ تحتاج الى نقل صحيح ولم يوجد ولو سلمناه فليس حديث أبى شاه هو كل ما ورد فى الاذن بالكتابة .

وأما ما ذكره فى الوجه الثالث من وجوه الجمع فيعارضه أن عبد الله ابن عمرو بن العاص كان يكتب الحديث لا لضعف حفظه ولكن ليرجع اليه عند الحاجة وقد أذن له النبى صلى الله عليه وسلم بذلك اذنا مطلقا فكتب عنه صحيفته الصادقة التى بقيت فى آله الى أن رواها عنه حفيده عمرو بن شعيب واعتمدها أكابر المحدثين كالبخارى ومالك وأحمد واسحق بن راهويه وغيرهم . ويعارضه أيضا ما ثبت أن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن النبى صلى الله عليه وسلم خص عليا رضى الله عنه بشيء من الوحى فسأل عليا رضى الله عنه أبو جحيفة وقيس بن عبادة

والاشتر النخعى فى ذلك فقال على كرم الله وجهه : ما عندنا شىء نقرؤه الا كتاب الله وهذه الصحيفة وكان فيها أحكام الديات ومقاديرها وأصنافها وحكم تخليص الأسير من يد العدو والترغيب فى ذلك وحكم تحريم قتل المسلم بالكافر وفرائض الصدقة الى غير ذلك من الأحكام . فلو كانت كتابة الحديث لأجل الحفظ فقط ثم يجب محوها بعد ذلك لما بقيت صحيفة على الى زمن خلافته .

وأما محو بعض الصحابة لما كتبوه أو أمرهم بذلك فليس لأن الكتابة منهى عنها على وجه البقاء . بل لخشيتهم أن يشتغل بها الناس عن القرآن ولما يحفظوه بعد . أو لأنهم رأوا أن الأولى التعويل على الحفظ استنهاضا لعزائم الناس وهممهم على تنمية ملكة الحفظ التى فطر عليها العرب . أو لأن هذه الصحف كانت منقولة عن أهل الكتاب فخافوا أن يشتغل بها الناس عن دينهم بدليل ما رواه ابن عبد البر أن الأسود وعلقمة أصابا صحيفة فانطلقا بها الى عبد الله بن مسعود فقالا هذه صحيفة فيها حديث حسن فأمر ابن مسعود بماء فمحاها وتلا . (نحن نقص عليك أحسن القصص) قالا : انظر فيها فانّ فيها حديثا عجيبا فجعل يمحوها ويقول : هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره . قال أبو عبيد (أحد رواة هذه القصة) . يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب فلذاكره عبد الله رحمه الله النظر فيها واذن فلا طريق للجمع بين أحاديث النهى وأحاديث الاذن فى الكتابة على وجه مقبول الابما ذكرناه واستظهرناه لا بما ذكره الشيخ واستظهره .

خامسا — حاول الشيخ أن يقدم أحاديث النهى عن الكتابة على أحاديث الاذن بها على تقدير صحتها وتعذر الجمع بينها فقال : (ولو فرضنا أن بين أحاديث النهى عن الكتابة والاذن بها تعارضا يصح أن

يكون أحدهما ناسخا للآخر لكان لنا أن نستدل على كون النهى هو المتأخر بأمرين . أحدهما : استدلال من روى عنهم من الصحابة الامتناع عن الكتابة ومنعها بالنهى عنها وذلك بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وثانيهما : عدم تدوين الصحابة الحديث ونشره ولو دونوا ونشروا لتواتر ما دونوه .

ونقول فى الرد عليه : —

أولا — أن أحاديث الاذن بالكتابة أصح عند المحدثين من أحاديث النهى بدليل أن البخارى وغيره أعلوا حديث أبى سعيد الخدرى فى النهى عن كتابة الحديث . وقالوا : الصواب وقفه على أبى سعيد مع أن هذا الحديث باعتراف الشيخ هو أقوى أحاديث المنع على الاطلاق .

ثانيا — أنه على تقدير التعارض بين أحاديث الاذن والنهى فقد كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الاذن بالكتابة دون النهى عنها بدليل ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال ائتونى بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده وفى بعض رواياته « لما حضرت النبى صلى الله عليه وسلم الوفاة » وله من حديث سعيد بن جبير أن ذلك كان يوم الخميس وهو قبل موته صلى الله عليه وسلم بأربعة أيام (١) . ووجه الدلالة من الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم هم قبيل وفاته أن يكتب لأمته كتابا يحصل معه الأمن من الاختلاف وهو لا يهم الا بحق .

ثالثا — ان امتناع بعض الصحابة عن كتابة الحديث ومنعهم منها لم يكن سببه نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث ، بدليل

---

(١) أنظر جـ ١ ص ١٤٦ من فتح البارى

أن الآثار الواردة عنهم فى المنع أو الامتناع من كتابة الحديث لم ينقل فيها التعليل بذلك وانما كانوا يعللون بمخافة أن يشتغل الناس بها عن كتاب الله ، أو بمخافة أن يهمل الناس الحفظ اعتمادا على الكتابة أو لغير ذلك من الأغراض .

رابعا — ان عدم تدوين الصحابة للحديث كما دونوا القرآن وجمعوه لم يكن لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث وانما كان خوف أن تختلط بصحف القرآن فيلتبس على الناس أمر دينهم فى وقت لم يجمع القرآن فيه الا نفر قليل من الصحابة . وقد روى البيهقى فى المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال انى كنت أردت أن أكتب السنن وانى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وانى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبدا » فهذا الأثر يدل على جواز كتابة الحديث بدليل أن الصحابة رضى الله عنهم أشاروا عليه بذلك وأن عمر رضى الله عنه رأى أن يأخذ الحيطة لكتاب الله ويتوثق لصيانته وذلك يستدعى أن تكون الكتابة قاصرة على القرآن وأن يكتفى فى الأحاديث بالحفظ لئلا يختلط الأمر على الناس فما كان للصحابة أن يشيروا على عمر بكتابة السنن اذا كان النهى عنها هو آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم بل لو كان النهى عن كتابة السنن باقيا لما جاز لهم أن يسكتوا عن الانكار على عمر عزمه على كتابة السنن فضلا عن أن يشيروا عليه بكتابتها .

هذا ولا بأس أن ننقل هنا نصوصا لبعض العلماء فى كتابة الحديث فنقول :

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : ان السلف اختلفوا فى ذلك — يعنى كتابة العلم — عملا وتركا وان كان الأمر استقر والاجماع انعقد على جواز كتابة العلم بل على استحبابه بل لا يبعد وجوبه على من خشى النسيان ممَّنْ يتعين عليه تبليغ العلم (١) . اهـ

وقال أبو عمر بن عبد البر : « من كره كتاب العلم انما كرهه لوجهين : لئلا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به — ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ . ثم قال : وليس أحد اليوم على هذا ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم . وقد أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتاب العلم ورخص فيه جماعة من العلماء وحمدوا ذلك . وقد دخل على ابراهيم النخعى شىء فى حفظه لتركه الكتاب . وعن منصور قال : كان ابراهيم يحذف الحديث فقلت له : ان سالم بن الجعد يتم الحديث قال ان سالما كتب وأنا لم أكتب . قال ابن عبد البر فهذا النخعى مع كراهته لكتابة الحديث قد أقر بفضل الكتاب » (٢) اهـ .

وقال ابن الصلاح فى النوع الخامس والعشرين من مقدمته : اختلف الصدر الأول رضى الله عنهم فى كتابة الحديث فمنهم من كره كتابة الحديث والعلم وأمروا بحفظه ومنهم من أجاز ذلك قال : ثم انه زال ذلك الخلاف وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك واباحته . ولولا تدوينه فى الكتب لدرس فى الأعصر الآخرة » . اهـ (٣) .

فكيف يجمع المسلمون على نقيض آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) أنظر فتح البارى جـ ١ ص ١٤٦

(٢) أنظر جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٦٨ و ٧٠ (٣) ص ٨٧ — ٨٨.

سادسا — استخلص الشيخ من بحثه هذا أن الصحابة لم يدونوا الأحاديث لأنهم لم يريدوا أن يجعلوها دينا عاما دائما كالقرآن مؤيدا ذلك بعمل عمر بن الخطاب على خلاف بعض الأحاديث . وباكتفاء علماء الأمصار كأبى حنيفة بما بلغه منها وعدم تعنيه فى جمعها . وبمخالفة الفقهاء لكثير من الأحاديث الصحيحة ونحن ننقل ذلك عنه بالتفصيل ونرد عليه فنقول :

(ا) قال الشيخ : واذا أضفت الى هذا ما ورد فى عدم رغبة الصحابة فى التحديث بل رغبتهم عنه بل فى نهيهم عنه قوى عندك ترجيح كونهم لم يريدوا أن يجعلوا الأحاديث دينا عاما دائما كالقرآن . اهـ

وتلك لعمر الله مقدمات عقيمة وتتيجة باطلة وذلك لأن الصحابة انما أمروا بتقليل الرواية لئلا يكثر الخطأ أو السهو فى الأحاديث فيدخلها ما ليس منها ولئلا يتخذها المنافقون ذريعة للكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولئلا ينصرف الناس عن القرآن ولما يتمكن من نفوسهم فضل تمكن . كذلك لم يدونوا الأحاديث لئلا يلتبس الأمر على عامة الناس فيضاهوا بصحف الحديث صحف القرآن ومخافة أن تقضى الكتابة على ملكة الحفظ فيهم .

فلم يكن عدم تدوين الأحاديث وقلة التحديث من الصحابة رضى الله عنهم لما ذكره الشيخ من أنهم يريدون ألا يتخذوا الأحاديث دينا عاما دائما فهذه تتيجة لا أساس لها . وأن القرآن العظيم ليفضح أمرها ويكشف سترها . وقد تكلمنا فى المقدمة على منزلة السنة فى الدين فارجع اليها ان شئت .

(ب) قال الشيخ : ولو كانوا فهموا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه يريد ذلك لكتبوا ولأمروا بالكتابة ولجمع الراشدون ما كتب

وضبطوا ما وثقوا به وأرسلوه الى عمالهم ليبلغوه ويعملوا به ولم يكتفوا بالقرآن والسنة المتبعة المعروفة للجمهور بجريان العمل بها . وبهذا يسقط قول من قال : ان الصحابة كانوا يكتفون فى نشر الحديث بالرواية . اهـ

نقول . أن الصحابة رضى الله عنهم فهموا عن نبيهم أنه يريد أن تكون السنة دينا عاما دائما . وكيف لا يفهمون ذلك عنه صلى الله عليه وسلم وهو يقول لهم فى حجة الوداع قبل وفاته بقليل : (ان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ولكن رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم واحذروا . انى قد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه) رواه الحاكم وصححه وله أصل فى الصحيح وكيف لا يفهم الصحابة عن نبيهم ذلك وهو القائل : (من رغب عن سنتى فليس منى) رواه مسلم الى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المشهورة [١] .

نقول كيف لا يفهمون ذلك عن نبيهم والقرآن يأمرهم بطاعته ويحذرهم مخالفة أمره . ويحتم عليهم قبول حكمه والاذعان لقضائه كما جاء ذلك فى كثير من آياته . قال تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الآية . وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » الآية . وقال تعالى . « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »

الحق أن الصحابة فهموا أن السنة دين عام دائم كالقرآن وكان هذا أمرا بدهيا عندهم لا يحتاج الى استدلال بل هو ضرورة من ضرورات الدين وبدهى عند عامة المسلمين فى جميع الأزمان حتى اليوم .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٠

أما انهم لو علموا ذلك لكتبوا ولأمروا بالكتابة الى آخر ما قاله الشيخ فهذا غير لازم لما قدمناه لك .

واما انهم اكتفوا بالقرآن والسنة المتبعة المعروفة للجمهور الخ ... فهذا غير مسلم ولا يقوله الا من جهل طريقة الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة من ورائهم فى العمل بأحكام الدين وكيف كانوا يأخذونها ، فقد تقدم لنا أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا يطلبان الحكم أولا من القرآن ثم اذا لم يجداه فيه طلباه فى حديث رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فان لم يوجد عندهما حديث فى الحادثة سألا عنه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاذا لم يجدا عندهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعا رؤوس الناس وعلماء الصحابة وخيارهم للمشاورة فيما عرض من الحوادث ثم يقضيان بما اجتمعوا عليه . كما كان من عادتهما انه اذا استبانت لأحدهما سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قضى على خلافها فانه ينقض قضاءه ويرجع الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقوم هذا حالهم فى احترام السنة يقال فيهم انهم لم يريدوا أن يتخذوها دينا عاما دائما . اللهم ان هذا انكار للحقائق وسير فى طريق الخيال وهوى متبع واعجاب بالرأى (ومن أضل مـمّن اتبع هواه بغير هدى من الله) واذا كان هذا حال العمرين اللذين كانا أعلم الصحابة بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقال ان الصحابة كانوا يكتفون بالقرآن والسنة المتبعة المعروفة .

(جـ) قال الشيخ . واذا أضفت الى ذلك كله حكم عمر بن الخطاب على أعين الصحابة بما يخالف بعض تلك الأحاديث ، ثم ما جرى عليـــه علماء الأمصار فى القرن الأول والثانى من اكتفاء الواحد منهم كأبى حنيفة

بما بلغه ووثق به من الحديث وان قل وعدم تعنيه فى جمع غيره اليــه ليفهم دينه ويبين أحكامه قوى عندك ذلك الترجيح . اهـ

وللرد عليه نقول : —

أولا — ما رمى به عمر بن الخطاب من أنه كان يخالف السنة على مرأى ومسمع من الصحابة فهذا حكم جائر بالنسبة لعمر بن الخطاب . أليس عمر هو القائل (أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوا السنن برأيهم فاياكم واياهم)[١] فهل هذا قول صحابى يفهم أن السنة ليست دينا عاما دائمــا ويتعمد مخالفتها أو هو قــول من عرف للسنة قدرها وحذر الناس عن مخالفتها ونعى على أصحاب الرأى آراءهم المعارضة لها .

أما ما ورد من حكم بعض الصحابة والتابعين أو الأئمة المجتهدين على خلاف بعض الأحاديث فان لهم أعذارا تكلمنا عليها فى مقدمة كتابنا هذا ينبغى للقارىء الرجــوع اليها ليتضح له المقام بما يرفــع الملام عن هؤلاء الأئمة .

ثانيا — يرمى الأستاذ علماء المسلمين فى القرنين الأول والثانى بعدم اهتمامهم بجمع الأحاديث وأنت أيها القارىء اذا اطلعت على ما كتبناه عن رحلة العلماء من الصحابة والتابعين فى القرن الأول وأعمال الأئمة فى القرن الثانى فانك ترى العجب . ترى جهودا جبارة بذلت فى سبيل جمع حديث رسول الله صلى الله عليــه وسلم وعناية فائقة بتمحيص الأسانيد ونقد المتون ومناهضة الوضاعين بما لم يتوفر لدى أمة من الأمم.

---

(١) أنظر أعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ٤٥ .

ثالثا — يرمى الأستاذ أبا حنيفة بأنه كان يكتفى بالقليل من الأحاديث ولا يكلف نفسه عناء البحث عن سائرها ليفهم دينه الى آخر ما قال . ومعنى هذا ان أبا حنيفة يرى فى السنة ما يراه الشيخ . ونعيذ أبا حنيفة كما نعيذ سائر علماء المسلمين من هذه الوصمة القبيحة . لقد كان أبو حنيفة اماما واماما مجتهدا يبذل وسعه ويفرغ جهده فى استطلاع الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة . وما جاء عنه من الأحكام مخالفا لبعض الأحاديث فهو معذور فيه على ما بيناه فى المقدمة ونزيد هنا ان أباحنيفة رضى الله عنه اشترط فى قبول الحديث شروطا شديدة أملاها عليه البيئة التى عاش فيها فقد كان بالعراق التى هى عش الخوارج والشيعة وكثير من أخلاط الأمم وأوشاب الناس الذين أخذوا يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل فى العراق انها « دار ضرب الحديث » فلا عجب أن يتوقى الامام أبو حنيفة لدينه ويحتاط للحديث لئلا يدخل عليه من الأباطيل ما يفسد عليه أمره ولعل الذى دعا أبا حنيفة الى عدم الاكثار من الرحلة فى طلب الحديث أن الكوفة كانت فى الصدر الأول مهبط الصحابة الذين بثوا أحاديثهم وعلمهم فى التابعين من أهل العراق الى غير ذلك من الاعتبارات . وسيمر بك البيان الشافى فى مبحث النزاع فى حجية السنة فى القرن الثانى .

(د) قال الشيخ . (بل تجد الفقهاء — بعد اتفاقهم — على جعل الأحاديث أصلا من أصول الأحكام الشرعية وبعد تدوين الحفاظ لها فى الدواوين وبيان ما يحتج به وما لا يحتج به لم يجتمعوا على تحرير الصحيح والاتفاق على العمل به فهذه كتب الفقه فى المذاهب المتبعة لا سيما كتب الحنفية . فالمالكية والشافعية فيها مئات من المسائل المخالفة للأحاديث المتفق عليها وعلى صحتها ولا يعد أحد منهم مخالفا لأصول

الدين — وقد أورد ابن القيم فى اعلام الموقعين شواهد كثيرة جـدا من رد الفقهاء للأحاديث الصحيحة عملا بالقياس أو لغير ذلك ومن أغربها أخذهم ببعض الحديث الواحد دون باقيه . وقد أورد لهذا أكثر من ستين شاهدا . اهـ

نعم ان الفقهاء اتفقوا على جعل الأحاديث أصلا من أصول الأحكام الشرعية ولم يخالف فى ذلك أحد منهم ولكن الأحاديث لم تجتمع كلها لدى امام من الأئمة حتى يكون اجتهاده موافقا للنصوص فى كل حال . بل وقع لهذا الفقيه من الحديث ما لم يكن عند الآخر وصح عنـده ما لم يصح عند غيره . لذلك وقع اختلافهم فى الأحـكام ، ومخالفتهم للأحاديث فى بعض الأحيان . ولم يكن ذلك منهم اتباعا للهوى أو لفهمهم بأن السنة ليست دينا عاما دائما بل لأسباب علمها العلماء وألفوا فيها الرسائل ومن هؤلاء الأئمة العلامة ابن تيمية الذى ألف رسالة سماها . « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

أما استدلال الشيخ باشتمال كتب الفقه فى المذاهب المختلفة على مئات من المسائل المخالفة للأحاديث الصحيحة فنقول: ان جمود المتأخرين على التقليد وقف بالفقه فى العصور المتأخرة عن التقدم ومسايرة الأدلة الصحيحة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو أنه وجد منهم نشاط علمى فعرضوا مذاهب أئمتهم على الأحاديث الصحيحة لرجعوا بالفقه الى منبعه الأصلى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولضاقت دائرة الخلاف بينهم .

وهؤلاء الفقهاء المتأخرون هم الذين أنحى عليهم العلامة ابن القيم باللائمة حيث يقدمون آراء أئمتهم على الحديث الصحيح عن نبيهم صلى

الله عليه وسلم فى حين أن هؤلاء الأئمة جميعا كانوا يشيرون باتباع السنة ويأمرون الناس بترك آرائهم اذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الشيخ عفا الله عنه خلط أعمال الفقهاء المتأخرين الذين لا عذر لهم فى ترك الأحاديث بأعمال الفقهاء المتقدمين الذين كان لهم العذر فى ذلك . كل هذا ليؤيد رأيه فى أن الأحاديث النبوية ليست دينا عاما دائما كالقرآن .

وبعد فهذه الدعوى من الشيخ — عفا الله عنه — لا أساس لها بل هى تهدم نفسها بنفسها فضلا عن أنها تخالف نصوص القرآن الكريم وتتعارض مع ما تواتر من سنة الرسول الأمين ولا تتفق وما أجمع عليه المسلمون فى كافة الأزمان من عهد النبى عليه الصلاة والسلام الى اليوم .

الدور الرابع

السنة فى القرن الثانى

الكلام على السنة فى هذا القرن يشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول — تدوين الحديث فى هذا العصر وأشهر الكتب المؤلفة فيه

المبحث الثانى — شيوع الوضع فى الحديث ومناهضة العلماء للوضاعين

المبحث الثالث — النزاع حول حجية السنة فى هذا العصر

المبحث الرابع — تراجم لبعض مشاهير المحدثين فى هذا العصر

المبحث الخامس — الرد على شبه لبعض المستشرقين

المبحث الأول

تدوين الحديث فى هذا العصر وأشهر الكتب المؤلفة فيه

ظهر لك مما أسلفنا ما قام به الصحابة والتابعون من جمع الحديث ، والرحلة فى طلبه ، وذب الخرافات والأكاذيب عن ساحته ، فانتشلوا الأحاديث من أيدى الخوارج والشيعة ومن تظاهر بالاسلام من الفرس والروم واليهود وغيرهم ، وظهر لك أيضا أنهم أودعوا الأحاديث حوافظهم القوية وقرائحهم الصافية ، فكانوا بذلك فى غنى عن الكتابة ، وما روى عن بعضهم أنهم كانوا يكتبون الأحاديث لم يكن منهم لضعف ملكة الحفظ ، بل كان لزيادة التأكد من ضبط الأحاديث وتحرير ألفاظها .

ثم لما انتشر الاسلام ، واتسعت البلاد ، وشاع الابتداع ، وتفرقت الصحابة بالأمصار ، ومات كثير منهم فى الحروب وغيرها ، وقل الضبط لضعف ملكة الحفظ ، دعت الحاجة الى تدوين الأحاديث وكتابتها ، فكتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى الى عامله وقاضيه على المدينة أبى بكر بن حزم « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه ، فانى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء » وأوصاه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وكذلك كتب الى عماله فى أمهات المدن الاسلامية بجمع الحديث ، وممن كتب اليه بذلك محمد بن شهاب الزهرى . ومن هذا الوقت أقبل العلماء على كتابة السنن وتدوينها ، وشاع ذلك فى الطبقة التى تلى طبقة الزهرى . فكتب ابن جريج بمكة (١٥٠) ، وابن اسحاق (١٥١) ومالك (١٧٩) بالمدينة ، والربيع ابن صبيح (١٦٠) وسعيد بن أبي عروبة (١٥٦) وحماد بن سلمة (١٧٦) بالبصرة ، وسفيان الثوري (١٦١) بالكوفة ، والأوزاعي (١٥٦) بالشام ، وهشيم (١٨٨) بواسط ، ومعمر (١٥٣) باليمن ، وجرير بن عبد الحميد (١٨٨) بالري ، وابن المبارك (١٨١) بخرسان .

كان هؤلاء جميعا فى عصر واحد ، ولا يدرى أيهم أسبق الى جمع الحديث ، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم فى النسج على منوالهم ، وكانت طريقتهم فى جمع الحديث أنهم يضعون الأحاديث المتناسبة فى باب واحد ، ثم يضمون جملة من الأبواب بعضها الى بعض ، ويجعلونها فى مصنف واحد ، ويخلطون الأحاديث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، على خلاف ما كان يصنعه أهل القرن الأول كالزهرى ، فانهم كانوا

يخصون كل مؤلف بباب من أبواب العلم يجمعون فيه الأحاديث المتناسبة مختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين .

بدأ التدوين فى أواخر عهد بنى أمية على ما ذكرنا ، ولكن لم يظهر شأنه تمام الظهور الا فى خلافة بنى العباس ، حول منتصف القرن الثانى، اذ نشطت حركة التدوين فى العلوم المختلفة ، وأخذت السنة حظها من ذلك [1] فى هذا الدور على النحو الذى سبق ، ولكن أين هذه المؤلفات الحافلة ، التى جمعها الزهرى ومن تلاه من المحدثين ؟ انه لم يصلنا منها الا القليل ، كموطأ الامام مالك ومسند الامام الشافعى والآثار للامام محمد بن الحسن الشيبانى أحد رواة الموطأ المتوفى سنة ١٨٩ . ولعل سنة التطور فى التأليف هى التى قضت على هذه المؤلفات ، والتاريخ يحدثنا أن التأليف فى الفنون المختلفة الحديث وغيره ، أخذ فى التحسن طبقة بعد طبقة ، وعصرا بعد عصر ، حتى وصل الى الذروة فى الجودة والاتقان ، ولا ضير فى ذلك ما دامت مادة الأحاديث التى رويت فى كتب الزهرى وغيره موجودة فى المصنفات التى تتجدد فى كل عصر ، آخذة لونا من الترتيب والتهذيب ، يتناسب وذوق العصر الذى وضعت فيه ، ولنتكلم على أشهر الكتب المؤلفة فى هذا الدور فنقول : —

موطأ الإمام مالك

الموطأ كتاب ألفه الامام مالك مشتملا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين . طلب أبو جعفر

---

(١) مقدمة فتح البارى ص ٤ ومفتاح السنة وكشف الظنون جـ ٢ ص ٢٦٦ وتدريب الراوى للسيوطى ص ٢٤ وتاريخ الخلفاء له أيضا ص ١٧٣

المنصور الخليفة العباسى الى الامام مالك أن يجمع ما ثبت لديه ، ويدونه فى كتاب ، ويوطئه للناس ، فألف كتابه هذا وسماه الموطأ . وقيل أن سبب تسميته بذلك أنه لما ألفه عرضه على شيوخه فواطؤوه عليه فسمى الموطأ . ذكر السيوطى فى مقدمته لشرح الموطأ أن مالكا قال : (عرضت كتابى هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة فكلهم واطأنى عليه فسميته الموطأ) . تحرى مالك فى موطئه القوى من حديث أهل الحجاز ، حتى قالوا أنه مكث فى تأليفه أربعين سنة كاملة ينقحه ويهذبه . روى السيوطى فى مقدمته لشرح الموطأ عن الأوزاعى أنه قال : عرضنا على مالك الموطأ فى أربعين يوما ، فقال : « كتاب ألفته فى أربعين سنة أخذتموه فى أربعين يوما ؟ ما أقل ما تفقهون فيه »

ومن عادة مالك فى موطئه أن يذكر فى مقدمة الموضوع ما جاء فيه من الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ما ورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين ، وندر أن يكونوا من غير أهل المدينة ، لأن مالكا لم يرحل عنها ، وأحيانا يذكر ما عليه العمل أو الأمر المجتمع عليه فى المدينه ، وأحيانا يتبع الحديث بتفسير كلمة لغوية أو بيان المراد من بعض الجمل .

درجة أحاديث الموطأ

المتتبع لسيرة مالك فى الحديث يجد أنه كان يتحرى فى المتون وينتقى فى الأسانيد ، شهد له بذلك العلماء قديما وحديثا . ولما كان الموطأ هو خلاصة لجهود هذا المحدث الكبير ، والامام القدير ، فى أربعين عاما جاء كتابا عظيما ، متقنا فى بابه ، غاية فى المتانة ، وقد بين العلماء سلفا وخلفا أن أحاديث الموطأ كلها صحيحة ، وأن أسانيده وردت جميعها متصلة ،

أما ما قاله الحافظ ابن حجر العسقلانى : « أن كتاب مالك صحيح عنده وعند من يقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل والمنقطع وغيرهما » فهو يعبر عن رأيه الخاص ، ولكن يرى غيره من العلماء أنه ليس فى الموطأ حديث مرسل ولا منقطع الا قد اتصل سنده من طرق أخرى ، وعليه فأحاديثه صحيحة من هذا الوجه ، وقد تناول الناس أحاديث الموطأ بالتخريج حتى فى زمن مؤلفه ووصلوا ما فيه من مرسلات ومنقطعات ومن هؤلاء من شارك مالكا فى شيوخه كالسفيانين وابن أبى ذئب وغيرهم [1] . وهذا هو الحافظ ابن عبد البر أحد علماء القرن الخامس يصنف كتابا حافلا فى وصل ما فى الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضل قال : وجميع ما فيه من قوله « بلغنى » ومن قوله عن « الثقة » عنده مما لم يسنده أحد، وستون حديثا كلها مسندة من غير طريق مالك الا أربعة أحاديث لا تعرف أحدها وهو فى باب العمل فى السهو « انى لا أنسى ولكن أنسى لأسن » والثانى « وهو فى باب ما جاء فى ليلة القدر من كتاب الاعتكاف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر » والثالث (وهو فى كتاب الجامع) قول معاذ: « آخر ما أوصانى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وضعت رجلى فى الغرز أن قال : « حسن خلقك للناس » والرابع وهو فى باب الاستمطار بالنجوم فى أواخر كتاب الصلاة « اذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة » اهـ

(١) أنظر حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٣٣

وهذه الأحاديث الأربعة ثبت ما يشهد بوصلها أيضـا . قال ابن عبد البر فى الحديث الأول أن معناه صحيح فى الأصول وقد قال سفيان : اذا قال مالك بلغنى فهو اسناد صحيح ، وأما الحـديث الثانى فقال السيوطى فى كتابه تنوير الحوالك : له شواهد من حيث المعنى مرسلة ثم سردها ، وأما الثالث فقد ورد معناه عند الترمذى ، وأما الحديث الرابع فيشهد له ما ذكره الشافعى فى الأم بسنده من غير طريق مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: (اذا نشأت بحرية ثم استحالت شامية فهو أمطرها) . هذا وقد تناول العلماء تلك الأحاديث الأربعـة بالبحث والتمحيص ، وحكموا بوصلها ، فأفردها الحافظ ابن الصلاح فى تأليف وحكم بوصلها ، وكذلك الحافظ بن مرزوق المعروف بالخطيب أفرد جزءا فى أسانيدها ، وكذلك ابن أبى الدنيا أسند اثنين منها فى أقليد التقليد . ومما يدل على أن هذه الأحاديث الأربعة متصلة كغيرها من أحاديث الموطأ قول سفيان بن عيينة « كان مالك لا يبلغ من الحديث الا صحيحا ولا يحدث الا عن ثقات الناس »[1] . وبناء على شهادة العلماء من السلف والخلف لهذا الكتاب بالصحة والاتصال فى جميع أحاديثه لا يسعنا الا أن نتبعهم فى ذلك ولا ينبغى أن يظن غير هذا بمثل الامام الكبير والمحدث النقادة الجليل امام دار الهجرة وعالم أهل الحجاز .

عدد أحاديث الموطأ

اختلف العلماء فى عدد أحاديثه فابن الهباب يقول : أن مالكا روى مائة ألف حديث جمع منها فى الموطأ عشرة آلاف حـديث ثم لم يزل يعرضها على الكتاب والسنة ويختبرها بالآثار حتى رجعت الى خمسمائة ، وأبو بكر الابهرى يقول : جملة ما فى الموطأ من الآثار عن النبى صلى

(١) أنظر أضاءة الحالك ص ٦٣ وما بعدها .

الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين ألف وسبعمائة وعشرون حديثا . المسند منها ستمائة حديث والمرسل مائتان واثنتان وعشرون حديثا ، والموقوف ستمائة وثلاثة عشر ، ومن قول التابعين مائتان وخمسة وثمانون ، وابن حزم يقول : أحصيت ما فى الموطأ لمالك وما فى حديث سفيان بن عيينة فوجدت فى كل منهما من المسند خمسمائة حديث ونيفا ، وثلثمائة مرسلا ونيفا ، وفيه نيف وسبعون حديثا قد ترك مالك نفسه العمل بها ، وفيها أحاديث ضعيفة وهَّاها جمهور العلماء . اهـ

وهذا الخلاف بينهم انما هو راجع لاختلاف آخر فى روايات الموطأ فالعادون لحديثه انما قال كل منهم على حسب الرواية التى وقعت له فقد نقل السيوطى فى تدريبه عن الحافظ صلاح الدين العلائى انه قال : « روى الموطأ عن مالك جماعات كثيرة وبين رواياتهم اختلاف من تقديم وتأخير وزيادة ونقص ومن أكبرها زيادات رواية ابن مصعب قال ابن حزم : فى موطأ ابن مصعب هذا زيادة على سائر الموطآت نحو مائة حديث » اهـ

كذلك فى رواية محمد بن الحسن مائة وخمسة وسبعون حديثا زادها من غير طريق مالك منها ثلاثة عشر عن أبى حنيفة وأربعة عن أبى يوسف والباقى عن غيرهما [1] . ومن ذلك اختلفت أقوال الناس فى عد أحاديث الموطأ وكل حكم بما علم .

روايات الموطأ

نسخ الموطأ كثيرة والذى اشتهر منها يبلغ نحو الثلاثين نسخة وكثيرا ما يقع بينها الاختلاف بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان

(١) انظر تدريب السيوطى ص ٣٢ وما بعدها ومفتاح السنة للخولى ص ٢٤

حسب تزيد الرواة فيهـا ، وقـد ذكر السيوطى أن المشتهر عن الرواة أربع عشرة نسخة ثم سردها ، منها :

١ — نسخة يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى ، سمع الموطأ أولا عن عبد الرحمن المعروف بشبطون ثم رحل الى مالك مرتين وسمع منه الموطأ بلا واسطة الا ثلاثة أبواب فى آخر كتاب الاعتكاف .

٢ — نسخة أبى مصعب أحمد بن أبى بكر القاسم قاضى المدينة قالوا ان موطأه آخر الموطآت التى عرضت على مالك ويوجد فى موطئه زيادة نحو مائة حديث عن سائر الموطآت .

٣ — نسخة الامام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ، وهو من أجل أصحاب مالك فى الحديث ، كما أنه من أعظم أصحاب أبى حنيفة فى الفقه ، ونسخته تزيد كثيرا على نسخة يحيى الليثى ، لكنه شحنها بآثار من غير طريق مالك يحتج بها لفقه أبى حنيفة ، وهى مطبوعة فى الهند وايران ولها هناك وفى الحرمين شهرة عظيمة ، وقال فى كشف الظنون : قال أبو القاسم محمد بن حسين الشافعى الموطآت المعروفة عن مالك أحد عشر موطأ معناها متقارب والمستعمل منها أربعة : موطأ يحيى بن يحيى وموطأ ابن بكير وأبى مصعب الزهرى . وابن وهب ثم ضعف الاستعمال الا فى موطأ يحيى ثم موطأ ابن بكير » [1] .

شروح الموطـأ

شرح الموطأ خلق كثير منهم — ١ — الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وله عليه شرحان أولهما « التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد » رتبه على أسماء شيوخ مالك على

(١) أنظر أضاءة الحالك ص ٤٠ — ٥١ وكشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧٠

حروف المعجم وهو كتـاب لم يتقدمه أحـد الى مثله . قال ابن حزم : « لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله . فكيف أحسن منـه » وقال ابن عبد البر فى وصف هذا الكتاب :

سمير فـؤادى من ثلاثين حجـة وصاقل ذهنى والمفرج عن همى
بسطت لهم فيـه كـلام نبيهم لما فى معانيه من الفقـه والعـلم
وفيه من الآداب ما يهتـدى به الى البر والتقوى ونهى عن الظلم

والثانى « كتاب الاستذكار فى شرح مذاهب علماء الأمصار » شرح فيه الموطأ على وجهـه وكان أبو عمر رضى الله عنـه موفقا فى التأليف معانا عليه .

(٢) ومنهم جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ وسمى شرحه (كشف المغطى فى شرح الموطأ) واختصره فى شرحه (تنوير الحوالك) وطبع هذا الأخير مع الشرح بمصر فى ثلاثة أجزاء صغيرة (٣) ومحمد بن عبد الباقى الزرقانى المصرى المالكى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ شرحه شرحا وسطا فى ثلاثة مجلدات . (٤) وعبد الحى بن محمد اللكنوى الهندى المولود سنة ١٢٦٤ هـ فى كتابه (التعليق الممجد على موطأ الامام محمد) وقد طبع بالهند (٥) كما شرح الموطأ قطب الدين أحمد بن عبد الرحيم المحدث الحنفى الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦ شرحه فى شرحين أحدهما باللسان الفارسى وسماه (المصفى) جرد فيه الأحاديث والآثار وحذف أقوال مالك وبعض بلاغاته وتكلم فيه كلام المجتهدين وثانيهما بالعربية وسماه (المسوى) اكتفى فيه بذكر اختلافات المذاهب وعلى شىء من شرح الغريب وغيره مما لابد منه [١] .

---

(١) أنظر كشف الظنون ج ٢ ص ٣٧٠ ومفتاح السنة ص ٢٧ والانتقاء لابن البر ص ٥ ــ ٧ واضاءة الحالك ص ٨ ــ ٩

مختصرات الموطأ

اختصره كثير من العلماء منهم الامام أبو سليمان الخطابى المتوفى سنة (٢٨٨) وأبو الوليد الباجي المتوفىسنة (٤٧٤) . وابن رشيق القيروانى المتوفى سنة (٤٥٦) وابن عبد البر وسمى كتابه التقصى فى مسند الموطأ ومرسله وأبو القاسم عبد الرحمن الغافقى الجوهرى المتوفى سنة (٣٨٥هـ) اشتمل مختصره على ستمائة وستة وستين حديثا مسندا [1] .

عناية الناس بالموطأ

منذ ألف مالك الموطأ والعلماء يضربون أكباد الابل الى المدينة يسمعونه منه حتى لقد رواه عن مالك بغير واسطة أكثر من ألف رجل فكان ذلك مصداقا لقول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى (يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل فى طلب العلم فما يجدون أعلم من عالم المدينة) قال عبد الرازق « هو مالك بن أنس » .

عنى الناس بالموطأ على اختلاف مشاربهم فكان منهم المبرزون من الفقهاء كالشافعى ومحمد بن الحسن وابن وهب وابن القاسم ومنهم نحارير المحدثين كيحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى وعبد الرزاق بن همام ، ومنهم الملوك والأمراء كالرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وبذلك اشتهر الموطأ فى عصر مؤلفه ، فانكب الناس جميعا عليه من جميع ديار الاسلام القاصى منهم والدانى ثم لم يأت زمان الا ازداد الموطأ فيه شهرة على شهرة واشتدت عناية الناس به ، ولا عجب فعليه بنى فقهاء الأمصار مذاهبهم حتى أهل العراق فى بعض أمورهم ،

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٧٠ واضاءة الحالك والرسالة المستطرفة ص ١١

ولم يزل العلماء يخرجون أحاديثه ، ويذكرون متابعاته وشـواهده ، ويشرحون غريبه ، ويضبطون مشكله ويبحثون عن فقهه ويفتشون عن رجاله ، كما لم يزل الخلفاء يعرفون له قدره . فهذا أبو نعيم يروى فى الحلية عن مالك بن أنس أنه قال : شاورنى هارون الرشيد أن يعلق الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه فقلت لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب . فقال وفقك الله يا أبا عبد الله ، وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله : ما أعلم أن لملك رحلة فى طلب العلم الا للرشيد فانه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد بخزانة المصريين ثم رحل لسماعه صلاح الدين الأيوبى الى الاسكندرية فسمعه على ابن طاهر بن عوف [1] .

رأى بعض الكاتبين فى الموطأ والرد عليه

يزعم بعض الكاتبين العصريين أن مالكا رحمه الله لم يكن محدثا وأن كتاب الموطأ لم يكن كتاب حديث وآثار وقد ذهب الى هذا الزعم الأستاذ على حسن عبد القادر وأيده فى كتابه (نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى) .

ونحن ننقل لك بعض فقرات من كلامه فى ذلك ثم نكر عليها بالأبطال. قال الأستاذ فى كتابه المذكور : « وكتـاب مالك الأساسى هو الموطأ الذى يعد — اذا ما استثنينا المجموع لزيد — أول كتاب فقهى وصل الينا فى الاسلام على العموم والذى يصور لنا على وجه التقريب الى

(١) أنظر حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٣٣ — كشف الظنـون جـ ٢ ص ٣٧١ — مفتاح السنة ص ٢٦ — تاريخ الخلفاء ص ١٩٥

أى حد وصلت الخطوات فى التدوين الفقهى الى ذلك الوقت ، ولايمكن أن يعتبر الموطأ أول كتاب كبير فى الحديث فبالرغم مما له من مكانة فى الاسلام وما لمالك امام دار الهجرة من تقدير فان كتابه لم يعتبر فى الأصل كتابا فى الحديث .

ثم قال : والحقيقة أن كتاب مالك ليس كتاب حديث بالمعنى الصحيح كالكتب التى وضعها المحدثون فى القرون التالية ولم يذكر فى تاريخ الكتب ضمن كتب الحديث . فهو فى الواقع كتاب فقه . ليس من أجل أن الموطأ لم يستوعب جميع أبواب كتب الحديث الجامعة بل من ناحية الغرض من هذا الكتاب ومن ناحية الوضع . فلم يكن الغرض فيه الاتيان بالأحاديث الصحيحة التى كانت موجودة اذ ذاك وجمعها وانما كان الغرض عند مالك النظر فى الفقه والقانون . ثم أخذ يستدل لذلك بأن مالكا أودعه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وبعض آراء له . الى أن قال : ومن هنا نرى أن مالكا لم يكن جامعا للحديث ولكنه كان زيادة على هذا أولا وبالذات شارحا للأحاديث من جهة النظر العملية ويمكن التدليل على هذا بأمثلة كثيرة من الموطأ — وساق بعض الأمثلة — وبعد أن تكلم عن الرأى عند مالك قال فمن هذا يتبين لنا بسهولة أن مالكا لم يكن محدثا وأن الحديث عنده لم يكن المعتمد الوحيد لديه[1] »

من هذا نرى أن الأستاذ يبعد الموطأ من مجموعة الكتب الحديثية ويخرج مالكا من زمرة أئمة الحديث وسنرد عليه فى كلا الأمرين .

أولا — الرد على زعمه بأن الموطأ ليس كتاب حديث .

رأينا الأستاذ يعتمد فى اخراج الموطأ من كتب الحديث على أمرين .

---

(١) أنظر ص ٢٤٤ — ٢٤٩ من كتاب « نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى »

أحدهما أنه لم يكن غرض مالك أن يجمع كتابا فى الحديث الصحيح . بل كان غرضه النظر فى الفقه والقانون الخ . ثانيهما وضع الكتاب وترتيبه على أبواب الفقه .

وللرد عليه نقول : —

١ — سلمنا أن غرض مالك النظر فى الفقه والقانون كما قلت فهل يمنع هذا من أن يكون له مع ذلك غرض آخر وهو جمع طائفة من الأحاديث الصحيحة فى كتابه فيكون كتابا جامعا للحديث النبوى وللفقه الاسلامى وبذلك يكون مرجعا للعلماء على اختلاف مشاربهم محدثين وفقهاء ؟ بل هذا هو الواقع الذى حدثنا عنه التاريخ . فقد روى الثقات أن علماء الأمصار على اختلاف منازعهم رحلوا الى المدينة لسماع الموطأ من مالك وكان منهم الفقهاء المجتهدون أمثال مالك كالشافعى الامام ومحمد بن الحسن وأبى يوسف صاحبى أبى حنيفة النعمان . فسماع هؤلاء للموطأ وروايتهم له ونظرهم فيه ورجوعهم عن بعض المسائل الى ما دل عليه الحديث من الموطأ كما حصل من الامام محمد بن الحسن أكبر دليل على أن الموطأ أدخل فى باب الحديث منه فى باب الفقه والرأى .

هذا وقد سبق لك عناية المحدثين بالموطأ حتى فى عصر مالك نفسه أمثال يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى وعبد الرازق بن همام وغيرهم حتى الملوك والأمراء أمثال الرشيد . وصلاح الدين الأيوبى مما يدلك على أن الموطأ أقرب الى الحديث منه الى الفقه .

٢ — أن استدلال الأستاذ بوضع الكتاب على هذا النحو من ترتيبه على الأبواب وايداعه كثيرا من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وبعض

آراء مالك على أنه كتاب فقه لا كتاب حديث . لا يدل على ما ذهب اليه ولا يخرج الموطأ عن كونه كتاب حديث فالبخارى الذى هو امام المحدثين غير منازع قد سلك هذه الطريقة فى جامعه الصحيح ورتبه على أبواب الفقه وذكر فيه الموقوفات وكثيرا من الآيات القرآنية وكان له اجتهادات وآراء مال اليها واستدل عليها فى كتابه ومع ذلك لم يقل أحد : « أن صحيح البخارى ليس كتاب حديث بل هو كتاب فقه وانه الى الفقه أقرب منه الى الحديث » .

ولم يكن من غرض البخارى على ما صرح به أن يستوعب الأحاديث الصحيحة التى كانت موجودة فى عصره ويجمعها ولو كان ما يقوله الأستاذ حقا لكان صحيح البخارى أولى بالخروج من جملة الكتب الحديثية مع أنه من أمهاتها والمقدم فى الحديث على جميعها . فمسلك مالك فى وضع كتابه على أبواب الفقه مختلطة أحاديثه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين لم ينفرد به عن سائر المحدثين فى عصره بل كانت تلك طريقة المحدثين عامة فى التصنيف من أقران مالك أمثال ابن عيينة وشعبة ابن الحجاج وعبد الرزاق والليث بن سعد وأضرابهم .

ثانيا — الرد على زعمه أن مالكا لم يكن محدثا .

كثيرا ما يردد الأستاذ فى كتابه أن مالكا لم يكن معدودا فى طائفة أهل الحديث مخالفا فى ذلك اجماع أئمة المسلمين فى كل قرن من القرون . ولعل الذى جعل الأستاذ يقول ذلك أنه وجد مالكا يجتهد رأيه فى بعض مسائل لم تسعفه فيها النصوص . أو أنه بنى ذلك الزعم على زعمه فى الموطأ أنه ليس كتاب حديث بل هو كتاب فقه فمالك اذن عنده فقيه لا محدث ، وقد تبين لك بطلان هذا الزعم فيما سبق . أما ان مالكا

كان يرى ويجتهد فهذا مسلم لأنه امام جليل بلغ رتبة الاجتهاد المطلق ولكن ذلك لا يخرجه عن كونه محدثا من كبار المحدثين وجهبذا من جهابذة النقاد . اجتمع لدى مالك ثروة حديثية عظيمة لم تجتمع لأحد من أقرانه فقد ذكروا أنه روى مائة ألف حديث وأنه كان نقادة للرجال بحاثة عن الأسانيد أقر له بذلك أقرانه قبل تلاميذه ، والناس فى كل عصر يعتمدون على حديثه حتى أن البخارى اذا وجد الحديث عن مالك فانه لا يعدل عنه ثم ان المحدث لايخرجه من زمرة المحدثين نظره فى الرأى وبلوغه درجة الاجتهاد وتكلمه على تفسير القرآن وفقه الحديث فذلك وان كان يلحقه بصفوف الفقهاء لكنه لا يخرجه عن حظيرة المحدثين النبهاء وليس مالك ببدع فى ذلك بل كان غيره من المحدثين من جمع الى الحديث الرأى والاجتهاد وكان له مذهب خاص كالثورى وابن عيينة والأوزاعى وان بادت مذاهبهم . وهذا هو البخارى بلغ درجة الاجتهاد وكان له آراء خالف فيها كثيرا من الفقهاء كما ستقف عليه فيما بعد .

يقول الأستاذ تحت عنوان « مكان الموطأ فى تدوين الحديث [1] » على أن مالكا وان لم يكن محدثا حقيقيا فقد أعطى للمحدثين فائدة كبيرة وأمد البحث النقدى التاريخى بأداة ثمينة ، وان لم يكن ذلك غرض مالك ذلك أنه كان ينظر بالنسبة لأغراضه العملية الى ما هو معترف به فى المدينة من الروايات ولم يكن قد امتد اليه هذا الشك والارتياب فى الحديث الذى أقض مضاجع المحدثين المتأخرين. فان مسألة الاسناد لم تكن بعد أمرا ضروريا بدليل انا نجد ثلث الموطأ مرسلا أو مقطوعا بلا خطام ولا أزمة كما يقول المحدثون ، وقد استعمل مالك بكل هدوء المراسيل

---

(١) ص ٢٥٠

فى استنتاجه الفقهى لأنه لم يكن يدور فى خلده الا تأييد السنة والعمل ولم يفكر كثيرا فى النقد الشكلى فمن أحاديثه البالغة ١٧٢٠ نجد ٦٠٠ (ستمائة) فقط مسندة و ٢٢٢ مائتين واثنين وعشرين مرسلة و ٦١٣ (ستمائة وثلاثة عشر) موقوفة و ٢٨٥ (مائتين وخمسة وثمانين) مقطوعة وبينما كان المحدثون يبحثون عن الطرق المختلفة للحديث كان مالك يكتفى بطريق واحد الأمر الذى يميز المحدث من غير المحدث . ولهذا نجد عند مالك كثيرا من الأحاديث التى لا توجد عند المتأخرين) اهـ

ونقول للأستاذ من أين يعطى مالك للمحدثين فائدة كبيرة وهو غير محدث وهل فاقد الشىء يعطيه ، ومن أين هو يمد البحث النقــدى التاريخى بأداة ثمينة فى الوقت الذى تقرر فيه أنه كان لا يعتنى بالأسانيد ولا يجمع طرق الأحاديث الأمر الذى يميز المحدث عن غير المحدث . ان هذا تناقض ظاهر .

يقرر الأستاذ أن مالكا لم يكن يعنى بالاسناد لأن مسألة الاسناد لم تكن بعد أمرا ضروريا فلم يكن قد سرى الى مالك الشك فى أمر الأسانيد حتى يبحث عنها واستدل على ذلك بوجود المراسيل والموقوفات والمقاطيع فى الموطأ — وهذا افتيات على التاريخ . من الذى قال ان مسألة الاسناد لم تعد بعد أمرا ضروريا ؟ والناس من زمن فتنة الخوارج والشيعة فى عناء البحث عن الأسانيد وتمييز الغث من السمين وكلما امتد الزمان كثر الكذابون والمتقولون فى الأحاديث خصوصا فى عصر مالك ، وكيف يرمى الأستاذ مالكا بالغفلة وعدم الامعان فيما يتلقاه من العلم وهو القائل : ربما جلس الينا الشيخ فيحدث جل نهاره ما نأخذ عنه حديثا واحدا ما بنا أن نتهمه ولكن لم يكن من أهل الحديث ، وكيف لا ينظر مالك فى الرجال ويفحص الأسانيد وهو القائل : « أدركت جماعة من أهل المدينة

ما أخذت عنهم شيئا من العلم وانهم لمن يؤخذ عنهم العلم وكانوا أصنافا فمنهم من كان كاذبا فى أحاديث الناس ولا يكذب فى علمه فتركته لكذبه فى غير علمه ومنهم من كان جاهلا بما عنده فلم يكن عندى أهلا للأخذ عنه ومنهم من كان يرمى برأى سوء » وكيف لا يكون مالك محدثا وهذا يحيى بن سعيد القطان يقول : كان مالك اماما فى الحديث » وهذا أبو قدامة يقول : كان مالك أحفظ أهل زمانه[1] .

أما وجود المراسيل والموقوفات والمقطوعات فى الموطأ فقد كان مالك يرى الاحتجاج بها وقد تقدم لك الكلام على ذلك فيما سبق ويكفى فى توثيقه قول سفيان بن عيينة وهو من أقرانه : « كان مالك لا يبلغ من الحديث الا صحيحا ولا يحدث الا عن ثقات الناس » . الحق أن مالكا كان اماما فى الفقه والحديث معا .

المبحث الثانى

« شيوع الوضع فى الحديث فى هذا العصر »

بالرغم من تعاون الكتابة والحفظ على جمع الحديث وضبطه فى هذا الدور فانه قد انبثت جراثيم الشر وعوامل الفتنة من الذين أخذوا يضعون الأحاديث ويلقون على الناس الأساطير وينشرون فيهم الخرافات والأكاذيب .

وجد فى هذا الوقت طوائف كثيرة تعمل على افساد الحديث وتجتهد فى تزييفه ، وأشهر هذه الطوائف هم الدعاة السياسيون والقصاص والزنادقة ونحن نذكر لك شيئا من أعمال كل طائفة من هذه الطوائف

(١) أنظر ترجمة مالك فى الانتقاء لابن عبد البر

الثلاثة لترى مقدار خطرهم على الحديث كما ترى أن مهمة أهل الحديث في ذلك العصر كانت من الصعوبة بمكان .

اولا ـ الدعاة السياسيون :

قامت الدولة العباسية على أنقاض دولة بنى أمية ، فكان هذا العصر عصر انتقال سياسي خطير انتقلت فيه الخلافة من بيت الى بيت . وبالضرورة لم يكن هذا الانتقال طفرة . بل تقدمه دعوة سرية مكثت شطرا من الزمان تظهر حينا وسرعان ما تخبو حتى لمحهــا بعض الأدباء الأمويين فقال يحذر قومه : —

أرى خــلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
لئن لم يطفها عقــلاء قــوم يكون وقودها جثث وهــام

بدأت هذه الدعوة السرية من أول القرن الثانى واتخذ لها من النقباء اثنا عشر رجلا من ورائهم سبعون آخرون يأتمرون بأمرهم ويبثون الدعوة بين الناس مختفين فى زى تجار حينا وحينا فى زى حجاج . مكثوا على هذا أعواما كثيرة وما أن جاء عام سبع وعشرين ومائة حتى كمن خلف الستار داهية السواس أبو مسلم الخراسانى الذى لعب دورا هاما فى قلب الدولة الأموية واقامة الدولة العباسية . تزعم أبو مسلم الحركة الانقلابية فى بلاد خراسان فوجد نفوسا طيعة وقلوبا مستعدة لقبول الدعوة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى العباس واستخدم لذلك الدعاة فى طول البلاد وعرضها [١] .

اتخذ هؤلاء الدعاة فيما اتخذوا الأحاديث النبوية مطية لأغراضهم

(١) تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى ص٢٠ فى الكلام على الدولة العباسية

السياسية فدسوا فيها ما ليس منها مما يوافق تلك الأغراض ووضعوا الأحاديث التى تنذر بخـلافة بنى أمية وتنفر الناس منهم وفى الوقت نفسه وضعوا الأحاديث المبشرة بخلافة بنى العباس لتحبب الناس فيهم . واليك طائفة من هذه المفتريات : —

١ ــ أحاديث وضعوها للتنفير من بنى أمية :

من ذلك قولهم : أن رجلا قام الى الحسن بن على بعد ما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين فقال لا تؤنبنى فان النبى صلى الله عليه وسلم رأى بنىأمية على منبره فساءه ذلك.فنزلت « انا أعطيناك الكوثر» ونزلت « انا أنزلناه فى ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شـهر » يملكها بنو أمية يامحمد وقال ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم رأى بنى الحكم بن أبى العاص ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات . وأنزل الله تعالى فى ذلك « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن » ، ثم يروون عن يعلى بن مرة أن المراد بالشجرة الملعونة فى القرآن بنو أمية ويروون عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول لأبيك وجدك : انكم الشجرة الملعونة فى القرآن .

ومن ذلك ما يروونه أيضـا « رأيت بنى أميـة على منـابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء » .

٢ ــ أحاديث وضعوها فى التبشير بخلافة بنى العباس :

عن عبد العزيز بن بكار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يلى ولد العباس من كل يوم يليه بنو أمية يومين ولكل شهر شهرين ،
وعن عبد الله بن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم نظر الى العباس
مقبلا فقال : هذا عمى أبو الخلفاء الأربعين أجود قريش كفا وأجملها .
من ولده السفاح والمنصور والمهدى . ياعمى بى فتح الله هـذا الأمر
وسيختمه برجل من ولدك » .

وعن ابن عباس مرفوعا « اذا سكن بنوك السواد ولبسوا السواد
وكان شيعتهم أهل خراسان لم يزل الأمر فيهم حتى يدفعوه الى عيسى
ابن مريم وعنه صلى الله عليه وسلم قال : رأيت بنى مروان يتعاورون
على منبرى فساءنى ذلك ورأيت بنى العبـاس يتعاورون على منبرى
فسرنى ذلك » .

هذا وهناك أحاديث وضعها دعاة بنى العباس مروية عن على بن
أبى طالب أو بعض أولاده أو غيرهم وقصدهم بذلك تخدير أعصاب
الشيعة وصرفهم عن المطالبة بالخلافة لمن يتولونه واليك طائفة منها : —

عن على بن موسى الرضى عن أبى موسى عن أبيه جعفر عن محمد
عن أبيه على عن أبيه الحسين عن أبيه على بن أبى طالب مرفوعا : « هبط
على جبريل وعليه قباء أسود وعمامة سوداء فقلت ما هذه الصورة التى لم
أرك هبطت على فيها قال هذه صورة الملوك من ولد العباس . قلت وهم
على حق . قال نعم قال النبى صلى الله عليه وسلم اللهم للعباس وولده
حيث كانوا وأين كانوا . قال جبريل : ليأتين على أمتك زمان يعز الله
الاسلام بهذا السواد . قلت رياستهم ممن . قال من ولد العباس قلت
وأتباعهم . قال من أهل خراسان . قلت وأى شيء يملك ولد العباس .
قال يملكون الأصفر والأخضر والمدر والسرير والمنبر والدنيا والمحشر
والملك الى المنشر » .

ومن ذلك زعمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للعباس — وعلى عنده — يكون الملك فى ولدك ثم التفت الى على فقال : لا يملك أحد من ولدك » .

ويروون عن أم سلمة أنها قالت كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فتذاكروا الخلافة فقالوا : ولد فاطمة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لن يصلوا اليها أبدا ولكنها فى ولد عمى صنو أبى حتى يسلموها الى المسيح .

٣ ــ أحاديث وضعف للتنفير من بنى العباس :

ثم اننا نرى الشيعة وغيرهم من دعاة بنى أمية بعد أن تم الأمر لبنى العباس أو كاد يضعون الأحاديث فى التنفير منهم والتحذير من طاعتهم . ومن ذلك ما يروونه عن سعيد بن المسيب أنه قال : لما فتحت أدانى خراسان بكى عمر بن الخطاب فقال له عبد الرحمن بن عوف : ما يبكيك وقد فتح الله عليك مثل هذا الفتح ؟ قال ومالى لا أبكى والله لوددت أن بيننا وبينهم بحرا من النار . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا أقبلت رايات ولد العباس من عقاب خراسان جاءوا بنفى الاسلام فمن سار تحت لوائهم لم تنله شفاعتى يوم القيامة .

وعن ثوبان مرفوعا « ويل لأمتى من بنى العباس صبغوها وألبسوها السواد ألبسهم الله ثياب النار . هلاكهم على يد رجل من أهل بيت هــذه وأشار الى أم حبيبة » .

وعن أبى شراعة قال : كنا عند ابن عباس فى البيت فقال هل فيكم غريب قالوا لا . قال : اذا خرجت الرايات السود فاستوصوا بالفرس خيرا فان دولتنا معهم فقال أبو هريرة : ألا أحدثك ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال وأنك هنا ؟ . حدث . قال سـمعته يقول :

« اذا أقبلت الرايات السود من قبل المشرق فان أولها فتنة وأوسطها هرج وآخرها ضلالة [١] » .

وهذه الأحاديث كلها أباطيل لا يعول عليها في قليل ولا كثير ومنها ترى أن هؤلاء الدعاة لبنى العباس وخصومهم من الشيعة وغيرهم ممن لا خلاق لهم ولا دين قد استباحوا الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحصلوا على تلك الأغراض الدنيئة .

ثانيا - الزنادقة

هم قوم من أعداء الاسلام تظاهروا به وانتحلوا في الدين نحلا وآراء لا تتفق وأصوله العامة وقواعده المقررة وغرضهم من ذلك استدراج العامة الى الخروج من الاسلام واضعاف شوكة المسلمين وقد وجد منهم في هذا العصر خلق كثير أخذوا يضعون الأحاديث لاجتذاب العامة الى معتقدهم الزائف ويغمرون الناس بوابل من الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر الذى جعل خلفاء بنى العباس يتعقبونهم ويقتلونهم اما لأنهم كانوا يضعون الأحاديث في ذم بنى العباس وتنفير الناس منهم . وهذا باب فتنة يدخلون منه على المسلمين يضعفون به دولتهم واما لأن الخلفاء كانوا حريصين على دينهم . لا يهمنا أن يكون هذا أو ذاك أو هما معا . بل الذى يهمنا أن هؤلاء الزنادقة كذبوا كثيرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلقوا من الأحاديث ما لم يأت عنه بل ما ترده أصول الدين والعقل السليم وغرضهم كما ذكرنا هو طمس

---

(١) أنظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٩ وتفسيرى ابن كثير والألوسى في سورتى الاسراء والقدر واللآلىء المصنوعة للسيوطى ج ١ كتاب المناقب في مواضع متفرقة .

هذا الدين والقضاء على الأصل الثانى من أصوله وهو الحديث النبوى عمدة المسلمين فى الأحكام وفهم القرآن .

يروى السيوطى فى تاريخ الخلفاء [1] عن ابن عساكر عن ابن علية أنه قال : أخذ هارون الرشيد زنديقا فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق . لم تضرب عنقى ؟ . قال له : أريح العباد منك . قال فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله كلها ما فيها حرف نطق به ؟ قال : فأين أنت يا عدو الله من أبى اسحاق الفزارى وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا » اهـ .

فمن هذه الحادثة تلمح الحالة التى أصابت الحديث من عمل الزنادقة كما ترى منها جهود المحدثين فى ذلك العصر لتنقية الحديث والتمييز بين الغث والسمين . فهذا زنديق واحد يضع ألف حديث ولو امتد به الأجل لوضع الآلاف المؤلفة فما بالك بالزنادقة الكثيرين الذين أخذوا يضعون الأحاديث فى الخفاء ؟

كان من الزنادقة من يكتب الحديث لشيخه فينتهز غفلة شيخه ويدس فى الكتاب كثيرا من الأحاديث المكذوبة فيرويها الشيخ على أنها من حديثه .وكان المهدى العباسى يقول : أقر عندى رجل من الزنادقة أنه وضع أربعمائة حديث فهى تجول فى أيدى الناس الى غير ذلك مما شحنت به كتب الموضوعات .

ثالثـا ـ القصاص

احترف القصص طائفة من الجهلة بالحديث الذين رق دينهم ليتكسبوا به ولتكون لهم عند عامة الناس الحظوة والصدارة ولقد لاقى المحدثون

---

(١) ص ١٩٤

منهم كل شدة ولحقهم من ورائهم العناء الكبير . ذلك أن طبيعة العامة تنجذب الى كل غريب من القـول لاسيما القصص فأقبلوا على هؤلاء القصاص الذين أخذوا يضعون الأقاويل — ويروونها عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو منها برىء ونحن نذكر لك بعض الحوادث التى تدل على مبلغ افسادهم للحديث ومقدار تعلق العامة بهم حتى أنهم كانوا يفضلونهم على الأئمة من العلماء .

١ — روى ابن الجوزى فى كتابه « القصاص والمذكرين » عن أبى الوليد الطيالسى أنه قال : كنت مع شعبة فدنا منه شاب فسأله عن حديث : فقال له أقاص أنت؟ قال نعم . قال اذهب فأنا لا نحدث القصاص. فقلت له لم يا أبا بسطام ؟ قال يأخذون الحديث منا شبرا فيجعلونه ذراعا» فهذه شهادة من شعبة وهو من أعيان المحدثين فى هذا العصر تلقى ضوءا على أعمال القصاص الافسادية للأحاديث كما أنها ترينا مبلغ تنبه العلماء لأفاعيلهم وما يتزيدونه فى الحديث من أباطيلهم .

٢ — وأخرج ابن الجوزى بسنده الى حجر بن عبد الجبار الحضرمى أنه قال : كان فى المسجد قاص يقال له زرعة . فأرادت أم أبى حنيفة أن تستفتى فى شىء فأفتاها أبو حنيفة فلم تقبل وقالت لا أقبل الا ما يقول زرعة القاص فجاء بها أبو حنيفة الى زرعة فقال : هذه أمى تستفتيك فى كذا وكذا فقال أنت أعلم منى وأفقه فافتها أنت قال أبو حنيفة قد أفتيتها بكذا وكذا فقال زرعـة القول كما قال أبو حنيفـة فرضيت وانصرفت [١] » .

فهذه القصة ترينا كيف كان القصاص يسيطرون على عقول العامة .

---

(١) انظر تحذير الخواص من اكاذيب القصاص ص ٨٠ — ٨١ .

أبو حنيفة الذى بلغ فى الفقه والعلم والذكاء والفهم مبلغا عظيما وطار صيته فى الآفاق لا تقنع أمه بفتواه حتى تطلب فتوى زرعة القاص .

هذا ولم تكن هذه الفرق الثلاث تعمل وحدها فى وضع الأحاديث بل كان وراءهم كثير من الفرق مجسمة ومرجئة وغيرهم يختلقون الحديث لترويج بدعهم كما كان وراءهم كثير من جهلة المتصوفة يستبيحون وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب ، يرتجون من ورائها خيرهم وخير الناس ، الى غير هؤلاء ممن أضلهم الله . اتحدوا جميعا على وضع الأحاديث واختلاق الأسانيد . لكن الله تعالى لم يترك حديث نبيه صلى الله عليه وسلم تلعب به الأهواء ويتزيد فيه الكذابون كما يشاءون . بل قيض فى كل زمان من ينافح عنه ويكافح دونه . « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

« مناهضة العلماء للوضاعين »

هيأ الله تعالى للدفاع عن الأحاديث فى هذا العصر طائفة من فطاحل النقاد وكبار الحفاظ انتدبوا أنفسهم لتخليص الحق من الباطل وتقربوا الى الله بالكشف عن أحوال هؤلاء الكذابين على رسوله صلى الله عليه وسلم المتزيدين فى حديثه . وأنزلوا الرواة منازلهم وبينوا للناس درجاتهم ولقبوهم بما يستحقونه من المحاسن أو المثالب لا تأخذهم بأحد رحمة فى دين الله فتراهم يقولون فلان ثقة . فلان حجة . فلان كذاب . فلان لين الحديث . فلان لا بأس به . فلان ضعيف . الى غير ذلك من ألقاب الرفعة أو سمات الضعة والسقوط .

نشط علماء الحديث فى هذا العصر — الذى يعرف عند المؤرخين بعصر التدوين — نشاطا عظيما فى تدوين الحديث حتى لم يبق أحد منهم

الا صنف الكتب الحديثية ورحل فى سبيل ذلك المراحل العديدة وقطع الأسفار البعيدة الى الأمصار الاسلامية المختلفة . فتجمع لديهم ثروة عظيمة من الأحاديث وتعددت أمامهم طرقها وأسانيدها وبسبب ذلك انكشف لهم ما كان خافيا من اتصال بعض الأسانيد أو انقطاعها وبامعانهم النظر فى متون الأحاديث وفحصهم الدقيق عن قيمتها ظهر لهم الدخيل من غير الدخيل منها فكانت نهضة مباركة فى جمع الحديث وثورة عنيفة فى وجوه الوضاعين غير أنهم لم يصلوا الى هذه المرحلة الحاسمة والنصر المبين على أعداء الاسلام الألداء الا بشق الأنفس . فهذا أبو داود السجستانى فى رسالته الى أهل مكة يقول ما خلاصته : كان سفيان ووكيع وأمثالهما يجتهدون غاية الاجتهاد فلا يتمكنون من الحديث المرفوع المتصل الا من دون ألف حديث [1] .

فاذا كان الحديث الواحد المستوفى الشرائط لا يمكن الحصول عليه الا من بين ألف حديث سواه من ضعيف وموضوع . ظهر لنا ما كان يكابده هؤلاء الأئمة من جهد جهيد ، حتى أبلوا ذلك البلاء المبين

وفى الحق أن علماء الحديث أبانوا عن علم غزير فى الحديث ورجاله ومتونه وأسانيده كما أظهروا حيطة شديدة فى الأخذ والتحمل عن الشيوخ . فأنت تراهم لم يكتفوا فى تصحيح الحديث بدين الراوى وأمانته وكثرة حفظه حتى يكون مع ذلك ضابطا عارفا بما يتحمله من الحديث غير متساهل فيه .

فهذا مالك بن أنس يقول : (لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك : لا يؤخذ عن سفيه ، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس الى هواه ، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس . وأن كان لا يتهم

(١) أنظر حجة الله البالغة جـ ١ ص ١٤٨

على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحدث به)[١] وسئل مالك أيؤخذ العلم ممن ليس له طلب ولا مجالسة فقال لا . فقيل أيؤخذ ممن هو صحيح ثقة غير أنه لا يحفظ ولا يفهم ما يحدث به فقال : لا يكتب العلم الا عمن يحفظ ويكون قد طلب وجالس الناس وعرف وعمل ويكون معه ورع » ويقول مالك أيضا : لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين فما أخذت عنهم شيئا وأن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أمينا لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم عند بابه » وهذا عبد الله ابن المبارك يقول : قلت لسفيان الثورى أن عباد بن كثير من تعرف حاله واذا حدث جاء بأمر عظيم أترى أن أقول للناس لا تأخذوا عنه ؟ قال سفيان : بلى . قال عبد الله فكنت اذا كنت فى مجلس ذكر فيه عباد أثنيت عليه فى دينه وأقول لا تأخذوا عنه » . وهذا يحيى بن سعيد القطان يقول « لم نر أهل الخير فى شيء أكذب منهم فى الحديث »[٢] .

وهذا سفيان الثورى يقول : انى أحب أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه . حديث أكتبه أريد أن أتخذه دينا . وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به ، وحديث رجل ضعيف أحب أن أعرفه ولا أعبأ به . والأوزاعى رضى الله عنه يقول « تعلم ما لا يؤخذ كما تتعلم ما يؤخذ[٣] » وهذا خليفة المسلمين فى القرن الثانى هارون الرشيد يقول للزنديق وقد قال أنى وضعت ألف حديث على رسول الله . فأين أنت ياعدو الله من أبى

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص ١٥ ــ ١٦
(٢) انظر هذه الآثار فى توجيه النظر ص ٣٥ ، ٣٦
(٣) أنظر جامع بيان العلم وفضله جـ ١ ص ٧٦ .

اسحاق الفزارى وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفا حرفا ﴾ وتقدم لك هذا الأثر قريبا .

من هذا كله يظهر لك جليا ما كان عليه أئمة الحديث فى هذا العصر من بصيرة نقادة ومعرفة تامة بالسنة متونها وأسانيدها فتراهم غربلوا الرواة وأقصوا كثيرا منهم عن حظيرة السنة والتمتع بشرف روايتها . كما ميزوا الأحاديث فحديث علموا صحته وعملوا به وحديث علموا كذبه فتركوه وحديث تبين لهم ضعفه فلم يعتمدوا عليه وحده وحديث اشتبه أمره فتوقفوا فيه حتى يظهر حاله وينكشف أمره . وتراهم يأمرون بحمل جميع ما يسمعونه لينتقوا منه الصحيح حتى أصبحوا بحق صيارفة الحديث ونقاد الأسانيد .

واليك جملة مما ذكره ابن عدى فى كامله تلقى لنا ضوءا على جهود هؤلاء الجهابذة فى هذا العصر قال رحمه الله ما نصه : —

(وأما القرن الثانى فقد كان فى أوائله من أوساط التابعين جماعة من الضعفاء . وضعف أكثرهم نشأ غالبا من قبل تحملهم وضبطهم للحديث . فكانوا يرسلون كثيرا ويرفعون الموقوف وكانت لهم أغلاط وذلك مثل أبى هرون العبدرى المتوفى سنة ١٤٣ هـ . ولما كان آخر عصر التابعين وهو حدود الخمسين ومائة تكلم فى التعديل والتجريح طائفة من الأئمة فضعف الأعمش المتوفى سنة ١٢٨ هـ جماعة ووثق آخرين . ونظر فى الرجال شعبة المتوفى سنة ١٦٠ هـ وكان متثبتا لا يكاد يروى الا عن ثقة . ومثله مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ وممن كان فى هذا العصر اذا قال قبل قوله معمر المتوفى سنة ١٥٣ وهشام الدستوائى المتوفى سنة ١٥٤ والأوزاعى المتوفى سنة ١٥٦ هـ . وسفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ .

وابن الماجشون المتوفى سنة ٢١٣ هـ وحماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٧ هـ. والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ .

وبعد هؤلاء طبقة . منهم ابن المبارك المتوفى سنة ١٨١ . وهشيم بن بشير المتوفى سنة ١٨٨ هـ . وأبو اسحاق الفزارى المتوفى سنة ١٨٥ هـ . والمعافى بن عمران الموصلى المتوفى سنة ١٨٥ هـ . وبشر بن المفضل المتوفى سنة ١٨٦ هـ . وابن عيينه المتوفى سنة ١٩٧ هـ . وقد كان فى زمنهم طبقة أخرى منهم ابن علية المتوفى سنة ١٩٣ هـ . وابن وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ . ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

وقد انتدب فى ذلك الزمان لنقد الرجال الحافظان الحجتان يحيى ابن سعيد القطان المتوفى سنة ١٨٩ وعبد الرحمن بن مهدى المتوفى سنة ١٩٨ هـ وكان للناس وثوق بهما فصار من وثقاه مقبولا ومن جرحاه مجروحا . ومن اختلفا فيه وذلك قليل رجع الناس الى ما ترجح عندهم .

ثم ظهرت بعدهم طبقة أخرى يرجع اليهم فى ذلك منهم يزيد بن هارون المتوفى سنة ٢٠٦ هـ وأبو داود الطيالسى المتوفى سنة ٢٠٤ وعبد الرزاق ابن همام المتوفى سنة ٢١١ هـ وأبو عاصم الضحاك النبيل بن مخلد المتوفى (سنة ٢١٢ هـ) اهـ [1] .

المبحث الثالث

النزاع حول حجية السنة فى القرن الثانى

رأيت كيف عمل الوضاعون على افساد الحديث النبوى كما رأيت جهود الأئمة فى مناهضتهم وتزييف ما قذفوا به من أباطيلهم وأكاذيبهم . والآن نحدثك عن خصوم آخرين للسنة ظهروا فى هذا العصر أيضا بمبدأ

(١) توجيه النظر ص ١١٤ .

خبيث وأقاموها حربا شعواء على الحديث وأئمة الحديث . كان هؤلاء القوم طوائف مختلفة فطائفة رفضوا السنة جملة وتفصيلا وأنكروا أن تكون أصلا من أصول التشريع الاسلامى ، زاعمين أن فى القرآن غنية لهم عن كل ما سواه وأنه يتعذر الاطمئنان الى الأحاديث من جهة أنه يجوز على رواتها الخطأ والنسيان والكذب ، وطائفة أخرى قالوا : لا نقبل من الحديث الا ما كان بيانا لما نطق به الكتاب العزيز ، وطائفة ثالثة قالوا : لا نقبل من السنة أخبار الخاصة التى تعرف عند المحدثين « بأخبار الآحاد » مهما كان رواتها من العدالة والضبط ولا نعتمد الا ما تواتر نقله عن النبى صلى الله عليه وسلم . تلك هى الطوائف التى لم تقم للسنة وزنا ولم ترفع لها رأسا فى هذا العصر وهى لا تقل خطرا عن الطوائف الأخرى التى حاولت تزييف السنة عن طريق الكذب عليه صلى الله عليه وسلم .

وقد تصدى للرد على هذه الفرق المبطلة كثير من أئمة المسلمين وفى مقدمتهم الامام الجليل محمد بن أدريس الشافعى الذى وهبه الله تعالى بيانا ناصعا وحجة دامغة ومقدرة علمية فائقة . وقد جاء فى كتابه المعروف « بالأم » رواية الربيع بن سليمان المرادى عنه حوار بينه وبين بعض المنسوبين الى هذه الفرق كما جاء فى رسالته المشهورة دفاع مجيد عن السنة وحجيتها . ونحن نذكر لك طرفا من أقواله لتكون على بينة مما قام به العلماء فى القضاء على هذه الطوائف الزائغة .

مناظرة الامام الشافعى لمن يرد الأحاديث كلها :

قال الشافعى رحمه الله تعالى : قال لى قائل ينسب الى العلم بمذهب أصحابه . أنت عربى والقرآن نزل بلسان من أنت منهم . وأنت أدرى بحفظه . وفيه لله فرائض أنزلها . لو شك شاك قد تلبس عليه القرآن

بحرف منها استتبته فان تاب والا قتلته . وقد قال الله عز وجل فى القرآن « تبيانا لكل شىء » فكيف جاز عند نفسك أو لأحد فى شىء فرضه الله أن يقول مرة الفرض فيه عام . ومرة الفرض فيه خاص ومرة الأمر فيه فرض ومرة الأمر فيه دلالة . وان شاء ذو أباحه . وكثر ما فرقت بينه من هذا . عندك حديث ترويه عن رجل عن آخر عن آخر أو حديثان أو ثلاثة حتى تبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد وجدتك ومن ذهب مذهبك لا تبرئون أحدا لقيتموه وقدمتموه فى الصدق والحفظ . ولا أحدا لقيت ممن لقيتم من أن يغلط وينسى ويخطىء فى حديثه بل وجدتكم تقولون لغير واحد منهم أخطأ فلان فى حديث كذا وفلان فى حديث كذا . ووجدتكم لو قال رجل لحديث أحللتم به وحرمتم من علم الخاصة . « لم يقل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أخطأتم أو من حدثكم وكذبتم أو من حدثكم » لم تستتيبوه ولم تزيدوا على أن تقولوا له بئس ما قلت أفيجوز أن يفرق بين شىء من أحكام القرآن وظاهره واحد عند من سمعه بخبر من هو كما وصفتم وتقيمون أخبارهم مقام كتاب الله وأنتم تعطون بها وتمنعون بها ... قال : واذا أقمتم على أن تقبلوا أخبارهم وفيهم ما ذكرت فما حجتكم فيه على من ردها ، وقال : لا أقبل منها شيئا اذا كان يمكن فيهم الوهم ولا أقبل الا ما أشهد به على الله [1] كما أشهد بكتابه الذى لا يسع أحدا الشك فى حرف منه . أو يجوز أن يقوم شىء مقام الاحاطة [2] وليس بها ؟ فقلت له : من علم اللسان الذى به كتاب الله وأحكام الله دله علمه بهما على قبول أخبار

---

(١) لايقال أن هذا المشتبه يعترف بالسنة المتواترة أخذا من هذه العبارة لايقال هذا لأن بقية الكلام لايدل عليه ولعل سند هذه الطائفة فى رد المتواتر أيضا أنه جاء من طرق آحادها ظنى . (٢) المراد من الاحاطة العلم اليقينى .

الصادقين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..... قال : فاذكر شيئا أن حضرك . قلت : قال الله عز وجل : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » ، قال : فقد علمنا أن الكتاب كتاب الله . فما الحكمة ؟ . قلت : سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أفيحتمل أن يكون يعلمهم الكتاب جملة والحكمة خاصة وهى أحكامه ؟ . قلت : تعنى بأن يبين لهم عن الله عز وجل مثل ما بين لهم فى جملة الفرائض من الصلاة والزكاة والحج وغيرها فيكون الله تعالى قد أحكم فرائض من فرائضه بكتابه وبين كيف هى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أنه ليحتمل ذلك . قلت : فان ذهبت هذا المذهب فهو فى معنى الأول قبله الذى لا تصل اليه الا بخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فان ذهبت مذهب تكرير الكلام ؟ . قلت : وأيهم أولى به اذا ذكر الكتاب والحكمة أن يكونا شيئين أو شيئا واحدا . قال : يحتمل أن يكونا كما وصفت كتابا وسنة فيكونا شيئين ويحتمل أن يكونا شيئا واحدا قلت : فأظهرهما أولاهما وفى القرآن دلالة على ما قلنا وخلاف ما ذهبت اليه قال : وأين؟. قلت : قول الله عز وجل . « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيرا » فأخبر أنه يتلى فى بيوتهن شيئان . قال : فهذا القرآن يتلى فكيف تتلى الحكمة ؟ قلت : انما معنى التلاوة أن ينطق بالسنة كما ينطق بالقرآن . قال : فهذه أبين فى أن الحكمة غير القرآن من الأولى . وقلت : افترض الله علينا اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم قال : وأين ؟ . قلت : قال الله عز وجل : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . وقال الله عز وجل: «من يطع الرسولفقد أطاع الله».

وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . قال : ما من شيء أولى بنا أن نقوله فى الحكمة من أنها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان كما قال بعض أصحابنا . « ان الله أمر بالتسليم لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحكمه انما هو لما أنزله » لكان من لم يسلم له أولى أن ينسب الى عدم التسليم لحكم الله منه الى عدم التسليم لحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : لقد فرض الله عز وجل علينا اتباع أمره . فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » قال : انه لبين فى التنزيل أن علينا فرضا أن نأخذ الذى أمرنا به وننتهى عما نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : والفرض علينا وعلى من هو قبلنا ومن بعدنا واحد . قال نعم . فقلت : فان كان ذلك علينا فرضا فى اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنحيط أنه اذا فرض علينا شيئا فقد دلنا على الأمر الذى يؤخذ به فرضه قال نعم . قلت : فهل تجد السبيل الى تأدية فرض الله عز وجل فى اتباع أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أحد قبلك أو بعدك ممن لم يشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقلت له أيضا . يلزمك هذا فى ناسخ القرآن ومنسوخه . قال : فاذكر منه شيئا قلت . قال الله تعالى : « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين » وقال فى الفرائض : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فان كان له أخوة فلأمه السدس » فزعمنا [1] بالخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آية الفرائض

(١) اى علمنا .

نسخت الوصية للوالدين والأقربين فلو كنا ممن لا يقبل الخبر فقال قائل: الوصية نسخت الفرائض هل نجد الحجة عليه الا الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : هذا شبيه بالكتاب والحكمة والحجة لك ثابتة بأن علينا قبول الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد صرت الى أن قبول الخبر لازم للمسلمين لما ذكرت وما فى مثل معانيه من كتاب الله وليست تدخلنى أنفة من أظهار الانتقال عما كنت أرى الى غيره اذا بانت الحجة فيه بل أتدين بأن على الرجوع عما كنت أرى الى ما رأيته الحق وهنا سأل المناظر عن العام فى القرآن يبقى على عمومه مرة ويخصص مرة فأجابه الامام بأمثلة كثيرة ثم قال للمناظر : « فقد بان لك فى أحكام الله تعالى فى كتابه فرض طاعة رسوله والموضع الذى وضعه الله عز وجل به من الابانة عنه ما أنزل خاصا وعاما وناسخا ومنسوخا . قال : نعم وما زلت أقول بخلاف هذا حتى بان لى خطأ من ذهب هذا المذهب ولقد ذهب فيه أناس مذهبين . أحد الفريقين لا يقبل خبرا وفى كتاب الله البيان . قلت : فما لزمه ؟. قال : أفضى به ذلك الى عظيم من الأمر فقال من جاء بما يقع عليه اسم صلاة وأقل ما يقع عليه اسم زكاة فقد أدى ما عليه لا وقت فى ذلك ولو صلى ركعتين فى كل يوم أو فى كل أيام . وقال ما لم يكن فيه كتاب الله فليس على أحد فيه فرض وقال غيره ما كان فيه قرآن يقبل فيه الخبر فقال بقريب من قوله فيما ليس فيه قرآن فدخل عليه ما دخل على الأول أو قريب منه . ودخل عليه أن صار الى قبول الخبر بعد رده وصار الى ألا يعرف ناسخا ولا منسوخا ولا خاصا ولا عاما وأخطأ . قال : ومذهب الضلال فى هذين المذهبين واضح لست أقول بواحد منهما . ولكن هل من حجة فى أن تبيح المحرم بأحاطة بغير أحاطة ؟ قلت نعم . قال ما هو ؟ قلت : ما تقول فى هذا الرجل

الى جنبى ، أمحرم الدم والمال ؟ قال نعم . قلت : فان شهد عليه شاهدان بأنه قتل رجلا وأخذ ماله وهو هذا الذى فى يديه .قال : أقتله فورا وأدفع ماله الذى فى يديه الى ورثة المشهود له . قلت : أو يمكن فى الشاهدين أن يشهدا بالكذب والغلط ؟ . قال : نعم . قلت : فكيف أبحت الدم والمال المحرمين بإحاطة بشاهدين وليسا بإحاطة قال أمرت بقبول الشهادة . قلت : فان كنت أمرت بذلك على صدق الشاهدين فى الظاهر فقبلتهما على الظاهر ولا يعلم الغيب الا الله فانا لنطلب فى المحدث أكثر مما نطلب فى الشاهد فنجيز شهادة البشر لا نقبل حديث واحد منهم ونجد الدلالة على صدق المحدث وغلطه ممن شركه من الحفاظ وبالكتاب وبالسنة ففى هذه الدلالات ولا يمكن هذا فى الشهادات .. فقال لى قد قبلت منك أن أقبل الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمت أن الدلالة على معنى ما أراد بما وصفت من فرض الله طاعته فأنا اذا قبلت خبره فعن الله قبلت ما أجمع عليه المسلمون فلم يختلفوا فيه وعلمت ما ذكرت من أنهم لا يجتمعون ولا يختلفون الا على حق ان شاء الله تعالى » اهـ بحذف بعض الجمل(١) .

استدلال الأمام الشافعى رضى الله عنه على حجية خبر الواحد .

نتقل لك فقرات مما جاء فى رسالة الامام القرشى رضى الله عنه تحت عنوان « الحجة (٢) فى تثبيت خبر الواحد » قال الشافعى : قال لى قائل. أذكر الحجة فى تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه أو اجماع فقلت له : أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله

---

(١) ثم سأله عن حجية القياس فأجابه وان شئت ان تطلع على هذه المناظرة بتمامها فانظر الجزء السابع من (الأم) ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٢) ص ٤٠١ وما بعدها طبع الحلبى .

ابن مسعود عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم اخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم فان دعوتهم تحيط من ورائهم » فلما ندب رسول الله الى استماع مقالته وحفظها وأدائها أمرأ يؤديها والمرء واحد دل على أنه لايأمر أن يؤدى عنه الا ماتقوم به الحجة على من أدى اليه لأنه انما يؤدى عنه حلال يؤتى وحرام يجتنب وحد يقام ومال يؤخذ ويعطى ونصيحة فى دين ودنيا ودل على أنه قد يحمل الفقه غير فقيه يكون له حافظا ولا يكون فيه فقيها وأمر رسول الله بلزوم جماعة المسلمين مما يحتج به فى أن اجماع المسلمين ان شاء الله لازم .

قال الشافعى : أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينـــار عن ابن عمر قال : — « بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح اذ أتاهم آت فقال : ان رسول الله قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة » وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه وقد كانوا على قبلة فرض الله عليهم استقبالها ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله فى القبلة الا بما تقوم به عليهم الحجة ولم يلقوا رسول الله ولم يســمعوا ما أنزل الله عليه فى تحــويل القبلة فيكونوا مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعا من رسول الله ولا بخبر عامة وانتقلوا بخبر واحد اذ كان عندهم من أهل الصدق عن فرض كان عليهم فتركوه الى ما أخبرهم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة . ولم يكونوا ليفعلوه ان شاء الله بخبر الا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله اذا كان من أهل الصدق ولا ليحدثوا أيضا مثل هذا العظيم فى دينهم الا عن علم بأن لهم أحداثه ولا يدعون أن يخبروا رسول

الله بما صنعوا منه . ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله فى تحويل القبلة — وهو فرض — مما لا يجوز لهم لقال لهم : — ان شاء الله — رسول الله صلى الله عليه وسلم . قد كنتم على قبلة ولم يكن لكم تركها الا بعد علم تقوم به عليكم حجة من سماعكم منى أو خبر عامة أو أكثر من خبر واحد عنى .

قال الشافعى : أخبرنا مالك عن اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ابن مالك قال : « كنت أسقى أبا طلحة وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شرابا من فضيخ [١] وتمر فجاءهم آت . فقال : أن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : قم يا أنس الى هذه الجرار فاكسرها فقمت الى مهراس[٢] لنا فضربتها بأسفله حتى تكسرت » وهؤلاء فى العلم والمكان من النبى صلى الله عليه وسلم وتقدم صحبته بالموضع الذى لا ينكره عالم وقد كان الشراب عندهم حلالا يشربونه فجاءهم آت واحد وأخبرهم بتحريم الخمر . فأمر أبو طلحة — وهو مالك الجرار — بكسر الجرار ولم يقل هو ولا هم ولا واحد منهم : نحن على تحليلها حتى نلقى رسول الله مع قربه منا أو يأتينا خبر عامة . وذلك أنهم لا يهرقون حلالا اهراقه سرف وليسوا من أهله والحال أنهم لا يدعون أخبار رسول الله بما فعلوا ولا يدع — لو كان ماقبلوا من خبر الواحد ليس لهم — أن ينهاهم عن قبول مثله .

قال الشافعى وأمر رسول الله أنيسا أن يغدو على امرأة رجل ذكر أنها زنت . « فان اعترفت فارجمها » فاعترفت فرجمها .

قال الشافعى : وبعث رسول الله أبا بكر واليا على الحج فى سنة

---

(١) قال فى النهاية هو شراب يتخذ من البسر المفضوح أى المشدوخ .
(٢) المهراس حجر مستطيل منقور يتوضأ منه ويدق فيه .

تسع وحضره الحاج من أهل بلدان مختلفة وشعوب متفرقة فأقام لهم مناسكهم وأخبرهم عن رسول الله بما لهم وما عليهم . وبعث على ابن أبى طالب فى تلك السنة فقرأ عليهم فى مجمعهم يوم النحر آيات من سورة براءة ونبذ الى قوم على سواء وجعل لقوم مددا ونهاهم عن أمور فكان أبو بكر وعلى معروفين عند أهل مكة بالفضل والدين والصدق وكان من جهلهما أو أحدهما من الحاج وجد من يخبره عن صدقهما وفضلهما . ولم يكن رسول الله ليبعث واحدا الا والحجة قائمة بخبره على من بعثه اليه ان شاء الله .

قال الشافعى : وقد فرق النبى عمالا على نواحى عرفنا أسماءهم والمواضع التى فرقهم عليها .. وكل من ولى فقد أمره أن يأخذ ما أوجب الله على من ولاه عليه ولم يكن لأحد عندنا فى أحد ممن قدم عليه من أهل الصدق أن يقول أنت واحد وليس لك أن تأخذ منا ما لم نسمع رسول الله يقول أنه علينا . ولا أحسبه بعثهم مشهورين فى النواحى التى بعثهم اليها بالصدق الا لما وصفت من أن تقوم بمثلهم الحجة على من بعثه اليه .

قال الشافعى : ولم تزل كتب رسول الله تنفذ الى ولاته بالأمر والنهى ولم يكن لأحد من ولاته ترك انفاذ أمره ولم يكن ليبعث رسولا الا صادقا عند من بعثه اليه .. وهكذا كانت كتب خلفائه بعده وعمالهم وما أجمع المسلمون عليه من أن يكون الخليفة واحدا والقاضى واحدا والأمير واحدا والامام واحدا ... قال : والولاة من القضاة وغيرهم يقضون وتنفذ أحكامهم ويقيمون الحدود وينفذ من بعدهم أحكامهم وأحكامهم أخبار عنهم .

قال الشافعى : ففيما وصفت من سنة رسول الله ثم ما أجمع المسلمون عليه منه دلالة على فرق بين الشهادة والخبر والحكم .

احتياط علماء هذا العصر فى قبول خبر الواحد :

وقفت على ما كان من أهل الأهواء نحو العمل بالسنة وان منهم من ردها جملة ومنهم من ردها اذا لم تكن بيانا للقرآن الكريم ومنهم من لم يقبل منها الا المتواتر خاصة .

أما علماء الاسلام فكانوا على وفاق فى أن السنة أصل من أصول الدين المتواتر منها وغير المتواتر اذا صحت عن النبى صلى الله عليه وسلم غير أنهم اختلفوا فى بعض الشروط التى تصح بها السنة الآحادية . فاشترط الامام مالك فى قبول خبر الواحد أن لا يعمل على خلافه الجمهور والجم الغفير من أهل المدينة اذ أن عملهم بمنزلة روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواية جماعة عن جماعة أولى بالقبول من رواية فرد عن فرد ، واشترط الامام أبو حنيفة فى قبول خبر الواحد شروطا منها :—

١ — ألا يخالف السنة المشهورة سواء أكانت سنة فعلية أم قولية عملا بأقوى الدليلين .

٢ — ألا يخالف المتوارث بين الصحابة والتابعين فى أى بلد نزلوه بدون اختصاص بمصر دون مصر .

٣ — ألا يخالف عمومات الكتاب أو ظواهره فان الكتاب قطعى الثبوت وظواهره وعموماته قطعية الدلالة والقطعى يقدم على الظنى أما اذا لم يخالف الخبر عاما أو ظاهرا فى الكتاب بل كان بيانا لمجمل فيه فانه يأخذ به حيث لا دلالة فيه بدون بيان .

٤ — أن يكون راوى الخبر فقيها اذا خالف الحديث قياسا جليا لأنه اذا كان غير فقيه يجوز أن يكون قد رواه على المعنى فأخطأ .

٥ — أن لا يكون فيما تعم به البلوى ومنه الحدود والكفارات التى

تدرأ بالشبهات لأن العادة قاضية أن يسمعه الكثير دون الواحد أو الاثنين فلا بد والحالة هذه من أن يشتهر أو تتلقاه الأمة بالقبول .

٦ — ألا يسبق طعن أحد من السلف فيه وألا يترك أحد المختلفين فى الحكم من الصحابة الاحتجاج بالخبر الذى رواه .

٧ — وألا يعمل الراوى بخلاف خبره كحـديث أبى هريرة فى غسل الاناء من ولوغ الكلب سبعا فانه مخالف لفتوى أبى هريرة فترك أبو حنيفة العمل به لتلك العلة .

٨ — أن لا يكون الراوى منفردا بزيادة فى المتن أو السند عن الثقات فان زاد شيئا من ذلك كان العمل على ما رواه الثقات احتياطا فى دين الله ولا تقبل زيادته (١) .

أما جمهور المحدثين والفقهاء وفى مقدمتهم الامام الشافعى رحمه الله فعلى أن صحة الحديث تثبت برواية الثقة عن الثقة حتى يبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان الراوى واحدا فقط ولم يقيموا لغير ذلك من الشروط وزنا فاذا صح الحديث على هذا الوصف كان أصلا من أصول الشريعة لا يقدم عليه عمل ولا غيره وقد أطال الشافعى الحجاج لهذا المذهب فى الأم والرسالة ورد على المخالفين وقد نال بهذا الدفاع وغيره حظا كبيرا عند أهل الحديث الذين كانت لهم الكلمة العليا ولهذا أطلق عليه أهل بغداد (ناصر السنة) .

هذا والشافعى لا يحتج بالأحاديث المرسلة أخذا بالاحتياط وان خالف فى ذلك كثيرا من العلماء قبله كالثورى ومالك وأبى حنيفة واستثنى من

---

(١) تأنيب الخطيب للعلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى ص١٥٣و١٥٤ وشروح التوضيح فى أصول الحنفية . جـ ٢ ص ٢٥٠ .

ذلك مراسيل كبار التابعين ان جاءت من وجه آخر ولو مرسلة أو اعتضدت بقول صحابى أو أكثر العلماء أو كان المرسل لو سمى لا يسمى الا ثقة فحينئذ يكون مرسله حجة عنده ولا ينتهض الى رتبة الحديث المتصل وأما مراسيل غير كبار التابعين فلا يحتج بها بحال [١] .

ومما تقدم يتبين أن الاختلاف كان عظيما فى تقدير قيمة الحديث المروى فقد تجد الحديث يعمل به الحنفى لشهرته ويرفضه الشافعى لضعف فى سنده وتجد المالكى يرفض الحديث لأن عمل أهل المدينة جرى على خلافه ويعمل به الشافعى لقوة فى سنده ولما جاءت طبقة الناصرين للمذاهب والناقدين لها لم يلتفتوا الى هذه الأصول التى أخذ بها أئمتهم وصاروا يأخذون على خصومهم مخالفة أى حديث صح سنده وان لم يستوف تلك الشروط التى اشترطها من ينتقدونه كذلك نجدهم يجتهدون فى اضعاف كل حديث لم يأخذ به أمامهم بالطعن فى سنده أو بأى مأخذ آخر مع أنه كان من السهل أن يقال ان الامام لم يأخذ بهذا الحديث لعدم استيفائه الشرط الذى جعله أصلا للعمل بالحديث [٢] .

أبو حنيفة كان واسع الاطلاع فى الحديث ويعمل به :

ترك أبو حنيفة رحمه الله العمل بكثير من الأحاديث الآحادية بناء على أصوله التى قدمناها لك واحتج بالأحاديث المرسلة المشهورة وأكثر من القياس فيما لم يصح فيه أثر فرماه بعض المتعصبين من أهل الفقه والحديث بأنه : —

---

(١) اختصار علوم الحديث لابن كثير ص ٣٩ .

(٢) تاريخ التشريع الاسلامى للخضرى ص ٢١٠ .

١ – كان قليل البضاعة فى الحديث .

٢ – وأنه كان يقدم الرأى على الحديث .

٣ – وأنه لذلك لم يخرج له البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

ولما كان هذا القول بمعزل عن الحق رأينا أن تتعقب هذه الشبه الثلاث بالرد عليها واحدة واحدة فنقول : –

١ – زعمهم أنه كان قليل البضاعة فى الحديث زعم باطل بعد أن أجمعت الأمة على أنه من أئمة الهدى المجتهدين الذين لهم خبرة واسعة بالكتاب والسنة ومعانيهما ، وقد جمع محمد بن محمود الخوارزمى المتوفى سنة ٦٦٥ مسندا لأبى حنيفة أخذه من خمسة عشر مسندا جمعها لأبى حنيفة علماء الحديث ورتبه على أبواب الفقه مع حذف المعاد وعدم تكرير الاسناد قال فى خطبته : « وقد سمعت فى الشام عن بعض الجاهلين بمقداره ما ينقصه ويستصغره وينسبه الى قلة الحديث ويستدل على ذلك بمسند الشافعى وموطأ مالك . وزعم أنه ليس لأبى حنيفة مسند وكان لا يروى الا عدة أحاديث فلحقتنى حمية دينيـــة فأردت أن أجمع بين خمسة عشر من مسانيده التى جمعها له فحول علماء الحديث – وسرد أسماءهم واحدا واحدا ثم قال : فجمعتها على ترتيب أبواب الفقه بحذف المعاد وترك تكرير الاسناد . اهـ .

وقال الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشافعى محـــدث الديار المصرية فى عقود الجمان : – (كان أبو حنيفة من كبار حفاظ الحديث وأعيانهم ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه . وذكره الذهبى فى – طبقات الحفاظ – ولقد أصاب وأجاد) اهـ . ثم قال فى الباب الثالث والعشرين من عقود الجمان . (انما قلت الرواية

عنه وان كان متسع الحفظ لاشتغاله بالاستنباط وكذلك لم يرو عن مالك والشافعى الا القليل بالنسبة الى ماسمعاه للسبب نفسه كما قلت رواية أمثال أبى بكر وعمر من كبار الصحابة رضى الله عنهم بالنسبة الى كثرة اطلاعهم وقد كثرت رواية من دونهم بالنسبة اليهم) اهـ . ثم ساق أخبارا تدل على كثرة ما عند أبى حنيفة من الحديث ثم سرد أسانيده فى رواية مسانيد أبى حنيفة السبعة عشر لجامعيها تدليلا على كثرة حديثه . هذا ولأبى حنيفة مسانيد أخرى غير السبعة عشر منها مسند أبى حنيفة للدارقطنى ومسنده لابن شاهين ومسنده للخطيب ومسنده لابن عقده . وذكر البدر العينى فى تاريخه الكبير : أن مسند أبى حنيفة لابن عقده يحتوى وحده على ما يزيد على ألف حديث وابن عقدة كما قال السيوطى فى (التعقبات) من كبار الحفاظ وثقة الناس وما ضعفه الا متعصب[1]. اهـ

٢ — زعمهم أنه كان يقدم الرأى على الحديث زعم باطل على اطلاقه . بل كانت طريقته فى الاستنباط ما قاله عن نفسه : (انى آخذ بكتاب الله اذا وجدته فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار الصحاح عنه التى فشت فى أيدى الثقات فاذا لم أجد فى كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت ثم لا أخرج من قولهم الى قول غيرهم فاذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب وعدد رجالا قد اجتهدوا فلى أن أجتهد كما اجتهدوا) [2] اهـ ومن ذلك ترى أنه يأخذ بقول الصحابى اذا أعوزته السنة الصحيحة عنده ويقدمه على اجتهاده فكيف ينسب اليه أنه يقدم الرأى على السنة بل نقول ان الامام كان شديد

(١) تأنيب الخطيب ص ١٥٦ . (٢) تاريخ التشريع للخضرى ص ٢٤٤ .

التمسك بالسنة بدليل أنه كان يحتج بمراسيل الثقات التى اشتهرت بين العلماء .

أما تشدده رحمه الله فى شروط قبول الأحاديث التى تروى آحادا فكان مبعثه الاحتياط البالغ لدين الله وذلك أن الوضع فى عصره قد كثر كثرة مزعجة من الزنادقة والمبتدعة فاضطره ذلك الى تشدده فى شرط الصحيح ولهذا قال العلماء « أن أبا حنيفة لم يخالف الأحاديث عنادا بل خالفها اجتهادا لحجج واضحة ودلائل صالحة وله بتقدير الخطأ أجر وبتقدير الاصابة أجران والطاعنون عليه أما حساد أو جهال بمواقع الاجتهاد » .

وما من امام من الأئمة الا رد كثيرا من الأحاديث لعدم استيفائها شروط الصحة عنده أو لظهور نسخها أو لقيام معارض لها أو لغير ذلك من الأعذار المقبولة . وهذا مالك أمام دار الهجرة وأمير المؤمنين فى الحديث يخالف السنة فى سبعين مسألة الى رأيه لعدم استيفائها شروط العمل عنده (١) .

٣ — وأما عدم تخريج الشيخين له فى صحيحيهما فلا يدل على ضعفه فى الحديث فانهما لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة ولا الأئمة الموثوق بهم والا لزم تجريح كثير من الصحابة وكثير من أئمة الهدى كالشافعى ولا يقول بذلك أحد من المسلمين. ولعل السر فى عدم تخريجهما لأمثال أبى حنيفة والشافعى رضى الله عنهما أنهما عنيا بجمع الحديث الصحيح عمن لو ترك عندهم لمات بموته لعدم وجود أتباع لهم أو لقلتهم أما أمثال

---

(١) انظر جامع بيان العلم لابن عبد البر جـ ٢ ص ١٤٨ — شروط الأئمة الخمسة ص ٤٩ — ٥٠ — مقدمه ابن خلدون عند الكلام على علوم الحديث ومقدمة القسطلانى على البخارى ص ٣٣ .

أبى حنيفة والشافعى فان لهم أصحابا يحملون عنهم أحاديثهم فيؤمن عليها من الضياع . هذا وربما كان عزوف الشيخين عن التخريج لأمثالهما هو اشتغالهم بفقه الأحاديث واستنباط الأحكام منها لا بجمع طرقها والانقطاع لحفظها وأدائها انما كانوا يروون تلك الأحاديث على تلاميذهم خاصة فى أثناء مجالسهم الفقهية وأيضا قد يكون عدم تخريجهما لأمام من الأئمة لأنه يقع الحديث بروايته نازلا وبرواية غيره عاليا فيقدمان العالى على النازل لما فيه من القرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كله يتبين أن أبا حنيفة رحمه الله لم يكن قليل البضاعة فى الحديث ولم يكن يقدم رأيه عليه وأنه من كبار الحفاظ الذين لهم خبرة واسعة بالحديث رواية ودراية وأن الطعن عليه بمثل ما تقدم لا يصدر الا عن حاسد أو جاهل فلا ينبغى أن يغتر بما ذكره ابن خلدون فى مقدمته من أن أبا حنيفة لتشدده فى شروط الصحة لم يصح عنده سوى سبعة عشر حديثا ولا بالروايات الزائفة التى ذكرها الخطيب البغدادى فى كتابه — تاريخ بغداد — وفيها نسبة أبى حنيفة الى ما هو برىء منه وقد تصدى لتفنيد هذه الروايات الامام الفقيه المحدث الشيخ محمد زاهد ابن الحسن الكوثرى فى كتاب خاص أسماه « تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب » أجاد فيه وأفاد فجزاه الله عن أئمة الاسلام خيرا .

المبحث الرابع

تراجم لبعض مشاهير المحدثين فى القرن الثانى

مالك بن أنس

هو الامام الجليل مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر . ينتهى نسبه الى ذى أصبح — قبيلة باليمن — قدم أحد أجداده الى المدينة وسكنها

وجده أبو عامر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد معه المغازى كلها ما خلا بدرا . ولد مالك بالمدينة سنة ثلاث وتسعين وأخذ العلم عن علماء المدينة وأول من لازمه منهم عبد الرحمن بن هرمز الذى أقام معه مدة طويلة من الزمان لم يشركه بغيره وسمع نافعا مولى ابن‌عمر، ومحمد بن المنكدر ، وأبا الزبير والزهرى وكثيرا من التابعين وتابعيهم بلغ عددهم على ما يقال تسعمائة شيخ . من التابعين ثلثمائة ومن تابعيهم ستمائة وكلهم ممن اختاره مالك وارتضى دينه وفقهه وقيامه بحق الرواية وشروطها وخلصت الثقة به . كما ترك الرواية عن أهل دين وصـــلاح لا يعرفون الرواية ، وأخذ عنه الحديث يحيى الأنصارى والزهرى وهما من شيوخه ، وينازع ابن عبد البر فى رواية الزهرى عن مالك . كذلك أخذ عنه ابن جريج ويزيد بن عبد الله بن الهادى ، والأوزاعى والثورى وابن عيينه وشعبة والليث وابن المبارك والشافعى وابن علية وابن وهب وأبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة وابن مهدى ومعن بن عيسى وخلائق لا يحصون غيرهم . أجمع العلماء على أمامته وجـــلالته فى الحديث ونقد الرواة واستخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، وشهد له بذلك أقرانه وعلماء عصره . فهذا حبيب الوراق يقول : دخلت على مالك فسألته عن ثلاثة رجال لم لم يرو عنهم قال فأطرق ثم رفع رأسه وقال ما شاء الله لا قوة الا بالله — وكان كثيرا ما يقولها — فقال ياحبيب أدركت هذا المسجد وفيه سبعون شيخا ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عن التابعين ولم نحمل الحديث الا عن أهله . وكان مالك يقول : ربما جلس الينا الشيخ فيحدث نهاره ما نأخذ عنه حديثا واحدا ما بنا أن نتهمه ولكن لم يكن من أهل الحديث .

كان مالك ثبتا فى الحديث عالما بالرجال موثوقا به فى كل ذلك حتى

أخذ الحديث عنه شيوخه وأقرانه ، ولما كانت المدينة هى منبع الحديث ومهبط الوحى لم يرحل مالك عنها لذا تجد معظم روايته عن أهل الحجاز وقلما تجد فى موطئه ذكرا لغيرهم ، ورحل اليه الناس من الأقطار البعيدة يتلقون عنه الحديث والمسائل لما سمعوا عن علمه ونباهة شأنه فى علوم الحديث والفقه وكانوا يزدحمون على بابه ويقتتلون عليه من الزحام لطلب العلم .

امتحن مالك سنة ١٤٧ وضرب بالسياط ، واختلف الناس فى سبب ذلك فقيل انه أفتى بعدم وقوع طلاق المكره وقد كانوا يكرهون الناس على الحلف بالطلاق عند البيعة فرأوا أن فتوى مالك تجعل الناس فى حل من نقض البيعة ، وقيل ان ابن القاسم سأل مالكا عن البغاة يجوز قتالهم . فقال : ان خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز . قال فأن لم يكن مثله . فقال دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما . فكانت هذه الفتوى سبب محنته فضربه عامل المنصور بالمدينة سبعين سوطا ، ولما بلغ ذلك المنصور غضب على عامله وعزله ، ثم لقى المنصور مالكا من قابل فى موسم الحج فاعتذر اليه وفاتحه فى كثير من مسائل الدين وطلب اليه أن يجمع ما ثبت لديه من الأحاديث والآثار ويدونها فى كتاب يوطئه للناس فاعتذر الامام عن ذلك فلم يقبل المنصور عذره ، فألف كتاب الموطأ ، ولما جاء المهدى حاجا بعد ذلك سمعه منه ، ولم يزل مالك رحمه الله محل احترام الخلفاء واجلالهم وتقدير العلماء وتعظيمهم ، وقد سمع منه الرشيد وأولاده الموطأ فى موسم الحج . وقال له الرشيد : أردت أن أعلق كتابك هذا فى الكعبة وأفرقه فى الأمصار وأحمل الناس عليه . فقال له مالك : لا تفعل ، فان الصحابة تفرقوا فى الآفاق ورووا أحاديث غير أحاديث أهل الحجاز وأخذ الناس بها فاتركهم وما هم عليه .

فقال له الرشيد : جزاك الله خيرا يا أبا عبد الله . وكان مالك رحمه الله كثير التواضع جم الحياء عظيم الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انه كان لا يركب دابة فى المدينة اجلالا لأرض ضمت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفى رحمه الله سنة مائة وتسعة وسبعين بالمدينة ودفن بالبقيع (١) .

يحيى بن سعيد القطان

هو أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ التميمى ولاء البصرى القطان امام جليل ومحدث كبير من أتباع التابعين . أخذ الحديث عن يحيى بن سعيد الأنصارى وابن جريج وسعيد بن أبى عروبة والثورى وابن عيينة ومالك وشعبة وكثير غيرهم ، وأخذ عنه الحديث السفيانان وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى واسحاق بن راهويه وابن مهدى وأبو عبيد القاسم بن سلام وخلائق غيرهم . اتفق العلماء على أمانته وكثرة حفظه وعلمه وصلاحه وشهد له بذلك كثير من المحدثين . قال ابن حنبل : ما رأيت مثل يحيى القطان فى كل أحواله ، وقال فيه أيضا : اليه المنتهى فى التثبت بالبصرة وهو أثبت من وكيع وابن مهدى وأبى نعيم ويزيد بن هارون ، وقد روى عن خمسين شيخا ممن روى عنهم سفيان . قال : ولم يكن فى زمان يحيى مثله . وقال أبو زرعة : هو من الثقات الحفاظ . وقال ابن منجويه : كان يحيى القطان من سادات أهل زمانه حفظا وورعا وفقها وفضلا ودينا وعلما وهو الذى مهد لأهل العراق رسم الحديث وأمعن فى البحث عن الثقات وترك

---

(١) تهذيب الأسماء ج ٢ ص٧٥ ـ الانتقاء لابن عبد البر ـ مفتاح السنة ص ٢٣ .

الضعفاء . قال ابن سعد : توفى يحيى القطان فى صفر سنة ثمان وتسعين ومائة وكان مولده سنة ١٢٠ هـ مائة وعشرين رحمه الله [١] .

وكيع بن الجراح

هو الحافظ الجليل والمحدث الكبير أمام أهل الكوفة فى الحديث وغيره ، أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدى من أتباع التابعين. أخذ الحديث عن الأعمش وهشام بن عروة وعبد الله بن عون وحنظلة ابن أبى سفيان وابن جريج وشريك بن عبد الله والأوزاعى والسفيانين وغيرهم . اتفق العلماء على جلالته وكثرة علمه وحفظه للحديث واتقانه له وصلاحه وفضله . كان أحمد بن حنبل اذا حدث عنه قال : حدثنى من لم تر عيناك مثله وكيع بن الجراح . وقال فيه : ما رأيت رجلا قط مثل وكيع فى العلم والحفظ والأسناد والأبواب ويحفظ الحديث جيدا ويذاكر بالفقه مع ورع واجتهاد ولا يتكلم فى أحد ، وقال ابن معين : ما رأيت أحدا يحدث لله غير وكيع بن الجراح . وهو أحب الى من سفيان وابن مهدى وأبى نعيم ، وما رأيت رجلا قط أحفظ من وكيع ووكيع فى زمانه كالأوزاعى فى زمانه ، وقال ابن عمار : ما كان بالكوفة فى زمن وكيع أفقه ولا أعلم بالحديث من وكيع . توفى وكيع سنة ١٩٧ هـ سبع وتسعين ومائة . وكان مولده سنة ١٢٧ هـ [٢] .

سفيان الثورى

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى الأمام الفذ . كان من تابعى التابعين . تلقى الحديث عن أبى اسحاق السبيعى

---

(١) تهذيب الأسماء ج ٢ ص ١٥٤ . تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٢١٦

(٢) تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٢٣ ـ تهذيب الأسماء ج ٢ ص ١٤٤

وعبد الملك بن عمير ، وعمرو بن مرة وخلائق من كبار التابعين وغيرهم ، وأخذ الحديث عنه محمد بن عجلان والأعمش وهمـا تابعيان ومعمر والأوزاعي ومالك وابن عيينة وشعبة والفضيل بن عياض وابن المبارك ووكيع وأبو نعيم ويحيى بن القطان وكثير من الأئمة الأعـلام . اتفق العلماء على أمامته وتقدمه فى الحديث والفقه والورع والزهد وخشونة العيش والقول بالحق وغير ذلك من المحاسن . قال أبو عاصم : الثورى أمير المؤمنين فى الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من الثورى . وقال يحيى بن معين : كل من خالف الثورى فالقول قول الثورى .وقال ابن مهدى : ما رأيت أحفظ للحديث من الثورى . وقال ابن عيينه : كان ابن عباس فى زمانه والشعبى فى زمانه والثورى فى زمانه . وقال أيضا : أنا من غلمان الثورى ، وما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه ، وقال الأوزاعى —وقد ذكر ذهاب العلماء— : لم يبق منهم من يستمع عليه العامة بالرضى والصحة الا الثورى ، وقال عباس الدورى : رأيت ابن معين لا يقدم على الثورى فى زمانه أحدا فى كل شىء ، وبالجملة فالثناء عليه مشهور وهو أحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة — مالك ، وأبى حنيفة ، والشافعى ، وأحمد ، والأوزاعى ، والثورى — ولد الثورى سنة ٩٧ هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١ هـ أحدى وستين ومائة رضي الله عنه[١] .

سفيان بن عيينة

هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن عمران الكوفى ثم المكى الهلالى ولاء . كان من أتباع التابعين . أخذ الحديث عن الزهرى ، وعمرو بن

(١) أنظر تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ١١١ . تهذيب الأسماء جـ ١ ص ٢٢٢ .

دينار ، والشعبى . وعبد الله بن دينار ، ومحمد بن المنكدر ، وخلائق من التابعين وغيرهم . وتلقى الحديث عنه الأعمش والثورى وابن جريج وشعبة وهمام ووكيع وابن المبارك وابَن مهدى والقطـان والشافعى وأحمد بن حنبل وابن المدينى وابن معين وابن راهويه والحميـدى وخلائق كثيرة لا يحصون من علماء الحديث والفقه . اتفق المحدثون على أمامته وفضله وبعد شأوه فى الحديث وحفظه . قال أبو حاتم وغيره : أثبت الناس فى حديث عمرو بن دينار ابن عيينة وكان أعلم بحديث عمرو ابن دينار من شعبة ، وقال يحيى القطان فى حياة سفيان : سفيان امام من أربعين سنة وقال أيضا : ما رأيت أحسن حديثا من ابن عيينة ، وقال الشافعى : ما رأيت أحدا أكف عن الفتيا من سفيان وما رأيت أحدا احسن لتفسير الحديث منه ، وقال أحمد بن عبد الله : كان ابن عيينة حسن الحديث وكان يعد من حكماء أصحاب الحديث وقال ابن وهب : ما رأيت أعلم بكتاب الله من ابن عيينة . ومناقبه كثيرة مشهورة . ولد سفيان سنة ١٠٧هـ وتوفى سنة ١٩٨ هـ رضى الله عنه (١) .

شعبة بن الحجاج

هو أبو بسطام شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى الأزدى ولاء الواسطى ثم البصرى أصله من واسط ثم انتقل الى البصرة فاستوطنها . وهو من تابعى التابعين . أمام جليل . وحافظ كبير من أعلام المحدثين وكبار المحققين . تلقى الحديث عن أنس بن سيرين وعمرو بن دينـار والشعبى وكثير من التابعين وغيرهم ، وأخذ عنه الحديث الأعمش وأيوب السختيانى ومحمد بن اسحاق وهم من التابعين والثورى وابن مهدى

(١) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ١١٧ . تهذيب الأسماء جـ ١ ص ٢٢٤

ووكيع وابن المبارك ويحيى القطان وكثير لا يحصون من كبار الأئمة . أجمعوا على أمانته فى الحديث وجلالته وتحريه واحتياطه واتقانه . قال الامام أحمد : لم يكن فى زمن شعبة مثله فى الحديث ولا أحسن حديثا منه قسم له منه حظ ، وروى عن ثلاثين رجلا من الكوفة لم يرو عنهم سفيان الثورى ، وقال الشافعى : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق ، وقال حماد بن زيد : لا أبالى من يخالفنى اذا وافقنى شعبة لأن شعبة كان لا يرضى أن يسمع الحديث مرة ، واذا خالفنى شعبة فى شىء تركته وقال سفيان الثورى : شعبة أمير المؤمنين فى الحديث ، وقال لمسلم بن قتيبة حين قدم من البصرة : ما فعل أستاذنا شعبة ؟ وقال صالح بن محمد : أول من تكلم فى الرجال شعبة ثم تبعه يحيى القطان ثم أحمد بن حنبل وابن معين ، وقال أحمد بن حنبل : كان شعبة أمة وحده فى هذا الشأن يعنى علم الحديث وأحوال الرواة ، وقال عبد الصمد : أدرك شعبة من أصحاب ابن عمر نيفا وخمسين رجلا . توفى شعبة بالبصرة فى أول سنة ١٦٠ ستين ومائة وهو ابن سبع وسبعين سنة رحمه الله (١) .

عبد الرحمن بن مهدى

هو الامام أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدى بن حسان بن عبد الرحمن العنبرى البصرى اللؤلئى امام أهل الحديث فى عصره والمعول عليه فيه . أخذ الحديث عن خالد بن دينـار ومالك بن مغول ومالك بن أنس والسفيانين والحمادين وشعبة وخلائق من أعلام المحدثين ، وروى عنه ابن وهب وأحمد بن حنبل وابن معين وابن المدينى واسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهم . اتفق الأئمة على جلالته ورسوخه

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٣٣٨ . تهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٤٤

فى نقد الرجال وفحص الأحاديث مع الورع والزهد والأمانة . قال أحمد ابن حنبل : كأن ابن مهدى خلق للحديث ، وقال ابن معين ما رأيت رجلا أثبت فى الحديث من ابن مهدى ، وعن على بن المدينى أنه قال غير مرة :— والله لو أخذت وحلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله أنى لم أر قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدى ، وكان عبد الرحمن بن مهدى يقول: لا يجوز أن يكون الرجل اماما حتى يعلم ما يصح وما لا يصح وحتى لا يحتج بكل شىء وحتى يعلم مخارج العلم ، وجاءه رجل فقال : يا أبا سعيد انك تقول هذا ضعيف وهذا قوى وهذا لا يصح . فعم تقول ذاك ؟ فقال ابن مهدى : لو أتيت الناقد فأريته دراهم فقال هذا جيد وهذا ستوق وهذا بهرج . أكنت تسأله عم ذاك أم تسلم الأمر اليه ؟ فقال بل كنت أسلم الأمر اليه . فقال ابن مهدى هذا كذلك . هذا بطول المجالسة والمناظرة والمذاكرة والعلم به ، ولد سنة ١٣٥ هـ وتوفى سنة ١٩٨ هـ رحمه الله [١] .

الأوزاعى

هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الشامى الدمشقى . كان امام أهل الشام فى عصره بلا نزاع . وكان أهل الشام والمغرب على مذهبه قبل انتقالهم الى مذهب مالك رحمه الله ، وهو من أتباع التابعين . سمع الحديث عن جماعات من التابعين كعطاء بن أبى رباح وقتادة ونافع مولى ابن عمر والزهرى ومحمد بن المنكدر وغيرهم ، وروى عنه جماعة من التابعين من شيوخه كقتادة والزهرى ويحيى بن أبى كثير وجماعات من أقرانهم ، وروى عنه أيضا من الأئمة الكبار سفيان ومالك

(١) تهذيب الأسماء ج ١ ص ٣٠٤ . تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٢٧٩

وشعبة وابن المبارك وكثير غيرهم . أجمع العلماء على أمامة الأوزاعى وجلالته وعلو مرتبته وكمال فضله كما اتفقوا على كثرة حديثه ، وغزارة فقهه ، وشدة تمسكه بالسنة وبراعته فى الفصاحة . عن عبد الرحمن بن مهدى قال : ما كان بالشام أحد أعلم بالسنة من الأوزاعى ، وقال أيضا : الأئمة فى الحديث أربعة . الأوزاعى ومالك وسفيان الثورى وحماد بن زيد ، وقال أبو حاتم : الأوزاعى امام متبع لما سمع [1] ، وعن هقل (وهو أثبت الناس فى الرواية عن الأوزاعى) قال : « أجاب الأوزاعى فى سبعين ألف مسألة أو نحوها » وكان علماء عصره يجلونه غاية الاجلال ويكبرونه فى أنفسهم ويعترفون له بالامامة والسبق والزهد والورع والجهر بالحق . قيل لأمية بن يزيد : أين الأوزاعى من مكحول . قال هو عندنا أرفع من مكحول . فقيل له أن مكحولا قد رأى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وأن كان قد رآهم فان فضل الأوزاعى فى نفسه . فقد جمع العبادة والورع والقول بالحق . وعن سفيان الثورى أنه لما بلغه مقدم الأوزاعى خرج حتى لقيه بذى طوى فحل سفيان رأس البعير عن القطار ووضعه على رقبته وكان اذا مر بجماعة قال : الطريق للشيخ .

---

(١) وأما قول الامام أحمد فى الاوزاعى . حديثه ضعيف فهو محمول عند المحققين كالبيهقى على أنه كان يحتج فى بعض مسائل الفقه بالروايات الضعيفة وهذا لا يضيره فى الفقه ولا فى الحديث أما الأول فلأن للعلماء فى طرق الاستدلال على الأحكام مسالك مختلفة وكثيرا ما يستدلون بالاحاديث المرسلة والمنقطعة والموقوفة لا سيما اذا تعددت طرقها أو كان لها شواهد تؤيدها . وأما الثانى فقد كان من عادة المحدثين ألا يقصروا أنفسهم على رواية الصحيح من الأحاديث بل يذكرون الموضوع لبيان حاله والضعيف لجواز الاعتبار به أو الاحتجاج اذا تعددت طرقه أو أيدته الشواهد أو لغير ذلك من المقاصد .

ولد الأوزاعى رحمه الله سنة ٨٨ من الهجرة . ومات سنة ١٥٧ هـ فى بيروت وكان قد نزل بها مرابطا فى أواخر عمره (تهذيب الأسماء ١ — ٢٩٨)

الليث بن سعد

هو الامام الكبير والفقيه البارع والمحدث الحافظ أبو الحارث الليث ابن سعد بن عبد الرحمن الفهمى مولاهم المصرى . كان من أتباع التابعين. أخذ الحديث عن عطاء بن أبى رباح ، وعبد الله بن أبى مليكة ، ونافع مولى ابن عمر ، وسعيد المقبرى ، والزهرى ، ويحيى الأنصارى ، وأبى الزبير وكثير من التابعين وتابعيهم ، وتلقى عنه الحديث محمد بن عجلان وهشام بن سعد وهما من شيوخه وقيس بن الربيع وابن المبارك وابن وهب وابن لهيعة وعبد الله بن صالح كاتبه وكثير من الأئمة . أجمع العلماء على جلالته وأمامته وعلو مرتبته فى الفقه والحديث وهو امام أهل مصر فى زمانه . قال الشافعى رحمه الله : كان الليث بن سعد أفقه من مالك الا أنه ضيعه أصحابه ، وقال محمد بن سعد : كان الليث مولى لقريش وكان ثقة كثير الحديث وصحيحه وكان استقل بالفتوى فى زمانه بمصر وكان سريا نبيلا سخيا ، وقال أحمد ابن حنبل: الليث كثير العلم صحيح الحديث ليس فى هؤلاء المصريين أثبت منه ما أصح حديثه . وقال أيضا : رأيت من رأيت فلم أر مثل الليث كان فقيه البدن عربى اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر وحسن الذاكرة وعد خصالا جميلة عنه حتى بلغ عشرا .

ولد الليث سنة ثلاث أو أربع وتسعين وتوفى سنة ١٦٥ خمس وستين ومائة فى قول ابن سعد [1] .

---

(١) أنظر تهذيب الأسماء جـ ٢ ص ٧٣ — تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٤٥٩ .

الامام الشافعي رضى الله عنه

هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصى يلتقى نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، والسائب ابن عبيد اسلم يوم بدر وابنه شافع بن السائب من صغار الصحابة ، وأم الشافعي من الأزد .ولد الشافعي رحمه الله بغزة سنة ١٥٠ هـ ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه الى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه فنشأ بها وقرأ القرآن وأقام فى هذيل نحوا من عشر سنين فتعلم منهم اللغة والشعر وأخذ الفقه والحديث عن مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة وغيره من الأئمة ، ثم قدم المدينة فلزم مالكا رحمه الله وأكرمه مالك لعلمه وفهمه وعقله وأدبه ، وقرأ الموطأ عليه حفظا فأعجبته قراءته فكان مالك يستزيده من القراءة لذلك وكان للشافعي حين قدومه المدينة ثلاث عشرة سنة ولفقره ساعده مصعب بن عبد الله القرشي قاضى اليمن عند هارون الرشيد فولاه الحكم بنجران من أرض اليمن ثم وشى به الى الرشيد أنه يروم الخلافة فاستقدمه الخليفة الى بغداد سنة ١٨٤ هـ وعمره ثلاثون سنة فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدى الرشيد وأحسن محمد القول فيه وتبين للرشيد براءته مما نسب اليه ، وأنزله محمد بن الحسن عنده وأكرمه وكتب عنه الشافعي وقر بعير ، وعاد الشافعي الى مكة ، ثم قدم العراق للمرة الثانية سنة ١٩٥ هـ فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن على الكرابيسي والزعفرانى وغيرهم ، وصاروا يأخذون عنه وأملى عليهم مذهبه القديم ثم رجع الى مكة وفى سنة ١٩٨ هـ رحل الى العراق للمرة الثالثة فأقام بها مدة يسيرة

وفى أواخر سنة ١٩٩ هـ انتقل الى مصر فأقام بها الى أن مات سنة ٢٠٤هـ، وفى مصر ظهرت مواهبه ومقدرته العلمية وقصده الناس من سائر الأقطار للتفقه عليه والرواية عنه وأملى على تلاميذه كتبه الجديدة وفيها مذهبه المصرى أو الجديد . وقد أجله المصريون حيا وميتا .

والشافعى هو الامام الذى نشر مذهبه بنفسه بما قام به من الرحلات التى اكتسب فيها علوم الحجازيين والعراقيين وهو الذى كتب كتبه بنفسه وأملاها على تلاميذه ، ولم يعرف هذا لغيره من كبار الأئمة ...

عناية الشافعى رضى الله عنه بالسنة :

كان الشافعى رضى الله عنه أعلم أهل عصره بمعانى القرآن والسنة وقد جمع فى مذهبه بين أطراف الأدلة مع الاتقان والتحقيق والغوص على المعانى ، وهو صاحب الفضل على أهل الآثار وحملة الحديث بتوقيفه أياهم على معانى السنة ونصرهم على مخالفيهم بواضح البراهين . فأيقظهم بعد أن كانوا غافلين وأصبحت لهم الكلمة العليا بعد أن كانوا خاملين وغلب فى عرف العلماء على متبعى مذهبه لقب «أصحاب الحديث» وكثيرا ما كان ينهى رضى الله عنه عن ترك الكتاب والسنة الى غيرهما من آراء الناس وأهوائهم . قال : لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد . وقال : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل وينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام » وقال البويطى : سمعت الشافعى يقول : عليكم بأصحاب الحديث فأنهم أكثر الناس صوابا . وقال : اذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . جزاهم الله خيرا حفظوا لنا الأصل فلهم علينا الفضل . ومن شعره فى هذا المعنى .

كل العـلوم سوى القـرآن مشغلة
الا الحـديث والا الفقـه فى الدين
العـلم ما كان فيه « قال حـدثنا »
وما سوى ذاك وسـواس الشياطين

وقد قدمنا لك أنه دافع دفاعا عظيما عن خبر الواحد اذا اتصل الى النبى صلى الله عليه وسلم بنقل الثقة عن الثقة وقد نال بذلك الدفاع عن الحديث وأهله حظا كبيرا عند حملة الآثار حتى كان أهل بغداد يطلقون عليه « ناصر السنة »

قال محمد بن الحسن : ان تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسـان الشافعى . وقال الزعفرانى : كان أصحاب الحديث رقودا فأيقظهـم الشافعى . وقال أحمد بن حنبل : « ما أحد مس بيده محبرة ولا قلما الا وللشافعى فى رقبته منة » وقال أحمد أيضا لمحمد بن مسلم بن وارة أحد أئمة الحديث — وقد قدم من مصر — : « كتبت كتب الشافعى فقال لا . قال : فرطت . ما علمنا المجمل من المفسر ولا ناسخ حـديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه حتى جالسنا الشافعى » وقال ابن خزيمة : وقد سئل هل سنة لم تبلغ الشافعى — فقال : لا ، وقال داود بن على الظاهرى : « للشافعى من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه وصحة دينه ومعتقده وسخاوة نفسه ومعرفته بصـحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه وحفظ الكتاب والسنة وسـيرة الخلفاء وحسن التصنيف وجودة الأصحاب والتلامذة » .

وقال الكرابيسى : (ما كنا ندرى ما الكتاب والسنة والاجماع حتى سمعناه من الشافعى وما رأيت مثل الشافعى ولا رأى الشافعى مثل نفسه وما رأيت أفصح منه وأعرف) .

ومع ثناء هؤلاء الأئمة وغيرهم عليه بالفهم الثاقب والاحاطة الواسعة بالحديث كان يقول : « اذا صح عندكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا به ودعوا قولى فانى أقول به وان لم تسمعوا منى».

هذا واذا كان العلماء يعتبرون الامام الشافعى أول من ألف فى أصول الفقه فلا يفوتنا أن نقول أنه أيضا أول من ألف فى اصول السنة وقوانين الرواية ورسم لعلماء الحديث طريقة التدوين فى علوم السنة . وأن كل من ألف بعد الشافعى فى قواعد الحديث وعلومه انما هم عيال عليه وغارفون من بحاره وكلامهم فى ذلك لا يعدو فروعا فرعوها على أصول أصلها وقواعد وضعها وأوضحها . وأن من يقرأ كلامه عن الحديث والمحدثين فى رسالته ثم يقرأ ما دونه علماء الحديث كابن الصلاح وغيره يرى أن الشافعى هو أستاذ الجميع فى هذه الفنون . فجزاه الله عن الحديث وأهله خير الجزاء [1] .

المبحث الخامس

الرد على تمويهات لبعض المستشرقين لها صلة بهذا العصر وما قبله

اطلعت أيها القارىء على تاريخ السنة فى القرن الأول والثانى للهجرة المباركة ورأيت أن علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم كان يتلقاها بعضهم عن بعض فى أمانة وضبط وأنهم كانوا يذبون عنها أكاذيب الشيعة والخوارج والزنادقة ومن كان على شاكلتهم فى الكيد للاسلام عن طريق الحديث ، وما زالوا يجاهدون صادقين فى سبيل السنة حتى أسلموها الى علماء القرن الثالث كاملة غير منقوصة وصحيحة غير مكذوبة عن

(١) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥١ — تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٤٤ — تاريخ التشريع الاسلامى للخضرى ص ٢٦٤ .

طريق الأسانيد التى تطمئن لها القلوب ، ثم قام علماء القـرن الثالث بدورهم فى رواية السنة وحفظها وكتابتها وتدوينها حتى وصلت الينـا طاهرة نقية .

ولكن شرذمة من أهل الكفر والضلال يدعون بالمستشرقين كبر عليهم أن تبقى هذه الثروة الاسلامية المباركة محفوظة من التبديل والتحريف فى وقت ضعف فيه المسلمون واستولت عليهم الأمم الكافرة فعمل هؤلاء المستشرقون جاهدين على تشكيك المسلمين فى دينهم عن طريق الطعن فى الحديث ورواته باسم البحث الحر ، وطريقة هؤلاء القوم التى اختاروها لأنفسهم وأملتها عليهم أغراضهم السياسية هى توهين القوى من الحديث وتقوية الضعيف أو الموضوع وتضخيم الصغير وتحقير العظيم وتشويه الحقائق والتعامى عما تقضى به الأدلة والبراهين . كل هذا ليشوهوا محاسن الاسلام وعلمائه فى أنظار من افتتن بمد نيتهم المادية الزائفة من صغار الأحلام وضعفاء الايمان . وما موقفهم هذا من الاسلام الا كما يقول القائل .

اذا رأوا هفوة طاروا بها فرحا منى وما علموا من صالح دفنوا

ونحن[1] نذكر مثلا من تمويهات هؤلاء المبطلين تكشف لك عن نواياهم الخبيئة ونعقب عليها بما يدحضها وأن كانت عند التأمل كهشيم تذروه الرياح لا تقوم الا على مجرد الدعوى والتغافل عن الحقـائق الثابتة فنقول : —

أولا — زعموا « أن القسم الأكبر من الحديث ليس الا نتيجـة

---

(١) نقلنا هذه الشبه من كتاب تاريخ الفقه الاسلامى للأستاذ على حسن عبد القادر ص ١٢١ وما بعدها .

للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للاسلام في القرنين الأول والثاني وأنه ليس صحيحا ما يقال : من أنه وثيقة للاسلام في عهده الأول عهد الطفولة ولكنه أثر من آثار جهود الاسلام في عصر النضوج » . ونحن نقول : هذا قول من يتجاهل الحقائق الثابتة ويخلط الحق بالباطل ثم يقول ان الجميع باطل وانهم بما يقولون يطعنون في الأحاديث النبوية بأمرين .

أولهما : — ان الأغلبية العظمى منها من وضع المسلمين لا من قول نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما : — أن الأحاديث الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم قليلة ومع قلتها لم تكن حجة يعتمد عليها في العهد الذهبي للاسلام عصر النبوة وما بعده الذي أطلقوا عليه عصر الطفولة .

والنتيجة التي يريدونها من ذلك أن السنة قامت على غير أساس ولا فائدة منها للمسلمين في قليل ولا كثير سواء الصحيح منها وهو قليل وغير الصحيح منها وهو الغالب الكثير .

أما زعمهم أن أغلب الأحاديث من وضع المسلمين نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للاسلام فهذا منهم كذب على الواقع والتاريخ فقد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم مقدار وفير جدا من الأحاديث في الأحكام وغيرها حفظها عنه أصحابه ثم تلقاها عنهم الثقات من الرواة طبقة بعد طبقة وعصرا بعد عصر حتى وصلت الينا صحيحة الأسانيد نقية المتون ، والأئمة في جميع العصور كانوا ينفون عنها الكذب والدخيل ويبالغون في التثبت والحفظ ويشددون في نقد المتون والأسانيد امتثالا لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتواتر « من كذب على

متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » وبعملهم هذا سلمت الأحاديث من وضع الزنادقة والخوارج ومن سار على طريقهم ، وقد اطلعت على ما قدمناه من الجهود الجبارة التى قام العلماء بها فى القرن الأول والثانى حيال الأحاديث وتمحيصها .

وأما زعمهم أن السنة ليست حجة يعتمد عليها فى الدين فهذا زعم باطل سبقهم اليه أهل الأهواء فى العصور الأولى ، والكتاب والسنة واجماع العلماء وعمل المسلمين فى جميع العصور يناقض هذه الدعوى ويأتى على بنيانها من القواعد ، هذا وتقدمت البراهين الساطعة على حجية السنة فى المقدمة وفى كلام الامام الشافعى رضى الله عنه ومناظراته لبعض من ينكر حجية السنة فارجع اليها ان شئت[1] .

ثانيا : — قالوا : ان العصر الأول كان مثار خصومة بين الأمويين والعلماء الأتقياء الذين اشتغلوا بجمع الحديث والسنة ونظرا لأن ما بأيديهم من الأحاديث لم يسعفهم فى تحقيق أغراضهم أخذوا يخترعون أحاديث لا تنافى الروح الاسلامية فى مناقب آل بيت على بن أبى طالب وامتداحهم فيكونون بذلك قد ثلبوا الأمويين وهاجموهم ولكن من طريق غير مباشر وبرروا عملهم هذا بأنهم انما يحاربون الظلم والطغيان وقد ردت عليهم الحكومة فوضعت الأحاديث ودعت الى وضعها وقد كانت طريقة الأمويين كما قال معاوية للمغيرة بن شعبة . « لا تهمل فى أن تسب عليا وأن تطلب الرحمة لعثمان وأن تسب أصحاب على وتضطهد من أحاديثهم وعلى الضد من هذا أن تمدح عثمان وأهله وأن تقربهم وتسمع اليهم » وقد استغل الأمويون لذلك أمثال الامام الزهرى فى وضع الأحاديث ومن هذه الأحاديث حديث «لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » فهذا الحديث يمثل

---

(١) أنظر ص ٢١ وص ٢٧٢ .

ميولهم السياسية فى تقديس بيت المقدس وجعله مثل البيت الحرام ومسجد المدينة حتى يكون محجا للناس فى الوقت الذى منع فيه ابن الزبير أهل الشام من الحج الى الكعبة ونحو هذا أحاديث فى فضل بيت المقدس والشام . اهـ .

ونقول فى الرد عليهم : نحن لا ننكر أنه قامت خصومة سياسية بين الأمويين والشيعة وأن الشيعة وضعوا أحاديث فى مناقب الامام على ابن أبى طالب وان الأمويين ردوا عليهم بأحاديث وضعوها فى مناقب أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية ولكن لم يكن هؤلاء ولا هؤلاء هم أهل الحديث ولا العلماء الأتقياء كما يموهون علينا بذلك وانما كان من العلماء الأتقياء أمثال الامام الزهرى وسعيد بن المسيب وابن عباس وابن عمر العمل على حفظ الأحاديث الصحيحة ونشرها والاحتياط لها وبيان الأحاديث التى نسبت كذبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لا تجوز روايتها ولا نشرها من غير أن يخافوا فى الله لومة لائم أو سطوة ظالم ، ومما يثير العجب أن يطلق هؤلاء المستشرقون على الشيعة لقب (العلماء الأتقياء) مع أن منهم من كانوا أداة فساد وافساد يتظاهرون بحب آل على رضى الله عنه ويغالون فى ذلك حتى ألهوه ووضعوا الأحاديث فى تأليهه ويضمرون فى أنفسهم كيد الاسلام والمسلمين . أما ما نسبوه الى معاوية رضى الله عنه فنحن فى شك منه ومما يقوله المؤرخون المتساهلون فى نقل الأخبار وتدوينها فان معاوية صحابى جليل ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتابة الوحى ورضيه الخلفاء الراشدون الثلاثة لأمارة الشام وما حصل بينه وبين على كرم الله وجهه فانما كان عن اجتهاد ، فيبعد كل البعد أن يأمر المغيرة بن شعبة بسب على والعمل على اخفاء الأحاديث التى صحت فى فضله لاسيما وقد أثبت التاريخ أن

الحسن بن على رضى الله عنه تنازل له عن الخلافة طائعا مختارا ولم يقاتله يوما واحدا وأنه كان يترحم على على كرم الله وجهه وقد طلب الى ضرار الصدائى أن يصف له عليا فاستعفاه فأبى فوصفه له بأبلغ وصف فبكى معاوية رضى الله عنه وقال : رحم الله أبا الحسن فقد كان كذلك وأثبت التاريخ أيضا أنه كان حليما واسع الحلم سياسيا ثاقب النظر فلا يعقل بعد هذا كله أن يأمر المغيرة أو غيره باثارة فتنـــة يكون من ورائها تمزيق الوحدة وتفريق الكلمة .

نعود بعد ذلك الى زعمهم أن الأمويين استغلوا أمثال الامام الزهرى فى وضع الأحاديث التى تتفق وميولهم وهـــذا محض افتراء على أئمة الدين لاسند له من الواقع . وقد شهد للامام الزهرى بالورع والحفظ والضبط مئات بل ألوف من فحول العلمـــاء فالشـــافعى يقـــول فيه : « لولا الزهرى لذهبت السنن من المدينـــة » وأحمـــد بن حنبـــل واسحاق بن راهويه يقولان فيه : « أصح الأسانيد مطلقا الزهرى عن سالم عن أبيه » وعمرو بن دينار يقول فيه : « ما رأيت أنص للحديث من الزهرى وما رأيت أحدا الدينار والدرهم أهون عنده منه أن كانت الدنانير والدراهم بمنزلة البعر » افنترك مثل هذه الشهادات الثابتة الى أقوال شرذمة من ائمة الكفر ليسوا من الانصاف فى شىء ، ودعوى أن حديث « لا تشدوا الرحال الا الى ثلاثة مساجد » من وضع الزهرى تبعا لميول الحكام السياسية .. الخ . دعوى خاطئة كاذبة فان الزهرى ثقة باجماع أئمة المسلمين فلو انفرد بهذا الحديث لكان صحيحا لا ريب فيه فكيف ولم ينفرد به وقد أخرجه مسلم من غير طريقه[1] فى آخر

---

(١)صحيح مسلم أواخر كتاب الحج .

كتاب الحج من صحيحه قال حدثنا هارون بن سعيد الايلى حدثنا ابن وهب قال حدثنى عبد الحميد بن جعفر أن عمران بن أبى أنس حدثه أن سلمان الأغر حدثه أنه سمع أبا هريرة يخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انما يسافر الى ثلاثة مساجد مسجد الكعبة ومسجدى ومسجد ايلياء » وأخرجه الشيخان [١]. من غير طريقه أيضا عن شعبة عن عبد الملك سمعت قزعة مولى زياد قال سمعت أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه يحدث بأربع عن النبى صلى الله عليه وسلم فأعجبننى وآنقننى قال : (لا تسافر المرأة يومين الا ومعها زوجها أو ذو محرم . ولا صوم فى يومين ، الفطر والأضحى . ولا صلاة بعد صلاتين بعد الصبح حتى تطلع الشمس وبعد العصر حتى تغرب . ولا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجد الحرام ومسجد الأقصى ومسجدى) .

ثم ما لهذا الحديث وصرف الناس عن حج بيت الله الحرام الى المسجد الأقصى وغاية ما يدل عليه أن الرحال لا تشد الى مسجد من المساجد بقصد الصلاة فيه الا لهذه المساجد الثلاثة فهو انما يدل على فضل الصلاة فى المسجد الأقصى كما يدل على فضلها فى المسجدين الآخرين ، ثم ماذا يقولون فيما ثبت من أن المسلمين كانوا يصلون الى بيت المقدس قبل أن يصلوا الى الكعبة وهو يدل على أنه موضع احترام لدى المسلمين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من أول يوم فرضت فيه الصلاة ، وماذا يقولون فى قول الله عز وجل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » أما أن بنى أمية لو كانوا بحاجة الى ما يدل على فضل بيت المقدس لكفتهم هذه الآية ، أم يقولون ان الآية من وضع الزهرى أيضا ! سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

(١) شرح مسلم فى الحج وفتح البارى (ج ٣ ص ٤٦)

نحن لاننكر أن هناك أحاديث وضعت فى فضل الأمويين والعلويين أو فى فضل بعض الأماكن ولكنا ننكر أن يكون واضعوها من العلماء الأتقياء حقا كما ننكر أن أئمة الأحاديث سكتوا عن هذه الموضوعات وها هى آثارهم تدل على ما بذلوه من جهد فى تمحيص الأحاديث ونقدها، فماذا بعد الحق الا الضلال .

ثالثا — قالوا : « ولم يقتصر الأمر على وضع أحاديث سياسية بل تعدى ذلك الى الناحية الدينية فى أمور العبادات التى لاتتفق مع ما يراه أهل المدينة مثل ما هو معروف من أن خطبة الجمعة كانت خطبتين وكان يخطب الخلفاء وقوفا وان خطبة العيد كانت تتبع الصلاة فغير الأمويون من ذلك فكان يخطب الخليفة خطبة الجمعة الثانية جالسا ، وجعلوا خطبة العيد قبل الصلاة واستدلوا لذلك بما رواه رجاء بن حيوة من أن الرسول والخلفاء كانوا يخطبون جلوسا فى حين قال جابر بن سمرة : من حدثكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب جالسا فقد كذب . ومثل ذلك ما حصل من زيادة معاوية فى درجات المنبر وما كان من جعله المقصورة التى أزالها العباسيون بعد ذلك . كما لم يقتصر الأمر على نشر أحاديث ذات ميول بل تعداه الى اضطهاد أحاديث لا تمثل وجهات النظر والعمل على اخفائها وتوهينها . فمما لاشك فيه أنه كان هناك أحاديث فى مصلحة الأمويين اختفت عند مجىء العباسيين » .

ونقول : حقا ان الوضع فى الحديث لم يقتصر على الميول السياسية بل تعداه الى العبادات لكن لم يكن ذلك من علماء الملة وأئمة الحديث انما كان من زنديق يكيد للاسلام أو من داعية سوء يريد أن يتقرب الى أهل الأهواء أو من جاهل لم يخالط قلبه بشاشة الايمان أما علماء الاسلام فقد قذفوا بالحق على الباطل وأخلصوا للأمة النصح من غير

أن تأخذهم فيه لومة لائم ، وما ذكره المستشرقون هنا من الشواهد لا دلالة فيه والتاريخ يحدثنا أن ما أحدثه بعض الخلفاء من اتخاذ المقصورة في المسجد أو تقديم الخطبة على صلاة العيد أو الجلوس في خطبة الجمعة الثانية الى غير ذلك لم يكن منهم بناء على أحاديث وضعوها أو وضعت لهم وانما كان عن اجتهاد أو عذر قضى بذلك سواء أكانوا في ذلك مصيبين أم مخطئين فعن الشعبي[1] أنه قال (أول من خطب الناس قاعدا معاوية وذلك حين كثر شحمه وعظم بطنه) أخرجه ابن أبي شيبة وذكر ابن خلدون في مقدمته[2] أن أول من اتخذ المقصورة في المسجد معاوية ابن أبي سفيان حين طعنه أحد الخوارج طعنة كادت تقضي عليه . وعن طارق[3] بن شهاب قال : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة فقال قد ترك ما هنالك فقال أبو سعيد أما هذا فقد قضى ما عليه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) رواه الامام مسلم في الصحيح ، ومن ذلك ترى أن معاوية رضي الله عنه خطب جالسا واتخذ المقصورة في المسجد لعذر قاهر لا لأحاديث رواها أو رويت له وأن مروان بن الحكم معترف بأن السنة تقديم صلاة العيد على الخطبة لكن أداه اجتهاده الى تقديم الخطبة لئلا ينصرف الناس عن سماعها بعد الصلاة وكأنهم فعلوا معه ذلك بدليل قوله لمن أنكر عليه (قد ترك ما هنالك) ولم يستدل لما فعل بشيء من الأحاديث انما استدل بتغير أحوال الناس

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٤٣ .

(٢) ص ٢٩٩ .

(٣) صحيح مسلم في كتاب الايمان .

ومع ذلك فقد أنكروا عليه وبين أبو سعيد الخدرى أن من قال لمروان (الصلاة قبل الخطبة) قد قضى ما عليه وهو انكار المنكر بلسانه حيث عجز عن ازالته بيده ثم روى الحديث الدال لما يقول على ملأ من الناس ومروان يسمع ودعوى أن رجاء بن حيوة روى (أن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده كانوا يخطبون من جلوس) دعوى كاذبة ليست الا فى أوهام هؤلاء المستشرقين ولا يعقل بحال أن يختلق عالم جليل ومحدث أمين كرجاء حادثة يكذبها الواقع والحس أمام كثير من الصحابة والتابعين ثم يعدونه بعد ذلك من ثقاة الرواة وأساطين المحدثين.

ثم نقول ثانيا : لا يبعد أن يكون التنافس السياسى بين الأمويين والعباسيين له أثر فى خفاء بعض الأحاديث وظهـور بعض آخر منها ولكن الذى لا نقره أن ينسب ذلك الى حفاظ السنة ورواة الحديث الموثوق بهم فان هؤلاء جدوا فى خدمة السنة تحملا وأداء وذبوا عنها الكذب بكل ما أوتوا من قوة ولم يكتموا شيئا مما ثبت لديهم أنه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما لقوا من عنت واضطهاد ولقد دلتنا أخبارهم على أنهم كانوا أشجع الناس فى الحق وأجرأهم على الحكام وأصبرهم على الأذى وأخشاهم لله ، وأحرصهم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى أن كان أحدهم ليرحل الليالى ذوات العدد الى الخليفة اذا بلغه أنه خالف شيئا مما عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده .

رابعا : — أخذ هؤلاء القوم يؤيدون ما ذهبوا اليـه من أن أكثر الأحاديث من وضع العلماء فى القرن الأول والثانى بما ورد من كلام علماء الجرح والتعديل كقول عاصم بن نبيل المتوفى سنة ٢١٢ : ما رأيت الصالح يكذب فى شىء أكثر من الحديث ، وقول يحيى بن سعيد القطان

نحو ذلك وقول يزيد بن هارون : ان أهل الحديث بالكوفة فى عصره ما عدا واحدا كانوا مدلسين حتى السفيانان ذكرا بين المدلسين ، قالوا وقد شعر المسلمون فى القرن الثانى بأن الاعتراف بصحة الأحاديث يجب أن يرجع الى « الشكل » فقط وأنه يوجد بين الأحاديث الجيدة الاسناد كثير من الأحاديث الموضوعة وساعدهم على هذا ما ورد من الحديث « سيكثر التحديث عنى فمن حدثكم بحديث فطبقوه على كتاب الله فما وافقه فهو منى قلته أو لم أقله » هذا هو المبدأ الذى حدث بعد قليل عند انتشار الوضع . قالوا : ويمكن أن نتبين شيئا من ذلك فى الأحاديث الموثوق بها . فمن ذلك ما رواه مسلم عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب ألا كلب صيد أو كلب ماشية » فأخبر ابن عمر أن أبا هريرة يزيد « أو كلب زرع » فقال ابن عمر : أن أبا هريرة كانت له أرض يزرعها . فملاحظة ابن عمر تشير الى ما يفعله المحدث لغرض نفسه ا هـ .

ونحن نقول : الناظر فى قولهم هذا يرى أنهم يستدلون على دعواهم ان أغلب الأحاديث النبوية من وضع العلماء فى القرن الأول والثانى بأدلة.

١ — نسبة بعض الصالحين الى الكذب فى الحديث كما يدل لذلك قول عاصم وغيره .

٢ — تدليس كثير من المحدثين كما قال يزيد بن هارون .

٣ — وجود أحاديث حكم العلماء عليها بالوضع وهى جيدة الأسناد

٤ — اتجاه العلماء الى النقد الشكلى فى الأحاديث وهو عرضها على كتاب الله فما وافقه قبلوه وما لم يوافقه ردوه من غير نظر الى الأسناد .

٥ — اعتراف ابن عمر أن أبا هريرة زاد فى الحديث السابق الذى رواه « أو كلب زرع » .

وللرد على دعواهم الباطلة نقول : تكرر منا تزييف هذه الدعوى وأن أئمة الدين ورجال الحديث لم يتقولوا على النبى صلى الله عليه وسلم بشىء من الأقاويل بل عملوا على نشر سنته الصحيحة وابطال ما نسبه اليه أهل الأهواء كذبا وزورا .

وما استدل به المستشرفون لدعواهم الزائفة باطل وبيان ذلك :

١ — ان رد المحدثين لبعض أحاديث الصالحين دليل على تحريهم البالغ فى الأحاديث ونفى الدخيل عنها فانهم لم يكتفوا فى الرواة بالصلاح وحسن السيرة حتى يجمعوا الى ذلك الحفظ والضبط واليقظة التامة ، فكثيرا ما يروج على الصالح اذا لم يجمع الأوصاف المذكورة أحاديث الكذابين بناء على ما يظهر له من أحوالهم وكثيرا ما تدخل عليه الغفلة لسوء حفظه .

٢ — وان التدليس ليس هو الكذب — كما فهم المستشرقون — حتى يستدل به على أن من فعله من العلماء كان يكذب فى الحديث . وبيان ذلك أن التدليس عند علماء الحديث قسمان :

أحدهما : — تدليس الاسناد وهو أن يروى المحدث عمن لقيه من الرواة ما لم يسمعه منه موهما أنه سمعه منه أو عمن عاصره ولم يلقه موهما أنه قد لقيه وسمعه منه . ومن شأنه ألا يقول فى ذلك : « أخبرنا فلان » ولا « حدثنا فلان » وما أشبههما والا كان كذبا صريحا وانما يقول : « قال فلان أو عن فلان » ونحو ذلك من العبارات التى ليست صريحة فى السماع .

ثانيهما : — تدليس الشيوخ وهو أن يروى عن شيخ حديثا سمعه منه فيسميه أو يكنيه أو يصفه بما لا يعرف به . كأن يروى عن أبى داود

السجستانى فيقول : (حدثنا أبو عبد الله) مع أنه لم يشتهر بذلك ، وقد كرهه العلماء بقسميه ورأوا أن البعد عنه أقرب الى الثقة بالراوى والاطمئنان الى مروياته وان كانت كراهتهم للقسم الأول منه أشد ومع ذلك فلم يجرحوا به الراوى الثقة ولكنهم احتاطوا لقبول الأحاديث التى يرويها المدلس أعظم حيطة . فما رواه المدلس بلفظ محتمل لم يبين فيه السماع والاتصال فحكمه عندهم حكم المنقطع من الأحاديث . وما رواه بلفظ مبين للاتصال نحو « سمعت وحدثنا وأخبرنا » واشباهها فهو مقبول محتج به . وهذا لأن التدليس ليس كذبا وانما هو ضرب من الايهام بلفظ محتمل . ويجرى هذا الحكم على الراوى المدلس اذا ثبت عنه التدليس ولو مرة كما قال الامام الشافعى رحمه الله[1] ، ومن ذلك يتبين أن التدليس شىء والكذب شىء آخر وأن العلماء يقبلون أحاديث المدلس اذا كان ثقة وصرح بما يدل على السماع من تحديث أو أخبار أو نحوهما وأنهم توقفوا فيما رواه بلفظ موهم حتى يتبين حال ما عسى أن يكون قد أسقطه من شيوخه أفبعد ذلك يقال : « ان العلماء كانوا يضعون الأحاديث وانها ليست فى الغالب من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم » : انه لبهتان عظيم .

هذا وقد كان لعلماء الحديث فى عصوره المختلفة عناية تامة بالبحث عن المدلسين من الرواة وحصرهم فى بلدانهم وتمييزهم بأسمائهم ومن أمثلة ذلك ما جاء فى معرفة علوم الحديث للحاكم أبى عبد الله قال : أهل الحجاز والحرمين ومصر والعوالى وخراسان والجبال وأصبهان وبلاد فارس وخوزستان وما وراء النهر ليس التدليس من مذهبهم ولا يعلم أحد من أئمتهم دلس وأكثر المحدثين تدليسا أهل الكوفة ونفر يسير

---

(١) مقدمة ابن الصلاح فى النوع الثانى عشر .

من أهل البصرة فأما مدينة السلام «بغداد» فقد خرج منها جماعة من أئمة الحديث — وذكر أسماءهم وطبقاتهم — لا يذكر عنهم وعن أقرانهم التدليس الا أبى بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندى الواسطى فان أخذ أحد من أهل بغداد فعن الباغندى وحده اهـ باختصار [1] .

وهذا من أئمة الحديث غاية فى البحث والتحرى عن أحوال الرواة فى جميع المواطن مما يدل على أنهم بذلوا جهودا جبارة فى خدمة الحديث.

٣ — وأما الحكم بالوضع على أحاديث صحت أسانيدها فهذا من العلماء نهاية الأمانة وغاية التحرى واليقظة وأنه لم يرج عليهم ما كان يفعله بعض أهل الزيغ والجهلة من تركيب حديث مختلق على اسناد مقبول . وهذا يدل على عكس ما يدعونه .

٤ — ومن الباطل دعوى أن العلماء اتجهوا فى نقد الأحاديث الى عرض متونها على كتاب الله من غير نظر الى الاسناد وأنه شجعهم على ذلك حديث « سيكثر التحديث عنى الخ » ثم الاستدلال بذلك على أن الحديث أكثره من وضع العلماء .

والمعروف عند المحدثين فى قبول الأحاديث أنه لابد من أن يتصل السند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم برواية الثقة مع سلامة متن الحديث من الشذوذ والعلة وأنه لا يغنى فى ذلك سلامة الاسناد من غير نظر الى المتن ولا سلامة المتن من غير نظر الى الاسناد . وأما حديث « سيكثر التحديث عنى فمن حدثكم بحديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فهو منى قلته أو لم أقله » فهو حديث باطل باجماع أئمة الحديث وضعه الزنادقة لترويج الأحاديث الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العوام والجهلة .

(١) أنظر معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١١١ — ١١٢ .

٥ — ومن الخطأ البين والكذب الفاضح دعواهم أن أبا هريرة رضى الله عنه زاد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم « أو كلب زرع » لمصلحته بناء على ما فهموه من قول ابن عمر رضى الله عنه .

والصواب أن قول ابن عمر هذا تثبيت منه لأبى هريرة فيما قال لا تكذيب له بدليل أنه رواه بعد ذلك كما رواه أبو هريرة وأن أبا هريرة لم ينفرد بهذه الزيادة وحده بل رواه كذلك من الصحابة عبد الله بن مغفل وسفيان بن أبى زهير . قال الامام النووى فى شرحه لصحيح مسلم « ليس هذا — يعنى قول ابن عمر ان لأبى هريرة زرعا — توهينا لرواية أبى هريرة ولا شكا فيها بل معناه أنه لما كان صاحب زرع وحرث اعتنى بذلك وحفظه وأتقنه والعادة أن المبتلى بشىء يتقنه ما لا يتقنه غيره ويتعرف من أحكامه ما لا يعرفه غيره . وقد ذكر مسلم هذه الزيادة وهى «كلب زرع » من رواية ابن المغفل ومن رواية سفيان بن أبى زهير عن النبى صلى الله عليه وسلم وذكرها أيضا مسلم من رواية ابن الحكم — واسمه عبد الرحمن بن أبى نعيم البجلى — عن ابن عمر فيحتمل أن ابن عمر لما سمعها من أبى هريرة وتحققها عن النبى صلى الله عليه وسلم رواها عنه بعد ذلك وزادها فى حديثه الذى كان يرويه بدونها ويحتمل أنه تذكر فى وقت أنه سمعها من النبى صلى الله عليه وسلم فرواها ونسيها فى وقت فتركها . قال : والحاصل أن أبا هريرة ليس منفردا بهذه الزيادة بل وافقه جماعة من الصحابة فى روايتها عن النبى صلى الله عليه وسلم ولو انفرد بها لكانت مقبولة مرضية مكرمة[1] اهـ من شرح مسلم فى باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه وبيان تحريم اقتنائها الا لصيد أو زرع أو ماشية ونحو ذلك من كتاب المساقاة والمزارعة .

---

(١) جـ ٦ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ من هامش القسطلانى .

الـدور الخامس

السنة فى القرن الثالث

ويشتمل هذا الدور على أربعة مباحث : —

المبحث الأول — النزاع بين المتكلمين والمحدثين وأثر ذلك فى الحديث .

المبحث الثانى — نشاط أهل الأهواء وغيرهم فى وضع الأحاديث .

المبحث الثالث — تراجم لبعض أعلام المحدثين فى هذا العصر .

المبحث الرابع — نهضة علماء الحديث بتدوين السنة .

المبحث الأول

النزاع بين المتكلمين وأهل الحديث وأثر ذلك فى الحديث

كان أول ما نشأ الخلاف بين أهل الحديث وأصحاب الكلام الذين حكموا عقولهم فى أصول الدين وعقائده بمدينة البصرة عندما اعتزل واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ — أستاذه الحسن البصرى وأخذ يقرر أصولا ليست على مذهب الحسن وغيره من السلف ، ومن هذا الوقت سمى اتباع واصل بالمعتزلة وقد ظهر من رءوس الاعتزال — بعد واصل هذا — عمرو بن عبيد (١٤٣) ثم أبو الهذيل العلاف (٢٣٥) والنظام (٢٢١) وبشر المريسى (٢١٨) وعمرو بن بحر الجاحظ (٢٢٥) وثمامة بن الأشرس وغيرهم من أصحاب الآراء والأقوال .

كان أهل الكلام يخوضون فى مسائل كثيرة من أصول الدين التى خالفوا فيها الجمهور وأهم تلك المسائل مسألتان : —

احداهما : أفعال العباد يقول المعتزلة أن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله تعالى ولهذا استحقوا عليها الثواب والعقاب ، ويقول الجمهور : ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وليس للعباد فيها سوى جريانها على أيديهم بكسبهم واختيارهم .

والثانية : صفات الله تعالى يقول المعتزلة ان الله تعالى منزه عن ثبوت صفات قائمة بذاته كالسمع والبصر والحياة والقدرة والكلام . أداهم الى ذلك خوف تعدد القدماء . ويقول الجمهور أن هذه الصفات من السمع والبصر .. الخ قديمة قائمة بذاته تعالى ليست عين الذات ولا غيرها . وقد تفرع على هذا الخلاف فى مسألة الصفات خلاف آخر فى القرآن الذى هو كلام الله تعالى أقديم هو لأنه صفة لله جل علاه — وعليه الجمهور — أم حادث مخلوق ككل المخلوقات فيخلق الله هذه الحروف والأصوات فى جسم محدث يسمعه النبى منه — والى ذلك ذهب المعتزلة — وكانوا يحكمون سلطان العقل ويغلبونه فى كثير من أبحاثهم فى العقائد والأحكام حتى أكسبهم ذلك جرأة على الأحاديث اذا ما صادمت عقائدهم فكان من السهل عليهم ردها ان لم يجدوا لها تأويلا ولو كان بعيدا كل البعد الا أنه لم يتح للمتكلمين اظهار آرائهم فى العامة قبل القرن الثالث بل كانوا يخشون سلطان العامة أن تبطش بهم كما لم يكن أحد من الخلفاء يناصرهم لمخالفتهم الجمهور الأعظم من المسلمين فلما جاء القرن الثالث وقبض على زمام الخلافة المأمون (١٩٨ — ٢١٨) وكان ميالا الى حرية البحث والمناظرة أفسح المجال أمام المتكلمين فظهروا بآرائهم ومن ذلك الوقت حدثت أحداث عظيمة وقامت معركة هائلة بينهم وبين المحدثين .

كان المأمون بطبعه ميالا الى العلم شغوفا به عالما بالكتاب والسنة

مع نباهة وذكاء عظيمين . سمع المأمون موطأ مالك واطلع على كثير من أقوال حكماء الفرس وفلاسـفة اليونان مما عنى بترجمته المنصـور والرشيد ، ولما تولى الخلافة أمر بترجمة كثير من كتب الروم وبذل فى ذلك الأموال الطائلة حتى أصبح عصره أزهى عصور العلم فى خـلافة بنى العباس اذ أقبلت الأمة على العلم بنهم كثير وشوق عظيم لا سيما وقد وجدوا خليفتهم يقدر العلم ويرفع من شأن العلماء .

جاء المأمون فوجد العلماء فريقين متنافرين ووجد الخلاف على أشده بين أهل الحديث وأصحاب الكلام . فرأى أن يجمع العلماء من المتكلمين والفقهاء وأصحاب الحديث ويعقد لهم مجالس للمناظرة أملا فى أن يتفقوا على رأى فيما يلقيه عليهم من المسائل المختلف فيها ثم يحمل الجميع على ما اتفقوا عليه وبذلك تجتمع الأمة كلها على كلمة واحدة فى الدين لا سيما فيما يرجع الى العقائد ومباحث الأمامة .

عقد المأمون المجالس للمناظرة والمحاورة فكانت النتيجة أن كشفت المناظرات الكثيرة والمناقشات الحادة التى كانت تدور بين يدى المأمون عن رأيه فى بعض المسائل الخلافية وأنه كان ينحاز الى المعتزلة فى بعض آرائهم لا كلها . وكان مما وافقهم عليه القول بخلق [1] القرآن . وقد أعلن رأيه بذلك سنة ٢١٢ هـ على زعم أنه اذا أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة فانهم يستجيبون لرأيه ويرتضونه تبعا له . ولكن الأمر جاء على عكس ما كان ينتظره المأمون . فقد تكلم الناس فيه ورموه بالابتداع وتغالى بعضهم فحكم بكفر من يرى خلق القرآن ومن هذا الحين أخذ الكلام بين المتكلمين وأهل الحديث يقوى والنزاع يشتد حتى جاء

(١) أول من قال بخلق القرآن الجعد بن درهم فى سنة نيف وعشرين ومائة ثم جهم بن صفوان ثم بشر بن غياث « تأنيب الخطيب ص ٥٣ » .

عام (٢١٨) فرأى المأمون أنه ان لم يضرب على أيدى خصومه فسينكشف أمره ويظهر أمام رعيته بمظهر التخاذل فاستعمل سلطانه في رد أهل الحديث إلى رأيه .

« محنة القول بخلق القرآن »

لما أخفق سعى المأمون فى القضاء على الخلاف من طريق سلمى قوامه المناظرة لاحقاق الحق أراد أن يرغم المحدثين والفقهاء على قبول رأيه بخلق القرآن لا سيما بعد أن طعنوا فيه بالابتداع فاستنفدت هذه المسألة جانبا كبيرا من تفكيره ووقته حتى فى أيام غزواته وحروبه مع الروم . ففى عام (٢١٨) بينما كان المأمون يغزو بلاد الروم كتب الى عامله على بغداد اسحق بن ابراهيم الخزاعى كتابا يقول له فيه « ... وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر لهم ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه. أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه . وذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه . وقد قال الله تعالى « انا جعلناه قرآنا عربيا » وكل ما جعله الله فقد خلقه كما قال تعالى « وجعل الظلمات والنور » وقال « نقص عليك من أنباء ما قد سبق » فأخبر أنه قص لأمور أحدثه بعدها وقال (أحكمت آياته ثم فصلت) والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه ثم انتسبوا الى السنة وانهم أهل الحق والجماعة وان من سواهم أهل الباطل والكفر فاستطالوا بذلك وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب فى التخشع لغير الله الى موافقتهم فنزعوا الحق

الى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة الى ضلالهم — ثم أخذ يصفهم بأنهم شر الأمة واخوان أبليس — ثم قال لعامله فاجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا وامتحنهم فيما يقولون واكشفهم عما يعتقدون فى خلقه وأحداثه وأعلمهم أنى غير مستعين فى عملى ولا اوثق من لا يوثق بدينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق واكتب الينا بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم وردت من المأمون عدة كتب الى عامله يأمره فيها بامتحان آهل الحديث فى مسألة خلق القرآن وفى بعضها يقول له « فمن لم يجب أنه مخلوق فامنعه من الفتوى والرواية » كما أمر عامله بقتل من لم يقل بخلق القرآن ، ولم يكتف المأمون بذلك بل أنفذ وصيته الى أخيه المعتصم بالسير على طريقته فى مسألة خلق القرآن ، ومع أن المعتصم لم يكن على جانب عظيم فى العلم كما كان المأمون الا أن رغبته فى تنفيذ وصية أخيه واستعداء المعتزلة له على أهل السنة جعله يشتد فى المحنة فكتب الى البلاد بامتحان الناس فى مسألة القرآن وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان أن القرآن مخلوق وقتل فى ذلك خلقا من العلماء وأهان كثيرا من أهل الحديث لا سيما الامام أحمد بن حنبل الذى أصر على امتناعه من القول بخلق القرآن واستمرت المحنة الى أن مات المعتصم سنة ٢٢٧ ، ولما تولى ابنه الواثق الخلافة أحيا الفتنة وأقام سوق المحنة وفى سنة ٢٣١ أصدر أمره الى أمير البصرة بامتحان الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن . وأظهر الغلظة لمن يقول بخلاف رأيه بل قتل فى ذلك بعض أهل الحديث .

رجوع الواثق عن المحنة

اشتد الواثق فى مسألة خلق القرآن كثيرا وساعده على ذلك وزيره أحمد بن أبى دؤاد وكان من رءوس الاعتزال حتى أن أحمد هذا كان يقول : « من قال من الأسارى القرآن مخلوق خلصوه وأعطوه دينارين ومن امتنع دعوه فى الأسر » قال الخطيب : كان أحمد بن أبى دؤاد قد استولى على الواثق وحمله على التشدد فى المحنة ودعا الناس الى القول بخلق القرآن ، واستمر على ذلك حتى مل الواثق المحنة وسئمتها نفسه فرجع عنها فى آخر عمره . هذا أبو عبد الرحمن بن محمد الأذرمى شيخ أبى داود والنسائى يحمل مكبلا بالحديد من بلاده الى الواثق فسأله ابن أبى دؤاد فى مجلس الواثق عن قوله فى القرآن فقال له الشيخ : هذا الذى تقوله ياابن أبى دؤاد من خلق القرآن شىء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أو جهلوه فقال بل علموه . قال : فهل دعوا الناس اليه كما دعوتهم أنت أو سكتوا فقال : بل سكتوا . قال : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت فبهتوا وضحك الواثق ، وقام قابضا على فمه وهو يقول : هلا وسعك ما وسعهم ويكررها . ثم أمر أن يعطى الرجل ثلثمائة دينار ويرد الى بلده ولم يمتحن أحدا بعدها وسخط على ابن أبى دؤاد من يومئذ .

المتوكل يأمر برفع المحنة وينتصر لاهل الحديث

ولما ولى المتوكل على الله بن المعتصم الخلافة بعد أخيه الواثق سنة (٢٣٢) أظهر ميلا عظيما الى السنة فرفع المحنة وكتب بذلك الى الآفاق واستقدم المحدثين إلى « سامرا » وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤيا . وجلس أبو بكر بن شيبة فى جامع

الرصافة فاجتمع اليه نحو من ثلاثين ألف نفس وجلس أخوه عثمان فى جامع المنصور فاجتمع اليه أيضا نحو من ثلاثين ألف نفس وتوفر دعاء الخلق للمتوكل وبالغوا فى الثناء عليه وتعظيمه حتى قيل الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق فى قتل أهل الردة وعمر بن عبد العزيز فى رد المظالم والمتوكل فى أحياء السنة وأماتة التجهم (١) .

انتقاص أهل الكلام لاهل الحديث

هذا ولم يقف المعتزلة عند هذا الحد من اغراء الخلفاء بأهل الحديث بل أطلقوا ألسنتهم بالسوء وأخذوا يقبحون أهل الحديث ويعيبون عليهم طريقتهم ويحطون من قدرهم ويرمونهم بالعى والفهاهة وكل نقيصة . انظر الى ابن قتيبة أحد علماء القرن الثالث كيف يصور لنا ما كانوا يرمون به أهل الحديث من شناعات . قال رحمه الله فى مقدمة كتابه : (تأويل مختلف الحديث) الذى ألفه فى الرد على أعداء الحديث : « أما بعد أسعدك الله تعالى بطاعته وحاطك بكلاءته ووفقك للحق برحمته وجعلك من أهله فانك كتبت الى تعلمنى ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث وامتهانهم واسهابهم فى الكتب بذمهم ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض حتى وقع الخلاف وكثرت النحل وتقطعت العصم وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضا وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث . فالخوارج تحتج بروايتهم « ضعوا سيوفكم على عواتقكم ثم أبيدوا خضراءهم » « ولا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم » « ومن قتل دون ماله فهو شهيد » ، والقاعد

(١) أنظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٢٧٢ وما بعدها — تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٠٤ وتاريخ الأمم الاسلامية للخضرى ص ٢٧٩

يحتج برواياتهم « عليكم بالجماعة فان يد الله عز وجل عليها » « ومن خالف الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » و « اسمعوا وأطيعوا وان تأمر عليكم عبد حبشى مجدع الأطراف » « وصلوا خلف كل بر وفاجر » « لابد من امام بر أو فاجر » « وكن حلس بيتك فان دخل عليك فادخل مخدعك فان دخل عليك فقل بؤ بأثمى وأثمك » ، و « كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل » وقد أفاض الامام ابن قتيبة فى نقل كثير من ذلك عنهم ثم قال : —

هذا مع روايات كثيرة فى الأحكام اختلف لها الفقهاء فى الفتيا حتى اختلف الحجازيون والعراقيون فى أكثر أبواب الفقه وكل يبنى على أصل من رواياتهم ومع رواياتهم كل سخافة تبعث على الاسلام الطاعنين وتضحك منه الملحدين وتزهد فى الدخول فيه المرتادين وتزيد فى شكوك المرتابين . كروايتهم فى عجيزة الحوراء أنها ميل فى ميل . وفيمن قرأ سورة كذا ومن فعل كذا أسكن من الجنة سبعين ألف قصر فى كل قصر سبعون ألف مقصورة فى كل مقصورة سبعون ألف مهاد على كل مهاد سبعون ألف كذا . وكروايتهم فى الفأرة أنها يهودية وأنها لا تشرب ألبان الابل كما أن اليهود لا تشربها ، قالوا : ومن عجيب شأنهم أنهم ينسبون الشيخ الى الكذب ولا يكتبون عنه ما يوافقه عليه المحدثون بقدح يحيى بن معين وعلى بن المدينى وأشباههما ويحتجون بحديث أبى هريرة فيما لا يوافقه عليه أحد من الصحابة وقد أكذبه عمر وعثمان وعائشة ويحتجون بقول فاطمة بنت قيس وقد أكذبها عمر وعائشة وقالوا لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة ويبهرجون الرجل بالقدر ولا يحملون عنه كغيلان وعمرو ابن عبيد ومعبد الجهنى وعمرو بن فائد ويحملون عن أمثالهم من أهل مقالتهم كقتادة وابن أبى عروبة وابن أبى نجيح ومحمد بن المنكدر وابن

أبى ذئب ويقدحون فى الشيخ يسوى بين على وعثمان أو يقدم عليا عليه ويروون عن أبى الطفيل عامر بن واثله صاحب راية المختار وعن جابر الجعفى وكلاهما يقول بالرجعة . قالوا وهم مع هذا أجهل الناس بما يحملون وأبخس الناس حظا فيما يطلبون وقالوا فى ذلك : —

زوامل للأشعار لا علم عندهم   بجيدها الا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا   بأحماله أو راح ما فى الغرائر

قد قنعوا من العلم برسمه ومن الحديث باسمه ورضوا بأن يقولوا : فلان عارف بالطرق وراوية للحديث وزهدوا فى أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم . قالوا : وما ظنكم برجل منهم يحمل عنه العلم وتضرب أليه أعناق المطى خمسين سنة أو نحوها . سئل فى ملأ من الناس عن فأرة وقعت فى بئر فقال : (البئر جبار) وآخر سئل عن قوله تعالى « ريح فيها صر » فقال : (هو هذا الصرصر) يعنى صراصر الليل . وآخر حدثهم (عن سبعة وسبعين) ويريد (شعبة وسفين) اهـ .

ثم أخذ ابن قتيبة يذكر رءوس المعتزلة واحدا واحدا ويفند ما ألصقوه بأهل الحديث من الكذب والمحال ، ومن عجب أن المستشرقين وأعداء الاسلام من الملحدين ينقلون هذه الطعون ولا ينقلون جواب الامام ابن قتيبة عنها وصدق القائل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

كان أهل الحديث على طريقة السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يحتاطون لأمر الدين ويتثبتون فى رواية السنة ويقفون مع ظواهر النصوص ولا يفتحون على العامة باب التأويل حتى لا يفتتنوا بما لا تهضمه عقولهم ولا تستسيغه أفهامهم ، ووجد منهم فى هذا العصر أئمة كبار

وحفاظ عظام عرفوا الأحاديث وميزوا بين المزيف منها والصحيح ونقدوا الرواة ووقفوا على أحوالهم أمثال الامام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى واسحق بن راهويه وغيرهم .

الا أنه وجد قوم انتسبوا الى أهل الحديث كانوا وصمة عار فى جبين الحـديث والمحدثين منهم القصاص المخـرفون والمرتزقة الذين يتكسبون بالحديث والجهلة بأحكام الشرع وأوليات الفقه . فالقصاص كانوا يبثون الغرائب والمناكير التى تبعث على الاسلام المطاعن والجهلة المتفيهقون كانوا كالحمار يحمل أسفارا « اذا سئل أحدهم عن حكم شرعى تخبط فى جهله وتعثر فى غيه وقد يكون اماما فى أتباعه فيفتى بكل منكر فى الشرع . وكان لهم أفهام فى الحديث تضحك الثكلى وتبعث فى نفس المؤمن الحزن والأسى فمن ذلك أن أحـدهم كان يصلى الوتر بعـد الاستنجاء من غير أحداث وضوء ويستدل على هذا العمل بقوله صلى الله عليه وسلم « من استجمر فليوتر » والمقصود من الحديث ايتار الجمار عند الاستنقاء لا صلاة الوتر بعد نقض الوضوء مباشرة من غير توضؤ وسئل كبير منهم فى مجلس تحديثه عن دجاجة وقعت فى بئر فقال للسائل ألا غطيتها حتى لا يقع فيها شيء ، فأسرع بعض المتفقهة بالاجابة سترا لجهل الشيخ ، وسئل أحدهم عن مسألة فى الفرائض فكتب فى الفتوى . تقسم على فرائض الله سبحانه وتعالى . وسئل أحدهم عن الحالف بصدقة أزاره فقال : بكم اشتريته فقال : باثنين وعشرين درهما فقال : اذهب وصم اثنين وعشرين يوما . وفهم بعضهم من حديث « نهى أن يسقى الرجل ماءه زرع غيره » المنع من سقى بساتين الجيران مع أن المراد وطء الحبالى من السبايا[١] . الى غير ذلك من سخافاتهم .

(١) أنظر تأنيب الخطيب ص ٥ .

وقد ضاق ذرعا بأمثال هؤلاء الجهال كثير من أعلام المحدثين فشعبة يقول فيهم (كنت اذا رأيت رجلا من أهل الحديث يجيء أفرح به فصرت اليوم ليس شيء أبغض الى من أن أرى واحدا منهم) ويقول ابن عيينة (أنتم سخنة عين لو أدركنا واياكم عمر بن الخطاب لأوجعنا ضربا) . ويقول عمرو بن الحارث — شيخ الليث — فى أمثال هؤلاء : (ما رأيت علما أشرف وأهلا أسخف من أهل الحديث) . وقال محمد بن سهل بن عسكر : وقف المأمون يوما للأذن ونحن وقوف بين يديه اذ تقدم اليه غريب بيده محبرة . فقال : يا أمير المؤمنين صاحب حديث منقطع به فقال له المأمون أيش تحفظ فى باب كذا فلم يذكر فيه شيئا فما زال المأمون يقول حدثنا هشيم وحدثنا الحجاج بن محمد وحدثنا فلان حتى ذكر الباب ثم سأله عن باب ثان فلم يذكر فيه شيئا فذكره المأمون ثم نظر الى أصحابه فقال : « يطلب أحدهم الحديث ثلاثة أيام ثم يقول : (أنا من أصحاب الحديث) أعطوه ثلاثة دراهم » ، واذا علمت أن هذه المثالب والطعون موجهة الى قوم من المتكسبين بالحديث الأدعياء فى الرواية علمت أن أعداء الاسلام فى كل عصر ليسوا على حق فى توجيه هذه الطعون الى الأئمة الأعلام والحفـاظ العظام الذين كشفوا عن الدخيل وميزوا الحق من الباطل وجاهدوا فى سبيل السنة وصونها حتى أبلوا فى ذلك أحسن البلاء مما قرأته عنهم وما ستقرؤه ان شاء الله .

هذا ما يقال فى أهل الحديث أما أهل الكلام فاننا نجدهم يرتفعون بالعقل ويذهبون بسلطانه الى أقصى حدوده حتى ساقهم ذلك الى التطرف فى تأويل النصوص بما يمجه الذوق السليم ويدفعه الطبع المستقيم كل ذلك محافظة على ما اعتقدوه من الآراء .

أخذ المعتزلة فى هذا العصر فى بحث كتب الفلسفة اليونانية وغيرها وتشبعوا من علوم الحكمة فحكموا آراءهم فى الدين وطبقوا ما فهموه من هـذه الدراسات على الكتاب والسنة وانفتح عليهم باب التأويل والطعن فى الأخبار حتى لم يسلم منهم بعض الصحابة رضى الله عنهم ، وليتهم وقفوا عند هذا الحد ولكنهم أرادوا العامة على سلوك طريقتهم واعتقاد آرائهم واستعدوا عليهم الخلفاء كما رأيت والعامة كما ترى لا تهضم هذه الفلسفات ولا تفهم الكم والأين وغيرهما من المقولات ، قد كان يكفيهم مناظرة علماء الجمهور من أئمة الحديث والفقه فى مجالس المأمون وغيرها ليظهروا سلطان العقل ويقيموا البراهين الساطعة على خصومهم ثم بعد ذلك يقولون لهم ما على الرسول الا البلاغ ولا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى .

ولكن المعتزلة انتهزوا قربهم من الخلفاء وأخـذهم بزمام الوزارة والقضاء فانتقموا من أهل الحديث ومن جمهور الأمة ما أمكنهم الانتقام ولم يبالوا بسفك الدماء الطاهرة البريئة ومن عجيب أمرهم أنهم يختلفون على أنفسهم فى مسائل الدين اختلافا عظيما لكن لم يصلوا فى خصومتهم الى عشر معشار ما فعلوه مع أهل الحديث .

هذا أحمد بن أبى دؤاد يحكم بكفر من لم يقل بخلق القرآن ثم يستعمل سلطة الوزارة فيأمر بفداء الأسرى من قال منهم بخلق القرآن أما من لم يقل بذلك فانه يترك أسيرا فى أيدى الكفار لأنه فى نظره غير مسلم فلا يستحق الفداء .

أفما كان الأجدر بهم — لو كانوا يريدون الخير للاسلام وأهله — أن يتحدوا مع أهل الحديث ويكون الجميع جبهة فى الدفاع عن الدين

ومحاربة الوضاعين من زنادقة وقاصين . أما المسائل التى كانوا على خلاف فيها فاما أن يكون الجدال فيها بالتى هى أحسن من غير أن تراق الدماء أو تستعمل وسائل الارهاب ، وأما أن يسلكوا فيها مسلك السلف الصالح وهو الامساك عنها وعدم الخوض فيها . هذا مالك امام دار الهجرة يسأل عن قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فيقول : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وهذا أبو حنيفة ينهى أصحابه ويحـذرهم من التكلم فى القرآن أمخلوق هو أم غير مخلوق . وهذا بطل المحنة الامام أحمد بن حنبل يمسك عن الخوض فى مسألة خلق القرآن وكل ذلك منهم كان محافظة على عقيدة العامة واتباعا لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من بعده . أما أنهم لو سلكوا أحد الطريقين لكان خيرا وأولى ولكن قدر فكان .

من هـذا البيـان ترى أن المتكلمين والمحدثين كانوا فى هـذا العصر بل وقبل هذا العصر على طرفى نقيض . لقد حط من شأن المحدثين فى نظر المتكلمين وجود أدعياء الرواية وجهلة الشيوخ وكذبة القصاص بينهم فرموهم بالجهل وبكل نقيصة ، ووضع من شأن المعتزلة فى نظر أهل الحديث اعتناقهم لآراء الفلاسفة وخروجهم عن النصوص وردهم للأحاديث الصحيحة وطعنهم فى الصحابة حيث فسقوهم وبدعوهم ولم يقبلوا الحديث من طريقهم . فلما جاء المأمون وكان متضلعا من العلوم العقلية والنقلية رأى أن يقضى على الخلاف بين الفريقين ويوحد كلمة الأمة فى العقائد ويوجه جهودها الى محاربة الخارجين عن الشرع الشريف من أهل الزيغ والضلال فعقد مجالس المناظـرة لذلك فكان من ورائها

اتساع هوة الخلاف ورميه بالكفر والضلال ، فرأى أن يأخذ أهل الحديث بالشدة لما وقر فى صدره أن القرآن المكتوب فى المصاحف لاينبغى أن يرتاب فى حدوثه ولكنا نأخذ عليه أنه اشتط كثيرا فى مسلكه بأراقة الدماء البريئة واستعمال وسائل الارهاب والعنف . ولقد كان يكفيه — اذ فاته ما كان يقصد من القضاء على الخلاف — أن يحظر الرواية والفتوى على القصاص والزنادقة والجهلة من أدعياء الحديث ويأذن بذلك لأئمة الحديث والفقه ثم يترك العلماء بعد ذلك أحرارا فيما يذهبون وأن يسعه ما وسع سلف الأمة الصالح من الامساك عن الخوض فى مثل هذه الأمور التى لا يترتب عليها فائدة عملية للمسلمين .

وكذلك نأخذ على المعتزلة أنهم لم يكونوا على شىء من النبل فى الخصومة فانهم أخذوا المحق بذنب المبطل وسووا بين الاشراف والسفلة والعلماء والجهلة وسلوا سيف البغى على أئمة الدين ورواة الحديث من غير أن تأخذهم فى أحد رحمة .

لذلك قابلهم جمهور المسلمين بما يجب أن يقابلوا به بعد أن رفعت المحنة وزالت الشدة فلم تقم لهم قائمة من ذلك الوقت الى اليوم .

أما موقف المحدثين فى هذه المحنة فقد كان سليما ومحمودا ذلك أنهم أمسكوا عن الخوض فى أمور ضررها أكبر من نفعها فكانوا بذلك على طريقة السلف الصالح أغلقوا بموقفهم من الخلفاء والمعتزلة أبوابا من الشر لا نهاية لها ولو أنهم استكانوا وقالوا بخلق القرآن لكان ذلك ذريعة لاستدراجهم الى عقائد المعتزلة شيئا فشيئا وفى ذلك من الخطر ما فيه فجزاهم الله عن الدين وأهله أحسن الجزاء .

هذا وقد يقول قائل : ان مسألة خلق القرآن من أوضح المسائل

فهذه الألفاظ التى نقرؤها بألسنتنا كل يوم فى الصلاة وغيرها ونكتبها بأقلامنا فى المصاحف وغيرها لا يشك أحد فى أنها مخلوقة . فكيف يقف المحدثون هذا الموقف الذى جر عليهم كل هذه النكبات وهل يدخل فى عقل انسان أن هذه الألفاظ القرآنية قديمة وليست بمخلوقة . ونقول انه لم يخف على كبار أئمة الحديث أمثال الامام أحمد بن حنبل حقيقة الحال ولكنهم آثروا الامساك عن النطق بذلك محافظة على عقيدة العامة فالقرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفاته قديمة والعامى لا يميز بين كلام الله الذى هو الصفة القديمة وبين كلام الله المنزل الذى هو ألفاظ مكتوبة مقروءة وحادثة مخلوقة فاذا قيل ان القرآن مخلوق وهو كلام الله التبس الأمر على العامة بين الحادث والقديم لذلك لما طلب الى الامام أحمد أن يقول بخلق القرآن تقية . قال : (اذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق) وهذا أبو يعقوب البويطى يعرض عليه والى مصر أن يقول فيما بينه وبينه أن القرآن مخلوق ويطلقه فيقول « انه يقتدى بى مائة ألف ولا يدرون المعنى » ويفضل أن يؤتى به الى بغداد ويموت فى السجن .

من هنا نأخذ أن موقف المحدثين كان موقفا سليما فقد أحاطوا عقيدة العامة حتى لا تزل بهم الأهواء وحافظوا على قدسية القرآن فى نفوسهم وهم فى ذلك سالكون منهج السلف الصالح الذين وسعهم السكوت عن الخوض فى مثل هذه المسائل بل نهوا الناس عن الدخول فيما لا يعنيهم والتكلم بما يعلو على أفهامهم .

النتائج التى عادت على الحديث وأهله من وراء هذا النزاع

كان لهذا النزاع الشديد وذلك الصراع العنيف أثره البالغ فى الحديث والمحدثين واليك بعض هذه الآثار :

١ — كانت محنة القول بخلق القرآن خافضة رافعة رفعت رجال الحديث الى السماكين وخفضت المعتزلة الى الحضيض ومن هذا الحين عظم احترام العامة لأهل السنة وأحبوهم أكثر من ذى قبل وحمدوا لهم سيرتهم .

٢ — كان لموقف المحدثين أثر بالغ فى المحافظة على عقيدة العامة من أن تعصف بها بدع أهل الأهواء وتتجاذبها أعاصير الأباطيل وشكوك المموهين .

٣ — كان للقول بخلق القرآن أثر كبير فى جرح الرواة أو عدالتهم فالمأمون كان يرد رواية من لم يقل بخلق القرآن ويحكم بفسق الشهود والقضاة ان لم يقروا بذلك ، وكذلك فعل المحدثون ففسقوا من يقول بخلق القرآن وبالغ آخرون فردوا رواية من يثير الكلام فى هذه المسألة وأظن أن هذا كان سدا للذريعة فقط حتى يتناسى القوم المسألة وتمحى من الأذهان فلا يقع المسلمون فيها مرة أخرى .

وكادت شظايا هـذه الفتنة تصيب الامام البخارى فانه لما قدم نيسابور وسألوه عن اللفظ فقال : القرآن كلام الله غير مخلوق وأعمالنا مخلوقة . فلما سمع بذلك الامام الذهلى قال : « القرآن كلام الله غير مخلوق ومن زعم (لفظى بالقرآن مخلوق) فهو مبتدع لا يجلس الينا ولا نكلم من يذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل » فانقطع الناس عن البخارى الا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة [١] .

٤ — كان لهذه المعركة أثر سيىء فى وضع الحديث فقد انتهز الزنادقة ومن لا دين له هذا النزاع فوضعوا الأحاديث فيه واختلقوها زورا

---

(١) شروط الأئمة الخمسة للحازمي ص ٢١ .

وبهتانا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرووا عن أبى الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال القرآن مخلوق فقد كفر» ورووا عن أنس مرفوعا « كل ما فى السموات والأرض وما بينهما مخلوق غير الله والقرآن وذلك أنه كلامه منه بدأ واليه يعود وسيجىء أقوام من أمتى يقولون : القرآن مخلوق فمن قاله منهم فقد كفر بالله العظيم وطلقت امرأته من ساعته لأنه لا ينبغى للمؤمنة أن تكون تحت كافر الا أن تكون سبقته بالقول » وغير ذلك كثير فى اللآلىء المصنوعة للسيوطى وكشف الخفاء .

٥ — كان من النتائج السيئة لهذه الفتنة أن أهل الأهواء أطلقوا ألسنتهم حدادا فى ذم أهل الحديث فطعنوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزروا على المحدثين ورموهم بالجهل الفاضح وألصقوا بهم صفات المرتزقة من دعاة العلم وأدعياء الحديث وألفوا الكتب فى ذلك حتى جاء المستشرقون فى عصور الضعف العلمى والسياسى للمسلمين فوجدوا ثروة طائلة من هذه السخافات والمثالب وصوروا الاسلام فى صورة الخرافات وطعنوا بدورهم فى أئمة المسلمين وقد اغتربهم الجهلة فى عصرنا الحاضر ونسجوا على منوال آساتذتهم ورموا علماء المسلمين فى كل عصر بكل نقيصة وبهتان والله يشهد انهم لكاذبون

المبحث الثانى

نشاط أهل الأهواء فى وضع الأحاديث

حدثناك أيها القارىء عن جهود علماء الاسلام فى القرن الأول والثانى تجاه الوضاعين وأنهم أخذوا عليهم كل مسلك وقعدوا لهم كل مرصد وميزوا بين الدخيل والأصيل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

ووزنوا الرواة بميزان الجرح والتعديل وفحصوا عن مروياتهم وأسانيدهم وعلى الرغم من هذه الجهود العظيمة فانه ما كاد يطل هذا القرن الثالث حتى كثر الوضع فى الحديث بشكل مزعج فهؤلاء الزنادقة يبثون سمومهم لافساد عقائد المسلمين وهؤلاء الشعوبيون يضعون الحديث فى فضل الفرس وتفضيلهم على العرب ومن ورائهم القصاص يستولون على قلوب العامة بالمناكير .

ونحن نذكر لك شيئا من أعمال هذه الطوائف لتلمس الخطر الذى أحدق بالسنة وكاد يذهب بنورها وليكبر فى عينك ما قام به علماء الحديث من مطاردة الكذابين والقضاء على أباطيل الأفاكين بما صنفوه من الكتب الحافلة بالحديث وعلومه فى هذا العصر فنقول :

١ ـ التعصب للجنس وأثره فى وضع الحديث

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس من أهل خراسان وكانت هذه البلاد موطن التشيع لآل البيت ، ولما كان الفرس يفهمون أن الملك ينال بالوراثة تأثروا الى حد كبير بآراء الشيعة فعدوا بنى أمية غاصبين لحقوق آل البيت ينبغى قتالهم وتخليص الحق الى صاحبه الشرعى . وكانت الفرس أمة ذات حضارة وتأريخ عظيمين وكانت لهم السيطرة على كثير من الأمم العربية كالعراق واليمن فلما دالت دولتهم ووقعوا فى قبضة العرب وأصبحوا موالى لهم يتحكمون فيهم حنوا بعد ذلك الى عظمتهم الأولى ، ولما قام بنو العباس يطالبون بالخلافة وجدوا من الفرس قلوبا مستعدة لا سيما عند الخاصة منهم فقد كانوا يأملون الحصول على شىء من السلطان الضائع . لذلك رأينا أبا مسلم الخراسانى واضرابه يتفانون فى نصرة بنى العباس ويحاربون بنى أمية بكل سـلاح ، وفى

الواقع لم يكن الصراع بين بنى أمية وبنى العباس وانما كان بين العرب والفرس ، ولما استقر الأمر لبنى العباس لم يكونوا يتحمسون للعرب ضد الفرس لأن الفرس نصروهم وشيدوا لهم الملك بدمائهم ولأن بعض خلفاء بنى العباس كانوا من أمهات فارسيات لكن كانوا يتحمسون كثيرا لأمر الدين ولا تأخذهم رحمة فى محاربة الزنادقة وقتلهم والتشهير بهم ، وهل كان ذلك من الخلفاء حمية دينية أو فكرة سياسية . هذا ما لا يهمنا البحث فيه الآن . بل الذى يهمنا أن فكرة ظهرت على ألسن بعض العامة وأشربتها قلوب الخاصة ألا وهى فكرة تفضيل العجم على العرب والحط من شأن الآخرين وهى المعروفة عند المؤرخين بالشعوبية .

أثر الشعوبية فى الحديث

نمت هذه الفكرة وترعرعت فى القرن الثانى ثم بلغت أوجها فى القرن الثالث وساعد على ظهورها أن خلفاء بنى العبـاس لم يقابلوا العصبية الفارسية بالعصبية العربيـة كما كان الحـال فى الدولة الأموية بل لم يتعصبوا كثيرا للعربية وأن تعصبوا كثيرا للاسلام كما أشرنا اليه ، ولقد انتهز الشعوبيون هذا الضعف من الخلفاء وحاربوا العـرب وعابوهم وسخروا منهم وقالوا فى ذلك الاشعار والخطب الطوال وألفوا الكتب فى مفاخر العجم ومثالب العرب ولم يدعوا بابا من أبواب الهجاء الا طرقوه واستغلوا لهذه النزعة الخبيثة وضع الأحاديث ورواية الأكاذيب فى فضل الفرس وبلدانهم وعلمائهم . كما وضعوا أحاديث فى الحط من قيمة العرب وعلمائهم ، واليك بعض هذه الأباطيل التى اختلقوها .

قالوا : لما فتحت خراسان وتطاول اليها العساكر ، واجتمعت أذربيجان والجبال ضاق ذرع عمر بن الخطاب فقال : «مالى وخراسان وما بخراسان

من ولى وددت أن بينى وبين خراسان جبالا من برد وجبالا من نار وألف سد كل سد مثل سد يأجوج ومأجوج فقال على بن أبى طالب : مهلا يابن الخطاب هل أتيت بعلم محمد أو اطلعت على علم محمد فان لله بخراسان مدينة يقال لها (مرو) أسسها أخى ذو القرنين وصلى فيها عزير أنهارها سياحة وأرضها فياحة على كل باب من أبوابها ملك شاهر سيفه يدفع عن أهلها الآفات الى يوم القيامة وان لله بخراسان مدينة يقال لها (الطالقان) وأن كنوزها لاذهب ولا فضة ولكن رجال مؤمنون يقومون إذا نام الناس وينصرون اذا فشل الناس ، وان لله بخراسان لمدينة يقال لها (الشاش) القائم فيها والنائم كالمتشحط بدمه فى سبيل الله . وان لله بخراسان لمدينة يقال لها (بخارى) وان رجال بخارى آمنون من الصرخة عند الهول اذا فزعوا . مستبشرين اذا حزنوا فطوبى لبخارى يطلع الله عليهم فى كل ليلة اطلاعة فيغفر لمن يشاء منهم ويتوب على من تاب منهم .. الخ . وهو كلام طويل جدا . ومن ذلك قولهم « جور الترك ولا عدل العرب » وزعمهم الباطل أن الأعاجم ذكرت عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال « لأنا بهم أوثق منى بكم » وفى رواية « لأنا ببعضهم أوثق منى ببعضكم » . (سيأتى ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها الا دمشق) ، ومن ذلك ما رووه فى فضل محمد بن كرام السجستانى العابد المشهور بالتجسيم ووضع الحديث المتوفى سنة ٢٥٥ وقد ارتحل من خراسان الى الشام وأقام بها « يجىء فى آخر الزمان رجل يقال له محمد بن كرام يحيى السنة والجماعة هجرته من خراسان الى بيت المقدس كهجرتى من مكة الى المدينة » ، وما وضعوه فى فضل أبى حنيفة النعمان لأنه من أصل فارسى وذم الشافعى لأنه عربى « يكون فى أمتى رجل يقال له محمد ابن أدريس أضر على أمتى من ابليس ويكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتى » وضعه

مأمون بن أحمد الهروى من أهل القرن الثالث ومن ذلك « أن آدم افتخر بى وأنا أفتخر برجل من أمتى اسمه نعمان وكنيته أبو حنيفة وهو سراج أمتى « وفى رواية » ان سائر الأنبياء يفتخرون بى وأنا أفتخر بأبى حنيفة من أحبه فقد أحبنى ومن أبغضه فقد أبغضنى » .

هذا وقد استعمل العرب أو من تعصب لهم هذا السلاح سلاح الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك قولهم عن النبى صلى الله عليه وسلم « العرب سادات العجم » .

تلك هى آثار التعصب للجنس فى وضع الحديث وانك لتلمح فى بعضها معانى الالحاد فى الدين والدعوة الى التحلل من أحكامه، كقولهم فى فضل مدينة الشاش « القائم فيها والنائم كالمتشحط بدمه فى سبيل الله » (١) .

٢ ـ الزندقة وأثرها فى وضع الحديث

أكثر ما تطلق الزندقة عليه فى العصر العباسى — على ما يظهر — هو اتباع دين المجوس وخاصة دين (مانى) مع التظاهر بالاسلام ثم توسعوا فى استعمالها فأطلقوها على الملحد الذى لا دين له ، وعلى التهتك والفجور مع تبجح فى القول يصل أحيانا الى ما يمس الدين لكن لا عن نظر بل عن خلاعة ومجون .

وقد أشرنا عند الكلام على الدور السابق الى شىء من أعمال الزنادقة

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية للخضرى (نشأة الدولة العباسية) . ضحى الاسلام . ج ١ ص ٤٩ = ٧٤ . اللآلىء المصنوعة ج ١ ص ٤٤١ ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس ج ١ ص ٣٣٧ .

فى وضع الحديث وهنا نبين لك شيئا عن العوامل التى ساعدت على فشو الزندقة فى العصر العباسى وعن أثرها فى وضع الحديث فى هذا القرن الثالث .

ساعد على فشو الزندقة فى العصر العباسى عامة وفى القرن الثالث خاصة عدة أمور منها :—

١ — كثرة الجدال حول المسائل الأساسية فى الدين وشيوع الأبحاث الفلسفية فقد ترجمت كتب الحكمة والفلسفة وأقبل على قراءتها كثير من العلماء وبعض الخلفاء كالمأمون حتى رمى من أجل ذلك بالزندقة .

٢ — عدم حصول الفرس على حكومة فارسية بعد زوال دولة بنى أمية فأخذوا يكيدون للاسلام عن طريق افساد عقائد المسلمين ببث تعاليم المجوسية وبخاصة مذهب « مانى » .

٣ — اسناد السلطة الحكومية الى الموالى من الفرس واقصاء العرب عنها مكن للفرس من اظهار مذاهبهم القديمة وتعضيد من يتظاهر بها .

هذه هى أهم عوامل انتشار الزندقة التى مكنت الزنادقة من الكيد للاسلام وكان من أسهل الطرق عليهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبثوا فى الناس كثيرا من الأقاويل التى تشوه جمال الدين وتثير حوله المطاعن والشبه يريدون بهذا هدم الاسلام وتنفير الناس منه ودعوة المسلمين الى التحلل من أحكامه وبذلك تضعف شوكة المسلمين ويصير من السهل على هؤلاء الزنادقة التغلب على البقية الباقية من أهل الاسلام واعادة سلطانهم كما كان . فأخذوا ينشرون بين الناس تعاليم المجوسية ومذاهب المانوية وظهر منهم طوائف كثيرة بمذاهب خبيثة من

التجسيم وغيره وكان منهم القصاص والمتصوفة الذين يتظاهرون بالتقوى والورع ويضمرون الحقد على الدين وأهله [١] .

من أوضاع الزنادقة

ونحن نذكر لك طائفة من الأباطيل التى نسبوها للنبى صلى الله عليه وسلم وهو براء منها . فمن ذلك زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لما أراد الله خلق نفسه خلق الخيل فأجراها حتى عرقت ثم خلق نفسه من ذلك العرق » قال ابن عساكر حديث اجراء الخيل موضوع وضعته الزنادقة ليشنعوا به على أصحاب الحديث فى روايتهم المستحيل فقبله من لا عقل له وهو مما يقطع ببطلانه شرعا وعقلا .

ومن ذلك زعمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله تعالى خلق الملائكة من شعر ذراعيه وصدره أو من نورهما » (وانه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ينزل عشية عرفة على جمل أو رق يصافح الركبان ويعانق المشاة) وانه عليه السلام قال : « رأيت ربى فى المنام فى أحسن صورة شابا موقرا رجلاه فى خضرة له نعلان من ذهب على وجهه فراش من ذهب » وكروايتهم فى عجيزة الحوراء أنها ميل فى ميل وفيمن قرأ سورة كذا وكذا ومن فعل كذا وكذا أسكن من الجنة سبعين ألف قصر فى كل قصر سبعون ألف مقصورة فى كل مقصورة سبعون ألف مهاد على كل مهاد سبعون ألف كذا . وكروايتهم أن الفأرة كانت يهودية وأنها لاتشرب ألبان الأبل كما أن اليهود لا تشربها . وكروايتهم فى السنور أنه عطسة الأسد والخنزير أنه عطسة الفيل . وأن الضب كان يهوديا عاقا فمسخ .

---

(١) ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٣٧ وما بعدها .

وأن سهيلا كان عشارا باليمن وان الزهرة كانت بغيا عرجت الى السماء باسم الله الأكبر فمسخها الله شهابا وان الأرض على ظهر حوت [١] . الى غير ذلك من الأكاذيب والأباطيل .

مقاومة الخلفاء العباسيين للزنادقة

ولقد قاوم الخلفاء الزنادقة وطهروا الأرض من جراثيمهم فلم تأخذهم بهم هوادة بل قتلوهم وحبسوهم وشردوا بهم من خلفهم . اضطهدهم أبو جعفر المنصور فى خلافته ونكل بهم المهدى أيما تنكيل أيام دولته وعين للزنادقة رجلا سماه (صاحب الزنادقة) وكل اليه أمر ابادتهم والقضاء عليهم وأمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب فى الرد على الملحدين واقامة البراهين على المعاندين وايضاح الحق للشاكين . وأوصى ابنه موسى الهادى بالعمل على ابادة الزنادقة وشرح له أمرهم وسوء نيتهم نحو الاسلام والمسلمين وجاء عنه أنه قال : « والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف » وقد أنفذ الهادى وصية أبيه بكل أمانة . كذلك تعقبهم هارون الرشيد والمأمون من بعده ، روى أن المأمون بلغه خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة يذهبون الى قول (مانى) ويقولون بآله النور وآله الظلمة فأمر بحملهم اليه بعد أن سموا واحدا واحدا فكان يدعوهم رجلا رجلا ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالاسلام فيمتحنهم بأن يظهر لهم صورة (مانى) ويأمرهم أن يتفلوا عليها ويبرءوا منها فامتنعوا فقتلهم ، وفى عهد المعتصم كانت حادثة كبرى فى تاريخ الزندقة وهى محاكمة قائد جيوشه المسمى (بالأفشين) اتهم بالزندقة فحبس ومنع من الطعام والشراب حتى مات ثم صلب وأحرق بالنار [٢] .

---

(١) انظر مقدمة تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة .

(٢) انظر ضحى الاسلام ج ١ ص ١٤٠ .

القصص فى القرن الثالث وأثره فى الحديث

كما انتشرت الزندقة فى هـذا العصر كذلك ذاع القصص وكثر المحترفون له ولا ننسى أن بين هؤلاء القصاص فريقا من الزنادقة أيضا (كما أشرنا اليه آنفا) ومنهم المرتزقة ومدعو العلم والامامة فى الحديث ،

ولقد انتشر القصاص والزنادقة فى هذا العهد حتى أن الخلفاء كانوا يصدرون أوامرهم بمنع القصاص والمنجمين من الجلوس فى المساجد والطرقات . كذلك منعوا من بيع كتب الفلسفة ففى سنة ٢٧٩ هـ وهى السنة التى بويع فيها المعتضد الخليفة العباسى بالخلافة أصدر أمره بمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ومنع القصاص والمنجمين من القعود فى الطريق [١] .

هذا وان أصدق مرآة تتراءى لنا فيها أعمال القصاص فى هذا القرن ما ذكره العلامة الامام عبد الله بن مسلم بن قتيبـة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » [٢] . قال رحمه الله : الحديث يدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة «منها الزنادقة» واجتيالهم للاسلام وتهجينه بدس الأحاديث المستشنعة والمستحيلة كالأحاديث التى قدمنا ذكرها من عرق الخيل وعيادة الملائكة وقفص الذهب على جمل أورق وزغب الصدر ونور الذراعين مع أشياء كثيرة ليست تخفى على أهل الحديث ، ومنهم ابن أبى العوجاء الزنديق وصالح بن عبد القـدوس الدهرى « والوجه الثانى القصاص » على قديم الأيام فانهم كانوا يميلون وجوه العوام اليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤٦ .

(٢) ص ٣٥٥ وما بعدها .

من الأحاديث . ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجبا خارجا عن فطر العقول أو كان رقيقا يحزن القلوب ويستغزر العيون . فاذا ذكر الجنة . قال : فيها الحوراء من مسك أو زعفران وعجيزتها ميل فى ميل . ويبوىء الله تعالى وليّه قصرا من لؤلؤة بيضاء . فيه سبعون ألف مقصورة فى كل مقصورة سبعون ألف قبة فى كل قبة سبعون ألف فراش على كل فراش سبعون ألف كذا وكذا فلا يزال فى سبعين ألف كذا وسبعين ألف كذا كأنه يرى أنه لا يجوز أن يكون العدد فوق السبعين ألفا ولا دونها ويقول : لأصغر من فى الجنة منزلة عند الله من يعطيه الله تعالى مثل الدنيا كذا وكذا ضعفا . وكلما كان هـذا أكثر كان العجب أكثر والقعود عنده أطول والأيدى بالعطاء اليه أسرع . والله تبارك وتعالى يخبرنا فى كتابه بما فى جنته بما فيه مقنع عن أخبار القصاص وسائر الخلق الى أن قال : ثم يذكر آدم عليه السلام . ويصفه فيقول : كان رأسه يبلغ السحاب أو السماء ويحاكها فاعتراه لذلك الصلع ولما هبط على الأرض بكى على الجنة حتى بلغت دموعه البحر وجرت فيها السفن ، ويذكر داود عليه السلام فيقول : سجد لله تعالى أربعين ليلة وبكى حتى نبت العشب بدموع عينيه ثم زفر زفرة هاج له ذلك النبات ، ويذكر عصا موسى عليه السلام فيقول : كان نابها كنخلة سحوق وعينها كالبرق الخاطف وعرفها كذا ثم قال : ويذكر عبادا أتاهم يونس عليه السلام فى جبل لبنان فيخبرهم عن الرجل منهم أنه كان يركع ركعة فى سنة ويسجد نحو ذلك ولا يأكل الا فى كذا وكذا من الزمان ثم قال : (وأما الوجه الثالث الذى يقع فيه فساد الحديث فأخبار متقادمة كان الناس فى الجاهلية يروونها تشبه أحاديث الخرافة) كقولهم ان الضب كان يهوديا عاقا فمسخه الله تعالى ضبا ، وكقولهم فى الديك والغراب أنهما كانا

متنادمين فلما نفد شرابهما رهن الغراب الديك عند الخمار ومضى فلم يرجع اليه وبقى الديك عند الخمار حارسا . ا هـ ، وروى السيوطى فى كتابه[١] تحذير الخواص من أكاذيب القصاص عن جعفر بن محمد الطيالسى قال : « صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة فقام بين أيديهم قاص فقال حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالا حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال لا اله الا الله خلق الله من كل كلمة طيرا منقاره من ذهب وريشه من مرجان وأخذ فى قصة نحوا من عشرين ورقة فجعل أحمد ينظر الى يحيى بن معين ويحيى ينظر الى أحمد فقال له أنت حدثته بهذا فقال والله ما سمعت بهذا الا الساعة فلما فرغ من قصصه وأخذ القطيعات ثم قعد ينتظر بقيتها قال يحيى بن معين بيده تعال فجاء متوهما لنوال ، فقال له يحيى من حدثك بهذا الحديث فقال أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين ، فقال له أنا يحيى بن معين وهذا أحمد بن حنبل ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فان كان ولابد والكذب فعلى غيرنا . فقال له : أنت يحيى بن معين . قال نعم . قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق ما حققته الا الساعة . فقال له يحيى وكيف علمت أنى أحمق . قال كأن ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما . قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين . فوضع أحمد كمه على وجهه وقال دعه يقوم فقام كالمستهزىء بهما » ا هـ .

المبحث الثالث

تراجم لبعض أئمة الحديث فى هذا العصر

اشتهر فى هذا القرن كثير من نحارير المحدثين وجهابذة السنة كانت

(١) ص ٤٨ وما بعدها .

لهم أياد بيضاء فى خدمة الحديث ومعرفة رجاله والبحث عن علله واليك طائفة منهم : —

على بن المدينى

كان من أئمة الحديث الممتازين لم يترك بابا من أبوابه الا طرقه وبخاصة ما يرجع الى الرجال والعلل ، وقد صنف فى ذلك الكتب الكثيرة التى لم يسبق الى معظمها ولم يلحق فى كثير منها . لذا أثنى عليه العلماء وشهدوا له بالتقدم والمعرفة فسفيان بن عيينة وهو من شيوخه يقول : (والله لقد كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم منى) . وكذلك قال يحيى بن القطان وهو من مشايخه ، وقال البخارى : (ما استصغرت نفسى عند أحد قط الا عند على بن المدينى) ، وقال أبو حاتم : (كان ابن المدينى علما فى معرفة الحديث والعلل) ، هذا وقد ذكر الحاكم فى معرفة علوم الحديث جملة وافرة من مؤلفاته تدل على رسوخ قدمه واتساع أفقه فى علوم السنة فمن ذلك كتاب الاسامى والكنى ثمانية أجزاء ، وكتاب الضعفاء عشرة أجزاء ، وكتاب المدلسين خمسة أجزاء ، وكتاب الطبقات عشرة أجزاء ، وكتاب علل المسند ثلاثون جزءا ، وكتاب علل حديث ابن عيينة ثلاثة عشر جزءا ، وكتاب من لا يحتج بحديثه ولا يسقط جزءان ، وكتاب الكنى خمسة أجزاء ، وكتاب الوهم والخطأ خمسة أجزاء ، وكتاب من نزل من الصحابة سائر البلدان خمسة أجزاء ، وكتاب من حدث ثم رجع عنه جزءان ، وكتاب اختلاف الحديث خمسة أجزاء ، وكتاب العلل المتفرقة ثلاثون جزءا ، وكتاب مذاهب المحدثين جزءان . الى غير ذلك من مصنفاته الباهرة التى تدل على تبحره وتقدمه وكمال

معرفته . توفى رحمه الله سنة ٢٣٤ هـ . بسرمرى [١] .

يحيى بن معين

هو أحد الأئمة الأربعة الذين انتهت اليهم الزعامة فى الحديث — أحمد بن حنبل ويحيى بن معين . وعلى بن المدينى . وأبى بكر بن أبى شيبة — سمع الحديث من ابن المبارك وابن عيينة وابن مهدى وهشيم ووكيع وغيرهم ، وسمع منه أبو زرعة الرازى وأبو حاتم والبخارى ومسلم وأبو داود وكثير غيرهم . أجمع العلماء على امامته وجلالته فى هذا الشأن لا سيما ما يتعلق بالجرح والتعديل وكشف حال الكذابين مع التثبت والتمكن حتى رووا عنه أنه استقبل القبلة ورفع يديه يقول : (اللهم أن كنت تكلمت فى رجل ليس هو عندى كذابا فلا تغفر لى) ، ورووا عنه أنه قال : (لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجها ما علقناه) . قال فيه أحمد بن حنبل : (السماع من يحيى بن معين شفاء لما فى الصدور) وقال أيضا : (يحيى بن معين رجل خلقه الله لهذا الشأن يظهر كذب الكذابين وكل حديث لا يعرفه يحيى ليس بحديث) وقال ابن المدينى : (ما رأيت فى الناس مثله) وقد عده الحاكم فى كتابه علوم الحديث من فقهاء المحدثين . توفى بالمدينة المنورة سنة (٢٣٣) ودفن بالبقيع ، ونودى يوم وفاته : هذا الذى كان ينفى الكذب عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] .

أبو بكر بن أبى شيبة

هو الحافظ المتقن عبد الله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى . روى عن

---

(١) تهذيب الأسماء للنووى ج ١ ص ٣٥٠ . فهرست ابن النديم ص ٣٢٢ ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧١ .

(٢) تهذيب الأسماء للنووى ج ١ ص ١٥٦ — الفهرست لابن النديم ص ٣٢٢ — معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧٢ .

أبى الأحوص وابن المبارك وشريك وهشيم وجرير بن عبد الحميد ووكيع وابن علية وابن مهـدى وابن القطان وابن عيينـة وزيد بن هارون وخلق كثير .

وروى عنه البخارى ومسـلم وأبو داود وابن ماجه ، وروى له النسائى بواسطة أحمد بن على القاضى ، وابنه أبو شيبة ابراهيم ، واحمد ابن حنبل ومحمد بن سعد وأبو زرعة وأبو حاتم وعبد الله بن أحمد ابن حنبل وابراهيم الحربى وكثير غيرهم . كان أبو بكر ثقة حافظا للحديث أثنى عليه بالحفظ والاتقان كثير من أهل عصره . قال أبو عبيد القاسم : (انتهى العلم الى أربعة : فأبو بكر أسردهم له وأحمد أفقههم فيه ويحيى أجمعهم له وعلى أعلمهم به) . وقال صالح بن محمد : (أعلم من أدركت بالحديث وعلله على بن المدينى وأعلمهم بتصحيف المشايخ يحيى بن معين وأحفظهم عند المذاكرة أبو بكر بن أبى شيبة) . وقال أبو زرعة الرازى : (ما رأيت أحفظ من أبى بكر بن أبى شيبة) وقال ابن حبان : كان متقنا حافظا دينا ممن كتب وجمـع وصنف وذاكر وكان أحفظ أهل زمانه للمقاطيع . توفى رضى الله عنه سنة (٢٣٥) [١] .

أبو زرعة الرازى

هو عبد الله بن عبد الكريم أحد الحفاظ المشهورين أثنى عليه أهل عصره بالعلم والورع والحفظ وشهدوا له بالتفوق على أقرانه . قالوا : كان يحفظ سبعمائة ألف حديث . وكان فى شبيبته اذا اجتمع بأحمد بن حنبل اقتصر أحمد على الصلوات المكتوبات ولا يفعل المندوبات اكتفاء

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢ .

بمذاكرته وحسبك هذا من مثل أحمد بن حنبل دليلا على اتقان أبى زرعة وحفظه وضبطه . روى الحاكم فى معرفة علوم الحديث : (لما انصرف قتيبة بن سعد الى الرى سألوه أن يحدثهم فامتنع وقال : أحدثكم بعد أن حضر مجلسى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وأبو بكر بن أبى شيبة وأبو خيثمة . فقالوا له : أن عندنا غلاما يسرد كل ما حدثت به مجلسا مجلسا . قم يا أبا زرعة فقام أبو زرعة فسرد كل ما حدث به قتيبة فحدثهم قتيبة) وعده الحاكم فى فقهاء الحديث فى كتابه المذكور . توفى رحمه الله سنة (٢٦٤) [١] .

أبو حاتم الرازى

هو محمد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران أبو حاتم الحنظلى الرازى أحد الأئمة الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الحديث والجرح والتعديل وهو قرين أبى زرعة سمع الكثير وطاف الأقطار وروى عن كثير من الأئمة الكبار . جاء عنه أنه قال لابنه عبد الرحمن : يا بنى مشيت على قدمى فى طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ ، وكان يتحدى من حضر عنده من الحفاظ وغيرهم يقول : من أغرب على بحديث واحد صحيح فله على درهم أتصدق به قال ومرادى (سمع ما ليس عندى) فلم يأت أحد بشىء من ذلك وكان من جملة من حضر أبو زرعة الرازى . أجمعوا على جلالته وعلو شأنه فى الحديث وعلله وعده الحاكم من فقهاء الحديث . توفى رحمه الله سنة (٢٧٧) [٢] .

محمد بن جرير الطبرى

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى .

---

(١) تاريخ ابن كثير ج ١١ ص ٣٧ . معرفة علوم الحديث ٧٥ وما بعدها

(٢) تاريخ ابن كثير ج ١١ ص ٥٩ . معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٧٦

ولد بآمل سنة (٢٢٤) واستوطن بغداد حتى توفى بها ، وكان يعد فى طبقة الترمذى والنسائى . سمع كثيرا من شيوخ البخارى ومسلم وغيرهم وحدث عنه كثير من العلماء منهم أحمد بن كامل ، ومحمد بن عبد الله الشافعى ، ومخلد بن جعفر ، كان ابن جرير من أكابر الأئمة يحكم بقوله ويرجع الى معرفته وعلمه حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات كلها بصيرا بالمعانى فقيها فى الأحكام عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم عارفا بأيام الناس وأخبارهم ، وله من المصنفات كتابه المشهور (تاريخ الأمم والملوك) وكتاب التفسير الذى قال فيه أبو حامد الاسفرائينى : (لو سافر رجل الى الصين ليحصل تفسير ابن جرير الطبرى لم يكن هذا كثيرا) وكتاب (تهذيب الآثار) ألا أنه لم يتمه ولو تم لكان آية فى علوم السنة . ابتدأ فيه بما رواه أبو بكر الصديق وتكلم على كل حديث وعلته وطرقه وما فيه من الفقه واختلاف العلماء وحججه واللغة فتم مسند العشرة وأهل البيت والموالى وقطعة من مسند ابن عباس وهو من عجائب كتبه . قال ابن كثير فى التاريخ وقد رأيت له كتابا جمع فيه أحاديث (غدير خم) فى مجلدين ضخمين وكتابا جمع فيه طرق حديث الطير . توفى رحمه الله سنة (٣١٠) [١] .

ابن خزيمة

هو محمد بن اسحاق أبو بكر بن خزيمة النيسابورى امام الأئمه رحل الى الرى وبغداد والبصرة والكوفة والشام والجزيرة ومصر وواسط ، وسمع الحديث من خلق كثير منهم اسحاق بن راهويه ومحمد بن حميد

---

(١) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ١٤٥ وما بعدها — ومفتاح السنة ص ٣٣ طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١٣٥ .

الرازى ولم يحدث عنهما لكونه سمع منهما فى صغره ، وحدث عن محمود ابن غيلان ومحمد بن ابان المستملى واسحاق بن موسى الخطمى وأبى قدامة السرخسى وغيرهم ، وروى عنه الأئمة الكبار كالبخارى ومسلم خارج الصحيح ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم شيخه ويحيى ابن محمد بن صاعد وأبو على الغسانى واسحاق بن سعد النسوى وخلائق كثير .

كان ابن خزيمة قبلة العلم والعلماء واماما يقصده الناس من كل ناحية .

كالبحر يقذف للقريب جواهرا كرما ويبعث للغريب سحائبا

وكان شديد التحرى للحديث حتى ليتوقف فى التصحيح لأدنى كلام يقال فى الاسناد . روى الحاكم عن أبى العباس بن سريج أنه قال فيه : (أنه يخرج النكت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنقاش) وقال الربيع بن سليمان : (استفدنا من ابن خزيمة أكثر مما استفاد منا) وقال محمد بن حبان التميمى : (ما رأيت على وجه الأرض من يحسن صناعة السنن ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها حتى كأن السنن كلها بين عينيه الا محمد بن اسحاق) ، وقال الدارقطنى : (كان ابن خزيمة اماما ثبتا معدوم النظير) . عده الحاكم من فقهاء الحديث قال : (ومصنفاته تزيد على مائة وأربعين كتابا سوى المسائل والمسائل المصنفة أكثر من مائة جزء فان فقه حديث بريرة ثلاثة أجزاء ومسألة الحج خمسة أجزاء) وله كتاب الصحيح وهو من أجل كتب الحديث يتلو صحيح مسلم بن الحجاج على ما ذكره السيوطى فى ألفيته الا أنه قد انعدم أكثره . توفى رحمه الله سنة (٣١١) [١] .

(١) الطبقات الكبرى للشافعية جـ ٢ ص ١٣٠ . معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٨٣ ــ الرسالة المستطرفة للكتانى ص ١٧ .

محمد بن سعد كاتب الواقدى

هو الامام الحافظ المؤرخ الثقة أبو عبد الله محمد بن سعد ابن منيع القرشى الهاشمى ولاء البصرى ثم البغدادى . كان أبوه مولى الحسين ابن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى . ولد بالبصرة سنة ١٦٨ وتوفى ببغداد سنة ٢٣٠ .

روى عن محمد بن عمر الواقدى ، وبه تخرج ، وعن ابن علية وسفيان ابن عيينه ويزيد بن هارون الواسطى وعبيد الله بن موسى العبسى . وأبى نعيم الفضل بن دكين الكوفى وغيرهم من شيوخ الرواية بالبصرة والكوفة وواسط وبغداد ومكة المكرمة والمدينة المنورة والشام واليمن ومصر وسائر البلاد ، وهو من المكثرين جدا من الرواية عن شيوخ الأمصار وعمدته فى العلم ذلك البحر المواج محمد بن عمر الواقدى ومن روى عنه مصعب الزبيرى ، والحارث محمد بن أبى أسامة صاحب المسند ، وأحمد بن عبيد بن ناصح الهاشمى ، وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى صاحب فتوح البلدان ، وأبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبى الدنيا ، والحسين بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن فهم راوية الطبقات الكبرى عن ابن سعد وهو الذى قال عن شيخه : (كان كثير العلم كثير الكتب كتب الحديث والفقه والغريب) .

كان إبن سعد مرضيا عند الرواة حيث لم يلابس الفتن الهوجاء فى عهد المأمون وبعده فأمكنه ذلك نشر علمه وعلم أستاذه وبقيت كتبه محفوظة مقبولة عندهم ومن أهمها كتاب الطبقات الكبير جمع فيه صفوة ما ذكره علماء السير أمثال الشعبى ، والأوزاعى ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن اسحاق الواقدى . ذكر فى هذا الكتاب أخبار الأنبياء عليهم

السلام وسائر آباء سيد المرسلين وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم تمهيدا لذكر سيره ومغازيه عليه السلام وبعد أن انتهى من السيرة النبوية ذكر طبقات الصحابة والتابعين ومن بعدهم الى وقته ووزعهم على أمصار المسلمين : المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، والشام ، واليمن ، ومصر ، والكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، وسائر البلدان ، وهو أقدم كتاب متوارث فى موضوعه لا يستغنى عنه محدث ولا فقيه ولا مؤرخ وقد أجاد فيه وأحسن . لكن ليس كل ما فيه من الروايات قويا بل بين أسانيده ما هو مقطوع أو مرسل . وانما فعل ذلك ليستوفى جميع ما ورد فى الموضوع الذى يبحث عنه . وتمحيص هذه الأسانيد هين عند أهل العلم . هذا والذين جاءوا بعد ابن سعد ممن كتب فى الرجال هم عالة على علمه ومع ذلك فقد فاتهم ترتيبه وسياق أسانيده بسبب اختصارهم [١] .

اسحاق بن راهويه

هو إسحاق بن ابراهيم بن مخلد بن ابراهيم أبو يعقوب الحنظلى المروزى المعروف بابن راهويه — راهويه لقب أبيه ابراهيم — كان من أئمة المسلمين والعلماء البارزين . جمع الى امامته فى الحديث امامته فى الفقه وبراعته فيه مع الحفظ والصدق والورع والزهد . رحل الى العراق والحجاز واليمن والشام ، وسمع جرير بن عبدالحميد الرازى ، واسماعيل ابن علية ، وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ، وبقية بن الوليد ، وعبد الرازق بن همام ، والنضر بن شميل وآخرين ، وروى عنه محمد ابن اسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى ، ومحمد بن نصر المروزى ، وأبو عيسى الترمذى ، وأحمد بن سلمة وكثير غيرهم ،

(١) تاريخ بغداد للخطيب ومقدمة الطبقات الكبرى للشيخ محمد زاهد الكوثرى . طبع مصر .

وروى عنه من قدماء شيوخه يحيى بن آدم [١] ، وبقية بن الوليد ، ومن أقرانه أحمد بن حنبل ، وكان رحمه الله مضرب المثل فى الحفظ والاتقان والامامة والصدق قال عن نفسه :(أعرف مكان مائة ألف حديث كأنى أنظر اليها وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلب وأحفظ أربعة آلاف حديث مزورة . فقيل له ما معنى حفظ المزورة ؟ قال اذا مر بى منها حديث فى الأحاديث الصحيحة فليته منها فليا) ، وقيل له انك تحفظ مائة ألف حديث ؟ قال : (مائة ألف ما أدرى ما هو ولكنى ما سمعت شيئا قط الا حفظته ولا حفظت قط شيئا فنسيته) ، وقال أبو داود الخفاف : (أملى علينا اسحاق بن راهويه أحد عشر ألف حديث من حفظه ثم قرأها علينا فما زاد حرفا ولا نقص حرفا) ، وقال أبو حاتم الرازى : (ذكرت لأبى زرعة اسحاق بن ابراهيم الحنظلى وحفظه للأسانيد والمتون فقال أبو زرعة : ما رؤى أحفظ من اسحاق) ، قال أبو حاتم (والعجب من اتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من الحفظ) وكلام الأئمة فى الثناء على اسحق يطول ذكره فنكتفى بذلك . قال أبو داود : (اسحاق بن راهويه تغير قبل أن يموت بخمسة أشهر وسمعت منه فى تلك الأيام ورميت به . ولد سنة ١٦١ وتوفى سنة ٢٣٨ بنيسابور عن سبع وسبعين سـنة [٢] .

الامام أحمد بن حنبل

هو امام الأئمة وحافظ الأمة وفقيهها أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى ثم البغدادى .

---

(١) روى عن اسـحاق بن راهويه قال . كتب عنى يحيى بن آدم الفى حديث .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب جـ ٦ ص ٣٤٥ وما بعـدها .

ولد فى بغداد سنة ١٦٤ . وفى حداثته كان يختلف الى مجلس القاضى أبى يوسف ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث سنة ١٨٧ . وقد طاف فى البلاد والآفاق وسمع من مشايخ العصر وكانوا يجلونه ويحترمونه ومن مشايخه هشيم وابراهيم بن سعيد وسفيان بن عيينة وتفقه بالشافعى حين قدم بغداد ولزمه واستفاد منه ، وعنى عناية عظيمة بالسنة والفقه حتى عده أهل الحديث أمامهم وفقيههم ، وقد أخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل منهم محمد بن اسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى والشافعى وعبد الرزاق ووكيع وهؤلاء الثلاثة من شيوخه ، وقد كان الامام الشافعى على جلالة قدره فى الحديث والفقه يعتمد الامام أحمد فى تصحيح الأحاديث وتضعيفها ولذلك لما اجتمع به فى بغداد سنة ١٩٨ . قال له يا أبا عبد الله اذا صح عندكم الحديث فأعلمنى به أذهب اليه حجازيا كان أو شاميا أو عراقيا أو يمنيا ، وعمر أحمد اذ ذاك نيف وثلاثون سنة ، وقال الشافعى : خرجت من العراق فما تركت رجلا أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من احمد بن حنبل ، وكذلك اعترف له بعلو المكانة فى العلم والحديث علماء عصره على اختلاف ميولهم ومشاربهم قال اسحاق بن راهويه : (أحمد حجة بين الله وبين عبيده فى أرضه) وقال يحيى بن معين : (كان فى أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها فى عالم قط كان محدثا وكان حافظا وكان عالما وكان ورعا وكان زاهدا وكان عاقلا) وقال أيضا : (أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطيق سلوك طريقه) اهـ .

وقد استحوذ جماعة من المعتزلة على المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ودعوهم الى أن يحملوا الناس على القول بخلق القرآن وممن أريد على ذلك الامام أحمد بن حنبل فأبى كل الاباء فضرب وحبس وهو

مصر على الامتناع سنة (٢٢٠) فى عهد المعتصم . قال بشر الحافى بعد ما ضرب أحمد : (أدخل أحمد الكير فخرج ذهبا أحمر) وقال على بن المدينى : (ما قام أحد فى الاسلام ما قام أحمد بن حنبل) ولما بلغت هذه المقالة أبا عبيد القاسم بن سلام قال : (صدق على ، ان أبا بكر وجد يوم الردة أنصارا وأعوانا وأن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان) ثم أخذ أبو عبيد يطريه ويقول (لست أعلم فى الاسلام مثله) . وقد توفى أحمد رحمه الله سنة ٢٤١ ببغداد وله عند العلماء حسن الذكرى وجميل الأحدوثة — تاريخ ابن كثير (١٠ — ٣٣٥) .

الامام البخارى

هو امام المحدثين وشيخ الحفاظ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفى مولاهم . امام أهل الحديث فى زمانه ، والمقتدى به فى أوانه والمقدم على سائر أقرانه . ولد البخارى رحمه الله ببخارى سنة (١٩٤) هـ وألهمه الله حفظ الحديث وهو فى المكتب قال الفربرى : سمعت محمد بن أبى حاتم وراق البخارى يقول : سمعت البخارى يقول : ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتاب قلت وكم أتى عليك اذ ذاك فقال عشر سنين أو أقل ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف الى الداخلى وغيره فقال يوما فيما كان يقرأ للناس : سفيان عن أبى الزبير عن ابراهيم . فقلت أن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم فانتهرنى فقلت له ارجع الى الأصل ان كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال كيف هو يا غلام فقلت هو الزبير وهو ابن عدى عن ابراهيم فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال لى صدقت قال : فقال له انسان ابن كم حين رددت عليه ؟ فقال ابن احدى عشرة سنة . قال فلما طعنت فى ست عشرة سنة

حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء يعنى أصحاب الرأى قال ثم خرجت مع أمى وأخى الى الحج . قال : ولما طعنت فى ثمانى عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ فى المدينة عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم وكنت أكتبه فى الليالى المقمرة وقل اسم فى التاريخ الا وله عندى قصة ألا أنى كرهت أن يطول الكتاب .

ارتحل البخارى لطلب الحديث وتنقل فى البلاد . قال سهل ابن السرى : قال البخارى : (دخلت الى الشام ومصر والجزيرة مرتين والى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصى كم دخلت الى الكوفة وبغداد مع المحدثين) وكان لا يجارى فى حفظ الحديث سندا ومتنا مع تمييزه للصحيح منه والسقيم . دخل مرة الى سمرقند فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها فجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها وخلطوا فى الأسانيد فأدخلوا أسناد الشام فى أسناد العراق ثم قرءوها على البخارى يقصدون امتحانه فرد كل حديث الى أسناده وقوم تلك الأحاديث والأسانيد كلها ولم يقدروا أن يأخذوا عليه سقطة فى أسناد ولا متن وكذلك صنعوا معه فى بغداد فأذعنوا له بالفضل والسبق ، وقد ذكروا أنه كان ينظر فى الكتاب فيحفظه من نظرة واحدة والأخبار عنه فى ذلك كثيرة . وقد أثنى عليه علماء زمانه من شيوخه وأقرانه . فقال الامام أحمد : ما أخرجت خراسان مثله ، وقال ابن المدينى : لم ير البخارى مثل نفسه ، وقال محمود بن النظر بن سهل الشافعى : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ورأيت علماءها كلما جرى ذكر محمد بن اسماعيل البخارى فضلوه على أنفسهم . وقال أحمد بن حمدون القصار : (رأيت مسلم بن الحجاج جاء الى البخارى فقبل بين عينيه وقال : دعنى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث فى علله ، ثم

سأله عن حديث كفارة المجلس ، فذكر له علته ، فلما فرغ قال مسلم : لا يبغضك الا حاسد ، وأشهد أن ليس فى الدنيا مثلك) ، وقال الترمذى : (لم أر بالعراق ولا بخراسان فى معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من البخارى) وقال ابن خزيمة : (ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحفظ له من محمد بن اسماعيل البخارى) وكان البخارى رحمه الله من الأئمة المجتهدين فى الفقه واستنباط الأحكام من السنن والآثار ومما يؤثر عنه قوله : (لا أعلم شيئا يحتاج اليه الا وهو فى الكتاب والسنة) فقيل له يمكن معرفة ذلك فقال نعم ، وتراجمه على الأحاديث فى كتابه الجامع الصحيح تدل على ذلك . قال اسحاق بن راهويه أحد شيوخه : (لو كان البخارى فى زمن الحسن لاحتاج الناس اليه فى الحديث ومعرفته وفقهه) ، وقال أبو نعيم وأحمد ابن حماد وغيرهما : (البخارى فقيه هذه الأمة) ، وقال أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمى : (محمد بن اسماعيل البخارى أفقهنا وأعلمنا وأغوصنا وأكثرنا طلبا) وقال ابن كثير فى التاريخ : (ومنهم من فضله فى الفقه والحديث على الامام أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه) وقد كان البخارى رحمه الله فى غاية الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد فى الدنيا شريف النفس بعيدا عن الأمراء والسلاطين حتى أن أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلى طلب اليه أن يحضر ليسمع أولاده منه فأبى أن يذهب . وقال : فى بيته يؤتى العلم فأراد الأمير أن يصرف الناس عن السماع منه فلم يقبلوا من الأمير فأمر عند ذلك بنفيه فنزح البخارى من بلده الى بلدة يقال لها (خرتنك) على فرسخين من سمرقند وجعل يدعو الله أن يقبضه اليه حين رأى الفتن فى الدين فمرض على أثر ذلك وتوفى ليلة عيد الفطر عن اثنتين وستين سنة وقد ترك بعده علما نافعا

لجميع المسلمين بما بثه فى مؤلفاته من العلم الغزير ومن هذه المؤلفات : قضايا الصحابة والتابعين والتاريخ الكبير والتاريخ الأوسط والتاريخ الصغير والأدب المفرد والقراءة خلف الامام وبر الوالدين وخلق أفعال العباد وكتاب الضعفاء والجامع الكبير والمسند الكبير والتفسير الكبير وكتاب الأشربة وكتاب الهبة وأسامى الصحابة وكتاب الوحدان وكتاب المبسوط وكتاب العلل وكتاب الكنى وكتاب الجامع الصحيح وهو أجل كتبه نفعا وأعلاها قدرا . رحم الله البخارى رحمة واسعة وأجزل له العطاء آمين (١) .

الامام مسلم بن الحجاج

هو الامام الكبير وحافظ الحفاظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى . ولد بنيسابور سنة (٢٠٤) ، وطلب الحديث صغيرا ورحل فى طلبه الى جميع محدثى الأمصار فرحل الى العراق والحجاز والشام ومصر ، وأخذ عن شيوخها من مشايخ البخارى وغيرهم . ولما ورد البخارى نيسابور فى آخر أمره لازمه مسلم وأدام الاختلاف اليه ونظر فى علمه وحذا حذوه وكان يناضل عنه ، وقد هجر من أجله شيخه محمد ابن يحيى الذهلى لما قال يوما لأهل مجلسه وفيهم مسلم بن الحجاج ألا من كان يقول بقول البخارى فى مسألة «اللفظ بالقرآن» فليعتزل مجلسنا فنهض مسلم من فوره الى منزله وجمع ماكان سمعه من الذهلى وأرسله اليه وترك الرواية عنه فى الصحيح وغيره ، روى عن مسلم جماعة كثيرون من أئمة عصره وحفاظه وفيهم طائفة من أقرانه ومنهم أبو حاتم الرازى وموسى بن هارون وأحمد بن سلمة والترمذى وغيرهم . أجمعوا

---

(١) تاريخ ابن كثير ج ١١ ص ٢٤ وما بعدها ومفتاح السنة ص ٣٨ — ٣٩ — مقدمة فتح البارى الجزء الثانى ص ١٩٣ وما بعدها .

على جلالته وامامته وعلو مرتبته فى السنة وحذقه فيها وتضلعه منها ومن أكبر الدلائل على ذلك كتابه الصحيح الذى لم يوجد فى كتاب قبله ولا بعده ما فيه من حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان والاحتراز من التحويل فى الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة وتنبيهه على ما فى ألفاظ الرواة من اختلاف فى المتن أو الأسانيد ولو قل ، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين وغير ذلك مما هو معروف فى كتابه ، وقد أثنى عليه كثير من العلماء من أهل الحديث وغيرهم . قال أحمد بن سلمة : (سمعت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلم بن الحجاج فى معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما) وقال اسحاق بن منصور لمسلم : (لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين) .

صنف مسلم فى علم الحديث كتبا كثيرة منها كتابه الصحيح الذى من الله به على المسلمين ومنها الكتاب المسند الكبير على أسماء الرجال ، وكتاب الجامع الكبير على الأبواب . وكتاب العلل وكتاب أوهام المحدثين وكتاب التمييز وكتاب من ليس له الا راو واحد وكتاب طبقات التابعين وكتاب المخضرمين وغير ذلك . توفى رحمه الله بنيسابور (٢٦١) عن ٥٧ عاما (تهذيب الأسماء وتاريخ ابن كثير ١١ — ٣٢) .

الامام النسائى

هو الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائى نسبة الى نساء بلدة مشهورة بخراسان ، ويقال النسوى بقلب الهمزة واوا . ولد رحمه الله سنة (٢١٥) وكان أحد أعلام الدين وأئمة الحديث امام أهل عصره وقدوتهم بين أصحاب الحديث فى معرفة الجرح والتعديل . قال الحاكم أبو عبد الله (سمعت الدارقطنى غير

مرة يقول : أبو عبد الرحمن مقدم على كل من يذكر بعلم الحديث من أهل زمانه فى جرح الرواة وتعديلهم وكان شديد التحفظ والورع فتراه يقول فى سننه وهو يروى عن الحارث بن مسكين : هكذا قرىء عليه وأنا أسمع ولا يقول فى الرواية عنه : حدثنا أو أخبرنا كما يقول فى روايات أخرى عن مشايخه) .

سمع إسحاق بن راهويه ، وأبا داود السجستانى ، ومحمود بن غيلان وقتيبة بن سعيد وعلى بن خشرم وغيرهم من أهل خراسان والحجاز والجزيرة ومصر والشام وغيرها ، وأخذ عنه الحديث خلق كثير منهم الدولابى ، وأبو القاسم الطبرانى وأبو جعفر الطحاوى ومحمد بن هارون ابن شعيب .

رحل وهو ابن (١٥) سنة الى قتيبة بن سعيد البلخى ومكث عنده سنة وشهرين وأخذ عنه الحديث وقدم مصر وأقام بها طويلا وانتشرت بها تصانيفه وأخذ عنه الناس ثم خرج منها سنة (٣٠٢) الى دمشق فسئل عن معاوية وما روى من فضائله ففضل عليا عليه فما زالوا به حتى قتلوه ضربا . قال الدارقطنى : (لما امتحن النسائى بدمشق قال احملونى الى مكة فحمل اليها فتوفى بها ودفن بين الصفا والمروة) وصوب الذهبى أنه مات بالرملة بفلسطين .

نقل التاج السبكى عن شيخه الحافظ الذهبى ووالده التقىّ السبكى أن النسائى أحفظ من مسلم صاحب الصحيح وأن سننه أقل السنن بعد الصحيحين حديثا ضعيفا ، بل قال بعض الشيوخ أنه أشرف المصنفات كلها وما وضع فى الاسلام مثله ، وقد قال ابن منده وابن السكن وأبو على النيسابورى وأبو أحمد بن عدى والخطيب والدارقطنى (كل ما فى سنن النسائى صحيح) لكن فى هذا تساهل صريح وشذ بعض المغاربة ففضله

على كتاب البخارى ولعله لبعض الحيثيات الخارجة عن كمال الصحة ، وقال أبو على النيسابورى : (للنسائى شرط فى الرجال أشد من شرط مسلم) ، وهذا القول غير مسلم قال البقاعى فى شرح الألفية عن ابن كثير: (أن فى النسائى رجالا مجهولين اما عينا أو حالا ومنهم المجروح وفيه أحاديث ضعيفة ومعلة ومنكرة) وللنسائى مصنفات كثيرة فى الحديث والعلل توفى رحمه الله سنة (٣٠٣) بعد أن عمر ٨٩ عاما [١] .

أبو داود

هو سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأسدى السجستانى ولد سنة (٢٠٢) ورحل فى طلب العلم وكتب عن أهل العراق والشام ومصر وخراسان وأخذ الحديث عن مشايخ البخارى ومسلم كأحمد بن حنبل وعثمان بن أبى شيبة وقتيبة بن سعيد وغيرهم من أئمة الحديث وأخذ عنه ابنه عبد الله وأبو عبد الرحمن النسائى وأبو على اللؤلؤى وخلق سواهم . أثنى العلماء عليه ووصفوه بالحفظ التام والعلم الوافر والفهم الثاقب فى الحديث وغيره مع الدين والورع فكان علما من أعلام الحفاظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه . قال الحاكم أبو عبد الله : (كان أبو داود امام أهل الحديث فى عصره بلا مدافعة سمعه بمصر والحجاز والشام والعراقين وخراسان) .

وكان علماء الحديث قبل أبى داود قد صنفوا الجوامع والمسانيد ونحوها فتجمع كتبهم الى السنن والأحكام أخبارا وقصصا وآدابا ومواعظ فأما السنن المحضة فلم يقصد أحد منهم افرادها واستخلاصها حتى جاء أبو داود فعمل على جمع أحاديث الأحكام والاقتصار عليها

---

(١) تاريخ ابن كثير (ج ١١ ص ١٢٣ ـ ١٢٤) ومقدمة شرح المجتبى للسندى والسيوطى .

فاتفق له مالم يتفق لغيره وقد عرضها على أحمد بن حنبل فاستجادها واستحسنها . وقال ابراهيم الحربى : (لما صنف أبو داود هذا الكتاب ألين له الحديث كما ألين لداود الحديد) صنف أبو داود كتبا كثيرة وتوفى بالبصرة سنة (٢٧٥) .

الترمذى

هو الأمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى ابن الضحاك السلمى الترمذى ولد سنة ٢٠٩ بترمذ ، وكان اماما ثقة حجة . أخذ الحديث عن جماعة كثيرة منهم قتيبة بن سعيد واسحاق بن موسى ومحمود بن غيلان وسعيد بن عبد الرحمن ومحمد بن بشار وعلى ابن حجر ، وأحمد بن منيع ومحمد بن المثنى وسفيان بن وكيع ومحمد بن اسماعيل البخارى . وأخذ عنه الحديث خلق كثير منهم محمد بن أحمد ابن محبوب المحبوبى راوى الجامع عنه وأبو حامد أحمد بن عبد الله المروزى والهيثم بن كليب الشاشى ومحمد بن المنذر بن شكر . طاف أبو عيسى البلاد وسمع خلقا كثيرا من الخراسانيين والعراقيين والحجازيين وكتب الحديث وصنف التصانيف العجيبة . منها : الجامع ، وكتاب الأسماء والكنى ، والشمائل ، والتواريخ ، والعلل ، وكتاب الزهد ، واتفقوا على امامته وجلالته . ذكره ابن حبان فى الثقات فقال : (كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر) وقال أبو يعلى الخليلى : (ثقة متفق عليه) ، ويكفى فى توثيقه أن امام الحديث والمحدثين محمد بن اسماعيل البخارى كان يعتمده ويأخذ عنه ، وقال الحافظ ابن كثير : (روى عنه غير واحد من العلماء منهم محمد بن اسماعيل البخارى فى الصحيح) . وعلى هذا فلا التفات الى قول ابن حزم فيه ، أنه مجهول . قال الحافظ ابن كثير : وجهالة ابن حزم لأبى عيسى الترمذى لا تضره حيث قال فى محلاه :

(ومن محمد بن عيسى بن سورة) فإن جهالته لا تضع من قدره عند أهل العلم بل وضعت من منزلة ابن حزم عند الحفاظ .

وكيف يصح فى الأذهان شىء ‌ ‌ ‌ اذا احتاج النهار الى دليـــل

وقال الذهبى فى ميزانه : (محمد بن عيسى بن سورة الحافظ العلم أبو عيسى الترمذى صاحب الجامع ثقة مجمع عليه ولا التفات الى قول أبى محمد بن حزم فيه فى الفرائض من كتاب الاتصال أنه مجهول فانه ما عرف ولا درى بوجود الجامع ولا العلل التى له) اهـ .

كف بصره فى آخر عمره وتوفى رحمه الله تعالى بترمذ سنة (٢٧٩) هـ عن سبعين عاما [١] .

ابن ماجه

هو أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجه (ماجه اسم ليزيد) القزوينى صاحب كتاب السنن المشهورة والتفسير والتاريخ .

ولد سنة (٢٠٩) وارتحل لكتابة الحديث وتحصيله الى الرى والبصرة والكوفة وبغداد والى الشام ومصر والحجاز وأخذ الحديث عن كثير من شيوخ الأمصار كأبى بكر بن أبى شيبة وأصحاب مالك والليث ، وروى عنه خلق كثير منهم ابن سيبويه ومحمد بن عيسى الصفار واسحاق ابن محمد وعلى بن ابراهيم بن سلمة القطان ، وأحمد بن ابراهيم جد الحافظ بن كثير ، وسليمان بن يزيد . قال أبو يعلى الخليلى القزوينى : (كان عالما بهذا الشأن صاحب تصانيف منها التاريخ والسنن وارتحل الى العراقين ومصر والشام) ، وقال ابن كثير : محمد بن يزيد بن ماجه صاحب كتاب السنن المشهورة وهى دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه

(١) ميزان الاعتدال للذهبى جـ ٣ ص ١١٧ . البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ ١١ ص ٦٦ ـ ٦٧ .

واتباعه للسنة فى الأصول والفروع ويشتمل على اثنين وثلاثين كتابا وألف وخمسمائة باب وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسيرة) وتوفى رحمه الله سنة (٢٧٣) اهـ .

الامام ابن قتيبة الدينورى

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى وقيل المروزى اللغوى صاحب كتاب المعارف ، وأدب الكاتب كان فاضلا ثقة . سكن بغداد ، وحدث بها عن اسحاق بن راهويه ، وأبى اسحاق ابراهيم الزيادى (نسبة الى جده زياد بن أبيه) ، وأبى حاتم السجستانى وتلك الطبقة ، روى عنه ابنه أبو جعفر أحمد الفقيه الذى تولى القضاء بمصر وقدمها سنة (٣٢١) ويقال انه روى عن أبيه كتبه المصنفة كلها ، وممن روى عن ابن قتيبة أيضا ابن دستويه الفارسى ، وتصانيفه كلها مفيدة . منها ما تقدم ذكره ، ومنها : غريب القرآن ، وغريب الحديث ، وعيون الأخبار ، ومشكل القرآن ، ومشكل الحديث ، وطبقات الشعراء ، والأشربة ، واصلاح الغلط ، وكتاب التقفيه ، وكتاب الخيل ، وكتاب اعراب القرآن ، وكتاب الانواء ، وكتاب المسائل والجوابات ، والميسر والقداح ، وغير ذلك ، اقرأ كتبه ببغداد الى حين وفاته . قيل ان أباه مروزى ، وأما هو فمولده ببغداد وقيل بالكوفة ، وأقام بالدينور مدة قاضيا فنسب اليها ، اهـ (من ابن خلكان) .

علمه وفضله : قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه تفسير سورة الاخلاص بعد أن حكى القول بأن الراسخين يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه ما نصه : وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقى وغيرهما ، وابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد واسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة وله فى ذلك مصنفات

متعددة . قال فيه صاحب كتاب التحديث : وهو أحـد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء . أجودهم تصنيفا ، وأحسنهم ترصيفا له زهاء ثلاثمائة مصنف ، وكان يميل الى مذهب أحمد واسحاق ، وكان معاصرا لابراهيم الحربى ومحمد بن نصر المروزى وكان أهل المغرب يعظمونه ، ويقولون من استجاز الوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : (كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه) اهـ . قلت : ويقال : هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فانه خطيب أهل السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة . انتهى كلام شيخ الاسلام .

ثم ناقش رحمه الله ابن الانبارى فى رده على ابن قتيبة فقال : وليس هو (يعنى ابن الانبارى) أعلم بمعانى القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه فى ذلك ، وان كان ابن الانبارى من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة اهـ .

وقال الذهبى فى الميزان : عبد الله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الرواية . روى عن اسحاق بن راهويه وجماعة . قال الخطيب : كان ثقة دينا فاضلا . توفى فى رجب سنة ٢٧٦ .

المبحث الرابع

تدوين الحديث فى هذا العصر وطريقة العلماء فى ذلك

تبلور التدوين للحديث تبعا لسنة التطور من جهـة ، ولعوامل خاصة ، أملتها ظروف الحوادث من جهة أخرى ، فبعد أن كان العلماء يدونون الأحاديث ممزوجة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، وجدناهم فى هذا الدور يفردون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ثم لما قامت محنة القول بخلق القرآن التى

أثارها المأمون وتسلط فيها المعتزلة على أهل الحديث بالانتقاص من قدرهم ورميهم بحمل المتناقض والمشكل ورواية الخرافات ، وجدنا من علماء الحديث من انتدب نفسه للرد عليهم فجمع طعونهم والأحاديث التى زعموها مشكلة أو متناقضة ورد عليهم ببيان الحق الذى أزهق باطلهم ومحق دجلهم وبهتانهم ، وعلى ضوء هذا يمكننا أن نرجع الطرق التى تطور اليها التدوين للحديث فى هذا الدور الى ثلاث طرق وهى :

الطريقة الأولى : فى هذه الطريقة كان العلماء يجمعون الطعون التى وجهها أهل الكلام الى أهل الحديث سواء منها ما كان يرجع الى أشخاصهم من العدالة والضبط أم ما كان يرجع الى ما حملوه من الحديث من كونه كلام خرافة أو متناقضا أو مشكلا ثم يكرون عليها بالابطال وينزهون ساحة الأئمة والأحاديث عن هذه الطعون الزائفة ، وكان من هؤلاء الأعلام الامام ابن قتيبة رحمه الله صاحب كتاب (تأويل مختلف الحديث فى الرد على أعداء الحديث) وسيأتى الكلام عليه[1] .

الطريقة الثانية : جمع الحديث على المسانيد وذلك أن يجمع المحدث فى ترجمة كل صحابى ما يرويه عنه من حديثه سواء كان صحيحا أم غير صحيح ويجعله على حدة وأن اختلفت أنواعه فمثلا يذكر أبا بكر ثم يسرد ما رواه عنه من الأحاديث وان اختلفت موضوعاتها ثم عمر كذلك وهلم جرا ، ولهم فى ترتيب أسماء الصحابة طرق مختلفة فمنهم من رتبها على القبائل فقدم بنى هاشم ثم الأقرب فالأقرب نسبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من رتبها على السوابق فى الاسلام فقدم العشرة المشهود لهم بالجنة ثم أهل بدر ثم أهل الحديبية ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح ثم من أسلم يوم الفتح ثم أصاغر الصحابة سنا ثم النساء ومنهم

---

(١) ومنهم على بن المدينى فقد صنف كتاب (اختلاف الحديث) فى خمسة أجزاء .

من لم يراع شيئا من ذلك والمسانيد التى ألفت فى هذا العصر كثيرة جدا منها :

مسند عبيد الله بن موسى المتوفى سنه (٢١٣) ومسند الحميدى (٢١٩) ومسند مسدد بن مسرهد (٢٢٨) ومسند اسحاق بن راهويه (٢٣٧) ومسند عثمان بن أبى شيبة (٢٣٩) ، ومسند الامام أحمد بن حنبل (٢٤١) ، ومسند عبد بن حميد (٢٤٩) ، والمسند الكبير ليعقوب بن شيبة (٢٦٢) ، ولم يؤلف [1] أحسن منه لكنه لم يتمه ، ومسند محمد بن مهدى (٢٧٢) ، والمسند الكبير لبقى بن مخلد القرطبى (٢٧٦) رتبه على أسماء الصحابة ثم رتب حديث كل صحابى على أبواب الفقه ومجموع من روى عنه من الصحابة فيه (١٦٠٠) فجاء كتابا حافلا مع ثقة مؤلفه وضبطه واتقانه وقد فضله ابن حزم على مسند الامام أحمد بن حنبل . قال ابن كثير فى التاريخ وعندى فى ذلك نظر والظاهر أن مسند أحمد أجود منه وأجمع . اهـ .

وهذه الطريقة من التصنيف لا تخلو عن عيوب فان المطلع على المسانيد اذا لم يكن من أهل الفن المتضلعين فيه الواقفين على أحوال المتون والأسانيد تعذر عليه الوقوف على درجة الحديث من الصحة والضعف والاحتجاج به أو عدمه اذ كل حديث فى نظره يحتمل الصحة والضعف . هذا الى أن الوقوف على الأحكام الشرعية منها شاق على غير الحفاظ المتقنين لعدم التناسب فى جمع الأحاديث بين موضوعاتها ، ومهما يكن من شىء فلأصحاب المسانيد الفضل الأكبر فى تجريد الأحاديث النبوية عن غيرها وجمعهم كثيرا من متونها وأسانيدها ولهم فى تدوين الأحاديث التى لم تبلغ مرتبة الصحة مقاصد جليلة منها أن طرقه قد تتعدد فيبلغ مبلغ الصحيح ومنها أنها تصلح للاعتبار بها ومنها ما تتبين صحته

(١) لأنه جمع الأحاديث وأبان عن عللها .

فيما بعد لأهل الحديث ونقاده ، فلا يخطرن ببالك أنهم كانوا فيما جمعوا كحاطب ليل . بل كانوا على علم تام بصحيحها وضعيفها وأسانيدها وعللها كيف لا وقد رحلوا فى سبيلها الى الأقطار المختلفة وأفنوا أعمارهم فى جمعها وتمحيصها حتى كانوا صيارفة الحديث بحق . وقد رأيت أن بعض أصحاب المسانيد لم يقتصر على جمع الأحاديث من غير أن يبين حال متونها وأسانيدها وأن بعضهم قد جمع الى ترتيبها على أسماء الصحابة ترتيبها على أبواب الفقه كما فى المسند الكبير لبقى بن مخلد . والمسند الكبير ليعقوب بن شيبة فان الأول رتب حديث كل صحابى على أبواب الفقه ، والثانى ألف مسنده معللا فجمع فى كل حديث طرقه واختلاف الرواة فيه .

الطريقة الثالثة : التصنيف على الأبواب وهو تخريج الأحاديث على أحكام الفقه وغيرها وتنويعه أنواعا وجمع ما ورد فى كل حكم وكل نوع فى باب بحيث يتميز ما يتعلق بالصلاة مثلا عما يتعلق بالصيام ، وأهل هذه الطريقة منهم من اقتصر على ايراد ما صح فقط كالبخارى ومسلم فى صحيحيهما ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبى داود والترمذى والنسائى .

وكان أول الراسمين لهذه الطريقة المثلى شيخ المحدثين محمد بن اسماعيل البخارى (٢٥٦) فجمع فى صحيحه (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) : ما تبين صحته من الأحاديث مرتبة على الأبواب ، واقتفى أثره فى ذلك الامام مسلم بن الحجاج القشيرى (٢٦١) فى صحيحه ، وكان من الآخذين عن البخارى ، وقد اتفق العلماء على أن كتابيهما أصح الكتب المصنفة

ثم حذا حذوهما كثير من المحدثين فى مصنفاتهم كالنسائى وأبى داود والترمــذى .

وفى هذه الطريقة من الفوائد الوقوف على درجة الأحاديث بسهولة وتيسير الاطلاع على الأحكام الشرعية وغيرها فى الأبواب المختلفة ولذلك جعل العلماء لأحاديث هذه الكتب المرتبة الأولى فى الاعتبار ولأحاديث المسانيد المرتبة الثانية .

هذا والقرن الثالث يعتبر أجل عصور الحديث وأسعدها بتدوين الحديث وتقريبه على طالبيه ففيه ظهر كبار المحدثين وحذاق الناقدين ومهرة المؤلفين وفيه ظهرت الكتب الخمسة : الصحيحان للبخارى ومسلم ، والسنن لأبى داود والنسائى والترمذى ، وقد اعتمدها المحدثون وعول عليها المستنبطون وحظيت بخدمة العلماء فى جميع العصور ما بين شارح ومختصر وناقد ومنتصر ومستخرج عليها ومؤرخ لرجالها وجامع لأطرافها ومستدرك عليها . قال النــووى وغيره : لم يفت الكتب الخمسة من الأحاديث الصحيحة الا النزر اليسير ، واليك الكلام على أشهر الكتب المؤلفة فى هذا الدور :

كتاب تأويل مختلف الحديث

هذا كتاب جليل القدر عظيم النفع . ألفه الامام ابن قتيبة مدافعا به عن السنة وأهلها مناضلا عن الحق وداحضا لأباطيل المموهين . رد فيه على أعداء أهل الحديث ، وجمع بين الأخبار التى زعموا فيها التناقض والاختلاف ، وأجاب عما أوردوه من شبه حول بعض الآثار المتشابهة أو المشكلة بادىء الرأى :

طريقته فيه : بدأ رحمه الله الكلام فى الباعث له على تأليفه ، ثم تكلم

على أهل الكلام وأصحاب الرأى فبين حال الفريقين ، ثم تحدث عن كبار المعتزلة الطاعنين فى أهل الحديث واحدا واحدا بادئا بالنظام ذاكرا طعنه فى (أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما) واعتراضه على (على وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبى هريرة رضى الله عنهم) ، ثم انبرى للاجابة عن جميع هذه الطعون وتفنيدها ، ثم ذكر أبا الهذيل العلاف وسخافاته ، وعبيد الله بن الحسن وتناقضاته ، وبكرا صاحب البكرية وتهجماته ، وهشام بن الحكم وقبح مقـالاته ، ثم عرج على الجاحظ خطيب المعتزلة فبين تذبذبه فى العقائد والدين واستهزاءه بحديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وآبان عن كذبه ووضعه للحديث ونصره للباطل . الى غير ذلك من مزاعمهم وغرائب أقوالهم ، ثم ذكر الامام ابن قتيبة : أنه كان فى أول الأمر مغترا بالمتكلمين من أهل الاعتزال وأنه كان يرتاد مجالسهم ويغشى نواديهم ويسمع لكلامهم ، ثم لما أن وقف على جرأتهم على الله تبارك وتعالى ، وردهم للأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع منهم تفسير كتاب الله بالعجيب من الآراء ميلا مع أهوائهم ونحلهم : ترك مجالسهم بل وأخذ ينشر على الناس ما خفى من هناتهم غير الهينات ، ثم ذكر تفسير الروافض لبعض آيات القرآن على هواهم زاعمين أنهم على علم بباطن القرآن لما ورثوه من — علم الجفر — عن الامام على كرم الله وجهه ، وفند تلك المزاعم كلها .

ثم شرع فى الكلام على أهل الحديث ، وبين التماسهم للحق من طريقه الصحيح وأجاب عن معايب نسبت اليهم ، وهم بريئون منها ، ونبه على بعض أحاديث من وضع القصاص والزنادقة وأهل الأهواء ، وبين أن حمل المحدثين لبعض الأحاديث الضعيفة انما ذلك لأنهم ينخلون المتون والأسانيد جميعا ويميزون بين الصحيح منها والسقيم وينصون على ذلك

ويبينونه للناس وضرب لذلك كثيرا من الأمثـــال . كما أوضـــح أن زلل المحدث فى الاعراب لا يعد عيبا فيه كما أن زلل الفقيه فى الشعر لا يعتبر نقصا له . ثم أخذ هذا الامام الجليل فى ذكر الجمع بين الأحاديث التى زعم المتكلمون أنها متناقضة أو مشكلة فرفع التناقض عنها وأزال الاشكال ، وسجل على أهل الكلام التعصب الذى أعماهم فاتخذوا آلههم هواهم (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) .

هذا ونلفت نظر القارىء الكريم — وقد شرحنا له الغرض من تأليف هذا الكتاب العظيم ووقفناه على جل محتوياته — أن جمهرة المستشرقين ومن على نهجهم من الملحدين والمتحللين فى عصرنا هذا يسطون على هذا الكتاب ويلتقطون منه هذه المطاعن التى فندها هذا الامام الجليل دون أن ينبهوا الناس على أن اماما كبيرا من أئمة المسلمين تولى الاجابة عنها — وهذا أمر طبيعى فيهم — بل وينسبون هذه المطاعن الى ابن قتيبة نفسه على أنها من آرائه فى الصحابة وأهل الحديث وفوق هذه الخيانة العلمية العظمى يقوم هؤلاء الأعداء الألداء بصوغ هذه الشبهات على أنها قواعد مسلمة عند المسلمين ثم يبنون عليها آراءهم الزائفة التى تطعن فى هذا الدين الحنيف وتأتى على بنائه من القواعد ، وان من ألقى نظرة على ما جاء فى هذا الكتاب ثم طالع بعض مقالات هـــؤلاء القوم افتضح أمامه أمرهم وظهر له ضلالهم وتضليلهم والله لا يهـــدى كيد الخـــائنين .

مسند الامام أحمد

هو كتاب عظيم فى السنة شهد له المحدثون قديما وحديثا بأنه أجمع كتب السنة للحديث وأوعاها لكل ما يحتاج اليه المسلم فى أمر دينه ودنياه وقد سلك الامام أحمد فى ترتيبه مسلكا يتفق وطريقة أهل طبقته فهو يذكر الصحابى ثم يورد ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث

غير ناظر الى ترتيبها حسب موضوعاتها ثم يتلوه بالصحابى الآخر وهكذا ، فالمتصفح لهذا الكتاب يرى حديثا فى الحدود يلى حديثا آخر فى العبادات الى جانب ثالث فى الترغيب والترهيب . وهذه الطريقة وان كانت لا تلائم أهل عصرنا الحاضر الذين قعدت بهم الهمم وضعفت فيهم ملكة الحفظ والضبط كانت سائغة ميسورة لأهل القرن الثالث الذين عظمت عنايتهم بحفظ الحديث وضبطه ومذاكرته ودرسه حتى كان الواحد منهم يحفظ المسند الكبير كما يحفظ السورة من القرآن الكريم ، ويعرف صحيحه من سقيمه وغثه من سمينه .

هذا وقد اشتمل مسند أحمد على أربعين ألف حديث بالمكرر ومن غير المكرر على ثلاثين ألفا ، ومع ذلك فلم يستوعب الأحاديث كلها ومن زعم ذلك فقد أخطأ . قال الحافظ ابن كثير : (لا يوازى مسند أحمد كتاب مسند فى كثرته وحسن سياقاته وقد فاته أحاديث كثيرة جدا بل قيل انه لم يقع له جماعة من الصحابة الذين فى الصحيحين قريبا من مائتين) [1] اهـ . وفى المسند نحو ثلثمائة حديث ليس بين أحمد وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها غير ثلاثة رواة .

المسند الذى بأيدينا اليوم

والمسند الذى بأيدينا اليوم ليس كله من رواية الامام أحمد ولكن أضاف اليه ابنه عبد الله زيادات ليست من رواية أبيه وكذلك فعل الامام أبو بكر القطيعى راوية المسند عن عبد الله بن الامام أحمد . قال الأستاذ المحدث الشيخ أحمد البنا الشهير بالساعاتى فى مقدمة الفتح الربانى : (بتتبعى لأحاديث المسند وجدتها تنقسم الى ستة أقسام (١) قسم رواه أبو عبد الرحمن عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه سماعا منه وهو المسمى

---

(١) تدريب الراوى ص ٥٧ .

بمسند الامام أحمـد وهو كبير جـدا يزيد عن ثلاثة أرباع الكتاب (٢) قسم سمعه عبد الله من أبيه ومن غيره وهو قليل جدا (٣) وقسم رواه عن غير أبيه وهوالمسمى عند المحدثين بزوائد عبد الله وهو كثير بالنسبة للأقسام كلها عدا القسم الأول (٤) وقسم قرأه عبد الله على أبيه ولم يسمعه منه وهو قليل (٥) وقسم لم يقرأه ولم يسمعه ولكنه وجده فى كتاب أبيه بخط يده (٦) وقسم رواه الحافظ أبو بكر القطيعى عن غير عبد الله وأبيه رحمهما الله تعالى وهو أقل الجميع فهـذه ستة أقسام وكل هذه الأقسام من المسند الا الثالث فانه من زوائد عبد الله والسادس فانه من زوائد القطيعى)[1] اهـ .

سمع المسند من الامام أحمـد أولاده الثلاثة : صالح وعبد الله وحنبل . قال عثمان بن السباك : حدثنا حنبل قال جمعنا أحمد بن حنبل أنا وصالح وعبد الله وقرأ علينا المسند وما سمعه غيرنا وقال لنا : (هذا الكتاب جمعته وانتقيته من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا فما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فارجعوا اليه فان وجدتموه والا فليس بحجة) وسئل الشيخ الامـام الحافظ على بن الحافظ الفقيه محمد اليونينى رحمهما الله تعالى . أنت تحفظ الكتب الستة . فقال : أحفظها وما أحفظها فقيل له كيف هذا . فقال : أنا أحفظ مسند أحمد وما يفوت المسند من الكتب الستة الا قليل فأنا أحفظها بهذا الوجه [2] ومما تقدم يتبين لك أن المسند جمع مقدارا عظيما من الأحاديث النبوية وأن صاحبه انتقاه من أكثر من (٧٥٠) ألف حديث ، وأن عبد الله بن الامام زاد فيه كثيرا من الأحاديث التى لم يأخذها

(١) مقدمة الفتح الربانى ص ١٩ وما بعدها .
(٢) مقدمة الفتح الربانى ص ٨ .

عن أبيه وكذلك فعل الامام أبو بكر القطيعى راوية المسند عن عبد الله ابن الامام أحمد .

درجة أحاديثه : للعلماء فى درجة أحاديثه أقوال : الأول : ان ما فيه من الأحاديث حجة وهو ظاهر عبارة الامام السابقة التى رواها ابن السباك عن حنبل عن الامام وفى معناه ما روى أبو موسى المدينى عن الامام أحمد أنه سئل عن حديث فقال انظروه فان كان فى المسند والا فليس بحجة . وما قاله أبو موسى المدينى أيضا فى كتابه خصائص المسند قال : وهذا الكتاب أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتقى من حديث كثير ومسموعات وافرة فجعله صاحبه اماما ومعتمدا وعند التنازع ملجأ ومستندا قال : ولم يخرج الا عمن ثبت عنده صدقه وديانته دون من طعن فى أمانته . قال : ومن الدليل على أن ما أودعه الامام أحمد رحمه الله مسنده قد احتاط فيه اسنادا ومتنا ولم يورد فيه الا ما صح عنده ما رواه القطيعى قال : حدثنا عبد الله قال حدثنى أبى قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة عن أبى التياح قال : سمعت أبا زرعة يحـدث عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (يهلك أمتى هذا الحى من قريش قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : لو أن النـاس اعتزلوهم) قال عبد الله قال لى أبى فى مرضه الذى مات فيه اضرب على هذا الحديث فانه خلاف الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم يعنى قوله (اسمعوا وأطيعوا) فهذا الحديث مع ثقة رجال أسناده حين شذ لفظه عن المشاهير أمر بالضرب عليه فقال عليه ما قلنا وفيه نظائر له اهـ بحذف يسير .

قال الأستاذ المحدث الشيخ أحمد بن عبد الرحمن البنا : هذا مثال لشدة احتياط الامام أحمد فى المتن وأما احتياطه فى السند فقد روى

القطيعى ، قال : حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا على بن ثابت الجزرى عن ناصح أبى عبد الله عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لأن يؤدب الرجل ولده أو أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع) قال عبد الله وهذا الحديث لم يخرجه أبى فى مسنده من أجل ناصح لأنه ضعيف فى الحديث وأملاه على فى النوادر [١] اهـ .

القول الثانى : ان فيه الصحيح والضعيف والموضوع فقد ذكر ابن الجوزى فى الموضوعات تسعة وعشرين حديثا منه وحكم عليها بالوضع وزاد الحافظ العراقى عليه تسعة أحاديث حكم عليها بالوضع وجمعها فى جزء . قال العراقى ردا على من قال أن أحمد شرط فى مسنده الصحيح: لا نسلم ذلك والذى رواه عنه أبو موسى المدينى أنه سئل عن حديث فقال انظروه فان كان فى المسند والا فليس بحجة فهذا ليس بصريح فى أن كل ما فيه حجة ، وانما هو صريح فى أن ما ليس فيه ليس بحجة . قال : على أن ثم أحاديث صحيحة مخرجة فى الصحيحين وليست فيه منها حديث عائشة فى قصة أم زرع قال : وأما وجود الضعيف فيه فهو محقق بل فيه أحاديث موضوعة جمعتها فى جزء ولعبد الله اينه فيه زيادات فيها الضعيف والموضوع [٢] اهـ .

القول الثالث : ان فيه الصحيح والضعيف الذى يقرب من الحسن وممن ذهب الى ذلك من الحفاظ أبو عبد الله الذهبى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن تيمية والسيوطى . واليك أقوالهم فى ذلك : قال الحافظ السيوطى فى خطبة الجامع الكبير ما لفظه : (وكل ما كان فى مسند

(١) مقدمة الفتح الربانى ص ٩ .
(٢) تدريب الراوى ص ٥٦ .

أحمد فهو مقبول فان الضعيف الذى فيه يقرب من الحسن) وقال الحافظ ابن حجر فى كتابه تعجيل المنفعة فى رجال الأربعة : (ليس فى المسند حديث لا أصل له الا ثلاثة أحاديث أو أربعة منها حديث عبد الرحمن بن عوف « أنه يدخل الجنة زحفا » والاعتذار عنه أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه فترك سهوا أو ضرب وكتب من تحت الضرب) اهـ . وقال ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة : (شرط أحمد فى المسند ألا يروى عن المعروفين بالكذب عنده وان كان فى ذلك ما هو ضعيف قال : ثم زاد عبد الله بن أحمد زيادات على المسند ضمت اليه وكذلك زاد أبو بكر القطيعى وفى تلك الزيادات كثير من الأحاديث الموضوعة فظن من لا علم عنده أن ذلك من رواية أحمد فى مسنده) اهـ .

وقال الحافظ الذهبى : (ولو أنه — يعنى عبد الله بن الامام أحمد — حرر ترتيب المسند وقربه وهذبه لأتى بأسنى المقاصد ولعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامى من يخدمه ويبوب عليه ويتكلم على رجاله ويرتب هيئته ووضعه فانه محتو على أكثر الحديث النبوى وقل أن يثبت حديث الا وهو فيه . قال : وأما الحسان فما استوعبت فيه بل عامتها ان شاء الله تعالى فيه وأما الغرائب وما فيه لين فروى من ذلك الأشهر وترك الأكثر مما هو مأثور فى السنن الأربعة ومعجم الطبرانى الأكبر والأوسط ومسندى أبى يعلى والبزار وأمثال ذلك قال ومن سعد مسند الامام أحمد قل أن تجد فيه خبرا ساقطا) [1] اهـ .

هذا وقد ألف شيخ الاسلام ابن حجر كتابا سماه (القول المسدد فى الذب عن المسند) قال فى خطبته : « ذكرت فى هذه الأوراق ما حضرنى

(١) تدريب الراوى ص ٥٦ ــ منهاج السنة ص ٣٧ .

من الكلام على الأحاديث التى زعم بعض أهل الحديث أنها موضوعة وهى فى مسند أحمد ذبا عن هذا التصنيف العظيم الذى تلقته الأمة بالقبول والتكريم وجعله أمامهم حجة يرجع اليه ويعول عند الاختلاف عليه ، ثم سرد الأحاديث التى جمعها العراقى فى جزء وحكم عليها بالوضع وهى تسعة وأضاف اليها خمسة عشر حديثا أوردها ابن الجوزى فى الموضوعات وهى فيه وأجاب عنها حديثا حديثا » ا هـ قال السيوطى فى التدريب وقد فاته أحاديث أخر أوردها ابن الجوزى وهى فيه وجمعتها فى جزء سميته (الذيل الممهد) وعدتها أربعة عشر حديثا[1] اهـ .

قال الشوكانى : وقد حقق الحافظ نفى الوضع عن جميع أحاديثه وأنه أحسن انتقاء وتحريرا من الكتب التى لم يلتزم مصنفوها الصحة فى جميعها وليست الأحاديث الزائدة فيه على الصحيحين بأكثر ضعفا من الأحاديث الزائدة فى سنن أبى داود والترمذى . اهـ .

الجمع بين أقوال العلماء فى مسند أحمد :

يمكن ارجاع القولين الأولين الى القول الثالث وبذلك لا يكون هناك خلاف فى درجة أحاديث المسند فمن حكم على بعض أحاديثه بالوضع نظر الى ما زاده فيه أبو بكر القطيعى وعبد الله بن الامام أحمد والقول بحجية ما فيه من الأحاديث لا ينافى القول بأن فيه الضعيف فان الضعيف فيه دائر بين الحسن لذاته والحسن لغيره وكلاهما مما يحتج به عند العلماء .

عناية الأمة بمسند الامام أحمد :

قال فى كشف الظنون : جمع غريبه أبو عمر محمد بن عبد الواحد

---

(١) التدريب ص ٥٦

المعروف بغلام ثعلب فى كتاب وتوفى سنة (٣٤٥) واختصره الشيخ الامام سراج الدين عمر بن على المعروف بابن الملقن الشافعى المتوفى سنة ٨٠٥ خمس وثمانمائة وعليه تعليقة للسيوطى فى اعرابه سماها عقود الزبرجد ، وقد شرح المسند أبو الحسن بن عبد الهادى السندى نزيل المدينة المنورة المتوفى سنة (١١٣٩) شرحا كبيرا نحوا من خمسين كراسة كبار واختصره الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبى[١] اهـ .

وقال الحافظ ابن الجزرى: أقام الله تعالى لترتيبه شيخنا خاتمة الحفاظ أبا بكر محمد بن عبد الله بن المحب الصامت فرتبه على معجم الصحابة ورتب الرواة كذلك كترتيب الأطراف تعب فيه تعبا كثيرا ثم أن شيخنا الامام مؤرخ الاسلام وحافظ الشام عماد الدين أبا الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير رحمه الله تعالى أخذ هذا الكتاب المرتب من مؤلفه وأضاف اليه أحاديث الكتب الستة ومعجم الطبرانى الكبير ومسند البزار ومسند أبى يعلى الموصلى وجهد نفسه كثيرا وتعب فيه تعبا عظيما فجاء لا نظير له فى العالم وأكمله الا بعض مسند أبى هريرة فانه قبل أن يكمله كف بصره ومات ، وقال رحمه الله تعالى : لا زلت أكتب فيه فى الليل والسراج ينونص حتى ذهب بصرى معه ولعل الله أن يقيض له من يكمله مع أنه سهل . فان معجم الطبرانى الكبير لم يكن فيه شيء من مسند أبى هريرة رضى الله عنه . اهـ .

واسم هذا الكتاب الذى ألفه ابن كثير (جامع المسانيد والسنن) ويوجد منه فى دار الكتب المصرية ثمانية أجزاء [٢] — وقد رتب المسند

(١) جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) مقدمة الفتح الربانى .

على الأبواب بعض الحفاظ الأصبهانيين وكذا الحافظ ناصر الدين بن رزيق وغيره ورتبه على حروف المعجم الحافظ أبو بكر محمد بن أبى محمد عبد الله المقدسى الحنبلى [١] ، وقد رتب المسند على الأبواب ترتيبا متقنا مهذبا معاصرنا الفاضل الشيخ المحدث العلامة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الشهير بالساعاتى انتهى من تبييضه عام (١٣٥١) للهجرة وجعله سبعة أقسام : قسم التوحيد وأصول الدين ، وقسم الفقه ، وقسم التفسير ، وقسم الترغيب ، وقسم الترهيب ، وقسم التاريخ ، وقسم القيامة وأحوال الآخرة . على هذا الترتيب وكل قسم من هذه الأقسام السبعة يشتمل على جملة كتب وكل كتاب يندرج تحته جملة أبواب وبعض الأبواب يدخل فيه جملة فصول وفى أكثر تراجم الأبواب ما يدل على مغزى أحاديث الباب ، وسمى هذا الكتاب (الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى) ثم شرح كتابه هذا وخرج أحاديثه فى كتاب آخر سماه (بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى) جعله معه ، ثم شرع فى طبعهما وقد صدر حتى الآن أحد وعشرون جزءا ونسأل الله أن يعينه على اتمامه ويتقبل منه عمله .

صحيح البخارى

الباعث له على تأليفه : ـ

رأى البخارى رحمه الله تعالى دواوين السنة التى ألفت فى عصره وقبله جامعة بين الصحيح والحسن والضعيف من الأحاديث لا يستطيع الناظر فيها أن يميز بين الصحيح وغيره الا اذا كان من أهل الفن والخبرة التامة ، وكذلك لا يستطيع أن يجمع الأحاديث التى تتعلق بموضوع

---

(١) الرسالة المستطرفة ١٥ر١٦ .

واحد من الأحكام الشرعية لأن هذه الدواوين — كما قلنا — كان يقصد منها جمع الأحاديث وحفظها على الأمة فقط فلم تراع فيها المناسبات فى ترتيب الأحاديث وضم بعضها الى بعض .

هذا الى أن بعض أهل الحديث ورواته أهملوا فقه الأحاديث وما تدل عليه ألفاظها من المعانى والفوائد الى مجرد الحفظ والرواية فكان من أثر ذلك أن عجز هؤلاء عن مناهضة أهل البدع والأهواء بالحجة وقمعهم بالبرهان . كما شاعت الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة فيما بين الناس عن طريق القصاص الذين لا يميزون بين المقبول والمردود من الأحاديث . وأوغل بعض المنتسبين الى أهل الرأى فى مخالفة السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحركت هذه العوامل مجتمعة من امام المحدثين أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى همته العالية لجمع طائفة كبيرة من الأحاديث التى صحت أسانيدها وسلمت متونها من العلل مرتبة على أبواب الفقه والسير والتفسير الى غير ذلك . وقوى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين فى الحديث والفقه اسحق بن ابراهيم الحنظلى المعروف بابن راهويه حيث قال لتلاميذه : (لو جمعتم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال البخارى : فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع « الجامع الصحيح » . خرجه من ستمائة ألف حديث ولم يخرج فيه الا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسند المتصل الذى توفر فى رجاله العدالة والضبط ومكث فى تصنيفه ستة عشر عاما ، وما وضع فيه حديثا الا اغتسل قبله وصلى ركعتين ولما أن تم عرضه على الامام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المدينى وغيرهم فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة الا فى أربعة أحاديث قال العقيلى : والقول فيها قول البخارى وهى صحيحة

وقد تلقاه العلماء بالقبول فى كل عصر وشـــهدوا له بالتفوق على كل ما سبقه من المصنفات .

وقال الذهبى فى تاريخ الاسلام : وأما جامع البخارى الصحيح فأجل كتب الاسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى ، قال فلو رحل الشخص لسماعه من ألف فرسخ لما ضاعت رحلته . اهـ .

وقد روى الحفاظ والأئمـــة عن البخارى أنه قال : جعلته حجة فيما بينى وبين الله تعالى وما أدخلت فيه الا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر حتى لا يطول . اهـ . وقوله (وما أدخلت فيه الا صحيحا) محمول على الأحاديث المسندة المتصلة فانها موضوع الكتاب ومقصوده وقد ذكر البخارى فيه عرضا الموقوف والمعلق وفتاوى الصحابة والتابعين وآراء العلماء .

وليست هذه الأحاديث المعلقة والآثار الموقوفة من موضوع كتابه كما يدل لذلك تسميته له : (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليــه وسلم وسننه وأيامه) وانما ذكرها لقصد الاستئناس بها فقط ولذلك غاير فى سياقها لتمتاز

عدد أحاديثه : وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن عدة ما فيه من الأحاديث بالمكرر (٧٣٩٧) سوى المعلقات والمتابعات والموقوفات ، وبغير المكرر من المتون الموصولة (٢٦٠٢) .

رواته : وقد سمعه منه نحو من تسعين ألفا من أشهرهم : أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربرى المتوفى سنة (٣٢٠) وكان سماعه للصحيح مرتين بفربر سنة ٢٤٨ وببخارى سنة ٢٥٢ ومنهم ابراهيم بن معقل بن الحجاج النسفى وكان من الحفاظ وله تصانيف وتوفى سنة (٢٩٤) وفاته من الجامع أوراق رواها بالأجازة عن البخارى ،

ومنهم حماد بن شاكر النسوى مات حوالى سنة (٢٩٠) وفاته منه شيء أيضا ، وأبو طلحة منصور بن محمد بن على بن قرينة البزدوى المتوفى سنة (٣٢٩) وهو آخر من حدث عن البخارى بصحيحه كما جزم به ابن ماكولا وغيره [١] .

ما اشتملت عليه تراجم البخارى من الفوائد :

قدمنا أن البخارى رحمه الله تعالى كان من أئمة الفقه المجتهدين لذلك جاء كتابه جامعا لكثير من المسائل الفقهية ، فقد أودع تراجم الأبواب كثيرا مما اهتدى اليه باجتهاده واستنبطه بعقله مما يدل على براعته فى الفقه واستنباط الأحكام الشرعية من الأحاديث ، وله فى تلك التراجم طريقتان ظاهرة وخفية :

الطريقة الأولى : أن تكون الترجمة دالة بطريق المطابقة على ما ساقه من الأحاديث كأن يقــول : هــذا الباب الذى فيه كيت وكيت أو باب ذكر الدليل على الحكم الفلانى مثلا ، وقد تكون الترجمة بلفظ المترجم له وقد تكون ببعض ألفاظه وقد تكون بمعناه — وهذا هو الغالب على تراجمــه .

الطريقة الثانية : أن يأتى فى الترجمة بلفظ عام ويكون المترجم له من الأحاديث خاصا تنبيها منه على أن الحكم عام وأن الحديث وان كان خاصا فهو مراد به العموم وقد يكون الأمر على عكس ذلك فينبه بالترجمة على أن الحديث وان كان عاما الا أنه يراد منه الخصوص وعلى هذا الأمر فى المطلق والمقيد وشرح المشكل وتفسير الغامض وتأويل

---

(١) مقدمة فتح البارى جـ ١ ص ٤ ــ خطبة فتح البارى ــ مفتاح السنة ص ٣٩ وما بعدها .

الظاهر وتفصيل المجمل (وهذا الموضع هو معظم ما يشكل من تراجم هــذا الكتاب ولهذا اشــتهر عن جمع من الفضــلاء : فقه البخــارى فى تراجمه) وأكثر ما يفعل البخارى ذلك اذا لم يجد حديثا على شرطه فى الباب ظاهر المعنى فى المقصد الذى ترجم به وقد يفعل ذلك لغرض شحذ الأذهان فى اظهار مضمره ، وكثيرا ما يترجم بلفظ الاستفهام كقوله باب هل يكون كذا أو من قال كذا وذلك حيث لا يتجه له القطع بأحد الاحتمالين ، وكثيرا ما يترجم بأمر ظاهره قليل الجدوى ولكنه اذا حققه المتأمل كان كثير النفع كقوله (باب قول الرجل ما صلينا) فانه أشار به الى الرد على من كره ذلك وكقوله : (باب قول الرجل فاتتنا الصلاة) فانه أشار به الى الرد على من كره ذلك ، وكثيرا ما يترجم بلفظ يومىء الى معنى حديث لم يصح على شرطه أو يأتى بلفظ الحديث الذى لم يصح على شرطه صريحا فى الترجمة ويورد فى الباب ما يؤدى معناه تارة بأمر ظاهر وتارة بأمر خفى ، ومن ذلك قوله باب الأمراء من قريش . فهذا حديث ليس على شرط البخارى وأورد فيه : (لا يزال وال من قريش) ومنها قوله : (باب اثنان فما فوقهما جماعة) وربما اكتفى أحيانا بلفظ الترجمة التى هى لفظ حديث لم يصح على شرطه وأورد معها أثرا أو آية فكأنه يقول لم يصح فى الباب شىء على شرطى .

صحيح مسلم

هو كتاب صنفه الامام مسلم بن الحجاج النيسابورى فى الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ويقع فى الدرجة الثانية من الصحة بعد صحيح البخارى . احتوى على أربعة آلاف من الأحاديث الصحاح من غير المكرر . وبالمكرر (٧٢٧٥) وقد سلك مسلم فى صحيحه

طريقة حكيمة جعلته سهل التناول قريب المأخذ فهو يجمع الأحاديث المتناسبة فى مكان واحد ويذكر طرق الأحاديث التى ارتضاها ويورد أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة مع ايجاز فى العبارة وترتيب حسن واحتياط بالغ . ذكر مسلم رحمه الله فى مقدمة جامعه الصحيح أنه يقسم الأحاديث ثلاثة أقسام : الأول ما رواه الحفاظ المتقنون . والثانى ما رواه المستورون المتوسطون فى الحفظ والاتقان . والثالث ما رواه الضعفاء المتروكون وأنه اذا فرغ من القسم الأول أتبعه الثانى . وأما الثالث فلا يعرج عليه (١) . وصحيح مسلم مرتب على أبواب الفقه غير أنه لم يذكر تراجم الأبواب فيه لئلا يزداد بها حجم الكتاب .

وقد ترجم جماعة من الشراح أبوابه بتراجم بعضها جيد وبعضها ليس بجيد وتولى الامام النووى الترجمة عنها بعبارات تليق بها فأجاد كثيرا (٢) .

الباعث لمسلم على تأليف الجامع الصحيح أمران :

أحدهما : جمع طائفة من الأحاديث الصحيحة المتصلة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم المشتملة على أحكام الدين وسننه وغير ذلك على وجه يقربها للباحثين فى الفقه الاسلامى وغيره وذلك لأن المصنفات فى ذلك العصر كانت صعبة المأخذ ممزوجا فيها الصحيح بغيره وصحيح البخارى وان كان قد رتبه على الأبواب الا أنه ما زال الكشف فيه من الصعوبة بمكان لخفاء تراجمه ودقة وضعه على من ليسوا من أهل الفن .

الأمر الثانى : رأى مسلم رحمه الله ما كان من القصاص والزنادقة

---

(١) قيل أن المنية عاجلته قبل اخراج القسم الثانى وقيل أنه استوفى القسمين الأول والثانى ورجحه النووى .

(٢) مقدمة النووى لشرح مسلم ص ٣٠ ـ ٣٣ بهامش القسطلانى .

وجهلة المتصوفة فى خداع العامة واغرائهم بالمناكير وحشوهم لأذهان الناس بالأساطير . فأراد أن يجذب العامة من الظلمة الى النور ويقدم لهم كتابا فى الصحاح من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تطمئن قلوبهم اليها وبذلك يشتغلون عن هذه الطوائف المفسدة ، ونحن ننقل لك جملة من كلام الامام نفسه تدل على غرضه ذلك قال رحمه الله فى مقدمة صحيحه : (الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين أما بعد فانك يرحمك الله بتوفيق خالقك ذكرت أنك هممت بالفحص عن تعرف جملة الأخبار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنن الدين وأحكامه وما كان منها فى الثواب والعقاب والترغيب والترهيب وغير ذلك من صنوف الأشياء بالأسانيد التى بها نقلت وتداولها أهل العلم فيما بينهم فأردت — أرشدك الله — أن توقف على جملتها مؤلفة محصاة وسألتنى أن ألخصها لك فى التأليف بلا تكرار يكثر — الى أن قال : ألا ان ضبط القليل من هذا الشأن واتقانه أيسر على المرء من معالجة الكثير منه ولا سيما عند من لا تمييز عنده من العوام الا بأن يوقفه على التمييز غيره واذا كان الأمر فى هذا كما وصفنا فالقصد منه الى الصحيح القليل أولى بهم من ازدياد السقيم وانما يرجى بعض المنفعة فى الاستكثار من هذا الشأن وجمع المكررات منه لخاصة من الناس ممن رزق فيه بعض التيقظ والمعرفة بأسبابه وعلله ، فأما عوام الناس الذين هم بخلاف معانى الخاصة ، فلا معنى لهم فى طلب الكثير وقد عجزوا عن معرفة القليل ، ثم قال : وبعد يرحمك الله فلولا الذى رأينا من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدثا فيما يلزمهم من طرح الأحاديث الضعيفة والروايات المنكرة وتركهم الاقتصار على الأخبار الصحيحة المشهورة مما نقله الثقات

المعروفون بالصدق والأمانة ، بعد معرفتهم واقرارهم بألسنتهم أن كثيرا مما يقذفون به الى الأغبياء من الناس هو مستنكر ومنقول عن قوم غير مرضيين ممن ذم الرواية عنهم أئمة الحديث مثل مالك بن أنس رحمه الله وشعبة بن الحجاج وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدى وغيرهم من الأئمة لما سهل علينا الانتصاب لما سألت من التمييز والتحصيل ولكن من أجل ما أعلمناك من نشر القوم الأخبار المنكرة بالأسانيد الضعاف المجهولة وقذفهم بها الى العوام الذين لا يعرفون عيوبها خف على قلوبنا أجابتك الى ما سألت) اهـ .

من هذا ترى أن همة مسلم فى صحيحه كانت متوجهة الى تجريد الأحاديث الصحاح من غير تعرض للاستنباط ليكون سائغا عند الخاصة والعامة على السواء وليصرف العامة عن الاستماع الى المناكير التى يبثها من نصبوا أنفسهم محدثين كالقصاص والمتصوفة . وقد تلقته الأمة هو وصحيح البخارى بالقبول وأقبل عليهما العامة والخاصة وحصل بذلك خير كثير والحمد لله .

شرط البخارى ومسلم فى صحيحهما :

اعلم أن البخارى ومسلما لم ينقل عن واحد منهما أنه قال شرطت أن أخرج فى كتابى ما يكون على الشرط الفلانى وانما يعرف ذلك من سبر كتابيهما . وللعلماء فى تحقيق شرطهما فى الصحيحين أقوال : —

الأول : قال الحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة (٤٠٥) فى كتابه المدخل الى معرفة كتاب الأكليل : (الدرجة الأولى من الصحيح اختيار البخارى ومسلم وهو أن يروى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم الصحابى المشهور وله راويان ثقتان ، ثم يرويه عنه التابعى المشهور

بالرواية عن الصحابى وله راويان ثقتان ثم يرويه عنه من اتباع التابعين حافظ متقن وله رواة ثقات من الطبقة الرابعة ثم يكون شيخ البخارى أو مسلم حافظا مشهورا بالعدالة فى روايته) اهـ .

قال أبو على الغسانى : ليس المراد أن يكون كل خبر روياه يجتمع فيه راويان عن صحابيه ثم عن تابعيه فمن بعده فان ذلك يعز وجوده وانما المراد أن هذا الصحابى وهذا التابعى قد روى عنه رجلان خرج بهما عن حد الجهالة . اهـ . وقال ابن حجر فى مقدمته لشرح البخارى : ما ذكره الحاكم وان كان منتقضا فى حق بعض الصحابة الذين أخرج لهم — يعنى البخارى — الا أنه معتبر فى حق من بعدهم فليس فى الكتاب حديث أصل من رواية من ليس له الا راو واحد فقط . اهـ .

القول الثانى : قال الحافظ أبو الفضل محمـــد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة (٥٠٧) فى شروط الأئمة الستة : شرط البخارى ومسلم أن يخرجا الحديث المتفق على ثقة نقلته الى الصحابى المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبات ويكون اسناده متصلا غير مقطوع وان كان للصحابى راويان فصاعدا فحسن وان لم يكن الا راو واحد وصح الطريق اليه كفى . الا أن البخارى ترك أحاديث أقوام لشبهة وقعت فى نفسه أخرج مسلم أحاديثهم لزوال الشبهة عنهم عنده . ومثال ذلك أن سهيل بن أبى صالح تكلم بعضهم فى سماعه من أبيه فقيل صحيفة فترك البخارى حديثه فى الأصول لا فى الشواهد ، واستغنى عنه بغيره من أصحاب أبيه احتياطا ، ومسلم اعتمد عليه لما سبر أحاديثه فوجده يحدث عن عبد الله ابن دينار عن أبيه ومرة عن الأعمش عن أبيه ومرة يحدث عن أخيه عن أبيه بأحاديث فاتته من أبيه فصح عنده أنه سمع من أبيه اذ لو كان سماعه صحيفة لكان يروى هـــذه الأحاديث مثل تلك الأخر . وكذلك حماد

ابن سلمة امام كبير مدحه الأئمة وأطنبوا لكن تكلم فيه بعض منتحلى المعرفة أن بعض الكذبة أدخل فى حديثه ما ليس منه لم يخرج عنه البخارى فى صحيحه معتمدا عليه بل استشهد به فى مواضع ليبين أنه ثقة وأخرج أحاديثه التى يرويها من حديث غيره من أقرانه كشعبة وحماد ابن زيد وأبى عوانة وأبى الأحوص وغيرهم ، ومسلم اعتمد عليه لأنه رأى جماعة من أصحابه القدماء والمتأخرين رووا عنه لم يختلفوا عليه وشاهد مسلم منهم جماعة وأخذ عنهم ثم عدالة الرجل فى نفسه واجماع أئمة النقل على ثقته وامامته ، ومثل حماد بن سلمة وسهيل بن أبى صالح فى ذلك داود بن أبى هند وأبو الزبير بن عبد الرحمن وغيرهما . فلما تكلم فى هؤلاء بما لا يزيل العدالة والثقة ترك البخارى اخراج حديثهم فى الأصول تحريا وأخرج مسلم أحاديثهم لزوال الشبهة . قال العراقى وليس ما قال ابن طاهر بجيد لأن النسائى ضعف جماعة أخرج لهم الشيخان أو أحدهما وأجيب بأنهما أخرجا من اجمع العلماء على ثقته الى حين تصنيفهما ولا يقدح فى ذلك تضعيف النسائى بعد وجود الكتابين . قال شيخ الاسلام ابن حجر الحافظ : تضعيف النسائى ان كان باجتهاده أو نقله عن معاصر فالجواب ذلك وان نقله عن متقدم فلا . قال : ويمكن أن يجاب بأن ما قاله ابن طاهر هو الأصل الذى بنيا عليه أمرهما وقد يخرجان عنه لمرجح يقوم مقامه (تدريب الراوى ص ٣٨) .

القول الثالث : ما قاله الحافظ أبو بكر محمد بن موسى الحازمى المتوفى سنة (٥٨٤) قال فى كتابه شروط الأئمة الخمسة ما ملخصه : مذهب من يخرج الصحيح أن يعتبر حال الراوى العدل فى مشايخه العدول وفيمن روى عنهم من الثقات فبعضهم حديثه صحيح ثابت يلزم اخراجه وبعضهم حديثه مدخول لا يصلح اخراجه الا فى الشواهد والمتابعات

وهذا باب فيه غموض وطريقه معرفة طبقات الرواة عن راوى الأصل ومراتب مداركهم ولنوضح ذلك بمثال : وهو أن تعلم أن أصحاب الزهرى مثلا على خمس طبقات ولكل طبقة منها مزية على التى تليها :

فالطبقة الأولى : جماعة من الرواة العدول جمعوا بين الحفظ والاتقان وبين طول الملازمة للزهرى حتى كان فيهم من يزامله فى السفر ويلازمه فى الحضر وهذه هى الغاية فى الصحة وهؤلاء مثل مالك وابن عيينه ويونس وعقيل الأيليين وشعيب بن أبى حمزة وغيرهم .

والطبقة الثانية : جماعة من الرواة العدول لم يلازموا الزهرى الا مدة يسيرة فلم يمارسوا حديثه وكانوا فى الاتقان دون الطبقة الأولى مثل الأوزاعى والليث بن سعد والنعمان بن راشد وعبد الرحمن بن خالد بن مسافر وغيرهم .

والطبقة الثالثة : جماعة من الرواة لازموا الزهرى ملازمة طويلة كرجال الطبقة الأولى غير أنهم لم يسلموا من غوائل الجرح فهم بين القبول والرد مثل سفيان بن حسين الأسلمى وجعفر بن برقان وعبد الله ابن عمر بن حفص العمرى وزمعة بن صالح المكى وغيرهم .

والطبقة الرابعة : قوم شاركوا أهل الطبقة الثالثة فى عدم السلامة من غوائل الجرح غير أنهم لم يلازموا الزهرى طويلا فلم يمارسوا حديثه مثل اسحاق بن يحيى الكلبى ومعاوية بن يحيى الصدفى واسحاق بن عبد الله بن أبى فروة المدنى . وابراهيم بن يزيد المكى والمثنى بن الصباح وجماعة سواهم .

والطبقة الخامسة : نفر من الضعفاء والمجهولين لا يجوز لمن يخرج الحديث على الأبواب أن يخرجوا حديثهم الا على سبيل الاعتبار

والاستشهاد عند أبى داود والنسائى والترمذى فأما عند الشيخين (البخارى ومسلم) فلا وهؤلاء مثل بحر بن كنيز السقا والحكم بن عبد الله الأيلى وعبد القدوس بن حبيب الدمشقى ومحمد بن سعيد المصلوب وغيرهم .

قال : فأما الطبقة الأولى فهم شرط البخارى وقد يخرج من أحاديث أهل الطبقة الثانية [١] ما يعتمده من غير استيعاب وأما مسلم فيخرج أحاديث الطبقتين الأولى والثانية باستيعاب وينتقى من أحاديث أهل الطبقة الثالثة وأما الرابعة والخامسة فلا يعرجان عليهما [٢] اهـ . كلام الحازمى .

قال الحافظ بنحجر معقبا على كلامه : وهذا المثال الذى ذكره الحازمى عن الزهرى انما يتأتى فى حق المكثرين فيقاس على أصحاب الزهرى أصحاب نافع وأصحاب الأعمش وأصحاب قتادة وأمثالهم . قال : فأما غير المكثرين فقد اعتمد الشيخان فى تخريج أحاديثهم على الثقة والعدالة وقلة الخطأ ، لكن منهم من قوى الاعتماد عليه فأخرجا ما تفرد به كيحيى بن سعيد الأنصارى ومنهم من لم يقو الاعتماد عليه فأخرجا له ما شاركه فيه غيره وهو الأكثر . اهـ (مقدمة الفتح ١ — ٦) .

---

(١) وقال ابن حجر فى مقدمة الفتح (أكثر ما يخرج البخارى حديث الطبقة الثانية تعليقا وربما أخرج اليسير من حديث الطبقة الثالثة تعليقا أيضا) اهـ ص ٦ جـ ١ .

(٢) قال الحازمى : فاما ابو داود والنسائى فهما يخرجان من أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ولا يتجاوزانها الى الرابعة وما بعدها فى الأصول بخلاف المتابعات والشواهد ، وأما الترمذى فيخرج لغير الطبقة الخامسة فى الأصول وللخامسة فى غيرها مع بيانه لحال كل حديث يخرجه من الصحة أو الضعف .

المقارنة بين الصحيحين :

التزم كل من البخارى ومسلم ألا يخرج فى كتابه غير الأحاديث الصحيحة وكتاباهماوان اشتركا فى أصل الصحة لكن صحيح البخارى أصح من صحيح مسلم ومقدم عليه ويدل على ذلك أمران .

الأول : شهادة أهل الفن وجهابذة الحديث فمن ذلك ما رواه الحافظ ابن حجر عن أبى عبد الرحمن النسائى أنه قال : (ما فى هذه الكتب كلها أجود من كتاب محمد بن اسماعيل) قال الحافظ : والنسائى لا يعنى بالجودة الا جودة الأسانيد كما هو المتبادر الى الفهم من اصطلاح أهل الحديث ومثل هذا من النسائى غاية فى الوصف مع شدة تحريه وتوقيه وتثبته فى نقد الرجال وتقدمه فى ذلك على أهل عصره حتى قدمه قوم من الحذاق فى معرفة ذلك على مسلم بن الحجاج وقدمه الدارقطنى وغيره على امام الأئمة أبى بكر بن خزيمة صاحب الصحيح ، وقال الاسماعيلى فى المدخل له : (أما بعد فانى نظرت فى كتاب الجامع الذى ألفه أبو عبد الله البخارى فرأيته جامعا كما سمى لكثير من السنن الصحيحة ودالا على جمل من المعانى الحسنة المستنبطة التى لا يكمل لمثلها الا من جمع الى معرفة الحديث ونقلته والعلم بالروايات وعللها علما بالفقه واللغة وتمكنا منها وتبحرا فيها وكان يرحمه الله الرجل الذى قصر زمانه على ذلك فبرع وبلغ الغاية فحاز السبق وقد نحا نحوه فى التصنيف جماعة منهم مسلم بن الحجاج وكان يقاربه فى العصر فرام مرامه وكان يأخذ عنه أو عن كتبه الا أنه لم يضايق نفسه مضايقة أبى عبد الله ، وروى عن جماعة كثيرة لم يتعرض أبو عبد الله للرواية عنهم وكل قصد الخير غير أن أحدا لم يبلغ فى التشدد مبلغ أبى عبد الله ولا تسبب الى استنباط المعانى واستخراج لطائف فقه الحديث وتراجم الأبواب الدالة على ما له

صلة بالحديث المروى فيه تسببه ولله الفضل يختص به من يشاء) وقال الدارقطني لما ذكر عنده الصحيحان : لولا البخارى لما ذهب مسلم ولا جاء وقال مرة أخرى : (وأى شيء صنع مسلم انما أخذ كتاب البخارى فعمل عليه مستخرجا وزاد فيه زيادات) ، ونقل كلام العلماء فى ذلك يطول فنكتفى بهذا القدر على أنه يكفى لتقديم كتاب البخارى على كتاب مسلم اجماع أهل الحديث على أن البخارى أعلم بهذا الفن من مسلم وهو أستاذ مسلم فيه حتى شهد له مسلم بالتفرد بمعرفة ذلك فى عصره .

الأمر الثانى : ان مدار الحديث الصحيح على اتصال السند واتقان الرجال والسلامة من الشذوذ والعلة . وهذه الأوصاف فى كتاب البخارى أقوى منها فى كتاب مسلم فهو أشد اتصالا وأوثق رجالا وأبعد عن الشذوذ والعلة ، وبيان ذلك :

أولا — فيما يرجع الى اتصال السند : ان الأسناد المعنعن الذى يقال فيه (فلان عن فلان) اكتفى مسلم فيه بالمعاصرة أما البخارى فلا يحمل ذلك على الاتصال حتى يثبت اجتماعهما ولو مرة . وقد أظهر البخارى هذا المذهب فى تاريخه وجرى عليه فى صحيحه كما جرى مسلم على مذهبه المذكور فى صحيحه وصرح به فى مقدمته وبالغ فى الرد على من خالفه ، ولا شك أن مذهب البخارى فى المعنعن أدخل فى باب الاتصال وأبعد عن شائبة الانقطاع بخلاف ما ذهب اليه مسلم .

ثانيا — فيما يرجع الى السلامة من الشذوذ والعلة : ان الأحاديث التى انتقدت عليها بلغت (٢١٠) ختص البخارى منها بثمانية وسبعين واختص مسلم بمائة واشتركا فى الباقى وهو اثنان وثلاثون ولا شك أن ما قل الانتقاد فيه أرجح مما كثر فيه .

ثالثا — فيما يرجع الى اتقان الرواة : يتبين رجحان صحيح البخارى على صحيح مسلم فى هذا الباب بعدة أمور : —

(أ) ان الذين انفرد البخارى بالاخراج لهم دون مسلم أربعمائة وبضع وثلاثون رجلا المتكلم فيه بالضعف منهم (٨٠) رجلا . والذين انفرد مسلم بالاخراج لهم دون البخارى (٦٢٠) رجلا . المتكلم فيه بالضعف منهم (١٦٠) رجلا ، ولا شك أن التخريج عمن لم يتكلم فيه أصلا أولى من التخريج عمن تكلم فيه وان لم يكن ذلك الكلام قادحا

(ب) ان الذين انفرد بهم البخارى ممن تكلم فيه لم يكثر من التخريج عنهم وليس لواحد منهم نسخة كبيرة أخرجها كلها أو أكثرها الا ترجمة عكرمة عن ابن عباس . بخلاف مسلم فأنه أخرج أكثر تلك النسخ كأبى الزبير عن جابر وسهيل عن أبيه والعلاء بن عبد الرحمن عن أبيه وحماد بن سلمة عن ثابت وغير ذلك .

(جـ) ان الذين انفرد بهم البخارى ممن تكلم فيه أكثرهم من شيوخه الذين لقيهم وجالسهم وعرف أحوالهم واطلع على أحاديثهم وميز جيدها من غيره . بخلاف مسلم فان من انفرد بتخريج حديثه ممن تكلم فيه أكثرهم ممن تقدم عصره من التابعين ومن بعدهم . ولا شك أن المحدث أعرف بحديث شيوخه دون غيرهم .

(د) ان البخارى يخرج أحاديث الطبقة الأولى وهى أعلى الطبقات فى الحفظ والاتقان وطول الصحبة لمن أخذوا عنه استيعابا وينتقى من أحاديث الطبقة الثانية التى هى دون الأولى فى الصفات المذكورة ومسلم يخرج حديث الطبقة الثانية استيعابا وفى أصل موضوع كتابه فكان البخارى أقوى اسنادا وأوثق رجالا .

هذا وأما ما نقل عن أبى على النيسابورى أنه قال : (ما تحت أديم السماء كتاب أصح من كتاب مسلم بن الحجاج) لا ينافى ما تقدم ، فقد قال الحافظ بن حجر الذى يظهر لى من كلام أبى على أنه انما قدم صحيح مسلم لمعنى غير ما يرجع الى ما نحن بصدده من الشرائط المطلوبة فى الصحة بل ذلك لأن مسلما صنف كتابه فى بلده بحضور أصوله فى حياة كثير من مشايخه فكان يتحرز فى الألفاظ ويتحرى فى السياق ولا يتصدى لما تصدى له البخارى من استنباط الأحكام ليبوب عليها ولزم من ذلك تقطيعه للحديث فى أبوابه بل جمع مسلم الطرق كلها فى مكان واحد واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات فلم يعرج عليها الا فى بعض المواضع على سبيل الندرة تبعا لا مقصودا فلهذا قال أبو على ما قال . قال وكذلك ما نقل عن بعض المغاربة أنه فضل صحيح مسلم على صحيح البخارى فذلك فيما يرجع الى حسن السياق وجودة الوضع والترتيب ولم يفصح أحد منهم بأن ذلك راجع الى الأصحية ولو أفصحوا لرده عليهم شاهد الوجود . اهـ (مقدمة الفتح جـ ١ ص ٨ وشرح النخبة ص ١٠) .

الشيخان لم يستوعبا الصحيح فى الصحيحين :

قرر الحفاظ وأئمة الحديث أن البخارى ومسلما لم يستوعبا فى صحيحهما الأحاديث الصحيحة ولا التزما ذلك فقد رووا عن البخارى أنه قال : (ما أدخلت فى كتاب الجامع الا ما صح وتركت من الصحاح لملال الطول) وأنه قال : (احفظ مائة ألف حديث صحيح واحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح) وانه قال : (كنت عند اسحاق بن راهويه فقال : (لو جمعتهم كتابا مختصرا لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال : (فوقع ذلك فى قلبى فأخذت فى جمع الجامع الصحيح) ورووا عن مسلم أنه قال : (ليس كل شىء عندى صحيح وضعته ههنا . انما وضعت

ههنا ما أجمعوا عليه) [١] ورووا عنه أيضا أنه لما عوتب على ما فعل من جمع الأحاديث الصحاح فى كتاب وقيل له أن هذا يطرق لأهل البدع علينا فيجدون السبيل لأن يقولوا اذا احتج عليهم بحديث : ليس هذا فى الصحيح . قال : انما أخرجت هذا الكتاب وقلت هو صحاح ولم أقل أن ما لم أخرجه من الحديث فى هذا الكتاب فهو ضعيف [٢] ومن ذلك يتبين لنا : —

أولا — أنه لا وجه لالزام من ألزمهما اخراج أحاديث لم يخرجاها مع كونها صحيحة على شرطيهما كالدارقطنى والبيهقى وابن حبان فقد روى عن ابن حبان أنه قال : (ينبغى أن يناقش البخارى ومسلم فى تركهما اخراج أحاديث هى من شرطهما) ، وذكر الدارقطنى وغيره (ان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورويت أحاديثهم من وجوه صحاح لا مطعن فى ناقليها ولم يخرجا من أحاديثهم شيئا فيلزمهما على مذهبهما) وذكر البيهقى : (أنهما اتفقا على أحاديث من صحيفة همام بن منبه وان كل واحد منهما انفرد عن الآخر بأحاديث منها على أن الأسناد واحد) اهـ . وصنف الدارقطنى وأبو ذر الهروى فى هذا النوع الذى ألزموهما به ، ولكن هذا كله ليس بلازم فى الحقيقة — كما قلنا — فانهما لم يلتزما استيعاب الصحيح بل صح عنهما تصريحهما بأنهما لم يستوعباه وانما قصدا جمع جمل من الصحيح كما يقصد المصنف فى الفقه الى جمع جملة من مسائله [٣] .

---

(١) أراد أنه لم يضع فى كتابه الا الأحاديث التى وجد عنده فيها شرائط الصحيح المجمع عليه وأن لم يظهر اجتماعها فى بعضها عند بعضهم . قاله ابن الصلاح فى مقدمته .

(٢) توجيه النظر ص ٩١ .

(٣) أنظر مقدمة النووى لشرحه على صحيح مسلم .

ثانيا — لا يلزم من عـدم تخريج الشـيخين لراو من الرواة فى الصحيحين سقوطه آو ضعفه فانهما كما لم يستوعبا الأحاديث الصحيحة لم يستوعبا الرواة الذين توافرت فيهم صفات القبول والصحة وهم خلائق كثير يبلغ عددهم نيفا وثلاثين ألفا لأن تاريخ البخارى يشتمل على نحو من أربعين ألفا وزيادة وكتابه فى الضعفاء دون سبعمائة نفس ومن خرجهم فى جامعه دون ألفين كما قال الحافظ الحازمى فى شروط الأئمة الخمسة .

وقد ذكر الحاكم أبو عبـد الله النيسابورى جمـاعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الرواة ولم يخرج لهم فى الصحيح ولم يسقطوا — فى كتابه معرفة علوم الحديث فى النوع الحادى والخمسين — منهم :

١ — فى الصحابة ، أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة ، وعتبة بن غزوان ، وأبو كبشة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ، والأرقم بن الأرقم ، وقدامة بن مظعون ، والسائب ابن مظعون وشـجاع بن وهب الأسـدى ، وعباد بن بشر الأشهلى ، وسلامة بن وتش . فى جماعة من الصحابة ، قال الحاكم : الا أنى ذكرت هؤلاء رضى الله عنهم فانهم من المهاجرين الذين شهدوا بدرا وليس لهم فى الصحيح رواية اذ لم يصح اليهم الطريق ولهم ذكر فى الصحيح فى روايات غيرهم من الصحابة مثل قوله صلى الله عليه وسلم لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وما يشبه هذا .

٢ — وفى التابعين : محمد بن أبى بن كعب ، والسائب بن خلاد بن السائب ، ومحمد بن أسامه بن زيد ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، وسعيد بن سعد بن عبادة ، وعبيد الله بن رافع بن خديج ، فى طائفة من

التابعين ، قال الحاكم : هؤلاء التابعون على علو محالهم فى التابعين ومحل آبائهم فى الصحابة ليس لهم فى الصحيح ذكر لفساد الطريق اليهم لا لجرح فيهم فقد نزههم الله عن ذلك .

٣ — ومن أتباع التابعين : عبد الرحمن بن أبى الزناد ، وعطاء بن السائب الثقفى ، وأبو يعقوب العبدى ، وعبد الله بن شبرمة الضبى ؛ وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وبشر بن سليمان النهدى ، والحسن بن الحر وغيرهم .

وقال الأستاذ المحدث الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى تعليقه على شروط الأئمة الخمسة للحازمى : « ومما يتجه اليه النظر أن الشيخين لم يخرجا فى الصحيحين شيئا من حديث الامام أبى حنيفة مع أنهما أدركا صغار أصحاب أصحابه ، وأخذا عنهم ولم يخرجا أيضا من حديث الامام الشافعى مع أنهما لقيا بعض أصحابه ولا أخرج البخارى من حديث أحمد الا حديثين أحدهما تعليقا والآخر نازلا بواسطة مع أنه أدركه ولازمه ، ولا أخرج مسلم فى صحيحه عن البخارى شيئا مع أنه لازمه ونسج على منواله ، ولا عن أحمد الا قدر ثلاثين حديثا ، ولا أخرج أحمد فى مسنده عن مالك عن نافع بطريق الشافعى — وهو أصح الطرق أو من أصحها — الا أربعة أحاديث وما رواه عن الشافعى بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين حديثا مع أنه جالس الشافعى وسمع موطأ مالك منه وعد من رواة مذهبه القديم .

قال الأستاذ : والظاهر من دينهم وأمانتهم ان ذلك من جهة أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء فى مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين بروايتها شرقا وغربا وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من

الرواةربما كانت تضيع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لايستغنى من بعدهم عن دواوينهم فى أحاديث هؤلاء دون هؤلاء .

قال الأستاذ . ومن ظن أن ذلك لتحاميهم عن أحاديثهم ، أو لبعض مافى كتب الجرح من الكلام فى هؤلاء الأئمة كقول الثورى فى أبىحنيفة وقول ابن معين فى الشافعى وقول الكرابيسى فى أحمد وقول الذهلى فى البخارى ونحوها فقد حملهم شططا » اهـ .

والذى يظهر لنا من كلام الحاكم وغيره أن الشيخين أو أحدهما قد يترك الامام الثقة لأسباب منها : — ١ — أن يقع الضعف فى الاسناد الذى بينه وبين صاحب الصحيح فلا يروى الحديث من طريقه — ٢ — قد يكون الامام الذى ترك حديثه له أصحاب أجلاء يحملون عنه علمه وحديثه فلا يخاف على مروياته من الضياع فيستغنى صاحب الصحيح بذلك عن الرواية عنه . — ٣ — طلب علو الاسناد فقد يكون الحديث من طريق ذلك الامام نازلا ومن طريق غيره من الثقات عاليا فيختار صاحب الصحيح الاسناد العالى لما فيه من القرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اختلاف العلماء فى أن أحاديث الصحيحين ثابتة بالعلم أو الظن :

قال الحافظ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله : جميع ما حكم مسلم بصحته فى كتابه فهو مقطوع بصحته والعلم النظرى حاصل بصحته فى نفس الأمر وهكذا ما حكم البخارى بصحته فى كتابه وذلك لأن الأمة تلقت الكتابين بالقبول سوى من لا يعتد بخلافه ووفاقه فى الاجماع ويستثنى من ذلك أحاديث يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد من الحفاظ كالدارقطنى وغيره وهى معروفة عند المحدثين ، قال : والذى نختاره أن تلقى الأمة للخبر القاصر عن درجة التواتر بالقبول يوجب العلم النظرى

بصدقه خلافا لبعض محققى الأصوليين حيث نفى ذلك بنـاء على أنه لا يفيد فى حق كل منهم الا الظن وانما قبله لأنه يجب عليه العمل بالظن والظن قد يخطىء . قال : وهذا مندفع لأن ظن من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء والأمة فى أجماعها معصومة من الخطأ .

وقد مال النووى الى أن أحاديث الصحيحين التى لم تتواتر ثابتة بالظن لا بالعلم وتعقب ابن الصلاح فى شرحه لمسلم فقال : وهذا الذى ذكره الشيخ خلاف ما قاله المحققون والأكثرون فانهم قالوا أحاديث الصحيحين التى ليست بمتواترة انما تفيد الظن فانها آحاد والآحاد انما تفيد الظن على ما تقرر ولا فرق بين البخارى ومسلم وغيرهما فى ذلك وتلقى الأمة بالقبول انما أفادنا وجوب العمل بما فيهما وهذا متفق عليه فان أخبار الآحاد التى فى غيرهما يجب العمل بها اذا صحت أسانيدها ولا تفيد الا الظن . فكذا الصحيحان وانما يفترق الصحيحان وغيرهما من الكتب فى كون ما فيهما صحيحا لا يحتاج الى النظر فيه بل يجب العمل به مطلقا وما كان فى غيرهما لايعمل به حتى ينظر وتوجد فيه شروط الصحيح ولا يلزم من اجماع الأمة على العمل بما فيهما اجماعهم على أنه مقطوع بأنه كلام النبى صلى الله عليه وسلم . ا هـ .

وقد انحاز الى كل طائفة من العلماء ففريق يرجح كلام ابن الصلاح فى انها ثابتة عنه صلى الله عليه وسلم بطريق العلم النظرى وفريق آخر يرجح كلام النووى فى انها ثابتة بطريق الظن .

قال شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر : ما ذكره النووى مسلم من جهة الأكثرين أما المحققون فلا فقد وافق ابن الصلاح أيضا محققون ، وقال فى شرح النخبة : الخبر المحتف بالقرائن يفيد العلم خلافا لمن أبى ذلك قال وهو أنواع منها ما أخرجه الشيخان فى صحيحيهما مما لم يبلغ

حد التواتر فانه احتفت به قرائن منها جلالتهما فى هذا الشأن وتقدمهما فى تمييز الصحيح على غيرهما وتلقى العلماء لكتابيهما بالقبول وهذا التلقى وحده أقوى فى افادة العلم من مجرد كثرة الطرق القاصرة عن التواتر الا أن هذا مختص بما لم ينتقده أحد من الحفاظ مما فى الكتابين وبما لم يقع التجاذب بين مدلوليه مما وقع فى الكتابين حيث لا ترجيح لاستحالة أن يفيد المتناقضان العلم بصدقهما من غير ترجيح لأحدهما على الآخر وما عدا ذلك فالاجماع حاصل على تسليم صحته . قال : وما قيل من أنهم انما اتفقوا على وجوب العمل به لا على صحته ممنوع لأنهم اتفقوا على وجوب العمل بكل ما صح ولو لم يخرجاه فلم يبق للصحيحين فى هذا مزية والاجماع حاصل على أن لهما مزية فيما يرجع الى نفس الصحة قال : وممن صرح بافادة ما خرجه الشيخان العلم النظرى الأستاذ أبو اسحاق الاسفرائينى ومن أئمة الحديث أبو عبد الله الحميدى وأبو الفضل بن طاهر وغيرهما . ويحتمل أن يقال المزية المذكورة كون أحاديثهما أصح الصحيح ، ثم قال : والعلم بصدق الخبر المحتف بالقرائن انما يحصل للعالم بالحديث المتبحر فيه العارف بأحوال الرواة المطلع على العلل وكون غيره لا يحصل له العلم بصدق ذلك لقصوره عن الأوصاف المذكورة لا ينفى حصول العلم للمتبحر المذكور . اهـ وقال ابن كثير فى الباعث الحثيث [1] وأنا مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد اليه ثم وقفت بعد هذا على كلام لشيخنا العلامة ابن تيميه مضمونه :

انه نقل القطع بالحديث الذى تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة منهم : القاضى عبد الوهاب المالكى والشيخ أبو حامد الاسفرائينى والقاضى أبو الطيب الطبرى ، والشيخ أبو اسحاق الشيرازى من الشافعية وأبو حامد وأبو يعلى بن الفراء وأبو الخطاب وابن الزاغونى وأمثالهم

(١) ص ٢٣ .

من الحنابلة ، وشمس الأئمة السرخسى من الحنفية قال : وهو قول أكثر أهل الكلام من الأشعرية وغيرهم . كأبى اسحاق الاسفرائينى ، وابن فورك . قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ، ومذهب السلف عامة اهـ. قال السيوطى فى تدريبه وهو الذى اختاره ولا أعتقد سواه . اهـ .

((انتقاد بعض الحفاظ على الشيخين والجواب عنه)) :

انتقد جماعة من الحفاظ على البخارى ومسلم أحاديث أخلافيهما بشرطيهما ونزلت عن درجة ما التزماه ، منهم الدارقطنى ، وأبو مسعود الدمشقى ، وأبو على الغسانى ، وألفوا فى ذلك . قال الحافظ ابن حجر : وليست عللها كلها قادحة بل أكثرها الجواب عنه ظاهر والقدح فيه مندفع وبعضها الجواب عنه محتمل واليسير منه فى الجواب عنه تعسف .

قال : والأحاديث التى انتقدت عليهما أن كانت مذكورة على سبيل الاستئناس والتقوية كالمعلقات والمتابعات والشواهد أجيب عن الاعتراض عليها أن توجه بأنها ليست من موضوع الكتابين فان موضوعهما المسند المتصل ولهذا لم يتعرض الدارقطنى فى نقده على الصحيحين الىالأحاديث المعلقة التى لم توصل فى موضع آخر لعلمه بأنها ليست من موضوع الكتابين وانما ذكرت استئناسا واستشهادا ، وان كانت من الأحاديث المسندة فأما أن يكون الطعن مبنيا على قواعد ضعيفة لبعض المحدثين فلا يقبل لضعف مبناه وأما أن يكون مبنيا على قواعد قوية فحينئذ يكون قد تعارض تصحيحهما أو تصحيح أحدهما مع كلام المعترض ولا ريب فى تقدمهما فى باب التصحيح والتضعيف على غيرهما قال الحافظ ابن حجر : وعدة ما انتقد عليهما من الأحاديث المسند (٢١٠) مائتا حديث وعشرة . اشتركا فى (٣٢) اثنين وثلاثين حديثا . واختص البخارى بثمانية

وسبعين ومسلم بمائة . قال : والجواب عن ذلك على سبيل الاجمال أن نقول : لاريب فى تقديم البخارى ثم مسلم على أهل عصرهما ومن بعده من أئمة هذا الفن فى معرفة الصحيح والمعلل فأنهم لا يختلفون فى أن على بن المدينى كان أعلم أقرانه بعلل الحديث وعنه أخذ البخارى ذلك حتى كان يقول : ما استصغرت نفسى عند أحد الا عند على بن المدينى ومع ذلك فكان على بن المدينى اذا بلغه ذلك عن البخارى يقول : دعوا قوله فانه ما رأى مثل نفسه وكان محمد بن يحيى الذهلى أعلم أهل عصره بعلل حديث الزهرى وقد استفاد منه ذلك الشيخان جميعا ، وروى الفربرى عن البخارى قال : ما أدخلت فى الصحيح حديثا الا بعد أن استخرت الله تعالى وتيقنت صحته ، وقال مكى بن عبد الله : سمعت مسلم بن الحجاج يقول : عرضت كتابى هذا على أبى زرعة الرازى فكل ما أشار أن له علة تركته . قال : فاذا عرف وتقرر أنهما لا يخرجان من الحديث الا ما لا علة له أو له علة الا أنها غير مؤثرة عندهما فبتقدير توجيه كلام المنتقد عليهما يكون قوله معارضا لتصحيحهما ولا ريب فى تقدمهما فى ذلك على غيرهما فيندفع الاعتراض من حيث الجملة ، ثم أجاب الحافظ ابن حجر رحمه الله عن النقد جوابا تفصيليا : قسم فيه الأحاديث التى انتقدت عليهما الى ستة أقسام تكلم عليها ثم أجاب عن الأحاديث التى أوردها الدارقطنى على البخارى حديثا حديثا ثم قال : فاذا تأمل المنصف ما حررته من ذلك عظم مقدار هذا المصنف فى نفسه وجل تصنيفه فى عينه وعذر الأئمة من أهل العلم فى تلقيه بالقبول والتسليم وتقديمهم له على كل مصنف فى الحديث والقديم .

قال : وانما اقتصرت على ماذكرته عن الدارقطنى لأنى أردت أن

يكون عنوانا لغيره فانه الامام المقدم فى هذا الفن . اهـ[1] .

هذا وأما الأحاديث التى انتقدت على الامام مسلم فى صحيحه فقد أجاب عنها واحدا واحدا جهابذة من أئمة الحديث قال السيوطى ورأيت فيما يتعلق بمسلم تأليفا مخصوصا فيما ضعف من أحاديثه بسبب ضعف رواته . وقد ألف الشيخ ولى الدين العراقى كتابا فى الرد عليه . قال السيوطى وذكر بعض الحفاظ أن فى كتاب مسلم أحاديث مخالفة لشرط الصحيح بعضها أبهم راويه وبعضها فيه ارسال وانقطاع وبعضها فيه وجادة وهى فى حكم الانقطاع وبعضها بالمكاتبة ، وقد ألف الرشيد العطار كتابا فى الرد عليه والجواب عنها حديثا حديثا وقد وقفت عليه . أهـ كلامه . (تدريب ص ٤٢) .

وللامام الحافظ أبى عمرو بن الصلاح جواب موجز محرر فى الدفاع عن مسلم رحمه الله يحسن بنا أن نذكره لك نقلا عن الامام النووى فى مقدمته لشرح مسلم .

قال النووى رحمه الله : عاب عائبون مسلما بروايته فى صحيحه عن جماعة من الضعفاء والمتوسطين الواقعين فى الطبقة الثانية الذين ليسوا من شرط الصحيح ولا عيب عليه فى ذلك بل جوابه من أوجه ذكرها الشيخ الامام أبو عمرو بن الصلاح :

أحدها : أن يكون ذلك فيمن هو ضعيف عند غيره ثقة عنده ولا يقال الجرح مقدم على التعديل لأن ذلك فيما اذا كان الجرح ثابتا مفسر السبب والا فلا يقبل الجرح ، وقد قال الامام الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وغيره : ما احتج البخارى ومسلم وأبو داود به من

---

(١) مقدمة فتح البارى لابن حجر جـ ٢ من ص ٨١ الى ص ١١٠

جماعة علم الطعن فيهم من غيرهم محمول على أنه لم يثبت الطعن المؤثر مفسر السبب .

الثـانى : أن يكون ذلك واقعا فى المتابعات والشواهد لا فى الأصول وذلك بأن يذكر الحديث أولا باسناد نظيف ، ورجاله ثقات ، ويجعله أصلا ثم يتبعه باسناد آخر أو أسانيد فيها بعض الضعفاء على وجه التأكيد بالمتابعة أو لزيادة فيه تنبه على فائدة فيما قدمه ، وقد اعتذر الحاكم أبو عبد الله بالمتابعة والاستشهاد فى اخراجه عن جماعة ليسوا من شرط الصحيح منهم مطر الوراق وبقية بن الوليد ومحمد بن اسحاق ابن يسار وعبد الله بن عمر العمرى ، والنعمان بن راشد وأخرج مسلم عنهم فى الشواهد فى أشباه لهم كثيرين .

الثالث : أن يكون ضعف الضعيف الذى احتج به مسلم طرأ بعد أخذه عنه باختلاط حدث عليه فهو غير قادح فيما رواه من قبل فى زمن استقامته كما فى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، فقد ذكر الحاكم أبو عبد الله أنه اختلط بعد الخمسين ومائتين بعد خروج مسلم من مصر فهو فى ذلك كسعيد بن أبى عروبة ، وعبد الرزاق وغيرهما ممن اختلط آخرا ولم يمنع ذلك من صحة الاحتجاج فى الصحيحين بما أخذ عنهم قبل ذلك .

الرابع : أن يعلو بالشخص الضعيف اسناده وهو عنده من رواية الثقات نازل فيقتصر على العالى ولا يطول باضافة النازل اليه مكتفيا بمعرفة أهل الشأن فى ذلك ، وهو خلاف حاله فيما رواه عن الثقاة أولا ثم أتبعه بمن دونهم متابعة وكأن ذلك وقع منه على حسب حضور باعث النشاط وغيبته ، وهذا العذر قد رويناه عنه تنصيصا روينا عن سعيد

ابن عمرو البرذعى أنه حضر أبا زرعة الرازى وذكر عنده صحيح مسلم فأنكر عليه روايته فيه عن أسباط بن نصر وقطين بن نسير ، وأحمد بن عيسى المصرى . قال سعيد بن عمرو فلما رجعت الى نيسابور ذكرت لمسلم انكار أبى زرعة فقال لى مسلم : انما أدخلت من حديث اسباط وقطين وأحمد ما قد رواه الثقات عن شيوخهم الا أنه ربما وقع لى عنهم بارتفاع ويكون عندى من رواية من هو أوثق منهم بنزول فاقتصر على ذلك ، وأصل الحديث معروف من رواية الثقات .

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح : فهذا مقام وعر وقد مهدته بواضح من القول لم أره مجتمعا فى مؤلف ولله الحمد . قال : وفيما ذكرته دليل على أن من حكم لشخص بمجرد رواية مسلم عنه فى صحيحه بأنه من شرط الصحيح عند مسلم فقد غفل وأخطأ بل يتوقف ذلك على النظر فى أنه كيف روى عنه على ما بيناه . اهـ

« المستخرجات على الصحيحين » :

معنى الاستخراج : هو أن يعمد حافظ من الحفاظ الى كتاب من كتب الحديث كصحيح البخارى أو صحيح مسلم أو غيرهما من الكتب فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه فى شيخه أو من فوقه ولو فى الصحابى مع رعاية ترتيبه ومتونه وطرق أسانيده ، وشرطه ألا يصل الى شيخ أبعد حتى يفقد سندا يوصله الى الأقرب ما لم يكن هناك عذر من علو فى السند أو زيادة مهمة فى المتن ، وربما أسقط المستخرج أحاديث لم يجد له بها سندا يرتضيه وربما ذكرها من طريق صاحب الكتاب الذى يستخرج عليه وقد صنف كثير من العلماء فى هذا النوع على الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث .

المستخرجات على صحيح البخارى : هى كثيرة منها : —

(١) مستخرج الحافظ أبى بكر الاسماعيلى الجرجانى المتوفى سنة (٣٧١) . قال الذهبى : « ابتهرت بحفظه وجزمت بأن المتأخرين على أياس من أن يلحقوا المتقدمين فى الحفظ والمعرفة » . (٢) ومستخرج الحافظ أبى بكر البرقانى المتوفى سنة (٤٢٥) . (٣) ومستخرج الحافظ أبى بكر بن مردويه الأصبهانى الكبير صاحب التاريخ والتفسير المسند المتوفى سنة ٤١٦ وهو غير الحافظ ابن مردويه محدث اصبهان فانه حفيد الكبير ولم يلحق جده . توفى سنة (٤٩٨) . (٤) ومستخرج الغطريفى المتوفى سنة (٣٧٧) . (٥) ومستخرج الحافظ أبى عبد الله محمد بن العباس المعروف بابن أبى ذهل الهروى المتوفى سنة (٣٧٨) .

المستخرجات على صحيح مسلم : هى كثيرة منها : (١) مستخرج الحافظ أبى عوانة يعقوب بن اسحاق الاسفرائينى المتوفى سنة (٣١٦) روى فيه عن يونس بن عبد الأعلى وغيره من شيوخ مسلم . (٢) مستخرج الحافظ أبى بكر محمد بن محمد بن رجاء النيسابورى الحافظ وهو متقدم توفى سنة (٢٨٦) ويشارك مسلما فى أكثر شيوخه . (٣) مستخرج الحافظ أبى بكر محمد بن عبد الله الجوزقى النيسابورى المتوفى سنة (٣٨٨) وجوزق قرية من قرى نيسابور . (٤) مستخرج الحافظ أحمد بن سلمة النيسابورى البزار المتوفى سنة (٢٨٦) وهو رفيق مسلم فى الرحلة الى بلخ والبصرة .

المستخرجات على الصحيحين : منها : —

(١) مستخرج الحافظ محمد بن يعقوب الشيبانى النيسابورى المعروف بابن الأخرم المتوفى سنة (٣٤٤) . (٢) مستخرج الحافظ أبى ذر الهروى

المتوفى سنة (٤٣٤) . (٣) مستخرج الحافظ أبى محمد البغدادى المعروف بالخلال (٤٣٩) . (٤) مستخرج الحافظ أبى على الماسرجسى النيسابورى المتوفى (٣٦٥) أسلم جده ماسرجس — وكان نصرانيا — على يد عبد الله بن المبارك . (٥) مستخرج الحافظ المصنف أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى المتوفى (٤٣٠) هؤلاء الأئمة خرج كل واحد منهم على كل من الصحيحين منفردا ومن العلماء من استخرج عليهما معا فى كتاب واحد كأبى بكر بن عبدان الشيرازى المتوفى (٣٨٨)[1] .

حكم الرواية عن الكتب المستخرجة :

لم يلتزم واحد من هؤلاء الأئمة موافقة الكتاب الأصلى فى ألفاظ الحديث لأنهم انما يروون بالألفاظ التى وقعت لهم عن شيوخهم فحصل فيها تفاوت قليل فى الألفاظ وتفاوت أقل منه فى المعانى ، فلا يجوز لمن ينقل عن أحد هذه الكتب المستخرجة حديثا ثم ينسبه الى الصحيحين مثلا ويقول هو هكذا فيهما الا أن يقابله بهما أو يكون صاحب الكتاب المستخرج قد صرح بأنه استخرجه بلفظه كأن يقول أخرجه البخارى بلفظه .

فوائد المستخرجات : فوائدها كثيرة منها : —

١ — ما يقع فيها من زيادات فى الأحاديث لم تكن بالأصل وانما وقعت لهم تلك الزيادات لأنهم لم يلتزموا ايراد ألفاظ الأصل بل الألفاظ التى وقعت لهم بالرواية عن شيوخهم .

---

(١) وقد استخرج محمد بن عبد الملك بن أيمن على سنن أبى داود . وأبو على الطوسى على الترمذى وأبو نعيم على التوحيد لابن خزيمة . وأملى الحافظ أبو الفضل العراقى على المستدرك مستخرجا لم يكمل ـ أنظر التدريب ص ٣٥ .

٢ — علو الاسناد لأن صاحب المستخرج لو روى الحديث من طريق صاحب الأصل لوقع أنزل من الطريق الذى يرويه به فى المستخرج .

٣ — تقوية الحديث بكثرة الطرق ، وربما ساق له طرقا أخرى الى الصحابى بعد فراغه من استخراجه كما يصنع أبو عوانة .

٤ — أن يكون صاحب الأصل قد روى عمن اختلط ولم يبين أن السماع منه كان قبل الاختلاط أو بعده فيبينه المستخرج صريحا أو بالرواية عمن لم يسمع منه الا قبل الاختلاط .

٥ — أن يروى صاحب الأصل عن مدلس بالعنعنة فيرويه صاحب المستخرج مع التصريح بالسماع أو نحوه .

٦ — أن يروى صاحب الأصل الحديث عن مبهم كحدثنا رجل أو غير واحد فيعينه المستخرج .

٧ — أن يروى صاحب الأصل عن مهمل كحدثنا محمد من غير ذكر ما يميزه عن غيره من المحمدين فيميزه المستخرج .

٨ — أن يكون فى الأصل حديث مخالف لقاعدة اللغة العربية يتكلف لتوجيهه ويتحمل لتخريجه فيجىء من رواية المستخرج على القاعدة فيعرف بأنه هو الصحيح وأن الذى فى الأصل قد وقع فيه الوهم من الرواة .

٩ — قال العلامة ابن حجر : « وكل علة أعل بها الحديث فى أحد الصحيحين وجاءت رواية المستخرج سالمة منها فهى من فوائده وذلك كثير جدا » اهـ .

حكم الزيادة الواقعة فى الكتب المستخرجة على الصحيحين :

ذهب الحافظ ابن الصلاح فى مقدمته عند الكلام على فوائد الكتب المستخرجة : الى أن الزيادة الواقعة فى المستخرجات لها حكم الصحيح

لأنها واردة بالأسانيد الثابتة فى الصحيحين أو أحدهما و خارجة من ذلك المخرج الثابت وقد تعقبه الحافظ ابن حجر فقال : (هذا مسلم فى الرجل الذى التقى فيه اسناد المستخرج وأسناد مصنف الأصل وفيمن بعده وأما من بين المستخرج وبين ذلك الرجل فيحتاج الى نقـد لأن المستخرج لم يلتزم الصحة فى ذلك وانما جل قصده العلو فان حصل وقع على غرضه فان كان مع ذلك صحيحا أو فيه زيادة فزيادة حسن حصلت اتفاقا والا فليس ذلك همته) اهـ . وهذا بيان حسن .

ثم أن الكلام انما هو فى الزيادة التى تقع تتمة لمحذوف فى أحاديث الصحيحين ونحو ذلك أما زيادة أحاديث بتمامها فلا ريب أنها تتبع قوة السند وضعفه فقد تكون صحيحة وقد تكون حسنة أو ضعيفة ، وقد وقع فى مستخرج أبى عوانة أحاديث كثيرة زائدة على أصله من هـذا النوع الأخير وفيها الصحيح والحسن والضعيف [١] .

المستدركات على الصحيحين :

الاستدراك فى اصطلاح أهل الحديث هو جمع الأحاديث التى تكون على شرط أحد المصنفين ولم يخرجها فى كتابه . ومعلوم مما تقدم أن الشيخين لم يستوعبا الصحيح فى كتابيهما ولا التزما ذلك واذن هناك أحاديث هى على شرطهما أو على شرط أحدهما لم يخرجاها فى كتابيهما ، وقد عنى العلماء بالاستدراك عليهما ، وألفوا فى ذلك المصنفات ، وأطلقوا عليها اسم المستدركات ومن أهم هذه المستدركات :

---

(١) أنظر . تدريب الراوى ص ٣٣ ـ ٣٤ . كشف الظنون جـ ١ ص ٢٨٦ توجيه النظر ص ١٤٢ وما بعدها . الرسالة المستطرفة للكتانى ص ٢١ وما بعدها .

١ — المستدرك لأبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم النيسابورى المتوفى سنة (٤٠٥) أودعه من الأحاديث ما هو على شرط الشيخين أو شرط أحدهما ولكن لم يخرجاه فى كتابيهما وما أدى اجتهاده الى تصحيحه وان لم يكن على شرط واحد منهما ، وهو ينبه على القسم الأول بقوله : هذا حديث على شرط الشيخين أو على شرط البخارى أو على شرط مسلم ، وعلى القسم الثانى بقوله : هذا حديث صحيح الأسناد وقد يورد فيه ما لم يصح عنده منبها على ذلك ، وهو متساهل فى التصحيح . وقد لخص [1] المستدرك الحافظ الذهبى المتوفى (٧٤٨) وتعقب كثيرا منه ببيان ضعفه أو نكارته ووضعه وجمع جزءا فى الأحاديث الموضوعة التى وجدت فيه فبلغت نحو مائة حديث وذكر له ابن الجوزى فى موضوعاته نحو ستين حديثا أيضا . وقد تطرف أبو سعد المالينى فحكم بأنه ليس فى المستدرك حديث على شرط الشيخين ورد عليه الذهبى ذلك بأن فيه جملة وافرة على شرطهما وأخرى كبيرة على شرط أحدهما ولعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب ، وفيه نحو الربع مما صح سنده وان كان فيه علة ، وما بقى وهو نحو الربع فهو مناكير وواهيات لا تصح وفى بعض ذلك موضوعات . اهـ .

هذا وقد اعتذر الحافظ ابن حجر عن التساهل الواقع فى مستدرك الحاكم فقال : انما وقع للحاكم التساهل لأنه سود الكتاب لينقحه فعاجلته منيته ولم يتيسر له تحريره وتنقيحه قال : وقد وجدت قريبا من نصف الجزء الثانى من تجزئة ستة من المستدرك : (الى هنا انتهى املاء الحاكم) وما عدا ذلك من الكتاب لا يؤخذ عنه الا بطريق الاجازة ،

---

(١) وقد طبع الكتابان فى حيدر آباد بالهند .

والتساهل فى القدر المملى قليل جدا بالنسبة الى ما بعده . اهـ وكثير من المحدثين على أن ما انفرد بتصحيحه الحاكم فى المستدرك عن أئمة الحديث يبحث عنه ويحكم عليه بما يليق بحاله من الصحة أو الحسن أو الضعف .

٢ — كتاب الالزامات لأبى الحسن على بن عمر بن أحمد الدارقطنى البغدادى أمير المؤمنين فى الحديث المتوفى سنة (٣٨٥) . جمع فيه ما وجده على شرط الشيخين من الأحاديث وليس بمذكور فى كتابيهما وألزمهما ذكره — وهو غير لازم كما تقدم لك — ورتبه على المسانيد فى مجلد لطيف .

٣ — المستدرك على الصحيحين للحافظ أبى ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصارى الهروى نزيل مكة صاحب التصانيف الكثيرة المتوفى سنة (٤٣٤) وهو كالمستخرج على كتاب الدارقطنى [1] .

سنن النسائى

صنف النسائى كتاب السنن الكبرى مشتملا على الصحيح والمعلول ثم اختصره فى كتاب السنن الصغرى وسماه (المجتبى) وهو صحيح عند النسائى جاء عنه أنه قال : (كتاب السنن كله صحيح وبعضه معلول والمنتخب المسمى بالمجتبى صحيح كله)[2] قالوا أنه لما صنف السنن الكبرى أهداها الى أمير الرملة فقال له أكل ما فى هذا صحيح قال لا .

---

(١) أنظر تدريب الراوى ص ٣١ . مفتاح السنة ص ٧٢ ـ الباعث الحثيث ص ١٥ وما بعدها ـ الرسالة المستطرفة ص ١٧ ـ ١٩ .

(٢) هكذا نقل عنه ولعله يريد كله صحيح متنا وبعض أسانيده معلول لأنه لا يلزم من صحة المتن صحة السند .

قال : فجرد الصحيح منه فصنف له المجتبى واذا نسب الى النسائى حديث فانما يعنون روايته فى السنن الصغرى المسماة بالمجتبى .

وكتاب المجتبى أقل السنن حديثا ضعيفا ورجلا مجروحا ودرجته فى الحديث بعد الصحيحين فهو مقدم على سنن أبى داود وسنن الترمذى لأن النسائى يمتاز عنهما بشدة تحريه فى الرجال حتى قيل انه كان أحفظ من مسلم بن الحجاج .

شرط النسائى فى سننه الصغرى : قدمنا لك عن الحازمى أن أبا داود والنسائى يخرجان من أحاديث الطبقة الأولى والثانية والثالثة ولا يتجاوزانها الى الرابعة فى الأصول بخلاف المتابعات والشواهد ، غير أن سنن النسائى تقدم على سنن أبى داود لتحرى مؤلفه واحتياطه فى أمر الرجال وفحصه الشديد عن حال الرواة وتركه لكثير ممن روى عنه أبو داود والترمذى . قال الحافظ ابن حجر : (كم من رجل أخرج له أبو داود والترمذى تجنب النسائى اخراج حديثه بل تجنب النسائى اخراج حديث جماعة من رجال الصحيحين) اهـ .

وقال الحافظ أحمد بن نصر شيخ الدارقطنى : (من يصبر على ما يصبر عليه النسائى كان عنده حديث ابن لهيعة ترجمة ترجمة فما حدث عنه بشيء) قال ابن حجر : — (وكان عنده عاليا عن قتيبة عنه ولم يحدث به لا فى السنن ولا فى غيرها) وبالجملة فشرط النسائى فى المجتبى هو أقوى الشروط بعد الصحيحين مما جعله عظيما فى نظر أهل العلم .

شروح المجتبى : شرحه جلال الدين السيوطى المتوفى سنة (٩١١) فى كتاب مختصر سماه زهر الربى على المجتبى ، وشرحه أيضا محمد

ابن عبد الهادى السندى المتوفى سنة (١١٣٨) قال فى مقدمته : (وبعد فهذا تعليق لطيف على سنن الامام الحافظ أبى عبد الرحمن النسائى رحمه الله تعالى يقتصر على حل ما يحتاج اليه القارىء والمدرس من ضبط اللفظ وايضاح الغريب والأعراب) والمجتبى مع شرحيه المذكورين مطبوع الآن[١] .

سنن أبى داود

انتقى أبو داود رحمه الله سننه من خمسمائة ألف حديث فبلغت أربعة آلاف وثمانمائة حديث كلها فى الأحكام وأكثرها مشاهير ، وكان رحمه الله أفقه الأئمة الستة بعد البخارى . لذلك جاء كتابه هذا كتابا حافلا جامعا لأبواب الفقه وللأحاديث التى استدل بها فقهاء الأمصار وبنوا عليها الأحكام حتى قالوا : (انها تكفى المجتهد بعد كتاب الله تعالى) وقد أجاد رحمه الله اجادة تامة فى التراجم على الأحاديث مما يدل على كمال احاطته بمذاهب العلماء ومعرفته بمسالكهم فى الاستدلال ، فانه ترجم على كل حديث بما استنبط منه عالم أو ذهب اليه ذاهب . لذلك اشتهر هذا الكتاب بين الفقهاء اشتهارا عظيما لجمعه أحاديث الأحكام .

قال الامام أبو سليمان الخطابى المتوفى سنة (٣٢٨) فى كتابه معالم السنن : (اعلموا رحمكم الله تعالى أن كتاب السنن لأبى داود كتاب شريف لم يصنف فى علم الدين كتاب مثله وقد رزق القبول من كافة الناس فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف

(١) مقدمة السيوطى لشرحه على سنن النسائى ومقدمة السندى لشرحه أيضا ومفتاح السنة ص ٧٩ ــ ٨٠ وكشف الظنون جـ ١ ص ٤٧٩ وشروط الأئمة الستة لابن طاهر . وتدريب الراوى ص ٣٠

مذاهبهم فلكل منه ورد ومنه شرب وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب ، وكثير من أقطار الأرض . فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن اسماعيل ومسلم بن الحجاج ومن نحا نحوهما فى جمع الصحيح على شرطهما فى السبك والانتقاء . الا أن كتاب أبى داود أحسن وضعا وأكثر فقها وكتاب أبى عيسى كتاب حسن والله يغفر لجماعاتهم ويحسن على جميل النية فيما سعوا له مثوبتهم برحمته) اهـ.

شرطه ودرجة أحاديثه : قال الامام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح المتوفى سنة (٦٤٢)[١] فى مقدمته ما نصه : (ومن مظانه — يعنى الحديث الحسن — سنن أبى داود السجستانى رحمه الله روينا عنه أنه قال ذكرت فيه الصحيح وما يشبهه ويقاربه وروينا عنه أيضا ما معناه أنه يذكر فى كل باب أصح ما عرفه فى ذلك الباب وقال : ما كان فى كتابى من حديث فيه وهن شديد فقد بينته وما لم أذكر فيه شيئا فهو صالح وبعضها أصح من بعض . قال ابن الصلاح : فعلى هذا ما وجدناه فى كتابه مذكورا مطلقا وليس فى واحد من الصحيحين ولا نص على صحته أحد ممن يميز بين الصحيح والحسن عرفنا بأنه من الحسن عند أبى داود وقد يكون فى ذلك ماليس بحسن عنده ولا مندرج فيما حققنا ضبط الحسن به . اذ حكى أبو عبد الله بن منده الحافظ أنه سمع محمد بن سعد الباوردى بمصر يقول : كان من مذهب أبى عبد الرحمن النسائى أن يخرج عن كل من لم يجمع على تركه[٢] . قال ابن منده : وكذلك أبو داود السجستانى يأخذ مأخذه ويخرج الاسناد الضعيف اذا لم يجد فى الباب غيره لأنه أقوى عنده من رأى الرجال) اهـ .

---

(١) ص ١٨

(٢) المراد فى سننه الكبرى أما الصغرى فقد تقدم لك الكلام على شرطه فيهـــا .

وقال السيوطى فى التدريب : (فعلى ما نقل عن أبى داود يحتمل أن يريد بقوله (صالح) الصالح للاعتبار دون الاحتجاج فيشمل الضعيف أيضا . لكن ذكر ابن كثير أنه روى عنه : (وما سكت عنه فهو حسن) فان صح ذلك فلا اشكال)[١] اهـ .

هذا وكلام أبى داود فيما يتعلق بكتابه — وقد نقل ابن الصلاح بعضه — مأخوذ من رسالته الى أهل مكة ونحن ننقل لك شيئا منها . قال : (انكم سألتمونى أن أذكر لكم الأحاديث التى فى كتاب السنن أهى أصح ما عرفت فى الباب . فاعلموا أنه كله كذلك الا أن يكون قد روى من وجهين أحدهما أقوم اسنادا والآخر أقوم فى الحفظ فربما كتبت ذلك ولا أرى فى كتابى من هذا عشرة أحاديث ولم أكتب فى الباب الا حديثا أو حديثين وان كان فى الباب أحاديث صحاح فانها تكثر وانما أردت قرب منفعته فاذا أعدت الحديث فى الباب من وجهين أو ثلاثة فانما هو من زيادة كلام فيه وانما تكون فيه كلمة زائدة على الأحاديث وربما اختصرت الحديث الطويل لأنى لو كتبته بطوله لم يعلم بعض من يسمعه المراد منه ولا يفهم موضع الفقه منه فاختصرته لذلك ، وأما المراسيل فقد كان يحتج بها العلماء فيما مضى مثل سفيان الثورى ومالك والأوزاعى حتى جاء الشافعى فتكلم فيها وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره . فاذا لم يكن مسند غير المراسيل فالمرسل يحتج به وليس هو مثل المتصل فى القوة وليس فى كتاب السنن الذى صنفته عن رجل متروك الحديث شىء ، فاذا كان فيه حديث منكر بينته أنه منكر وليس على نحوه فى الباب غيره . وما كان فى كتابى من حديث فيه وهن شديد فقد بينته ومنه ما لا يصح سنده وما لم أذكر فيه شيئا فهو صالح ، وبعضها أصح من

---

(١) ص ٥٥

بعض وهو كتاب لا ترد عليك سنة عن النبى صلى الله عليه وسلم ألا وهى فيه ولا أعلم شيئا بعد القرآن ألزم للناس أن يتعلموه من هذا الكتاب ولا يضر رجلا الا يكتب من العلم شيئا بعد ما يكتب هذا الكتاب ، واذا نظر فيه وتدبره وتفهمه حينئذ يعلم مقداره وأما هذه المسائل مسائل الثورى ومالك والشافعى فهذه الأحاديث أصولها .. والأحاديث التى وضعتها فى كتاب السنن أكثرها مشاهير وهى عند كل من كتب شيئا من الأحاديث الا أن تمييزها لا يقدر عليه كل الناس فالحديث المشهور المتصل الصحيح ليس يقدر أن يرده عليك أحد وأما الحديث الغريب فأنه لا يحتج به ولو كان من رواية الثقات من أئمة العلم . قال ابراهيم النخعى : كانوا يكرهون الغريب من الحديث وقال يزيد بن أبى حبيب : اذا سمعت الحديث فأنشده كما تنشد الضالة فان عرف والا فدعه ، ولم أصنف فى كتاب السنن الا الأحكام فهذه أربعة آلاف وثمانمائة كلها فى الأحكام فأما أحاديث كثيرة فى الزهد والفضائل وغيرها فلم أخرجها والسلام عليكم) اهـ .

شروحه ومختصراته : شرح السنن كثير من العلمـاء منهم الامام أبو سليمان الخطابى المتوفى سنة (٣٢٨) فى كتـابه معالم السنن فى مجلدين ، وقطب الدين أبو بكر اليمنى الشافعى المتوفى سنة (٦٥٢) فى أربع مجلدات كبار ، وشهاب الدين الرملى المتوفى سنة (٨٤٨) وغيرهم .

واختصرها الحافظ عبد العظيم المنذرى صاحب الترغيب والترهيب المتوفى سنة (٦٥٦) وهذب المختصر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥١) ذكر فيه أن الحافظ المنذرى قد أحسن فى اختصاره فهذبته نحو ما هذب هو به الأصل وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها اذ لم يكملها

وتصحيح أحاديثه والكلام على متون مشكلة لم يفتح معضلها وقد بسطت الكلام على مواضع لعل الناظر لا يجدها فى كتاب سواه[1] .

الجامع لأبى عيسى الترمذى

اشتهر هذا الكتاب بجامع الترمذى ويقال له السنن أيضا والأول هو الأكثر على ما ذكره صاحب كشف الظنون (١ — ٢٨٨) ألف الترمذى جامعه على أبواب الفقه وغيره وأودعه الصحيح والحسن والضعيف مبينا درجة كل حديث فى موضعه من الكتاب مع بيان وجه الضعف كما بين مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار واختصر طرق الحديث فذكر واحدا وأشار الى ما عداه وجعل فى آخره كتابا للعلل جمع فيه فوائد هامة لذلك جاء كتابه فذا فى بابه ، ففيه من الفوائد الفقهية والحديثية ما ليس فى غيره .

قال أبو عيسى الترمذى رحمه الله : (عرضت هذا الكتاب على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به واستحسنوه ، ومن كان فى بيته فكأنما النبى فى بيته يتكلم) وقال : ما أخرجت فى كتابى هذا الا حديثا عمل به بعض الفقهاء سوى حديث (فان شرب فى الرابعة فاقتلوه) وحديث (جمع بين الظهر والعصر بالمدينة من غير خوف ولا سفر) اهـ .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلى المتوفى سنة (٧٩٥) فى شرح علل الترمذى : (وقد اعترض على الترمذى بأنه فى غالب الأبواب يبدأ بالأحاديث الغريبة الاسناد غالبا . وليس ذلك بعيب لأنه رحمه الله يبين ما فيها من العلل ثم يبين الصحيح فى الاسناد وكأن قصده رحمه الله ذكر العلل ولهذا نجد النسائى اذا استوعب طرق الحديث بدأ بما هو غلط

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٤٧٨ ، مفتاح السنة ٨٦ .

ثم يذكر بعد ذلك الصواب المخالف له وأما أبو داود فكانت عنايته بالمتون أكثر ولهذا يذكر الطرق واختلاف ألفاظها والزيادات المذكورة فى بعضها دون بعض فكانت عنايته بفقه الحديث أكثر من عنايته بالأسانيد فلهذا يبدأ بالصحيح من الأسانيد وربما لم يذكر الاسناد المعلل بالكلية) [1] اهـ .

وقال ابن الصلاح فى مقدمته : (كتاب أبى عيسى الترمذى أصل فى معرفة الحديث الحسن وهو الذى نوه باسمه وأكثر من ذكره فى جامعه ويوجد فى متفرقات من كلام بعض مشايخه والطبقة التى قبله كأحمد ابن حنبل والبخارى وغيرهما وتختلف النسخ من كتاب الترمذى فى قوله (هذا حديث حسن) أو (هذا حديث حسن صحيح) فينبغى أن تصحح أصلك به بجماعة أصول وتعتمد على ما اتفقت عليه) اهـ [2] .

وبالجملة فجامع الترمذى كتاب جليل القدر عظيم الفوائد .

درجة أحاديثه : قال الحافظ ابن رجب فى شرح علل الترمذى : (أعلم أن الترمذى خرج فى كتابه الحديث الصحيح والحديث الحسن وهو ما نزل عن درجة الصحيح وكان فيه بعض ضعف ، والحديث الغريب ، والغرائب التى خرجها فيها بعض المناكير ولا سيما فى كتاب الفضائل ولكنه يبين ذلك غالبا ولا يسكت عنه ولا أعلم أنه خرج عن متهم بالكذب متفق على اتهامه : حديثا باسناد منفرد الا أنه قد يخرج حديثا مرويا من طرق أو مختلفا فى اسناده وفى بعض طرقه متهم وعلى هذا الوجه : خرج حديث محمد بن سعيد المصلوب ومحمد بن السائب

---

(١) شروط الائمة الخمسة ص ٤٤ من تعليقات الشيخ زاهد الكوثرى

(٢) ص ١٧ و ١٨ .

الكلبى نعم قد يخرج عن سيىء الحفظ وعمن غلب على حديثه الوهن ويبين ذلك غالبا ولا يسكت عنه) اهـ [١] .

مقارنة بين جامع الترمذى وسنن أبى داود والنسائى :

قال أبو جعفر بن الزبير : (لأبى داود فى حصر أحاديث الأحكام واستيفائها ما ليس لغيره ، وللترمذى فى فنون الصناعة الحديثية ما لم يشاركه غيره ، وقد سلك النسائى أغمض تلك المسالك وأجلها) اهـ وقال الحافظ الذهبى : (انحطت رتبة جامع الترمذى عن سنن أبى داود والنسائى لاخراجه حديث المصلوب والكلبى وأمثالهما) اهـ [٢] . وأفاد الحازمى فى شروط الأئمة الخمسة أن أبا داود والنسائى لا يجاوزان الطبقة الثالثة فى الأصول وأن أبا عيسى الترمذى لا يجاوز الطبقة الرابعة . ثم قال: (وفى الحقيقة شرط الترمذى أبلغ من شرط أبى داود لأن الحديث اذا كان ضعيفا أو مطلعه من حديث أهل الطبقة الرابعة فانه يبين ضعفه وينبه عليه فيصير الحديث عنده من باب الشواهد والمتابعات ويكون اعتماده على ما صح عند الجماعة ، وعلى الجملة فكتابه مشتمل على هذا الفن فلهذا جعلنا شرطه دون شرط أبى داود) اهـ [٣] .

شروحه : شرح جامع الترمذى كثير من العلماء منهم : —

(١) أبو بكر بن العربى المتوفى سنة (٥٤٦) وسمى شرحه : (عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى) ، وهو مطبوع بمصر الآن فى ثلاثة عشر جزءا الا أنه غير مصحح فكان فيه خطأ كثير . (٢) الحافظ أبو الفتح محمد

(١) ص ٥٤ من تعليقات الشيخ زاهد الكوثرى على شروط الائمة الخمسة للحازمى .

(٢) أنظر التدريب ص ٥٦ .

(٣) ص ٤٤

ابن محمد بن سيد الناس اليعمرى المتوفى سنة (٧٣٤) بلغ فيه الى أقل من ثلثى الجامع فى نحو عشرة مجلدات ولم يتمه ثم آكمله الحافظ زين الدين بن عبد الرحيم بن حسين العراقى المتوفى سنة (٨٠٦) . (٣) سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى المتوفى سنة (٨٠٥) وسماه (العرف الشذى على جامع الترمذى) كتب منه قطعة ولم يكمله. (٤) جلال الدين السيوطى وسماه (قوت المغتذى على جامع الترمذى) (٥) الحافظ زين الدين بن عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلى المتوفى سنة (٧٩٥) . (٦) الشيخ أبو الحسن بن عبد الهادى السندى المتوفى سنة (١١٣٩) [١] .

سنن ابن ماجه القزوينى

المتقدمون من أهل الحديث وكثير من محققى المتأخرين عدوا أصول كتب الحديث خمسة : الصحيحين وسنن النسائى وأبى داود والترمذى وخالفهم بعض المتأخرين فعد الأصول ستة باضافة سنن ابن ماجه الى الخمسة المذكورة ، وذلك لأنهم رأوا كتابه مفيدا عظيم النفع فى الفقه وأول من أضافه الى الخمسة الحافظ أبو الفضل بن طاهر المقدسى المتوفى سنة (٥٠٧) فى أطراف الكتب الستة له وكذلك فى كتابه شروط الأئمة الستة ، ثم الحافظ عبد الغنى المقدسى فى كتابه الاكمال فى أسماء الرجال — أى رجال الكتب الستة — وهو الذى هذبه الحافظ المزى وتبعهما على ذلك أصحاب الأطراف والرجال ، ولما كان ابن ماجه قد أخرج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث قال بعضهم : ينبغى أن يجعل السادس كتاب الدارمى فأنه قليل الرجال

---

(١) أنظر كشف الظنون جـ ١ ص ٢٨٨ .

الضعفاء نادر الأحاديث المنكرة والشاذة وان كانت فيه أحاديث مرسلة وموقوفة فهو مع ذلك أولى منه ، وجعل آخرون الموطأ هو السادس لصحته وجلالته كرزين السرقسطى المتوفى سنة (٥٣٥) فى كتابه تجريد الصحاح وتبعه ابن الأثير فى جامع الأصول وكذا غيره .

هذا وسنن ابن ماجه مصنف على الأبواب كالسنن الثلاثة السابقة وهو دونها فى الدرجة اذ المشهور أن ما انفرد به يكون ضعيفا الا أن هذا ليس على عمومه فقد قال الحافظ ابن حجر : (انه انفرد بأحاديث كثيرة وهى صحيحة فالأولى حمل الضعيف على الرجال وقد ألف الحافظ أحمد بن أبى بكر البوصيرى كتابا فى زوائده على الخمسة نبه فيه على غالبها) .

قال السيوطى فى شرحه على مجتبى النسائى المسمى بزهر الربى : (ان كتاب ابن ماجه قد تفرد فيه باخراج أحاديث عن رجال متهمين بالكذب وسرقة الأحاديث . وبعض تلك الأحاديث لا تعرف الا من جهتهم مثل حبيب بن أبى حبيب كاتب مالك ، والعلاء بن زيد وداود بن المحبر ، وعبد الوهاب بن الضحاك ، واسماعيل بن زياد الكوفى ، وعبد السلام بن يحيى بن أبى الجنوب وغيرهم .

قال : وأما ماحكاه ابن طاهر عن أبى زرعة الرازى أنه نظر فيه فقال: لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا مما فيه ضعف فهى حكاية لا تصح لانقطاع سندها . وان كانت محفوظة فلعله أراد مافيه من الأحاديث الساقطة للغاية أو كان ما رأى من الكتاب الا جزءا منه فيه هذا القدر وقد حكم أبو زرعة على أحاديث كثيرة منه بكونها باطلة أو ساقطة أو منكرة وذلك محكى فى كتاب العلل لأبى حاتم اهـ وقال الذهبى :

(قد كان ابن ماجه حافظا صدوقا واسع العلم وانما غض من رتبة سننه ما فى الكتاب من المناكير وقليل من الموضوعات) .

شروحه : هى كثيرة منها : —

(١) شرح محمد بن موسى الدميرى المتوفى سنة (٨٠٨) وشرحه يسمى (الديباجة) فى خمسة مجلدات ومات قبل تحريره . (٢) شرح جلال الدين السيوطى وشرحه يسمى (مصباح الزجاجـه على سنن ابن ماجه) . (٣) شرح ابراهيم بن محمد الحلبى المتوفى سنة (٨٤١) (٤) شرح السندى وهو مطبوع[١] .

(١) أنظر مقدمة السندى لشرح سنن ابن ماجه ـ مقدمة السيوطى لشرح سنن النسائى وشروط الأئمة الستة ص ١٦ ـ ١٧ ـ الرسالة المستطرفة ص ١٠ ـ ١١ ـ توجيه النظر ص ١٥٣ ـ مفتاح السنة ص ١٠١ كشف الظنون جـ ١ ص ٤٧٧ ـ قواعد التحديث ص ٢٣٣ .

الـدور السادس

السنة من عام (٣٠٠) هـ الى عام (٦٥٦) هجرية

ويشتمل هذا الدور على ثلاثة مباحث :—

المبحث الأول : وصف الحالة السياسية فى هذا الدور

المبحث الثانى : السنة فى القرن الرابع

المبحث الثالث : السنة بعد القرن الرابع الى نهاية هذا الدور

المبحث الأول

وصف الحالة السياسية فى هذا الدور

منيت الدولة الاسلامية من مبدأ القرن الرابع الهجرى بتـدهور سياسى قطع أوصالها وجعلها دويلات متناثرة وأشلاء ممزقة فدولة بنى أمية بالأندلس وعلى رأسها عبد الرحمن الناصر ملقبا نفسه بأمير المؤمنين سنة (٣٢٥ هـ) وذلك لما أن أحس بضعف الدولة العباسية ، والفاطميون يستقلون بشمال أفريقية ، والدولة الأخشيدية بمصر وان كانت تدعو لبنى العباس الا أنها مستقلة عنهم فى حقيقة الأمر ، ودولة بنى حمدان تسيطر على الموصل وحلب الشام وأن تظاهرت بالدعوة لبنى العباس ، والشيعة الزيدية باليمن أقاموا لهم دولة ، والدولة السامانية العظيمة تسيطر على المشرق وبلاد ما وراء النهر ، ودولة بنى بويه تسيطر على بغداد ولا تبقى لبنى العباس سوى مجرد الاسم ، ولم تكن الحيـاة السياسية حياة استقرار بل كانت مضطربة مائجة فالفاطميون يغيرون على مصر ويستقلون بها سنة ٣٥٨هـ وآل سلجوق يطغى سيلهم على

معظم البلاد الاسلامية فينتزعون الملك من بنى بويه ويستولون على الجزيرة وآسيا الوسطى وينازعون الفاطميين ملك الشام وتصبح لهم الكلمة النافذة فى جميع الأقاليم الاسلامية ما عدا مصر وبلاد المغرب ، ثم لما دب الخلاف بين آل سلجوق هبت ريح الصليبيين فقاموا فى أواخر القرن الخامس واستولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٠ وكانت لهم حروب طويلة مع المسلمين ، وعلى أنقاض الدولة السلجوقية قامت دولة الأتابكية وانتشرت شرقا وغربا حتى سقطت الدولة الفاطمية بمصر على يد محمود نور الدين وعادت مصر ولاية عباسية وأقام بها صلاح الدين الأيوبى أحد قواد محمود نور الدين دولة عظيمة .

أما فى بلاد المشرق خراسان وما اليها فقد أقام خوارزم شاه محمد ابن تكش دولة قوية قضت على الملوك وضمت الممالك وفى أواخر القرن السادس عزم خوارزم شاه على التوجه الى الخليفة ليقضى عليه فلم يتيسر له ذلك وباغته التتار النازحون من أطراف الصين والبرارى — وهم قوم اشتهروا بالشر والغدر — وعلى رأسهم جنكيزخان قائدهم الأعلى ، ولم يلبثوا أن أغاروا على البلاد الاسلامية فى سرعة هائلة يسفكون الدماء ويقتلون الأبرياء حتى وصلوا الى بغداد وقتلوا الخليفة وأسقطوا الخلافة العباسية وذلك سنة ٦٥٦ هـ .

هذا ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأحداث التاريخية الهائلة والتقهقر السياسى الخطير لم يصحبه تقهقر علمى بل ما زالت الحركة العلمية قائمة ، فالعلماء يرحلون من قطر الى آخر ، ويتلقى بعضهم عن بعض ، ويعرضون الكتب والمسموعات على الشيوخ . وكان لهم نشاط علمى فى نقد الرجال وتمحيص الأحاديث ومصنفات جياد فى علل الحديث وتاريخ الرواة وعلوم الحديث عامة .

غير أنهم لم يبلغوا شــأو المتقدمين ، بل كثيرا ماكانوا يتكلمون بلسان أهل القرون السابقة (١) .

المبحث الثــانى

السنة فى القرن الرابع

كان القرن الثالث الهجرى هو أزهى عصور السنة وأحفلها بخدمة الحديث ، ففيه ظهر أفذاذ الرجال من حفاظ الحديث وأئمة الرواية ، وفيه ظهرت الكتب الستة التى لم تغادر من الحديث الصحيح سوى النزر اليسير ، وفيه اعتنى أئمة السنة بالكلام على الأسانيد وتواريخ الرجال ومنزلتهم فى الجرح والتعديل ولم يكن العلماء فى هذا القرن يدونون الأحاديث بالنقل من كتب أخرى بل كان اعتمادهم على ماحفظوه عن مشايخ الحديث وعرفوا جيده من رديئه وصحيحه من ضعيفه ، وما كادت شمس هذا القرن تؤذن بمغيب حتى كانت الموسوعات الحديثية تزخر بالحديث وعلومه وصار العلماء فى القرن الرابع وما بعده يجمعون ما تفرق فى كتب الأولين أو يختصرونها بحذف الأسانيد أو يقومون بشىء من الترتيب والتهذيب الى غير ذلك واذا تكلموا فى شىء من الأسانيد فبلسان من سبقهم من أهل القرون الأولى — غير أن جمهرة كبيرة منهم نسجوا على منوال السابقين وكان لهم فى رواية الأحاديث وفحص الأسانيد باع طويل.

هذا وكان العلماء فى الأدوار السابقة لا يعتمدون الا الرواية الشفاهية فى نقل الأحاديث ولا يعولون على مجرد الكتب حتى ينقلوا أحاديثها بطريق السماع من مؤلفيها ولو كلفهم ذلك أن يرحلوا الشهور الطوال.

---

(١) تاريخ التشريع للخضرى ص ٣٣٣ وما بعدها وتاريخ الخلفــاء للسيوطى فى عدة أماكن .

أما فى هذا الدور السادس فقد لفظت فيه الرواية الشفاهية أنفاسها وذهب من بين الرواة ريحها وطغى عليها التدوين الذى بلغ أشده فى ذلك الوقت لهذا جعل العلماء الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة الحديث وحملته هو رأس سنة ثلثمائة كما قرره الحافظ الذهبى فى خطبة ميزانه .

ولا يغيبن عن بالك أن هذا التطور فى تدوين الحديث وروايته لم يكن طفرة بل كان تدريجيا سنة الله فى أنواع العلوم والصنائع والدول وغيرها لذلك وجد من بين علماء القرن الرابع طائفة كبيرة كان لها فى تدوين الحديث طريقة استقلالية على نمط التدوين فى القرن الثالث فمن [1] هؤلاء الأئمة الأعلام : —

الحاكم : أبو عبد الله النيسابورى المعروف بابن البيع وهو صاحب (المستدرك) الذى حدثناك عنه فى الدور السابق وله غيره من التصانيف الحديثية : العلل ، والأمالى ، وفوائد الشيوخ وأمالى العشيات ، ومعرفة علوم الحديث وهو مطبوع بمصر الى غير ذلك من كتبه التى بلغت ألفا وخمسمائة جزء . رحل الى العراق والحجاز رحلتين وذاكر الشيوخ وناظر الحفاظ وتولى القضاء بنيسابور سنة ٣٥٩ هـ وتوفى رحمه الله بها سنة ٤٠٥[2] هـ .

الدارقطنى : هو على بن عمر بن أحمد بن مهدى بن مسعود بن دينار بن عبد الله الحافظ الكبير أمير المؤمنين فى الحديث وأستاذ هذه الصناعة . سمع الكثير وصنف وألف وأجاد وأفاد وأحسن النظر والتعليل

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٣٢٥ .
(٢) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ٣٥٥ ومفتاح السنة ص ٧١ .

كان أمام عصره فى صـــناعة الجرح والتعديل وحسن التأليف واتساع الرواية ، وله كتاب الألزامات وهو كالمستدرك على الصحيحين وقد تقدم الكلام عليه ، وله كتاب السنن وقد طبع بالهند مع تعليقات لشمس الحق أبى الطيب محمد بن أحمد بن على الآبادى ، وله كتاب العلل بين فيه الصواب من الدخل ، وكتاب الأفراد . وكان الدارقطنى من صغره موصوفا بالحفظ والفهم . قال ابن الجوزى : (اجتمع له مع معرفة الحديث العلم بالقراءات والنحو والفقه والشعر مع الأمامة والعدالة وصحة العقيـــدة) وثناء العلماء عليـــه لا يحصى . توفى رحمـــه الله سنة ٣٨٥هـ[١] .

ابن حبان : هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد أبو حاتم البستى التميمى الحافظ الجليل . سمع كثيرا من الشيوخ فى كثير من الأمصار ، فقد كان رحالة زمانه . قال ابن السمعانى : (كان أبو حاتم امام عصره رحل فيما بين الشاش والاســكندرية) ، وقال الحاكم : (كان من أوعية العلم والفقه والحديث واللغة والوعظ ، من عقلاء الرجال) ، وقال الخطيب : (كان ثقة نبيلا وله التصانيف الكثيرة منها المسند الصحيح المسمى الأنواع والتقاسيم قال فيه : لعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والاسكندرية) وكتابه هذا على ترتيب مخترع فلا هو على الأبواب ولا هو على المسانيد . رتبه مؤلفه على خمسة أقسام وهى الأوامر ، والنواهى ، والأخبار ، والاباحات ، وأفعال النبى صلى الله عليه وسلم ، ونوع كل واحد من هذه الخمســة الى أنواع لذا كان الكشف فى كتابه عسرا جدا ، وقد رتبه بعض المتأخرين وهو علاء الدين على بن بلبان الفارسى المتوفى سنة ٩٣٧ على الأبواب وسماه : (الاحسان

(١) تاريخ ابن كثير ج ١١ ص ٣١٧ .

فى تقريب صحيح ابن حبان) . قالوا : وأصح من صنف فى الصحيح المجرد بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان وقد نسبوا اليه التساهل فى التصحيح الا أن تساهله أقل من تساهل الحاكم . قال الحازمى : (ابن حبان أمكن فى الحديث من الحاكم) .

ومنشأ تساهل ابن حبان أنه كان يقول : (من كان منكر الحديث على قلته لا يجوز تعديله الا بعد السبر . ولو كان ممن يروى المناكير ووافق الثقات فى الأخبار لكان عدلا مقبول الرواية اذ الناس فى أقوالهم على الصلاح والعدالة حتى يتبين منهم ما يوجب القدح هـذا حكم المشاهير ، فأما المجاهيل الذين لم يرو عنهم الا الضعفاء فهم متروكون على الأحوال كلها) . قال ابن حجر فى مقدمة لسان الميزان بعد أن حكى قوله هذا : (وهذا الذى ذهب اليه ابن حبان من أن الرجل اذا انتفت جهالة عينه كان على العدالة حتى يتبين جرحه مذهب عجيب والجمهور على خلافه وهذا هو مسلك ابن حبان فى كتاب الثقات فانه يذكر خلقا ممن نص عليهم أبو حاتم وغيره على أنهم مجهولون . وقد أفصح ابن حبان بقاعدته فقال : العدل من لم يعرف فيه الجرح اذ التجريح ضد التعديل فمن لم يجرح فهو عدل حتى يتبين جرحه اذ لم يكلف الناس ما غاب عنهم ، وقال فى ضابط الحديث الذى يحتج به : (اذا تعرى راويه من أن يكون مجروحا أو فوقه مجروح أو دونه مجروح أو كان سنده مرسلا أو منقطعا أو كان المتن منكرا) اهـ فمن هذا ترى أن ابن حبان يحكم للرجل بالعدالة اذا انتفت جهالة عينه [1] حتى يتبين جرحه

---

(١) وجهالة العين ترفع عنده برواية واحد مشهور وهو مذهب شيخه ابن خزيمة . ومجهول العين عند الجمهور هو كل من لم يعرفه العلماء ومن لم يعرف حديثه الا من جهة راو واحد .

وهذا خلاف ما عليه الجمهور فان جهالة العين عندهم لا تزول الا برواية عدلين فصاعدا عن المجهول وتعيينهما له ومع ذلك لا يثبت له حكم العدالة بروايتهما هذه ، وزعم قوم أن عدالته تثبت بذلك وهذا باطل لأنه يجوز أن يكون العدل لا يعرف عدالته فلا تكون روايته عنه تعديلا له ولا خبرا عن صدقه وقد وجد من جماعة من الثقات الرواية عن جماعة غير مرضيين أمسكوا فى بعضها عن ذكر أحوالهم وفى بعضها شهدوا عليهم بالكذب ، فرواية العدل أو العدلين أو الأكثر عن راو لا يعد توثيقا له خلافا لما ذهب اليه ابن حبان ومن هنا نرى أن اطلاق الصحيح على كتابه فيه تجوز لأن كلامه فى الرواة يدخل عليه الحسن وقد حاول بعض العلماء الدفاع عنه . فقال : (ان كانت نسبة التساهل اليه باعتبار وجدان الحسن فى كتابه فهى مشاحة فى الاصطلاح لأنه يسميه صحيحا وان كانت باعتبار خفة شروطه فأنه يخرج فى الصحيح ما كان راويه ثقة غير مدلس سمع من شيخه وسمع منه الآخذ عنه ولا يكون هناك ارسال ولا انقطاع واذا لم يكن فى الراوى جرح ولا تعديل وكان كل من شيخه والراوى عنه ثقة ولم يأت بحديث منكر فهو عنده ثقة وفى كتاب الثقات له كثير ممن هذه حاله ولأجل هذا ربما اعترض عليه فى جعلهم ثقات من لم يعرف اصطلاحه ولا اعتراض عليه فانه لا مشاحة فى ذلك فابن حبان وفى بما التزمه من الشروط بخلاف الحاكم) توفى رحمه الله سنة ٣٥٤ هـ[1] .

الطبرانى : هو الامام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى المتوفى

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٤١ ولسان الميزان . جـ ٥ ص ٦١٢ وما بعدها وتوجيه النظر ص ١٤٠ و ٣٢٥ والرسالة المستطرفة ص ٦٦ وما بعدها ومقدمة لسان الميزان لابن حجر .

سنة ٣٦٠ هـ ألف المعاجم [١] الثلاثة : — الكبير والصغير والأوسط — فالكبير جمع فيه مسانيد الصحابة مرتبين على حروف المعجم ما عدا مسند أبى هريرة فانه أفرده فى مصنف ، ويقال انه أورد فى الكبير نحو خمسمائة وعشرين ألف حديث واذا أطلق المعجم فى كلام العلماء فالمراد الكبير ، والأوسط ألفه على أسماء شيوخه وهم نحو ألفى رجل حتى أنه روى عمن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه وأكثر من غرائب حديثهم ، ويقال أن فيه ثلاثين ألف حديث وهو فى ست مجلدات كبار وكان يقول فيه : (هذا الكتاب روحى) لأنه تعب فيه . قال الذهبى : (وفيه كل نفيس عزيز ومنكر) . وأما الصغير فهو فى مجلد واحد خرج فيه عن ألف شيخ يقتصر فيه غالبا على حديث واحد عن كل واحد من شيوخه وهو نحو ألف وخمسمائة حديث بأسانيدها [٢] .

قاسم بن أصبغ : هو أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف البيانى نسبة الى بيانه كجبانة بلدة بالأندلس على بعد ثلاثين ميلا من قرطبة المالكى المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب الصحيح المنتقى [٣] .

ابن السكن : الحافظ أبو على سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادى نزيل مصر والمتوفى بها سنة ٣٥٣ هجرية ألف الصحيح المنتقى ويسمى أيضا بالسنن الصحاح المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) المعجم فى اصطلاحهم ما يذكر فيه الحديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء .

(٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٩٠ والرسالة المستطرفة ص ١٠١ وما بعدها .

(٣) الرسالة المستطرفة ص ٢٠

ألفه على الأبواب فى جميع ما يحتاج اليه من الأحكام وضمنه ما صح عنده من السنن المأثورة مع حذف الأسانيد . قال : وما ذكرته فى كتابى هذا مجملا فهو مما أجمعوا على صحته وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم فقد بينت حجته فى قبول ما ذكره ونسبته الى اختياره دون غيره ، وما ذكرته مما ينفرد به أحد من أهل النقل المحديث فقد بينت علته ودللت على انفراده دون غيره [١] اهـ .

أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوى : هو أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ وله كتاب معانى الآثار وهو كتاب جليل القدر ذكر فيه أنه سأله بعض أصحابه تأليفا فى الآثار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأحكام التى يتوهم أهل الالحاد والزندقة أن بعضها ينقض بعضا لقلة علمهم بناسخها ومنسوخها ، فألف هذا الكتاب وجعله أبوابا ذكر فى كل باب مافيه من الناسخ والمنسوخ وتأويل العلماء واقامة الحجة على الصحيح ، وقد عمل العينى المتوفى سنة (٨٥٥) عليه شرحا ولابن قطلوبغا المتوفى سنة (٨٧٩) كتاب الايثار برجال معانى الآثار [٢] .

المبحث الثالث

السنة بعد القرن الرابع الى آخر هذا الدور

قدمنا لك فى المبحث السابق نخبة من علماء القرن الرابع الذين تضلعوا فى علوم السنة وكانوا يدونون كتبهم من محفوظهم ومسموعاتهم عن شيوخهم كما كان يفعل أهل القرن الثالث ثم ما كاد ينتهى القرن الرابع

(١) الرسالة المستطرفة ص ٢٠ ــ ٢١ وكشف الظنون ج ١ ص ٥١٠

(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ٢٨٦ .

حتى أصبح عمل العلماء قاصرا على الجمع والترتيب أو التهذيب لكتب السابقين ونحن نذكر لك جملة من أعمالهم التهذيبية فى الدور السادس فنقول : —

الجمع بين الصحيحين : تنـاول كثير من الناس الجمـع بين أحاديث الصحيحين فى مصنف على حدة فمن ذلك الجمع بينهما لاسماعيل بن أحمد المعروف بابن الفرات المتوفى سنة (٤١٤) والجمع بينهما لمحمد بن نصر الحميدى الأندلسى سنة (٤٨٨) ، وربما زاد زيادات ليست فيهما ، والجمع بينهما لحسين بن مسعود البغوى سنة (٥١٦) والجمع بينهما لمحمد بن عبد الحق الاشبيلى سنة (٥٨٢) والجمع بينهما لأحمد بن محمد القرطبى المعروف بابن أبى حجة سنة (٦٤٢) .

الجمع بين الكتب الستة[١] : جمع بينها أحمد بن رزين بن معـاوية العبدرى السرقسطى المتوفى سنة (٥٣٥) فى كتابه تجريد الصحاح لكنه لم يحسن فى ترتيبه وتهذيبه وترك بعضا من أحاديث الستة ولما جاء أبو السـعادات مبـارك بن محمد المعـروف بابن الأثير الجـزرى الشافعى المتوفى سنة (٦٠٦) . هذب كتابه ، ورتب أبوابه ، وأضـاف اليه ما فاته من الأصول ، وشرح غريبه وبين مشكل اعرابه وخفى المعنى وحذف أسانيده ولم يذكر الا راوى الحديث من صحابى أو تابعى . كما ذكر المخرج له من الستة ولم يذكر من أقوال التابعين الا النادر ورتب أبوابه على حروف المعجم وسماه جامع الأصول لأحاديث الرسول فجاء كتابا عظيما سهل العسير وقرب البعيد ، وهو بدار الكتب المصرية فى عشرة أجزاء متوسطة وقد شرع أحـد علماء الأزهر الشريف وهو الشيخ عبد ربه بن سليمان بن محمد المشهور بالقليوبى فى شرحه وسماه

(١) المراد بالكتب الستة الصحيحان وموطأ مالك وسنن النسـائى وأبى داود والترمذى .

(جامع المعقول والمنقول . شرح جامع الأصول) . الا أنه لم يكمل [١].

وجمع بين الكتب الستة أيضا عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلى المعروف بابن الخراط سنة (٥٨٢هـ) .

الجمع بين أحاديث من كتب مختلفة : (أ) مصابيح السنة للامام حسين ابن مسعود البغوى سنة (٥١٦) جمع فيه (٤٤٨٤) من الأحاديث الصحاح والحسان وهو يريد بالصحاح ما أخرجه الشيخان أو أحدهما وبالحسان ما أخرجه [٢] أبو داود والترمذى وغيرهما ، وما كان فيها من ضعيف أو غريب بينه ، ولا يذكر ما كان منكرا أو موضوعا ، وقد اعتنى العلماء بها عناية عظيمة فشرحوها شروحا كثيرة ، وهذبها محمد بن عبد الله الخطيب وذيل أبوابها فذكر الصحابى الذى روى الحديث والكتاب الذى أخرجه وزاد على كل باب من الصحاح والحسان فصلا ثالثا عدا بعض الأبواب ، وكان ذلك سنة ٧٣٧ هجرية وسمى كتابه هذا مشكاة المصابيح وقد شرح المشكاة كثيرون منهم القاضى ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوى سنة (٦٨٥) .

(ب) جامع المسانيد والألقاب لأبى الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧) جمع فيه بين الصحيحين ومسند أحمد وجامع الترمذى وقد رتبه أبو العباس أحمد بن عبد الله المكى المعروف بالمحب الطبرى المتوفى سنة (٩٦٤) هـ [٣] .

---

(١) اختصر جامع الأصول كثير من العلماء منهم محمد المروزى المتوفى سنة (٦٨٢) وهبة الله بن عبد الرحيم الحموي سنة (٧١٨)هـ وعبد الرحمن بن على المعروف بابن الديبع الشيباني الزبيدى (٩٤٤) هـ وكتابه أحسن المختصرات وهو مطبوع بمصر فى ثلاثة أجزاء أو أربعة .

(٢) وهذا اصطلاح له خاصة والا ففى السنن الصحيح والضعيف أيضا انظر كشف الظنون ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٩٥ .

(جـ) بحر الأسانيد للامام الحافظ الحسن بن أحمد السمرقندى المتوفى سنة (٤٩١) جمع فيه مائة ألف حديث رتبه وهذبه ويقال انه لم يقع فى الاسلام مثله (١) .

كتب منتقاة فى أحاديث الاحكام والمواعظ : —

(ا) كتاب منتقى الأخبار فى الأحكام للحافظ مجد الدين أبى البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم الحرانى المعروف بابن تيمية الحنبلى المتوفى سنة (٦٥٢) انتقاه من صحيحى البخارى ومسلم ومسند الامام أحمد وجامع الترمذى والسنن للنسائى وأبى داود وابن ماجه واستغنى بالعزو الى هذه الكتب عن الاطالة بذكر الأسانيد وهو كتاب جليل الفائدة لولا اطلاقه العزو الى الأئمة دون التحسين والتضعيف فقد يقول رواه الترمذى مثلا وهو فى جامع الترمذى منصوص على ضعفه فيعزوه اليه من غير بيان ، وقد بين ذلك محدث اليمن محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة (١٢٥٠) فى كتابه نيل الأوطار الذى شرح به منتقى الأخبار وهو مطبوع بمصر فى ثمانية أجزاء .

(ب) السنن الكبرى للبيهقى أحمد بن حسين المتوفى سنة (٤٥٨) قال ابن الصلاح : ما تم كتاب فى السنة أجمع للأدلة من كتاب السنن الكبرى للبيهقى وكأنه لم يترك فى سائر أقطار الأرض حديثا الا وقد وضعه فى كتابه وقد طبع فى الهند وعمل له فى آخره فهرس بأسماء الصحابة والتابعين ومسانيدهم ومروياتهم ، وللبيهقى أيضا السنن الصغرى قيل أنه لم يصنف فى الاسلام مثلها .

(جـ) الأحكام الصغرى . للحافظ أبى محمد عبد الحق الاشبيلى

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ١٤٤ .

المعروف بابن الخراط سنة (٥٨٢) قال فيها : (جمعت فى هذا الكتاب متفرقا من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى لوازم الشرع وأحكامه وحلاله وحرامه وفى ضروب من الترغيب والترهيب أخرجتها من كتب الأئمة وهداة الأمة أبو عبيد الله مالك بن أنس وأبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى وبقية الكتب الستة وفيها أحاديث من كتب أخرى [1] .

(د) عمدة الأحكام . للامام الحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد المقدسى الدمشقى المتوفى سنة (٦٠٠) جمع فيها أحاديث الأحكام التى اتفق عليها البخارى ومسلم وقد شرحها شرحا وسطا ابن دقيق العيد وقد طبعت بمصر مع الشرح فى أربعة أجزاء صغيرة .

(هـ) الترغيب والترهيب : للحافظ الحجة عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله المنذرى المتوفى سنة (٦٥٦)هـ وهو من أحسن الكتب فى جمع الحديث وبيان درجته وعليه جل اعتماد الوعاظ والمرشدين فى عصرنا الحاضر وقد طبع بمصر عدة مرات .

كتب الأطراف

هذا وقد وجد فى هذا الدور طائفة من المحدثين عملوا ما يسمى بكتب الأطراف وطريقتهم فيها أن يذكروا طرفا من الحديث يدل على بقيته ثم هم يجمعون أسانيده أما على وجه الاستيعاب وأما مقيدة بكتب مخصوصة واليك بعض هذه الكتب :

١ — أطراف الصحيحين للحافظ ابراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقى المتوفى سنة (٤٠٠) وأطراف الصحيحين لأبى محمد خلف بن محمد

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٤٥ .

الواسطى سنة (٤٠١) قال الحافظ ابن عساكر : وكتاب خلف أحسنهما ترتيبا ورسما وأقلهما خطأ ووهما ، ويوجد بدار الكتب المصرية فى أربعة مجلدات . وأطرافهما أيضا لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصــفهانى سنة (٤٣٠هـ) .

٢ — أطراف السنن الأربعة لأبى القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقى (٥٧١) فى ثلاثة مجلدات مرتبا على حروف المعجم واسمه الاشراف على معرفة الأطراف .

٣ — أطراف الكتب الستة [١] لمحمد بن طاهر المقدسى (٥٠٧) ولما كان كتابه مشتملا على أوهام كثيرة وترتيب مختل لخصه الحــافظ شمس الدين محمد بن على بن الحسين الحسينى الدمشقى (٧٦٥) ورتبه أحسن ترتيب [٢] .

---

(١) هى الصحيحان والسنن الاربعة .

(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٨٥ و ٩٢

الدور السابع

السنة من عام (٦٥٦) الهجرى الى عصرنا الحاضر

ويشتمل على أربعة مباحث : —

المبحث الأول : وصف الحالة السياسية لهذا العهد .

المبحث الثانى : منهج العلماء فى رواية السنة فى هذا الدور .

المبحث الثالث : عناية المسلمين بالسنة فى الممالك الاسلامية المختلفة .

المبحث الرابع : طريقة العلماء فى تصنيف الحديث لهذا الدور .

المبحث الأول

وصف الحالة السياسية

سقطت الخلافة العباسية على أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ وفى سنة ٦٥٨ وصل التتار الى حلب وأغاروا عليها ثم قصدوا الى دمشق ، وكانت الدولة الأيوبية بمصر قد انقرضت وحل محلها دولة المماليك ، فخرج اليهم المصريون والتقوا بهم عند (عين جالوت) ووقعت بين الفريقين معركة عظيمة أسفرت عن هزيمة ذريعة للتتار فولوا الأدبار يتخطفهم الناس من كل مكان ، وفى هذا التاريخ قدم الى مصر أحد أعقاب العباسيين ، فبايعه بالخلافة الملك الظاهر بيبرس ، وبذلك أصبحت القاهرة عاصمة الخلافة العباسية ، ولكن سلطة الخليفة كانت فى حكم العدم ، فهو خليفة بالاسم ، أما السلطة الحقيقية فكانت فى أيدى المماليك ، وما كاد القرن السابع الهجرى يتم حتى اصبح العنصر التركى هو المسيطر على جميع الممالك

الاسلامية ما عدا البلاد المغربية فكانت الحكومة فيها لبرابرة المغرب ، وفى مستهل القرن الثامن ظهر بآسيا الصغرى — بلاد تركيا اليوم — رجل يدعى « عثمان كجق » — مؤسس الدولة العثمانية — على رأس قبيلته التركية فأسس ملكا على أنقاض الدولة السلجوقية ولم تزل دولة آل عثمان تتسع رقعتها وتستولى على ما جاورها من الممالك والدويلات حتى فتحوا القسطنطينية فى منتصف القرن التاسع الهجرى واتخذوها عاصمة لهم ثم فتحوا مصر وأزالوا الخلافة العباسية ولقبوا ملوكهم بالخلفاء ومن هذا الوقت انتقلت الخلافة الاسلامية الى القسطنطينية وأصبحت مصر ولاية عثمانية فضاع مركزها السياسى والعلمى أما دولة بنى عثمان فقوى شأنها وعظم ملكها ومما يؤسف له أنها وهى فى أوج عظمتها سقطت دولة الأندلس وانطفأ نور الاسلام فى هذه البلاد بعد أن مكث بها نحوا من ثمانية قرون .

ثم أخذت دول أوربة الغاشمة تعمل جهدها على اضعاف المسلمين منتهزة غفلتهم واختلافهم فأوقعت بينهم الفتنة حتى مزقت شمل الدولة الاسلامية وقضت على الخلافة العثمانية وعبثوا بحقوق المسلمين وحجروا عليهم فى بلادهم واستعبدوهم أيما استعباد حتى أصبحنا من هذا الوقت لا يستطيع المصرى الرحلة الى الحجاز أو الى الشام أو غيرهما من بلاد الاسلام الا بجواز بذلك وقل مثل هذا فى أهل الأقطار الاسلامية جميعها. ومن هنا انعدمت الرحلة بين العلماء وانقطع الاتصال العلمى بين سكان البلدان المختلفة بعد أن كان الوطن الاسلامى وحدة لا تنفصم عراها ينتقل فيه المسلم أنى شاء وينشر دينه كيفما أراد فعسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا .

المبحث الثانى

منهج العلماء فى رواية السنة فى هذا الدور

حيال هذه الأحداث التاريخية الخطيرة تبلبلت الأفكار ، وتقاعدت همم العلماء عن الرحلة الى الأقطار ، فانقرضت الرواية الشفاهية . وحل محلها الاجازة والمكاتبة ، وصار الاسناد فى الحديث يقصد للتبرك اللهم الا فى أفراد تبعث بهم الأقدار الالهية من وقت لآخر يجددون ما خلق ويحيون ما اندثر وقد اشتهر من هؤلاء الأعلام طائفة كانوا يرحلون الى الأقطار ويجلسون للاملاء [1] ويكتب عنهم أتباعهم الأمالى ومن أمثال هؤلاء الحافظ الكبير أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقى الأثرى الامام حافظ العصر وصاحب المصنفات البديعة فى الحديث المتوفى سنة (٨٠٦) ومجالسه للاملاء تزيد على أربعمائة مجلس. قال تلميذه ابن حجر : (شرع فى املاء الحديث من سنة (٧٩٦) فأحيا الله به السنة بعد أن كانت داثرة فأملى أكثر من أربعمائة مجلس غالبها من حفظه متقنة مهذبة محررة كثيرة الفوائد الحديثية) اهـ .

ومنهم شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على ابن حجر العسقلانى الأصل ثم المصرى المولد والمنشأ والدار والوفاة الحافظ بل سيد الحفاظ والمحدثين فى تلك الأمصار وما جاورها المتوفى سنة (٨٥٢ هـ) . قال السيوطى : (وختم به الفن) . وقال غيره : (انتهت اليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأجمعها فلم

---

(١) الاملاء من وظائف العلماء قديما لا سيما الحفاظ من أهل الحديث يجلس المحدث ويسمى (المملى) فى المسجد يوما من أيام الأسبوع والمستحب أن يكون يوم الجمعة ويكتب عنه التلاميذ ويتخذ لذلك فى العادة منهم رجلا يبلغ عنه يسمى (المستملى) .

يكن فى عصره حافظ سواه ، ألف كتبا كثيرة وأملى أكثر من ألف مجلس) ، ومنهم الحافظ السخاوى تلميذ ابن حجر العسقلانى قال فى كتابه فتح المغيث (أمليت بمكة وبعدة أماكن من القاهرة وبلغ عدة ما أمليته من المجالس الى الآن نحو الستمائة والأعمال بالنيات) اهـ .

الا أن هذه الطريقة كانت غير منتشرة انتشارها فى العصور الأولى بل كان جل علماء الحديث فى هذا الدور عاكفين على كتب الأولين بالجمع والاختصار والشرح والتخريج وما الى ذلك الا أنه فى أواخر هذا الدور انعدمت العناية بالحديث وعكف الناس على الفروع الا فى قليل من البلدان وأفراد قلائل من العلماء . هذا وفى حدود هذه الامكانيات كان هناك نشاط فى علوم الحديث تتناوبه الأقطار الاسلامية فى أوقات مختلفة وهذا ما نريد أن نحدثك عنه بعون الله تعالى فنقول :

المبحث الثالث

عناية المسلمين بالسنة فى الممالك المختلفة

انه اذا ما استثنينا البلاد المغربية التى كان لها فضل مشكور على السنة فى جميع العصور ، وجدنا أنفسنا أمام بلدين عظيمين يتناوبان النشاط العلمى الحديثى وهما البلاد المصرية والهندية ، فمن يوم أن سقطت بغداد عاصمة الخلافة العباسية على أيدى التتار — الذين بلغ من جهلهم وغشمهم ، أن ألقوا بالمكتبة الاسلامية العظيمة فى (دجلة) ليجعلوا منها جسرا تعبر عليه جيوشهم الغاشمة — نقول : من هذا اليوم أخذت العلوم والمعارف ترحل عن بغداد الى أقطار أخرى ثم كانت بينها دولا ، فبينما نجد الديار المصرية بعد سقوط بغداد مزدهرة بعلوم السنة زاخرة بالعلم والعلماء طيلة القرون الثلاثة الأولى من هذا الدور .

حتى كان لمصر القدح المعلى دون جميع البلدان اذا بنا نجدها فى منتصف القرن العاشر وقد آذنت شمس الحديث فيها بمغيب ، وأخذت السنة وعلومها ترحل عنها الى بلد آخر هو القطر الهندى ومن هذا الوقت أخذت البلاد الهندية تسعد بخدمة السنة ودام الأمر على هذا الحال الى وقتنا هذا قرابة أربعة قرون أو تزيد ، ولنتكلم على أشهر الممالك التى كان لها أثر ملموس فى خدمة السنة لهذا العصر : —

دور مصر فى العناية بالسنة وعلومها :

فى هذه الفترة من الزمان — أى بعد سقوط بغداد — كانت مصر محكومة لدولتى المماليك البحرية والبرجية ، ويحدثنا التاريخ عما كان عليه هؤلاء السلاطين من حب للعلم وتقدير العلماء ، ومن أجل ذلك شيدوا الجامعات والمدارس الحديثية ، واستقدموا لهذا الغرض العلماء من الأقطار البعيدة ، وحبسوا الأموال الطائلة على تلك المؤسسات الدينية والعلمية ، وهاهى آثارهم الخالدة ماثلة للعيان ، تحدث عما كان للقوم من عناية بعلوم الشريعة والسنة .

هذا ولم يقف الأمر عند حد المعاونة بالمال أو السلطان . بل لقد انغمر السلاطين فى حلبة الدروس مع المتعلمين وتتلمذوا للعلماء وأئمة الحديث وتحملوا السنة بأسانيدها الصحيحة حتى صار بعضهم حافظا يتلقى عنه الحديث ويسمع منه الصحيح ، فهذا هو (الظاهر برقوق) يتفقه على الامام أكمل الدين « البابرتى » ، ويشارك المحدثين فى رواية الصحيحين ، ويستقدم المسندين أمثال « ابن أبى المجد » من الأقطار النائية . رغبة منه فى اعلاء الاسناد لدى المتعلمين بمصر لسماعهم الحديث من أصحاب الأسانيد العالية ، وهذا هو « المؤيد » يروى الصحيح عن

السراج « البلقينى » حتى أن الحافظ ابن حجر يسمع الحـديث من « المؤيد » ، ويترجم له فى عداد مشايخه فى « المعجم المفهرس » ؛ وقد استقدم « المؤيد » الى مصر العلامة (شمس الدين الديرى) المحدث العظيم صاحب كتاب «المسائل الشريفة فىأدلة مذهب الامام أبى حنيفة»؛ وهذا هو « الظاهر جقمق » يسمع الصحيح من ابن الجزرى ؛ ويستقدم كبار المسندين الى مصر ليتلقى عنهم المتعلمون مروياتهم فى السنة من الصحاح والمسانيد ؛ ويجعل من القلعة المصرية مجمعا علميا للعلماء ؛ وناديا يؤمه طلاب الحديث يتلقون المرويات عن الحفاظ المتقنين والمحدثين النابهين ؛ وبهذه العناية من السلاطين والأمراء كانت مصر دار حديث وفقه وأدب طيلة هذه القرون الثلاثة الأولى من هذا الدور ، وكانت أسعد بلاد الاسلام حظا بالحديث وعلومه ؛ وهاهى كتب التاريخ قد اكتظت بتراجم لرجال نبهاء ، وفطاحل علماء . أنجبتهم مصر فى تلك القرون الذهبية ، وكانت لهم مؤلفات كثيرة جدا فى علوم شتى . بحيث يعدون بحق مفخرة الاسلام ؛ وان مآثرهم المحفوظة فى خزانات العالم ومكتباته لما يشهد لمصر بالمجد التالد والشرف الرفيع .

استمرت النهضة العلمية بمصر — على ما وصفنا — الى أوائل القرن العاشر الهجرى اذ بانقراض دولة المماليك البرجية فى أوائل هذا القرن أخذ النشاط العلمى يتضاءل ويضمحل ، وطفق يرحل شيئا فشيئا الى بلاد أخرى ألا وهى البلاد الهندية التى أفسحت صدرها للحديث وعلومه وسهرت على خدمته فكانت أسعد بلاد المسلمين بعلوم السنة الى يومنا هذا .

دور الهند فى العناية بالسنة : —

كان للبلاد الهندية حظ كبير فى خدمة السنة — بعد أن كان الهنود قبل منتصف القرن العاشر الهجرى منصرفين الى العلوم النظـرية ، والأحكام الفقهية المجردة — فمن هذا الوقت أخـذوا يعكفون على دراسة الحديث وعلومه ويعنون برواية السنة وبحث الروايات وانتقاد الأسانيد ، ولو ذهبنا نستعرض ما لهؤلاء الأعلام من همة عظيمة فى علوم الحديث — فى الوقت الذى قعدت فيه الهمم عن خدمة السنة — لوقع ذلك موقع الاعجاب والشكر البليغ ، فكم لعلماء الهند من شروح ممتعة ، وتعليقات نافعة على الأصول الستة وغيرها ؛ وكم لهـم من مؤلفات كبيرة فى أحاديث الأحكام ؛ وكم لهم من أياد بيضاء فى نقد الرجال ؛ وبيان علل الحديث ، وشرح الآثار ؛ وكم لهم من مؤلفات فى شتى فنون الحديث وما يتصل به [1] .

ومما هو جدير بالتقدير والاعجاب أن هؤلاء القوم لم تفتنهم المدنية الغربية عن دينهم . بل انها زادتهم تمسكا به وتعصبا له ؛ فكثيرا ما ألفوا الكتب فى الرد على القساوسة والمستشرقين ، وكثيرا ما كانت تقام مجالس للمناظرة أمام الحكام — الانجليز — فينتصر حق المسلمين على باطل المستشرقين ، وكثيرا ما كان يفر هؤلاء القسس من مجالس المناظرة قبل أن تتم فصولها يجرون أذيال الخيبة ويتعثرون فى أثواب الهزيمة ؛ هذا ومما يدل على حرص هؤلاء القوم على السنة وحدبهم على نشر علومها أن بعض المبعوثين منهم الى جامعـات أوربة كان يشتغل بطبع كتب الحديث وها هو « الدكتور السيد معظم حسين » الذى كان يتلقى دروسه بجامعة أكسفورد بانجلترا يأخذ فى طبع كتاب « معرفة علوم

(١) عن مقالات العلامة المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثرى ص ٧١ وما بعدها بتصرف .

الحديث » للحاكم أبى عبد الله النيسابورى ؛ ويعتنى بتصحيحه ، ويقدم له مقدمة عظيمة يذكر فيها ترجمة المؤلف . ونبذة قيمة عن تاريخ تدوين الحديث ، ونشأة علم المصطلح ، وقد رحل فى سبيل نشر هذا الكتاب الى بلدان عديدة من أوربة ؛ وتردد على مكتباتها العامة فىعواصمها المختلفة؛ وقابل ماكتبه على نسخ خطية كثيرة كان منها ما هو محفوظ فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن ، كما رحل الى عدة مكتبات فى بلاد الشرق كمصر والشام واستنبول ؛ ثم طبع الكتاب وأخرجه للناس فى غاية من الضبط والاتقان . أنها لهمة عالية من هؤلاء القوم فلله درهم وبورك جهـــادهم .

النهضة العلمية بالمملكة السعودية :

أنه لا يسعنا أن نترك الكلام على هذا الدور من غير أن ننوه بتلك الأعمال المجيدة والجهود المشكورة التى قام بها جلالة العاهل الراحل الملك « عبد العزيز آل سعود » عليه رحمة الله فانه والأمراء السعوديين من بعـــده قد عنوا كل العناية بطبع كثير من كتب السنة النبوية التى لها أهمية عظمى فى المكتبة الاسلامية ، ولنذكر منها على سبيل المثال « جامع الأصول من أحاديث الرسول » و « مختصر وشرح وتهذيب سنن أبى داود » و « زاد المعاد فى هدى خير العباد » و « البداية والنهاية فى السيرة والتاريخ لابن كثير » ومختصر « الفتاوى المصرية » لابن تيمية. وتفسير الحافظ ابن كثير ومعه تفسير البغوى وكتاب المغنى لابن قدامة وهو من أنفس الكتب الفقهية الحديثية الجامعة الى غير ذلك وهو كثير جدا ، وفى الحق أن لآل سعود فضلا يشكر وجهودا لا ينبغى أن تنكر لما لهم من أياد بيضاء على السنة النبوية ولما أنفقوه من الأموال الطائلة فى سبيل هذا الغرض النبيل ، فى الوقت الذى ماتت فيه القلوب وركدت

فيه النفوس وتسلط الجانب المادى على الجانب الروحى ، ولقد سنوا بذلك للناس سنة حسنة حتى نسج على منوالهم بعض وزرائهم .

هذا ومما يكتب لهذه الأسرة بمداد الفخار أنهم لم يقتصروا فى خدمة السنة النبوية على طبع الكتب الحديثية وتوزيعها على الناس دون مقابل، ولكنهم مع ذلك نهضوا بنشر علوم الشريعة الاسلامية والسنة النبوية نهضة كبرى فأسسوا معاهد علمية فى جميـع أنحاء الجزيرة العربيـة كما أسـسوا للدراسات العليـا الكليـات ومن ذلك كليـة الشريعة بمكة المكرمة وكليتا الشريعة واللغة العربية بمدينة الرياض وانتدبوا لهذه الغاية الشريفة خيرة العلماء من الجامع الأزهر للقيام بالدراسة على الطريقة التحليلية المنتجة فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة العربية وغـيرها .

ولقد شهدت عن كثب أيام كنت مدرسا بالمعهد العلمى بالرياض هـذه النهضة ولمست العنـاية التامة التى يقوم بها آل الشيخ وعلى رأسهم « الشيخ الرئيس » المفتى الأكبر الشيخ محمـد بن ابراهيم آل الشيخ أطال الله بقاءه ونفع به المسلمين ، فجزاهم الله من ملوك وأمراء وعلماء عن السنة أفضل الجزاء .

المبحث الرابع

طريقة العلماء فى تصنيف الحديث فى هذا الدور

عكف علماء الحديث فى هذا الدور على كتب السابقين فتناولوها بالترتيب والتهذيب والانتقاء والتخريج ونحن نذكر لك جـل هـذه الطرق وأشهر ما دون من كتب الحديث لذلك العهد فنقول : —

كتب الزوائد وطريقة أصحابها : — من المعلوم أن مصنفا ما فى الحديث لم يستوعب جميع الأحاديث فان الأحاديث بحار زاخرة وكل من المصنفين يغترف منها على حسب ما تيسر له لذلك جاءت كتب الحديث مختلفة بالطول والقصر والقلة والكثرة ، فجاء المتأخرون وأخرجوا الأحاديث الزائدة فى كتاب على آخر فى مصنفات خاصة لهم وسموا ذلك بكتب الزوائد ومن أشهر هذه الكتب : —

١ — كتاب زوائد سنن ابن ماجه على الكتب الخمسة

٢ — كتاب اتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة (أى على الكتب الستة) والمسانيد العشرة هى مسند أبى داود الطيالسى ، والحميدى ، ومسدد ، وابن أبى عمر ، واسحاق بن راهويه ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وأحمد بن منيع ، وعبد بن حميد ، والحارث بن محمد بن أبى اسامة ، وأبى يعلى الموصلى .

٣ — وكتاب زوائد السنن الكبرى للبيهقى . على الكتب الستة أيضا ، ويسمى فوائد المنتقى لزوائد البيهقى .

وهذه الكتب الثلاثة للحافظ شهاب الدين أحمد بن أبى بكر ابن اسماعيل بن سليم البوصيرى المتوفى سنة (٨٤٠) هـ .

٤ — كتاب المطالب العالية فى زوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر سنة (٨٥٢) على الكتب الستة (والمسانيد الثمانية : هى مسند ابن أبى عمر العدنى ، ومسند أبى بكر الحميدى ، ومسند مسدد ، ومسند الطيالسى ، ومسند ابن منيع ، ومسند ابن أبى شيبة ، ومسند عبد بن حميد ، ومسند الحارث ، وله أيضا زوائد مسند البزار ومسند أحمد على الكتب الستة .

٥ — كتاب زوائد مسند أحمد على الكتب الستة فى مجلدين ، وكتاب زوائد مسند البزار على الكتب الستة فى مجلد ضخم ويسمى البحر الزخار فى زوائد مسند البزار ، وكتاب زوائد مسند أبى يعلى الموصلى على الكتب الستة فى مجلد واحد ، وكتاب زوائد المعجم الكبير للطبرانى على الكتب الستة . واسمه البدر المنير فى زوائد المعجم الكبير فى ثلاث مجلدات ، وكتاب زوائد المعجم الأوسط والأصغر للطبرانى على الكتب الستة واسمه مجمع البحرين فى زوائد المعجمين وهو فى مجلدين، وهذه الكتب كلها للحافظ نور الدين أبى الحسين على بن أبى بكر بن سليمان الهيثمى (بالمثلثة) المصرى المتوفى سنة (٨٠٧ هـ) . وهو رفيق أبى الفضل العراقى فى سماع الحديث وصهره وتلميذه ، ثم أنه جمع هذه الكتب كلها فى كتاب عظيم سماه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) مع حذف الأسانيد والتمييز بين الصحيح والحسن والضعيف ، وهو كتاب قل أن يوجد مثله ولا صنف نظيره الى الآن ، وقد طبع والحمد لله بمصر ، وللهيثمى هذا أيضا كتاب زوائد صحيح ابن حبان على الصحيحين فى مجلد سماه (مورد الظمآن الى زوائد ابن حبان) . وكتب الزوائد كثيرة جدا و فى هذا القدر كفاية[١] .

الجوامع العامة : وطريقتهم فيها أن يجمعوا بين جملة من الكتب فى مؤلف واحد ، فمن ذلك : —

١ — كتاب جامع المسانيد والسنن الهادى لأقوم سنن للحافظ اسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى المعروف بابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤) جمع فيه بين الصحيحين وسنن النسائى وأبى داود والترمذى وابن ماجه ومسانيد أحمد والبزار وأبى يعلى والمعجم الكبير للطبرانى .

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٣٨ و جـ ٢ ص ٢٣٠ والرسالة المستطرفة ص ١٢٨ وما بعدها .

٢ — جمع الجوامع للحافظ عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة (٩١١) جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها وقد قصد فى كتابه هذا جمع الأحاديث النبوية بأسرها . وقال : المناوى أنه مات قبل أن يتمه ولقد اشتمل كتابه على كثير من الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة وقد هذب ترتيبه علاء الدين على بن حسام الهندى المتوفى سنة (٩٧٥) فى كتابه كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ، ثم اختصر كنز العمال فى كتاب أسماه (منتخب كنز العمال) وقد طبع المنتخب مع مسند أحمد بمصر كما طبع كنز العمال بالهند وقد اختصر السيوطى كتابه هذا وسمى المختصر الجامع الصغير فى حديث البشير النذير [1] .

كتب جامعة لأحاديث الأحكام : من ذلك :—

١ — كتاب الالمام فى أحاديث الأحكام لابن دقيق العيد المتوفى سنة (٧٠٢) جمع فيه متون الأحكام مع حذف الأسانيد وشرحه فى كتابه الامام لكن لم يكمل شرحه ويقال ان شرحه هذا لم يؤلف أعظم منه فى بابه لما فيه من الاستنباطات والفوائد[2] .

٢ — كتاب (تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد) لمجدد المائة الثامنة زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى المولود عام (٧٢٥هـ) المتوفى عام (٨٠٦هـ) . جمع فيه أحاديث الأحكام لابنه أبى زرعة . قال فى خطبته : (وبعد فقد أردت أن أجمع لابنى أبى زرعة مختصرا فى أحاديث الأحكام يكون متصل الأسانيد بالأئمة الأعلام فانه يقبح بطالب الحديث ألا يحفظ باسناده عدة من الأخبار يستغنى بها عن حمل الأسفار فى الأسفار وعن مراجعة الأصول عند المذاكرة والاستحضار .. قال : —

(١) انظر كشف الظنون جـ ١ ص ٢٨٨ والرسالة المستطرفة ص ١٣٧ ومفتاح السنة ص ١١٢ .

(٢) انظر كشف الظنون جـ ١ ص ١١٣ .

ولما رأيت صعوبة حفظ الأسانيد فى هذه الأعصار لطولها وكان قصر أسانيد المتقدمين وسيلة لتسهيلها رأيت أن أجمع أحاديث عديدة فى تراجم محصورة وتكون تلك التراجم فيما عد من أصح الأسانيد اما مطلقا على قول من عممه أو مقيدا بصحابى تلك الترجمة) ، ثم أخذ يبين طريقته فى نقله عن الكتب وعزوه اليها . وهو كتـــاب عظيم فى بابه ، وقد شرح تقريب الأسانيد هذا مؤلفه نفسه وقد بدأ الشرح بمقدمة فى تراجم رجال اسناده وضم اليهم من وقع له ذكر فى أثناء الكتاب لعموم الفائدة حتى ترجم لولده أبى زرعة الذى ألف الكتاب من أجله . قال : (تقدم فى خطبة هذا الشرح أنى اترجم كل من ذكر فيه فلم أر أن أخل بذكر من ألف له الكتاب ولم أر ادخاله فى رجال الكتاب لصغر سنه عن الشيوخ فرأيت أن أذكره هنا وأبين وقوع أحاديث الكتاب له عالية لاحتمال أن يطول عمره فيحدث به) ، ثم أخذ فى ذكر ترجمته ولكنه لم يكمل هذا الشرح بل شرح منه عدة مواضع وقد أكمله ابنه أبو زرعة المذكور المتوفى سنة (٨٢٦هـ) واسم هذا الشرح : (طرح التثريب فى شرح التقريب) وقد طبع بمصر سنة (١٣٥٣هـ) ووضع المتن فى أعلى الصفحة مفصولا من الشرح فى ثمانية أجزاء لطيفة وهو كتاب حافل بالفوائد والأبحاث جرى فيه مؤلفه على البحث العلمى الحر دون تعصب لمذهب من المذاهب وان كان مذهبه ، مما رفع من شأن هذا الكتاب أضفه الى ذلك ما شحنه به من النكت الفقهية والفوائد الحديثية .

٣ — كتاب بلوغ المرام من أحاديث الأحكام لخاتمة الحفاظ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢هـ) اشتمل على ألف وأربعمائة حديث فى الأحكام وهو مطبوع بمصر فى مجلد لطيف وقد شرحه خلق كثير منهم القاضى شرف الدين الحسين بن محمد المغربى ومنهم محمد بن

اسماعيل الصنعانى المتوفى سنة (١١٨٢) فى كتاب سماه سبل السلام وقد طبع بمصر فى أربعة أجزاء ومنهم الفاضل صديق خان سنة (١٣٠٧) فى كتاب سماه فتح العلام وطبع بمصر ونفدت نسخه .

تخريجهم لأحاديث جاءت فى بعض الكتب العلمية : يقع فى كلام بعض المصنفين فى العلوم المختلفة كالعقائد والفقه وأصوله والتفسير وشروح الحديث والتصوف واللغة كثير من الأحاديث على وجه الاستدلال ، أو الاستشهاد ولما كان كثير من هؤلاء المصنفين لا يعنون بتخريج تلك الأحاديث بعزوها الى الكتب التى نقلوها منها ولا يبينون صحتها من ضعفها تجرد بعض حفاظ الحديث فخرج تلك الأحاديث وكشف عن آماكنها من كتب الحديث وجمع ذلك فى كتاب على حدة ومن هذه الكتب : —

١ — تخرج أحاديث تفسير الكشاف للحافظ جمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعى نسبة الى زيلع ميناء على ساحل البحر الاحمر الحنفى المتوفى بالقاهرة سنة (٧٦٢ هـ) استوعب ما فى الكشاف من الأحاديث المرفوعة وأكثر من تبيين طرقها وتسمية مخارجها لكن فاته كثير من الأحاديث المرفوعة التى يذكرها الزمخشرى على سبيل الاشارة ولم يتعرض غالبا للآثار الموقوفة وهو غير الزيلعى عثمان بن على بن محمد شارح الكنز فى فقه الحنفية المتوفى سنة (٧٤٣) . كان جمال الدين الزيلعى هذا مرافقا لزين الدين العراقى فى مطالعة الكتب الحديثية لتخريج الكتب التى كانا قد اعتنيا بتخريج أحاديثها فالعراقى خرج أحاديث الأحياء للغزالى والأحاديث التى يشير اليها الترمذى فى كل باب والزيلعى خرج أحاديث الكشاف وأحاديث الهداية فى فقه الحنفية .

٢ — الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلانى لخصه من تخريج الزيلعى وزاد عليه ما أغفله من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة وهذا الكتاب مطبوع مع آخر جزء من الكشاف بمصر الآن .

٣ — تخريج أحاديث البيضاوى الشيخ عبد الرءوف المناوى ، وللشيخ محمد همات زاده بن حسن همات زاده المحدث المتوفى سنة (١١٧٥) كتاب سماه (تحفة الراوى فى تخريج أحاديث البيضاوى)

٤ — تخريج أحاديث شرح معانى الآثار للطحاوى لبعض العلماء سماه الحاوى فى بيان آثار الطحاوى عزا فيه كل حديث الى الكتب المشهورة وبين الصحيح من الضعيف .

٥ — تخريج أحاديث الأذكار للنووى ، والأربعين له ، وأحاديث المصابيح ، والمشكاة ، للحافظ ابن حجر ولم يكمل تخريج الأذكار ، وسمى تخريج المصابيح والمشكاة (هداية الرواة الى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة) .

٦ — تخريج أحاديث (الشفاء للقاضى عياض) . للحافظ السيوطى سماه (مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا) .

٧ — تخريج أحاديث (منهاج الأصول للبيضاوى) للتاج السبكى . كذلك خرج أحاديث المنهاج ابن الملقن ، والحافظ زين الدين العراقى

٨ — تخريج أحاديث المختصر لابن الحاجب فى الأصول لابن حجر ، وابن الملقن ومحمد بن أحمد بن عبد الهادى المقدسى المتوفى سنة (٧٢٤هـ).

٩ — تخريج أحاديث الهداية فى فقه الحنفية لجمال الدين الزيلعى المتقدم سماه (نصب الراية لأحاديث الهداية) وهو مطبوع بمصر الآن

ومنه استمد كثير ممن جاء بعده من شراح الهداية كما استمد منه الحافظ ابن حجر فى تخاريجه كثيرا وهو شاهد على تبحر جمال الدين الزيلعى فى الحديث وأسماء الرجال وسعة نظره فى فروع الحديث وللحافظ ابن حجر (الدراية فى منتخب تخريج أحاديث الهداية) مطبوع بدهلى سنة (١٣٥٠) .

١٠ — تخريج أحاديث الاحياء للغزالى لزين الدين العراقى وله عليها تخريجان كبير وصغير والأخير هو المتداول المطبوع مع كتاب الاحياء بمصر الآن .

هذا وكتب التخاريج كثيرة جدا وهى رمز صادق لأعمال المحدثين وجهودهم فى الكشف عن قيمة الأحاديث المتناثرة فى كتب العلوم المختلفة حتى لا يغتر الناس بما يجدونه منها بل ينبغى لهم الرجوع الى تلك التخاريج ليعلموا الصحيح منها من العليل [١] .

تخريجهم لأحاديث اشتهرت على الألسن : يدور على ألسنة الناس فى كل زمان أحاديث يذكرونها على سبيل الأمثال والحكم بعضها صحيح وبعضها ضعيف وبعضها موضوع مكذوب وأكثر ما يروج هذا على ألسنة العامة ومن لا علم عندهم من الخاصة ، ولم يهمل هذا النوع من الأحاديث أهل الحديث وحفاظ الأمة بل ألفوا فيه كتبا كثيرة أظهرت الناس على حقيقة الحال وبينت لهم الحق من الضلال واليك بعض هذه الكتب : —

١ — (المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة) . للحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى وقد

---

(١) الرسالة المستطرفة ص ١٣٩ وما بعدها .

اختصر المقاصد تلميذ السخاوى عبد الرحمن بن الديبع الشيبانى وسمى مختصره (تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على الألسنة من الحديث).

٢ — الدرة اللامعة فى بيان كثير من الأحاديث الشائعة لبعض العلماء اختصرها من المقاصد الحسنة .

٣ — (تسهيل السبل الى كشف الالتباس ، عما دار من الأحاديث بين الناس) للشيخ عز الدين محمد بن أحمد الخليلى المتوفى سنة (١٠٥٧هـ)[١] .

٤ — (كشف الخفاء ومزيل الألباس ، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) للحافظ اسماعيل بن محمد العجلونى المتوفى سنة (١١٦٢) وهو كتاب كثير الفوائد لخص فيه المقاصد الحسنة للسخاوى وضم اليه كثيرا مما فى الكتب الأخرى والكتاب مطبوع بمصر الآن فى جزأين لطيفين .

كتب الأطراف : تقدم الكلام فى الدور السادس على طريقة العلماء فى تأليف كتب الأطراف كما ذكرنا طائفة من كتب الأطراف لذلك العهد واليك جملة من كتب الأطراف فى هذا الدور : —

١ — كتاب اتحاف المهرة بأطراف العشرة للحافظ ابن حجر العسقلانى فى ثمان مجلدات ، والمراد من العشرة هى : الموطأ . مسند الشافعى . مسند أحمد . مسند الدارمى . صحيح ابن خزيمة : منتقى ابن الجارود : صحيح ابن حبان . مستدرك الحاكم . مستخرج أبى عوانة : شرح معانى الآثار . سنن الدارقطنى . وانما زاد العدد واحدا لأن صحيح ابن خزيمة لم يوجد منه سوى قدر ربعه .

(١) الرسالة المستطرفة ص ١٤٣ وما بعدها .

٢ — أطراف مسند الامام أحمد لابن حجر أيضا أفرده من (كتاب أتحاف المهرة) . ويسمى (أطراف المسند المعتلى بأطراف المسند الحنبلى) وهو فى مجلدين .

٣ — أطراف الأحاديث المختارة للضياء المقدسى لابن حجر العسقلانى فى مجلد ضخم .

٤ — أطراف مسند الفردوس لابن حجر أيضا .

٥ — أطراف صحيح ابن حبان لأبى الفضل العراقى .

٦ — أطراف المسانيد العشرة لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن أبى بكر الكنانى البوصيرى الشافعى نزيل القاهرة المتوفى سنة(٨٤٠هـ) ويريد بالمسانيد العشرة : مسند أبى داود الطيالسى ومسند أبى بكر عبد الله بن الزبير الحميدى ، ومسند مسدد بن مسرهد ، ومسند محمد ابن يحيى بن عمر العدنى ، ومسند اسحاق بن راهويه ، ومسند أبى بكر ابن أبى شيبة ، ومسند أحمد بن منيع ، ومسند عبد بن حميد ، ومسند الحارث بن محمد بن أبى أسامة ، ومسند أبى يعلى الموصلى[١] .

هذه هى أهم أعمال العلماء فيما يتعلق بجمع الحديث وترتيبه فى هذا الدور وما وراء ذلك فشروح ومختصرات لبعض كتب الحديث ومع ذلك فهى لا تتجاوز فى الغالب أهل القرن الحادى عشر الهجرى وبعض الثانى عشر ، أما فيما بعد ذلك الى عصرنا الحاضر فقد فترت الهمم حتى عن قراءة كتب الحديث فضلا عن القيام بأعمال التدوين ، وأصبح الناس يقرءون صحيح البخارى لمجرد التبرك بل نقول أكثر من ذلك : أنه قد انقطعت الصلة بين علمائنا اليوم وبين هذه الثروة الطائلة

(١) الرسالة المستطرفة ص ١٢٦ وما بعدها .

من كتب الحديث قديمها وحديثها حتى أن كثيرا منهم لا يدرى اذا ذكر عنده اسم كتاب منها ما موضوعه . أفى الحديث هو أم فى الفقه أم فى التاريخ أم فى السيرة اللهم الا بعض أفراد قصروا حيــاتهم على حفظ السنة ومطالعة الكتب ، والقيام بما وفقهم الله اليه من انتقاء بعض المتون الحديثية أمثال المرحوم شيخنا العلامة المحدث حبيب الله الشنقيطى . قام رحمه الله فى أخريات أيامه بجمع كتاب جليل فى الأحاديث التى اتفق عليها البخارى ومسلم فى صحيحيهما وسماه : (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم) رتبه على حروف المعجم فبلغت أحاديثه ألفــا ومائتين كلها متصلة الأسناد وقد شرحه شرحا وسطا جمع فيه كثيرا من الفوائد الفقهية والحديثية وسماه (فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم) كما تصدى رحمه الله فى هامش هذا الكتاب الجليل لبيان مواضع كل حديث من زاد المسلم فى الصحيحين من الكتب والأبواب مما يدل دلالة واضحة على اتساع حفظه ونباهة شأنه ورسوخ قدمه فى علوم السنة [1] فتغمده الله برحمته ونفعنا بعلمه .

الخاتمة

أطلعناك أيها القارىء على ألوان من جهود علماء الاسلام فى خدمة الحديث النبوى من حفظ فى الصدور الى تدوين فى الكتب الى بيان حال المتون من صحة وضعف الى محاربة للكذابين فى كل عصر حتى وصلتنا الأحاديث مشفوعة ببيان حالها ، فحفظوا بذلك على الأمة دينها واستحقوا من الله أفضل الجزاء ومن المسلمين أعظم ثناء وتقدير .

---

(١) وقد قام تلميذه الأستاذ محمد بن محمد الشرنوبى بطبع زاد المسلم وشرحه فى خمسة أجزاء على ورق جيد بمطبعة مصر فجزاه الله خيرا .

والآن نتحدث اليك عن لون آخر من جهودهم فى خدمة السنة عن طريق علومها المختلفة الأنواع وما قاموا به من جلائل الأعمال كوضع قوانين الرواية وتأسيس قواعد الجرح والتعديل ورفع التناقض الظاهرى عن أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك مما ستقف على فوائده. فتؤمن ايمانا صادقا بما لأسلافنا من نفاذ فى البصيرة وبعد نظر فى عواقب الأمور وعلو كعب فى هذه الفنون الحديثية القيمة لا سيما اذا علمت أن هذه الفنون لم تأت عفو الخاطر بل كان بعضها وليد عصور متقادمة وجهود أمة بأسرها عرفت للسنة قدرها فأتوا بما لم يأت بعشر معشاره أمة من الأمم من يوم أن بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام الى خلقه ، واليك طرفا من جهود علماء الحديث فى ذلك : —

١ ـ علم ميزان الرجال أو الجرح والتعديل

هذا الفن هو عماد علوم السنة أذ به يتميز الصحيح من السقيم والمقبول من المردود ، وقد أطبق العلماء على وجوب كشف حال الضعفاء والكذابين من الرواة واقامة النكير عليهم صيانة للدين ، فالكلام على جرح الرواة وتعديلهم أمر واجب على المسلمين ، وقد دلت قواعد الشريعة الغراء على أن حفظها فرض كفاية ، ولا يتأتى حفظها الا بذلك وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

لذا تكلم فى الجرح والتعديل خلائق لا يحصون ذكر منهم ابن عدى الجرجانى المتوفى سنة (٣٦٥) فى كتابه الكامل جملة الى زمنه :—

فمن الصحابة ابن عباس سنة (٦٨) وعبادة بن الصامت سنة (٣٤) وأنس بن مالك المتوفى سنة (٩٣) ومن التابعين عامر الشعبى (١٠٤) وابن سيرين (١١٠) هـ وسعيد بن المسيب سنة (٩٣) وهم قليل بالنسبة

لمن بعدهم وذلك لقلة الضعف فيمن يروون عنهم اذ أكثرهم صحابة وهم عدول وغير الصحابة منهم أكثرهم ثقات ولا يكاد يوجد فى القرن الأول من الضعفاء الا القليل .

وأما القرن الثانى فقد كان فى أوائله من أوساط التابعين جماعة من الضعفاء وضعف أكثرهم نشأ غالبا من قبل تحملهم وضبطهم للحديث فكانوا يرسلون كثيرا ويرفعون الموقوف وكانت لهم أغلاط وذلك مثل أبى هارون العبدرى سنة (١٤٣) ، ولما كان آخر عصر التابعين وهو حدود الخمسين ومائة تكلم فى التعديل والتجريح طائفة من الأئمة فضعف الأعمش المتوفى سنة (١٤٨) جماعة ووثق آخرين . ونظر فى الرجال شعبة (سنة ١٦٠) وكان متثبتا لا يروى الا عن ثقة ومثله مالك ابن أنس (سنة ١٧٩) وممن كان فى هذا العصر اذا قال قبل قوله معمر (سنة ١٥٣) وهشام الدستوائى (سنة ١٥٤) والأوزاعى (سنة ١٥٦) وسفيان الثورى (سنة ١٦١) وابن الماجشون (سنة ٢١٣) وحماد بن سلمة (سنة ١٦٧) والليث بن سعد (سنة ١٧٥) .

وبعد هؤلاء طبقة منهم ابن المبارك (سنة ١٨١) وهشيم بن بشير (سنة ١٨٨) وأبو اسحاق الفزارى (سنة ١٨٥) والمعافى بن عمران الموصلى (سنة ١٨٥) وبِشر بن المفضل (سنة ١٨٦) وابن عيينة (سنة ١٩٧) وقد كان منهم طبقة أخرى منهم ابن علية (١٩٣) وابن وهب (١٩٧) ووكيع بن الجراح (سنة ١٩٧) .

وقد انتدب فى ذلك الزمان لنقد الرجال الحافظان الحجتان يحيى ابن سعيد القطان (سنة ١٨٩) وعبد الرحمن بن مهدى (سنة ١٩٨) وكان للناس وثوق بهما فصار من وثقاه مقبولا ومن جرحاه مجروحا

ومن اختلفا فيه — وذلك قليل — رجع الناس فيه الى ما ترجح عندهم .

ثم ظهرت بعدهم طبقة أخرى يرجع اليهم فى ذلك منهم يزيد بن هارون (سنة ٢٠٦) وأبو داود الطيالسى (سنة ٢٠٤) وعبد الرزاق بن همام (٢١١) وأبو عاصم النبيل بن مخلد (سنة ٢١٢) .

ثم صنفت الكتب فى الجرح والتعديل والعلل وبينت فيها أحوال الرواة، وكان رؤساء الجرح والتعديل فى ذلك الوقت جماعة منهم يحيى بن معين (سنة ٢٣٣) وقد اختلفت آراؤه وعباراته فى بعض الرجال كما تختلف آراء الفقيه النحرير وعبارته فى بعض المسائل التى لا تكاد تخلص من أشكال ، ومن طبقته أحمد بن حنبل (سنة ٢٤١) وقد سأله جماعة من تلامذته عن كثير من الرجال فتكلم فيهم بما بدا له ولم يخرج بهم عن دائرة الاعتدال ، وقد تكلم فى هذا الأمر محمد بن سعد (سنة ٢٣٠) كاتب الواقدى فى طبقاته وكلامه جيد معقول وأبو خيثمة زهير بن حرب (سنة ٢٣٤) وله فى ذلك كلام كثير وأبو جعفر عبد الله بن محمد النبيل حافظ الجزيرة الذى قال فيه أبو داود : لم أر أحفظ منه ، وعلى بن المدينى (سنة ٢٣٤) وله التصانيف الكثيرة فى العلل والرجال ، ومحمد ابن عبد الله بن نمير (سنة ٢٣٤) الذى قال فيه أحمد : — (هو درة العراق) ، وأبو بكر بن أبى شيبة (سنة ٢٣٥) صاحب المسند وكان آية فى الحفظ ، وعبد الله بن عمرو القواريرى (سنة ٢٣٥) الذى قال فيه صالح جزرة : (هو أعلم من رأيت بحديث أهل البصرة) واسحاق بن راهويه امام خراسان (سنة ٢٣٧) ، وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن عمار الموصلى (سنة ٢٤٢) الحافظ وله كلام جيد فى الجرح والتعديل، وأحمد بن صالح حافظ مصر (سنة ٢٤٨) وكان قليل المثل ، وهارون ابن عبد الله الحمال (سنة ٢٤٣) وكل هؤلاء من أئمة الجرح والتعديل .

ثم خلفهم طبقة أخرى متصلة بهم منهم اسحاق الكوسج (سنة ٢٥١)، والدارمى (سنة ٢٥٥) ، والبخارى (سنة ٢٥٦) ، والحافظ العجلى نزيل المغرب ، ويتلوهم أبو زرعة (سنة ٢٦٤) ، وأبو حاتم (سنة ٢٧٧) الرازيان ، ومسلم (سنة ٢٦١) ، وأبو داود السجستانى (سنة ٢٧٥) ؛ وبقى بن مخلد (سنة ٢٧٦) ، وأبو زرعة الدمشقى (سنة ٢٨١) .

ثم من بعدهم جماعة منهم عبد الرحمن بن يوسف البغدادى وله مصنف فى الجرح والتعديل وكان كأبى حاتم فى قوة النفس ، وابراهيم ابن اسحاق الحربى (سنة ٢٨٥) ، ومحمد بن وضاح (سنة ٢٨٩) حافظ قرطبة ، وأبو بكر بن أبى عاصم (سنة ٢٨٧) ، وعبد الله بن أحمد (سنة ٢٩٠) ، وصالح جزرة (سنة ٢٩٣) ، وأبو بكر البزار (سنة ٢٩٢) ؛ ومحمد بن نصر المروزى (سنة ٢٩٤) ، ومحمد بن عثمان بن أبى شيبة (سنة ٢٩٧) وهو ضعيف لكنه من الأئمة فى هذا الأمر .

ثم من بعدهم جماعة منهم أبو بكر الفريابى والبرديجى والنسائى (سنة ٣٠٣) ، وأبو يعلى (سنة ٣٠٧) ، وابن خزيمة (سنة ٣١١) ، وابن جرير الطبرى (سنة ٣١٠) ، والدولابى (سنة ٣١١) ، وأبو عروبة الحرانى (سنة ٣١٨) ، وأبو الحسن أحمد بن عمير ، وأبو جعفر العقيلى (سنة ٣٢٢) .

ويتلوهم جماعة منهم ابن أبى حاتم (سنة ٣٢٧) وأحمد بن نصر البغدادى شيخ الدارقطنى (سنة ٣٢٣) وآخرون .

ثم من بعدهم جماعة منهم أبو حاتم بن حبان البستى (سنة ٣٥٤) ، والطبرانى (سنة ٣٦٠) ، وابن عدى الجرجانى (سنة ٣٦٥) وكتابه فى الرجال اليه المنتهى فى الجرح والتعديل ، .

وقد جاء من بعد ابن عدى وطبقته جماعة منهم أبو على الحسين بن محمد النيسابورى (سنة ٣٦٥) وله مسند معلل فى ألف جزء وثلثمائة جزء ، وأبو الشيخ بن حيان (سنة ٣٦٩) ، وأبو بكر الاسماعيلى (سنة ٣٧١) ، وأبو أحمد الحاكم (سنة ٣٧٨) والدارقطنى (سنة ٣٨٥)، وبه ختمت معرفة العلل .

ثم من بعدهم جماعة منهم أبو عبد الله بن منده (سنة ٣٩٥) ، وأبو عبد الله الحاكم (سنة ٤٠٥) وأبو نصر الكلاباذى (سنة ٣٩٨) ، وعبد الرحمن بن فطيس قاضى قرطبة (سنة ٤٠٢) وله دلائل السنة ، وعبد الغنى بن سعيد (سنة ٤٠٩) ، وأبو بكر بن مردويه الأصفهانى (سنة ٤١٦) .

ثم من بعدهم جماعة منهم : محمد بن أبى الفوارس البغدادى (سنة ٤١٢) ، وأبو بكر البرقانى (سنة ٤٢٥) ، وأبو حاتم العبدرى، وخلف بن محمد الواسطى ، وأبو مسعود الدمشقى وأبو الفضل الفلكى (سنة ٤٣٨) وله كتاب الطبقات فى ألف جزء وأبو القاسم محمود السهمى وأبو يعقوب وأبو ذر الهرويان . ثم من بعدهم جماعة منهم أبو الحسن الخلال (سنة ٤٣٩) وأبو يعلى الخليلى (سنة ٤٤٦) وأبو عبد الله الصورى وأبو سعد السمان ثم من بعدهم جماعة منهم ابن عبد البر (سنة ٤٦٣) وابن حزم (سنة ٤٥٦) الأندلسيان والبيهقى (سنة ٤٥٨) ، والخطيب (سنة ٤٦٣) .

ثم من بعدهم جماعة منهم ابن ماكولا (سنة ٤٧٥) ، وأبو الوليد الباجى (سنة ٤٧٤) وقد صنف فى الجرح والتعديل ، وأبو عبد الله الحميدى (سنة ٤٨٨) وغيرهم .

ثم من بعدهم جماعة منهم أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى (سنة ٥٠٧) ، والمؤتمن بن أحمد بن على الساجى (سنة ٥٠٧) .

ثم من بعدهم جماعة منهم أبو موسى المدينى (سنة ٥٨١) ، وأبو القاسم بن عساكر (سنة ٥٢٣) وابن بشكوال (سنة ٥٧٨) ، وبعدهم جماعة منهم عبد الحق الاشبيلى ، وابن الجوزى (سنة ٥٩٧) ، وأبو عبد الله بن الفخار المالقى ، وأبو القاسم السهيلى (سنة ٥٨١) ، وبعدهم جماعة منهم أبو بكر الحازمى (سنة ٥٨٤) ، وعبد الغنى المقدسى (سنة ٦٠٠) والرهاوى ، وابن المفضل (سنة ٦١٦) .

ثم من بعدهم جماعة منهم أبو الحسن القطان (سنة ٦٣٨) ، وابن الانماط (سنة ٦١٩) ، وابن نقطة (سنة ٦٢٩) وغيرهم .

ثم من بعدهم جماعة منهم ابن الصلاح (سنة ٦٤٢) ، والحافظ المنذرى (سنة ٦٥٦) ، وأبو عبد الله البراذلى (سنة ٦٣٦) ، وابن الأبار ، وأبو شامة (سنة ٦٢٥) ، وأبو البقاء النابلسى وبعدهم جماعة منهم ابن دقيق العيد (سنة ٧٠٢) .

ثم من بعدهم جماعة منهم ابن تيمية (سنة ٧٢٨) ، والحافظ المزى (سنة ٧٤٢) ، وابن سيد الناس (سنة ٧٣٤) ، وأبو عبد الله بن أيبك الذهبى (سنة ٧٤٨) ، والشهاب بن فضل الله (سنة ٧٤٩) ، والحافظ مغلطاى (سنة ٧٦٣) ، والشريف الحسينى الدمشقى ، والزين العراقى (سنة ٨٠٦) .

ثم من بعدهم جماعة منهم الولى العراقى ، والبرهان الحلبى ، وابن حجر العسقلانى (سنة ٨٥٢) وغير هؤلاء كثير فى كل عصر الا أن المتقدمين كانوا أرسخ قدما فى هذا الفن من المتأخرين[١] . فأنت ترى أن

(١) توجيه النظر ص ١١٤ — ١١٦ .

هذه ثمانية قرون كاملة تبدأ بعصر الصحابة وكلها مشحونة بالأئمة الأعلام من علماء الجرح والتعديل الذين وزنوا الرواة بميزان العدل وأنزلوهم منازلهم فجزاهم الله عن الدين خير الجزاء .

كتب الجرح والتعديل

من العلماء من تكلم فى كتابه على الضعفاء من الرواة فقط ومنهم من قصر مؤلفه على الثقات لا غير ومنهم من جمع النوعين وكل قصد الخير واليك طائفة من أشهر الكتب فى ذلك : —

كتب الثقات : أفرد الثقات بالتأليف كثير من العلماء ومن هذه الكتب : —

١ — كتاب الثقات لأبى حاتم بن حبان البستى . الا أنه ذكر فيه عددا كثيرا من المجهولين الذين لا تعرف أحوالهم ، وطريقته فيه أنه يذكر من لم يعرفه بجرح وأن كان مجهولا لم يعرف حاله ، وقد قال هو فى صفة العدل : (العدل من لم يعرف منه الجرح اذ الجرح ضد العدالة فمن لم يعرف بجرح فهو عدل) . اهـ .

وقد سبق لك أن جمهور المحدثين يخالفونه فى ذلك على أنه قد ذكر فى الثقات قوما أعاد ذكرهم فى كتاب الضعفاء والمجروحين له وبين ضعفهم فهذا الصنيع آن لم يعد من باب تغير الاجتهاد فهو منه غفلة وسهو وقد رتب الثقات لابن حبان الحافظ نور الدين الهيثمى .

٢ — كتاب الثقات لزين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفى المتوفى (سنة ٨٧٩) جمع فيه الثقات ممن ليس فى الكتب الستة فى أربع مجلدات.

٣ — وكتاب الثقات لخليل بن شاهين [1] .

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٧٢ والرسالة المستطرفة ص ١٠٩ و ١١٠

كتب الضعفاء : صنف فى هذا النوع كثير من الحفاظ والجهابذة من علماء السنة ونقدة الرجال فمن ذلك : كتاب الضعفاء لامام المحدثين أبى عبد الله البخارى (٢٥٦) ، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى ، وكتاب الضعفاء لأبى حاتم بن حبان البستى ، وكتاب الضعفاء للدارقطنى ، وكتاب الضعفاء لمحمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيــلى المتوفى (سنة ٣٢٢) الثقة صاحب التصانيف وكتابه كبير مفيد ، وكتاب الضعفاء لأبى نعيم عبد الملك بن محمد الجرجانى (سنة ٣٢٣) ، وكتاب الضعفاء لأبى الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى (سنة ٥٩٧) وكتابه كبير وقد اختصره الذهبى ثم ذيله كما ذيله علاء الدين مغلطاى (سنة ٧٦٢) ، ومن الكتب الهامة فى ذلك : كتاب الكامل لأبى أحمد عبد الله بن محمد ابن عدى بن عبد الله بن محمد بن المبارك الجرجانى الحافظ الكبير أحد الجهابذة المرجوع اليهم فى العلل والرجال ومعرفة الضعفاء المتوفى سنة (٣٦٥ هـ) . ذكر فيه كل من تكلم فيــه وان كان من رجــال الصحيحين وذكر فى ترجمة كل راو حديثا أو أكثر من غرائبه ومناكيره وهو فى مقدار ستين جزءا فى اثنى عشر مجلدا ويعتبر هذا الكتاب أكمل كتب الجرح وعليه اعتماد العلماء . ومنها . ميزان الاعتدال فى نقــد الرجال للحافظ شمس الدين الذهبى المتوفى (سنة ٧٤٨) رتبه على حروف المعجم حتى فى الآباء ورمز على اسم الرجل لمن أخرج له فى كتابه من الأئمة الستة ، قال فى خطبته : (وفيه من تكلم فيه مع ثقته وجلالته بأدنى لين وبأقل تجريح فلولا أن ابن عدى أو غيره من مؤلفى كتب الجرح ذكروا ذلك الشخص لما ذكرته لثقته ولم أر من الرأى أن أحذف اسم أحد ممن له ذكر بتليين خوفا من أن يتعقب على لا أنى ذكرته لضعف فيه عندى الا ما كان فى كتاب البخارى وابن عدى وغيرهما من الصحابة

فانى أسقطهم لجلالة الصحابة ولا أذكرهم فى هذا المصنف فان الضعف انما جاء من جهة الرواة اليهم وكذا لا أذكر فى كتابى من الأئمة المتبوعين فى الفروع أحدا لجلالتهم فى الاسلام وعظمتهم فى النفوس) . اهـ .
وكتابه مطبوع فى مجلدين أو ثلاثة وقد ذيل عليه الحافظ زين الدين العراقى فى مجلد وعمل ابن حجر العسقلانى (لسان الميزان) ضمنه ما فى الميزان مما ليس فى تهذيب الكمال وزاد فى الكتاب جملة كثيرة كما زاد فيه تذييل شيخه العراقى على الميزان ورمز لزيادته هو بحرف زاى ولتذليل شيخه بحرف ذال وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات [١] .

« كتب جامعة بين الثقات والضعفاء » :

الكتب فى هذا النوع كثيرة جدا منها تواريخ البخارى الثلاثة الكبير وهو على حروف المعجم ابتدأ بمن اسمه محمد والأوسط وهو على السنين والصغير ، وكتاب الجرح والتعديل لابن حبان ؛ وكتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى المتوفى (سنة ٣٢٧) وهو كبير فى ستة مجلدات اقتص فيه أثر البخارى وأجاد فيه ، وكتاب الجرح والتعديل لأبى اسحاق ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى الحافظ ، وكتاب التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل للعماد ابن كثير جمع فيه بين تهذيب المزى وميزان الذهبى مع زيادات وتحرير فى العبارات وهو أنفع شىء للمحدث والفقيه ، وكتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد المتوفى (سنة ٢٣٥) وهو من أعظم ما صنف جمع فيه الصحابة والتابعين فمن بعدهم الى وقته فأجاد وأحسن الى غير ذلك [٢] .

(١) توجيه النظر ص ١١٨ وكشف الظنون ج ١ ص ٢٧٢ و ٥١٥ والرسالة المستطرفة ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٢ الرسالة المستطرفة ص ١١٠ . مفتاح السنة ص ١٥١ وما بعدها توجيه النظر ص ١١٨ .

٢ ـ معرفة الصحابة

معرفة الصحابة بأسمائهم وكناهم فن جليل اعتنى به علماء الحديث قديما وحديثا اذ به يعرف الحديث أمتصل هو أم مرسل ، قال الحاكم[1] فى كتابه علوم الحديث : (ومن تبحر فى معرفة الصحابة فهو حافظ كامل الحفظ فقد رأيت جماعة من مشايخنا يروون الحديث المرسل عن تابعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوهمونه صحابيا وربما رووا المسند عن صحابى يتوهمونه تابعيا) اهـ .

وقد تناول العلماء هذا الفن بالتأليف فمن ذلك : كتاب الصحابة لابن حبان وهو مختصر فى مجلد ، وكتاب أبى نعيم الأصفهانى ، وكتاب معرفة الصحابة لأبى أحمد بن عبد الله العسكرى وهو مرتب على القبائل ، وكتاب على بن المدينى شيخ البخارى ذكر فيه من نزل من الصحابة فى سائر البلدان وهو فى خمسة أجزاء لطيفة ، وكتاب ابن منده، وذيله لأبى موسى المدينى ، هذا ومن أحسن الكتب فى هذا الفن وأكثرها فوائد : (الاستيعاب فى معرفة الأصحاب) للحافظ ابن عبد البر لولا ما شانه بذكر ما شجر بين الصحابة وحكايته عن الأخباريين والغالب عليهم الاكثار والتخليط فى ما يروونه ، وهو مطبوع الآن وقد ذيل عليه ابن فتحون ذيلا حافلا كما ذيل عليه آخرون ، وكتاب أسد الغابة لعز الدين بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠) جمع فيه كتبا أربعة : هى كتاب ابن منده ، وكتاب أبى موسى المدينى ، وكتاب أبى نعيم ، وكتاب ابن عبد البر ، وزاد عليها أسماء من غيرها وضبط وحقق أشياء حسنة . على ما فيه من التكرار حسب الاختلاف فى الأسم أو الكنية وهو مطبوع أيضا وقد اختصره الحافظ الذهبى (٧٤٨) فى كتاب لطيف سماه

---

(١) ص ٢٥ .

(التجريد) ، وبين من ذكر غلطا ، ومن لاتصح صحبته ، ولم يستوعب ذلك ، ثم جاء شيخ الاسلام العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢) فألف كتابه : (الاصابة فى تمييز الصحابة) . جمع فيه ما فى الاستيعاب وذيله وأسد الغابة وتجريده ، واستدرك عليهم كثيرا فجـاء كتابا عظيم النفع كثير الفائدة وهو مطبوع الآن [١] ..

٣ ـ علم تاريخ الرواة

تكلم الناس على تاريخ الرواة ورحلاتهم ومواطنهم وأبانوا عن مواليدهم ووفياتهم وكثير من أحوالهم مما له أثر فى توهينهم أو تقويتهم فميزوا أوقات ضبطهم وانتباههم من أوقات غفلتهم واختلاطهم وكشفوا عن كل ذلك بما لا يدع مجالا للريب فتراهم يقولون مثلا : فلان ولد عام كذا وسمع وعمره كذا وارتحل الى البلد الفلانى فى وقت كذا وسمع من الشيخ الفلانى والتقى بفلان ولم يلتق بفلان ، وفلان اختلط قبل موته بكذا شهر أو سنة وفلان سمع من فلان قبل الاختلاط فيقبـل وفلان سمع منه بعد الاختلاط فلا يقبل وهلم جرا ، وانك لتلمح من أقوالهم هذه الفائدة الكبرى التى يفيدها هذا الفن من فنون الحديث ولقد وفاه علماء الحديث حقه لما يترتب عليه من اتصال الحديث وانقطاعه وقوته وضعفه الى غير ذلك ونحن نذكر لك شيئا من هذه الفوائد ليعظم فى نظرك هذا الفن فمن ذلك : —

١ — ان العلم بتاريخ الرواة طريق لمعرفة ما يقبـل من أحاديث الثقات الذين أدركهم الاختلاط وما لا يقبل منها .

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٧٤ والتـدريب ص ٢٠١ وما بعـده والرسالة المستطرفة ص ٩٤ ، ١٥١ .

٢ — أن العلم بتاريخ الرواة يعرف به المتقدم والمتأخر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم أن أحد الخبرين ناسخ والآخر منسوخ عند تعارضهما مع تعذر الجمع بينهما وبذلك يذهب التعارض ويندفع التناقض عن حديثه صلى الله عليه وسلم .

٣ — الوقوف على اتصال السند وانقطاعه فقد يقع من بعض الرواة الكذب أو التدليس أو الارسال ولا يظهر ذلك الا للعـالم بالتاريخ الواقف على حقيقة الحال وكثيرا ما حكم العلماء على رواة بالكذب وعلى أحاديث بالوضع بسبب اطلاعهم على تواريخهم وأنهم لم يلتقوا بمن حدثوا عنه بل ولدوا بعد موتهم بسنين طوال واليك بعض الأمثلة : سأل اسماعيل بن عياش رجلا أى سنة كتبت عن خالد بن معدان ؟ . فقال : سنة ١١٣ هـ فقال أنت تزعم انك سمعت خالد بن معدان بعد موته بسبع سنين فانه مات سنة ١٠٦ هـ ، وسأل الحاكم محمد بن حاتم الكشى عن مولده لما حدث عن عبد بن حميد فقال سنة (٢٦٠) فقال : هذا سمع من عبد بن حميد بعد موته بثلاث عشرة سنة ، وروى مسلم فى مقدمة صحيحه أن المعلى بن عرفان قال : حدثنا أبو وائل قال : خرج علينا ابن مسعود بصفين . قال أبو نعيم : — يعنى الفضل بن دكين حاكيه عن المعلى — أتراه بعث بعد الموت وذلك لأن ابن مسعود توفى سنة ٣٢ هـ قبل انقضاء خلافة عثمان بثلاث سنين وصفين كانت فى خلافة على بعد ذلك .

هذه أمثلة ناصعة تصور لنا مبلغ حرص هؤلاء الأعلام وعنايتهم بالوقوف على أحوال الرواة واهتمامهم البالغ بالرواية والأسناد لذلك قال سفيان الثورى : (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ) وقال حفص بن غياث القاضى : (اذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين) ،

يعنى سِنّه وسن من كتب عنه ، وقال حسان بن يزيد : (لم نستعن على الكذابين بمثل التاريخ نقول للشيخ سنة كم ولدت ، فاذا أقر بمولده عرفنا صدقه من كذبه) وكتب تاريخ الرواة كثيرة جدا وقد تقدم لك بعضها واليك جملة من كتب وفيات الرواة فمن ذلك : —

الوفيات لعبد الله بن أحمد بن ربيعة الربعى الدمشقى سنة (٣٧٣) جمعه من الهجرة الى سنة (٣٣٨) . وذيله لعبد العزيز بن أحمد بن محمد الكتانى الدمشقى الحافظ سنة ٤٦٦ وذيل على كتاب الكتانى تلميذه هبة الله بن أحمد الأنصارى الأكفانى المتوفى سنة ٥٢٤ نحو عشرين سنة الى سنة ٤٨٥ وسماه جامع الوفيات ثم ذيل على الأكفانى شرف الدين على بن المفضل المقدسى ثم الاسكندرى الحافظ المتوفى سنة ٦١١ وصل فيه الى سنة ٥٨١ ثم ذيل على ابن المفضل زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى المتوفى سنة (٦٥٦) وهو ذيل كبير كثير الاتقان والفائدة فى ثلاثة مجلدات سماه (التكملة لوفيات النقلة) ثم ذيل على المنذرى تلميذه الحافظ عز الدين أحمد بن محمد الشريف الحسينى الحلبى المصرى المتوفى سنة ٦٩٥ فى مجلد ، ثم ذيل على الشريف أحمد بن أيبك الدمياطى المحدث وصل فيه الى سنة ٧٤٩ ثم ذيل على ابن أيبك الحافظ زين الدين العراقى الى سنة (٧٦٢) ثم ذيل عليه ابنه ولى الدين العراقى المتوفى سنة (٨٢٦) .

ومن كتب الوفيات (كتاب در السحابة فى وفيات الصحابة للصاغانى) والأعلام بوفيات الأعلام للذهبى ، وتاريخ الوفاة للمتأخرين من الرواة لأبى سعد السمعانى ، الى غير ذلك [1] .

---

(١) التدريب ص ٢٥٤ ـ توجيه النظر ص ١١٨ و ١١٩ ـ مقدمة ابن حجر ج ٢ ص ١٤٣ ـ الباعث الحثيث ٢٩٣ مقدمة ابن الصلاح ص ١٨٩ و ١٩٠ ومفتاح السنة ص ١٥٥ .

هذا ولم يقتصر الأئمة على التأليف فى رجال الحديث عامة ، بل آفردوا بالتصنيف رجال بعض كتب الحديث فمن ذلك : رجال صحيح البخارى لأحمد بن محمد الكلاباذى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، ورجاله كذلك لمحمد بن داود الكردى المتوفى سنة ٩٢٥ هـ — ورجال صحيح مسلم لأحمد بن على المعروف بابن منجويه المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، ورجاله أيضا لأحمد بن على الأصفهانى ، وجمع محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة (٥٠٧) بين رجال الصحيحين فى كتاب جمع فيه بين كتابى الكلاباذى وابن منجويه ورتبه على الحروف وأحسن كما استدرك عليهما ، وكذلك جمع بينهما اللالكائى المتوفى سنة (٤٩٨) ، وأفرد رجال السنن لأبى داود أبو على الغسانى المعروف بالجيانى المتوفى سنة (٤٩٨) وجمع السيوطى رجال الموطأ ، وتعجيل المنفعة فى رجال الأربعة : — موطأ مالك ومسند الشافعى ومسند أحمد ومسند أبى حنيفة — للحافظ ابن حجر العسقلانى، ورجال السنن الأربع — سنن النسائى وأبى داود والترمذى وابن ماجه — لأحمد بن أحمد الكردى المتوفى سنة ٧٦٣ — والكمال فى معرفة الرجال لعبد الغنى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ جمع فيه رجال الكتب الستة، وتهذيب الكمال لجمال الدين يوسف المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ وهو كتاب كبير لم يؤلف مثله وزوائد الرجال على تهذيب الكمال للسيوطى وقد اختصر التهذيب الحافظ الذهبى فى كتابه الكاشف اقتصر فيه على من ذكر له رواية فى الكتب الستة دون من عداهم مما فى كتاب المزى ، واختصره أيضا الحافظ ابن حجر فى كتابه تهذيب التهذيب وهو أكمل من كاشف الذهبى ، ولابن حجر أيضا تقريب التهذيب وهو مختصر جدا وتهذيب التهذيب وتقريب التهذيب مطبوعان الآن الى غير ذلك من كتب الرجال وهى كثيرة (١) .

(١) الرسالة المستطرفة ص ١٥٣ وما بعدها .

٤ ـ معرفة الأسماء والكنى والألقاب

قد يكون للراوى اسم وكنية أو اسم ولقب وربما اشتهر باسمه دون كنيته أو العكس أو اشتهر بلقبه دون اسمه أو العكس ، وقد عنى الحفاظ ببيان هذا النوع عناية تامة فتكلموا على كل صنف ودونوا ذلك فى مؤلفات خاصة ، وفائدة التنبيه على أن الراوى اشتهر باسم كذا وكنيته كذا أو العكس أو اشتهر بلقب كذا واسمه كذا أو العكس ألا يظن من لا معرفة له بذلك أنهما شخصان وربما ذكر الراوى بهما معا فى الاسناد فيظن من لايقف على حقيقة الأمر أنهما رجلان وقد يجره ذلك الى تضعيف الثقة وتوثيق الضعيف وفى هذا من الخطر مافيه ، واليك جملة من الكتب فى هذا النوع :

كتب فى أسامى من يعرف بكنيته :

(١) كتاب على بن المدينى . (٢) كتاب مسلم . (٣) كتاب النسائى . (٤) كتاب ابن أبى حاتم . (٥) كتاب ابن حبان . (٦) كتاب الحاكم أبى أحمد النيسابورى — شيخ أبى عبد الله الحاكم — المتوفى سنة ٣٧٨ فى أربعة عشر سفرا حرر فيه وأجاد وزاد على غيره ورتبه الذهبى على المعجم واختصره وزاد عليه وسماه « المقتنى فى سرد الكنى » . (٧) كتاب ابن عبد البر وهو المسمى بالاستغنا فى معرفة الكنى . (٨) كتاب « المنى فى الكنى » للحافظ السيوطى ، هذا ولأبى بشر محمد بن أحمد الدولابى المتوفى سنة ٣١٠ كتاب الكنى والأسماء وهو مطبوع بحيدر أباد بالهند سنة (١٣٢٢) فى مجلدين .

وفى بيان كنى المعروفين بالأسماء الذى هو عكس هذا النوع كتاب لابن حبان يقع فى ثلاثة مجلدات .

كتب فى الألقاب :

١ — كتاب الأسماء والألقاب لأبى الفرج بن الجوزى واسمه كشف النقاب عن الأسماء والألقاب .

٢ — وكتاب مجمع الآداب فى معجم الأسماء والألقاب لأبى الوليد الفرضى محدث الأندلس .

٣ — وكتاب الكنى والألقاب لأبى عبد الله الحاكم .

٤ — وكتاب نزهة الألباب للحافظ العسقلانى جمع فيه مع التلخيص ما لغيره وزيادة وزاد عليه تلميذه السخاوى زوائد كثيرة وضمها اليه فى تصنيف مستقل ، وللسيوطى كتاب (كشف النقاب عن الألقاب) [١].

المتفق والمفترق ، والمؤتلف والمختلف ، والمتشابه

هذه أنواع ثلاثة تقع فى أسماء الرواة ولا يحصل العلم بها الا للحافظ المتقن الذى سبر هذا الفن ومارس تلك الصناعة وقد كان للمحدثين عناية فائقة ببيان هذه الأنواع ولنتكلم على كل منها فنقول : —

١ — المتفق والمفترق : وهو أن يتفق اثنان فأكثر من الرواة فى الاسم لفظا وخطا وذلك مثل الخليل بن أحمد مسمى به ستة أشخاص . ومثل أحمد بن جعفر بن حمدان مسمى به أربعة أشخاص الى غير ذلك وقد تناول العلماء هذا النوع بالتصنيف فمن ذلك : —

كتاب المتفق والمفترق للخطيب البغدادى وهو كتاب نفيس فى مجلد كبير وكتاب المتفق والمفترق للحافظ محمد بن النجار البغدادى وكتاب أبى بكر الجوزقى .

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٦٤ وما بعدها ، الباعث الحثيث ص ٢٥٦ وما بعدها وتدريب الراوى ص٢٢١ وما بعدها مفتاح السنة ص ١٥٥

٢ — المؤتلف والمختلف : وهو أن يتفق اسما راويين فأكثر خطا فقط ويختلفا بالنطق نحو سلاّم وسلاَم وعـُمـَاره وعـِمـَارة وقد صنف فى بيان هذا النوع كثير من المحدثين فمن هذه المصنفات : كتاب المؤتلف والمختلف للدارقطنى وكتابه حافل ، وكتاب عبد الله بن على الأندلسى الرشاطى المتوفى (٥٤٢) ، وكتاب أبى سعيد المالينى ، وكتاب عبد الغنى ابن سعيد الأزدى المصرى الحافظ المشهور النسابة المتفنن المتوفى سنة ٤٠٩ وهو مطبوع فى الهند ، وكتاب تكملة المختلف للخطيب أحمد ابن على (سنة ٤٦٣) جمع فيه بين كتابى الدارقطنى وعبد الغنى وزاد عليهما وجعله كتابا مستقلا ، ثم جاء هبة الله بن على بن جعفر الحافظ المعروف بابن ماكولا المتوفى سنة ٤٧٥ فزاد على كتاب التكملة المذكور وضم اليها أسماء وقعت له وجعله كتابا مستقلا وسماه الاكمال فى رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب ، وهو فى مجلدين وعليه اعتماد المحدثين ، وقد تناوله الناس كل بعد الآخر بالزيادة والتذييل ، وكتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل لأبى على الغسانى الجيانى ، نسبة الى جيان مدينة كبيرة بالأندلس المتوفى سنة (٤٩٨) وهو خاص بأسماء رجال الصحيحين ، وللذهبى كتاب مختصر لخصه من كتب عبد الغنى وابن ماكولا وابن نقطة وأبى الوليد الفرضى ولكنه أجحف فى الاختصار واكتفى بضبط القلم فصار مناقضا لموضوعه لعدم الأمن من التصحيف فيه وفاته من أصوله أشياء واسم كتابه المشتبه فى أسماء الرجال طبع فى ليدن ، وقد اختصر كتاب الذهبى هذا الحافظ ابن حجر العسقلانى وضبطه بالحروف على الطريقة المرضية وزاد فيه كثيرا مع شدة تحريه وسماه : « تبصرة المنتبه فى تحرير المشتبه » ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية .

٣ — المتشابه : كالوليـد بن مسام ومسلم بن الوليد ويزيد بن الأسود والأسود بن يزيد ، وقد تناوله العلماء أيضا بالبيان والتصنيف ومن هذه الكتب : كتاب « تلخيص المتشابه فى الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم» للخطيب البغدادى فى مجلد ثم ذيل عليه هو أيضا وهو كتاب كثير الفائدة قال ابن الصلاح أنه من أحسن كتبه وقد اختصره علاء الدين بن التركمانى الماردينى كما اختصره جلال الدين السيوطى وسمى كتابه « تحفة النابه بتلخيص المتشابه [١] » .

٥ ـ علم تأويل مشكل الحديث

هذا فن جليل ويسمى أيضا تأويل مختلف الحديث وعلم اختلاف الحديث وكل عالم بل كل مسلم يحتاج للوقوف عليه فأن بمعرفته يندفع التناقض عن كلام النبى صلى الله عليه وسلم ويطمئن المكلف الى أحكام الشرع . ومشكل الحديث هو أن يرد حديثان يناقض كل منهما الآخر ظاهرا ، وقدعنى علماء الحديث بالكلام على هذا النوع ووفقـوا بين المتون المتعارضة بما يزيل اشكالها ، ولا يكمل لذلك الفن سوى فقهاء المحدثين الغواصين على دقائق المعانى : وأول من تكلم فى هذا الفن الامام محمد بن ادريس الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ رحمه الله وصنف فيه كتابه المعروف باختلاف الحديث وان كان لم يقصد الى استيفائه بل ذكر جملة منه ينبه بها على طريقة الجمع بين ما ظاهره التناقض ، وهذا الكتاب من رواية الربيع بن سليمان المرادى عن الشافعى فى مجلد واحد مطبوع على هامش الجزء السابع من كتاب الأم للشافعى أيضا ،

(١) مقـدمة ابن الصلاح ص ١٧٢ ـ ١٨٥ والباعث الحثيث ٢٧٤ وما بعدها وتدريب الراوى ص ٢٣٥ وما بعدها والرسالة المستطرفة ص ٨٦ وما بعدها ومفتاح السنة ص ١٥٦ وما بعدها .

ثم صنف فى هذا النوع من العلم الامام أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وسمى كتابه « تأويل مختلف الحديث » رد فيه على أعداء أهل الحديث وجمع بين الأخبار التىادعوا فيها التناقض وأجاب عما أوردوه من الشبه على بعض الأخبار المتشابهة وقد أحسن فيه كثيرا وأجاد وكتابه مطبوع متداول فى جزء صغير ثم صنف أيضا محمد بن جرير الطبرى (٣١٠) وأبو يحيى زكريا بن يحى الساجى(٣٠٧) وأبو جعفر الطحاوى (٣٢١) وسمى كتابه مشكل الآثار وهو من أجل كتبه ولأبى الفرج بن الجوزى (٥٩٧) « التحقيق فى أحاديث الخلاف » هذا وقد كان امام الأئمة ابن خزيمة من أحسن الناس كلاما فى هذا النوع من فنون الحديث حتى روى عنه أنه قال : « لا أعرف حديثين متضادين فمن كان عنده فليأتنى به أؤلف بينهما » اهـ[1] .

٦ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ من الحديث

عنى السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم بمعرفة الناسخ والمنسوخ وهو فن صعب المنال الا على جهابذة السنة وحفاظها الواقفين على تاريخ التشريع الاسلامى . قال الامام الزهرى (١٢٤) : « أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ الحديث من منسوخه » وقد كان للامام الشافعى رضى الله عنه فى هذا النوع من علوم الحديث اليد الطولى والسابقة الأولى ، فالامام أحمد بن حنبل على جلالته فى علم السنة يقول لابن وارة — وقد قدم من مصر — : كتبت كتب الشافعى . قال لا : قال فرطت ، ما علمنا المجمل من المفسر ولا ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسنا الشافعى .

(١) التدريب ص ١٩٧ وما بعدها ، مقدمة ابن الصلاح ص ١٤٣ ، كشف الظنون جـ ١ ص ٢٠٦ ، مفتاح السنة ص ١٥٤ ، الرسالة المستطرفة ص ١١٨ وما بعدها .

والنسخ فى اصطلاح العلماء هو رفع الشارع حكما منه متقدما بحكم منه متأخر . فالمتأخر يسمى الناسخ والمتقدم يسمى المنسوخ . وله شروط تكفلت بذكرها كتب أصول الفقه . وله طرق يعرف بها منها التصريح من النبى صلى الله عليه وسلم به كما فى حديث « كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » ومنها تصريح الصحابى به كقوله مثلا : « كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار » ومنه ما يعرف بالتاريخ كحديث شداد بن أوس عند أبى داود والنسائى مرفوعا : « افطر الحاجم والمحجوم » ذكر الشافعى رحمه الله أنه منسوخ بحديث ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم صائم » أخرجه مسلم ، فان فى بعض طرق حديث شداد أن ذلك كان زمن الفتح سنة ثمان وابن عباس انما صحبه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع سنة عشر ، ومنه ما عرف بدلالة الاجماع كحديث قتل شارب الخمر فى المرة الرابعة ولفظه على ما رواه أبو داود والترمذى من حديث معاوية (من شرب الخمر فاجلدوه فان عاد فى الرابعة فاقتلوه) . قال النووى فى شرح مسلم : (دل الاجماع على نسخه وان كان ابن حزم خالف فى ذلك فخلاف الظاهرية لا يقدح فى الاجماع) والاجماع لا ينسخ ولا ينسخ ولكن يدل على وجود ناسخ غيره .

هذا وقد صنف فى الناسخ والمنسوخ من الحديث خلق كثير منهم الامام أحمد بن حنبل ، والامام أبو داود السجستانى صاحب السنن وأحمد بن اسحاق الدينارى (٣١٨) ، ومحمد بن بحر الأصفهانى (٣٢٣)، وأحمد بن محمد النحاس (٣٣٨) ، وأبو محمد قاسم بن أصبغ (٣٤٠) ، وهبة الله بن سلامة (٤١٠) ، وأبو حفص عمر بن شاهين (٣٨٥) ، وللامام

أبى بكر زين الدين محمد بن أبى عثمان الحازمى — نسبة الى جده حازم — الهمدانى الحافظ المتقن المتوفى سنة (٥٨٤) ببغداد كتاب مشهور بين العلماء يسمى « الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار » فى مجلد وهو مطبوع فى حيدر أباد وحلب ومصر [١] .

٧ ــ معرفة غريب الحديث

غريب الحديث ما يقع فيه من كلمات غامضة بعيدة من الفهم لقلة استعمالاتها قال الامام أبو سليمان الخطابى : « الغريب من الكلام انما هو الغامض البعيد من الفهم كما أن الغريب من الناس هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل . والغريب من الكلام يقال على وجهين أحدهما أن يراد به أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم الا عن بعد ومعاناة فكر والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار من شواذ القبائل . فاذا وقعت الينا كلمة من كلامهم استغربناها » اهـ .

قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لسانا ، حتى كان يخاطب وفود العرب على اختلاف قبائلهم وألسنتهم بما يفهمونه ، وكان أصحابه رضى الله عنهم يفهمون أكثر ما يقوله ، وما لم يفهموه سألوه عنه واستمر الأمر على هذا المنوال الى أن لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وفى عصر الصحابة كان اللسان العربى سليما لا يعتريه خلل ولا تشوبه عجمة الى أن حصلت الفتوحات، ودخل فى الاسلام كثير من الأعاجم ، واختلطوا مع العرب بالازدواج فنشأ جيل جديد تشوب لسانه عجمه فتعلموا من اللسان مالابد لهم منه

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٨٥ وتدريب الراوى ص ١٩٥ ومقدمة ابن الصلاح ص ١٣٩ . والباعث الحثيث ص ٢٠٢ وكشف الظنون جـ ٢ ص ٢٧٦ والرسالة المستطرفة ص ٦٠ ومفتاح السنة ص ١٥٨ .

فى الخطاب ، ثم جاء التابعون سالكين طريقتهم ، الا أن لغة القوم كانت سائرة الى الاستعجام شيئا فشيئا ، فما انقضى عصر التابعين الا وقد استحال اللسان العربى أعجميا ، واستغلق على الناس فهم كثير من ألفاظ الحديث النبوى ، فألهم الله أئمة الدين معالجة هذا الداء العضال صيانة لهذا العلم الشريف ، حتى لا يصبح طلاسم امام عجمة المتأخرين ، فتكلم فى غريب الحديث جماعة من أتباع التابعين منهم مالك بن أنس الامام ، وسفيان الثورى ، وشعبة بن الحجاج ، ثم تتابع الناس بعدهم فى الكلام على هذا الفن مبينين للناس معانى كلماته المستغلقة ، وألفوا فى ذلك الكتب القيمة التى كانت فيما بعد عدة الأجيال المتلاحقة ، وذخيرة القرون المتأخرة ، ولولا همة هؤلاء الأئمة الأعلام لما انتفعنا اليوم بأحاديث النبى عليه الصلاة والسلام ، واليك نبذة عن تاريخ التدوين فى هذا النوع من علوم الحديث : —

أول من صنف فى غريب الحديث — على ما قيل — أبو عبيدة معمر ابن المثنى التميمى البصرى المتوفى سنة (٢١٠) جمع فيه كتابا صغيرا ولم تكن قلته لجهله بغيره بل لأن كل مبتدىء فى شىء يكون مقلا فيه عادة ولأن الناس كانت لا تزال فيهم بقية من معرفة وأثارة من علم فلعله قصد الى ما يخفى على بعض الناس ، وترك ما يعرفه كل النـــاس ، ثم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازنى النحوى (٢٠٤) بعده أكثر منه ، ثم جمع عبد الملك بن قريب الأصمعى كتابا أحسن فيه وأجاد ، وكان فى عصر أبى عبيدة ، وكذلك جمع فيه محمد بن المستنير المعروف بقطرب المتوفى(٢٠٦) وغير هؤلاء من الأئمة جمعوا أحاديث وتكلموا على لغتها فى أوراق ولم يكد أحدهم ينفرد عن غيره بكثير بل كانوا فيما جمعوه متقاربين ، ثم ألف من بعدهم أبو عبيد القاسم بن سلام (سنة ٢٢٤)

كتابا جليلا ، اتخذه الناس العمدة فى هذا الفن ، ويقال انه أفنى فيه عمره اذ جمعه فى أربعين سنة ، بقى هذا الكتاب يرجع اليه الناس فيما أهمهم حتى جاء أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ فصنف كتابه المشهور نهج فيه منهج أبى عبيد القاسم فجاء كتابه مثل كتابه أو أكبر ، ولم يودعه من كتاب أبى عبيد القاسم شيئا الا ما تدعو اليه الحاجة كزيادة شرح أو بيان لفظ ، وقال فى مقدمته : « أرجو ألا يكون بقى بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال » وممن صنف فى ذلك الامام ابراهيم الحربى المتوفى سنة ٢٨٥ بسط القول فى كتابه واستقصى الأحاديث وأطال بذكر المتون وأسانيدها مما زهد الناس فيه .

ثم أكثر الناس التصنيف لهذا الفن الى أن جاء الامام أبو سليمان حمد الخطابى البستى المتوفى سنة ٣٧٨ فصنف كتابه المشهور فى غريب الحديث سلك فيه طريقة أبى عبيد القاسم ، وابن قتيبة ، ووجه همته الى جمع ما ليس فى كتابيهما ، فكانت هذه الكتب الثلاثة تعد أمهات كتب غريب الحديث المتداولة ، غير أنه لم يكن بين تلك الثلاثة وغيرها من الكتب كتاب مرتب يسهل الاطلاع عليه فتخلص فى هذا العصر عصر الخطابى الامام أحمد بن محمد الهروى المتوفى سنة ٤٠١ فصنف كتابه المشهور فى الجمع بين غريبى القرآن والحديث مرتبا له على حروف المعجم على وضع لم يسبق اليه ، ولم يشحنه بالمتون والأسانيد والرواة، وجمع فيه من غريب الحديث ما فى كتب من تقدمه وزاد عليه فجاء كتابا جامعا حسن الوضع الا أنه جاء الحديث فيه متفرقا فى حروف كلماته ، صار هذا الكتاب عدة الناس فى معرفة الغريب ، وقد اقتفى أثره كثير من الناس واستدركوا ما فاته أيضا الى أن جاء جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (سنة ٥٣٨) فصنف كتابه « الفائق » ورتبه

على وضع اختاره مقفى على حروف المعجم ولكن فى العثور على معرفة الغريب منه مشقة ، وان كانت أقل من غيره مما سبقه لأنه جمع فى التقفية بين ايراد الحديث مسرودا جميعه أو بعضه ، ثم شرح ما فيه من غريب فيجىء شرح كلماته الغريبة فى حرف واحد فترد الكلمة فى غير حروفها ، فكان كتاب الهروى أقرب متناولا ، وأسهل مأخذا ، وقد ألف أبو موسى محمد بن أبى بكر المدينى الأصفهانى (٥٨١) كتابا جمع فيه على طريقة الهروى ما فاته من غريب القرآن والحديث ، وكذلك صنف أبو الفرج ابن الجوزى (٥١٤) كتابا فى غريب الحديث خاصة نهج فيه منهج الهروى، بل ان كتابه مختصر من كتاب الهروى لا يزيد عليه الا الكلمة الشاذة ، بخلاف كتاب أبى موسى المدينى فانه لا يذكر منه الا ما دعت اليه الحاجة.

ثم جاء الامام أبو السعادات مبارك بن محمد بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير المتوفى (٦٠٦) فجمع ما فى كتاب الهروى ، وأبىموسى من غريب الحديث والأثر وأضاف اليه ما عثر عليه فى كتب السنة من صحيح وسنن وجوامع ومصنفات ومسانيد ، وقد رمز لما فى كتاب الهروى بالهاء ، ولما فى كتاب أبى موسى المدينى بالسين ، وسمى كتابه « النهاية فى غريب الحديث والاثر » . قال السيوطى : « وهو أحسن كتب الغريب وأجمعها وأشهرها الآن وأكثرها تداولا وقد فاته الكثير فذيل عليه الصفى الأرموى (سنة ٧٢٣) بذيل لم نقف عليه » اهـ .

وقد لخص النهاية لابن الأثير الحافظ جلال الدين السيوطى (سنة ٩١١) فى كتاب سماه « الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير » وزاد فيه زيادات وهو مطبوع الآن مع النهاية على هامشها[١] .

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٣٧ وما بعدها والرسالة المستطرفه ص ١١٥ وتدريب الراوى ص ١٩٣ والباعث الحثيث ص ٢٠٠ ومفتاح السنة ص ١٤٠ وكشف الظنون جـ ٢ ص ٥٥ و ٤٠٧ ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٨٨ .

ومما يلتحق بكتب الغريب كتب المجازات النبوية التى جاءت فى الحديث ومن أحسن ما ألف فى ذلك « كتاب المجازات النبوية » للامام العالم الشريف الرضى محمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٠٦ وهو مطبوع بمصر الآن .

٨ ـ معرفة علل الحديث

هذا الفن من أجل علوم الحديث وأشرفها وأدقها ، ولا يتأهل للنظر فيه الا الراسخون فى علوم الحديث من أهل الخبرة والحفظ والفهم الثاقب، ولهذا لم يتصدر للكلام فيه الا أفذاذ الرجال وجهابذة السنة وأطباء الحديث ، كابن المدينى وأحمد بن حنبل والبخارى ومسلم ويعقوب ابن شيبة وأبى حاتم وأبى زرعة والدارقطنى ، وذلك لأن العلة فى اصطلاحهم عبارة عن أسباب خفية غامضة قادحة فى صحة الحديث مع أن الظاهر السلامة منها ، وربما وجدت العلة فى الاسناد الذى رجاله ثقات الجامع لشروط الصحة من حيث الظاهر ، قال الحاكم : « وهذا النوع من معرفة علم الحديث علم برأسه غير الصحيح والسقيم والجرح والتعديل ، قال : وانما يعلل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل فان حديث المجروح ساقط واه وعلة الحديث تكثر فى أحاديث الثقات بأن يحدثوا بحديث له علة ويخفى عليهم علته فيصير الحديث معلولا والحجة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير » اهـ .

وقد تناول هذا العلم بالتصنيف كثير من الأئمة فمن ذلك كتاب على بن المدينى المتوفى (سنة ٢٣٤) وكتابه من أجل الكتب ، وكتاب العلل للبخارى (سنة ٢٥٦) ، وكتاب العلل لمسلم بن الحجاج النيسابورى، وكتاب العلل للترمذى ، وقد شرحه الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن ابن أحمد البغدادى ثم الدمشقى الحنبلى المعروف بابن رجب المتوفى

سنة (٧٩٥) ، وكتاب العلل لأبى بكر أحمد بن محمد بن هارون البغدادى المعروف بالخلال المتوفى سنة (٣١١) وكتاب العلل لابن أبى حاتم عبد الرحمن الرازى الحافظ الثبت المتوفى سنة ٣٢٧ وكان ممن جمع بين علوم الرواية ومعرفة الفقه ، وكتابه مطبوع بمصر فى مجلدين ، وهو من أجل الكتب فى بابه مرتب على أبواب الفقه ، وكتاب العلل لعلى بن عمر الدارقطنى المتوفى سنة (٣٧٥) وهو أجمع كتاب فى العلل مرتب على المسانيد ، وليس من جمع الدارقطنى بل الجامع له تلميذه الحافظ أبو بكر البرقانى ، وكتاب ابن الجوزى وهو المسمى « بالعلل المتناهية فى الأحاديث الواهية » وعليه فى كثير منه انتقاد ، وللحافظ ابن حجر العسقلانى كتاب فى علل الحديث سماه «الزهر المطلول فى الخبر المعلول» هذا ويوجد الكلام على علل الحديث مفرقا فى كتب الحديث الأخرى كنصب الراية لتخريج أحاديث الهداية للحافظ الزيلعى ، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى ، ونيل الأوطار للشوكانى ، وكتاب المحلى لابن حزم ، وكتاب تهذيب سنن أبى داود لابن القيم وغير ذلك [١] .

٩ ـ معرفة الموضوعات وكشف حال الوضاعين

نشأة الوضع فى الحديث وبدء ظهوره :

كانت السنة النبوية فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مصونة من تقول الكذابين ، محفوظة من دجل المنافقين ، وذلك أنه فوق وجوده صلى الله عليه وسلم بين ظهرانى المسلمين ، يقضى على الخرافات

(١) الرسالة المستطرفة ص ١١٠ والتدريب ص ٨٨ وما بعدها وتوجيه النظر ص ٢٦٤ وما بعدها ومقدمة ابن الصلاح فى بحث المعلل ص ٤٢ وعلوم الحديث للحاكم ص ٧١ و ١١٢ وما بعدها ومفتاح السنة ص ١٥٩ والباعث الحثيث ص ٥٨ وما بعدها .

والأكاذيب ، فان الوحى ما زال ينزل عليه ، وكثيرا ما كان يفضح سر المنافقين ، لذلك لم يجرؤ أحد أن يتقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فلما كان زمن الشيخين احتاطا كثيرا للأحاديث ، وأرهبا المنافقين والأعراب من التزيد فيها كما سبق لك بيانه ، ولما أن ولى عثمان رضى الله عنه ، ووقعت الفتنة فى زمنه ، وجد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى أوقد نيران الفتنة ، وألب الناس على خليفة المسلمين حتى قتلوه ظلما ، ثم لما ولى على كرم الله وجهه الخلافة ، وكان ما كان بينه وبين معاوية فى صفين ، افترق الناس الى شيعة وخوارج وجمهور كما رأيت وهنا ظهر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد أمره من الشيعة والخوارج ودعاة بنى أمية ، لذلك يعتبر العلماء مبدأ ظهور الوضع فى الحديث من هذا الوقت (سنة ٤١ هـ) وهذا التحديد انما هو لظهور الوضع فى الحديث والا فقد وجد الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك حتى فى زمنه صلى الله عليه وسلم ومن أجل ذلك يقول صلى الله عليه وسلم (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) فما قال النبى عليه الصلاة والسلام ذلك الا لحادثة وقعت فى عصره كذب عليه فيها ويستأنس لذلك بما أخرجه ابن عدى فى كامله عن بريدة قال : « كان حى من بنى ليث على ميل من المدينة وكان رجل قد خطب منهم فى الجاهلية فلم يزوجوه فأتاهم وعليه حلة فقال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسانى هذه وأمرنى أن أحكم فى أموالكم ودمائكم ، ثم انطلق فنزل على تلك المرأة التى كان خطبها فأرسل القوم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذب عدو الله ثم أرسل رجلا فقال ان وجدته حيا فاضرب عنقه وان وجدته ميتا فاحرقه بالنار فجاء فوجده قد لدغته أفعى

فمات فأحرقه بالنار فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعـده من النار) وقد ذكر السيوطى فى تحذير (١) الخواص طائفة من الروايات بهذا المعنى ولكن كما قلنا أن هذا كان قليلا نادرا فى عهد النبوة .

ثم أن الوضع فى الحديث أخـذ يشيع وينتشر فى كل عصر وقد حدثناك عن عوامل ذلك فى القرون الثلاثة وعن جهود العلماء فى مناهضة الوضاعين . والآن نذكر لك الوسائل التى اتخذوها فى جهاد هؤلاء الكذابين والطرق التى سلكوها فى القضاء على أباطيلهم فأنهم لم يكتفوا بطريق دون طريق بل حاربوا أعداء الحديث بكل سلاح وأخذوا عليهم المسالك وسدوا فى وجوههم جميع الطرق .

سلك علماء الاسلام وأعلام السنة طريقين. (احداهما) : نظرية فوضعوا القواعد الدالة على وضع الحديث وأقاموا الامارات الصادقة على ذلك بما لايدع مجالا للشك ، و (الأخرى) : عملية وذلك ببيانهم لأشخاص الوضاعين ، وتعريف الناس بهم وبيان الموضوعات التى وضـعوها والأكاذيب التى اختلقوها ، وصنفوا فى ذلك الكتب المعـروفة بكتب الموضوعات وأصبحت السنة النبوية أمامنا بحـذافيرها فى الصـحاح والجوامع والسنن والمسانيد وغيرها معروفة وصارت الأحاديث المكذوبة غير خافية على أحد من علماء الحديث وبذلك سهلت مهمة الوقوف على درجة الأحاديث أهى صحيحة أم حسنة أم ضعيفة أم موضوعة مكذوبة فجزى الله علماء السنة أفضل ما يجزى علماء أمة .

---

(١) ص ١١ وما بعدها .

الطريقة الأولى فى الدلالة على وضع الحديث :

وضع علماء الاسلام وجهابذة هذه الفنون قواعد لا تكاد تخطىء فى الدلالة على وضع الحديث ، وذلك لأن ملكة النقد كانت راسخة فيهم حتى أصبحوا نقادا بالأرواح والأبدان ، ونحن نذكر لك بعض هـذه القواعد لتلمس بنفسك أنهم ما فرطوا فى مهمتهم الشريفة فنقول :—

١ — يعرف الوضع بقرينة فى الراوى تنادى عليه بالكذب فيما يقول ، ومثال ذلك ما أسنده الحاكم عن سيف بن عمر التميمى أنه قال : كنت عند سعد بن ظريف فجاء ابنه من الكتاب يبكى فقال مالك ؟ قال : ضربنى المعلم قال لأخزينهم اليوم ، حدثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعا « معلمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة لليتيم وأغلظهم على المسكين » ومثال ذلك أيضا ما روى أنه قيل لمأمون بن أحمد الهروى ألا ترى الى الشافعى ومن تبعه بخراسان فروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « يكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن ادريس أضر على أمتى من ابليس ، ويكون فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أمتى » الى غير ذلك .

٢ — يعرف الوضع بقرينة فى المروى كأن يكون الحديث ركيك المعنى فقط أو ركيك اللفظ والمعنى معا ، أما ركة اللفظ فقط فلا تدل على الوضع لجواز أن الراوى تصرف فى لفظ الحـديث فأتى بلفظ ركيك من عنده ويكون معنى الحديث صحيحا وله أصل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فلا تدل ركاكة اللفظ فقط على أن الحديث موضوع ، اللهم الا اذا ادعى الراوى أن الحديث الذى رواه من لفظ النبى صلى الله عليه وسلم وصرح بذلك فانه يكون كاذبا لأن النبى صلى الله عليـه

وسلم كان أفصح العرب وعند ذاك تدل ركاكة اللفظ وحدها على وضع الحديث وكذب راويه ، ومثال ركاكة المعنى ما نسبوه كذبا الى النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الديك فأنه صديقى » ، و « الديك الأبيض الأفرق حبيبى وحبيب حبيبى جبريل » و « لو كان الأرز رجلا لكان حليما » .

٣ — من أدلة وضع الحديث أن يكون مخالفا للعقل ، بحيث لا يقبل التأويل أو مخالفا للمحس المشاهد مثال الأول : الأخبار عن الجمع بين الضدين ، أو نفى الصانع وذلك لأنه لا يجوز ورود الشرع بخلاف مقتضى العقل ، ومثال ذلك حديث « خلق الله الفرس فأجراها فعرقت فخلق نفسه منها » فهذا لا يقوله عاقل ، ومثال الثانى حديث « الباذنجان شفاء من كل داء » فهذا باطل لأن المشاهد المحس هو أن الباذنجان يزيد الأمراض شدة .

٤ — من أدلة الوضع أن يكون الحديث مخالفا لدلالة القرآن القطعية أو السنة المتواترة أو الاجماع القطعى مع عدم امكان الجمع ، ومن هنا زيف العلماء الحديث الذى يحدد المدة الباقية للدنيا بسبعة آلاف سنة ، لأنه يخالف قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو » وأبطلوا حديث « ولد الزنا لا يدخل الجنة » لمعارضته لقوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، كما زيفوا أحاديث مناقضة للسنة المتواترة ، أو الاجماع القطعى ، كالأحاديث الدالة على أن كل من يسمى بأحمد أو محمد لا يدخل النار ، فانه من المعلوم من الدين بالضرورة أن النار لا يجار منها بالألقاب والأسماء وانما يتخلص منها بالعمل الصالح .

٥ — من علامات وضع الحديث اشتماله على مجازفات يرتفع عنها

كلام النبوة كحديث « من قال لا اله الا الله خلق الله من تلك الكلمة طائرا له سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف ألف لغة يستغفرون الله له » ومن ذلك حديث «من اغتسل من الجنابة حلالا أعطاه الله قصرا من درة بيضاء وكتب له بكل قطرة ثواب ألف شهيد » .

٦ — من علامات كذب الحديث أن يكون أمرا تتوفر الدواعي على نقله أو يصرح الحديث نفسه بأن الواقعة حصلت فى مشهد عظيم من الصحابة ثم لا يشتهر ولا يرويه الا عدد قليل ومن ذلك ما يدعيه بعض الشيعة أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى عليا الخلافة فى غد يرخم حين رجوعه من حجة الوداع بحضرة جم غفير أكثر من مائة ألف .

٧ — مجىء الحديث على خلاف مقتضى الحكمة والمنطق السليم المعقول كحديث « جور الترك ولا عدل العرب » فان الجور مذموم على الاطلاق كما أن العدل محمود على كل حال .

٨ — من علامات وضع الحديث أن يكون الراوى له رافضيا والحديث فى فضائل آل البيت لأن الروافض متعصبون لآل البيت طاعنون على سائر الصحابة ويعدون الشيخين غاصبين للخلافة من على ابن أبى طالب وما لأهما على ذلك سائر الصحابة .

٩ — من أمارة بطلان الحديث مناقضته للتاريخ الصحيح ، كحديث وضع الجزية عن أهل خيبر الذى قرنه واضعه بشهادة سعد بن معاذ ، اذ أن سعدا توفى فى غزوة الخندق وكانت قبل خيبر ، على أن الجزية لم تشرع فى زمن خيبر ولم تكن معروفة للصحابة الا بعد عام تبوك .

١٠ — ومن أدلتهم على وضع الحديث ادعاء أحد رواته أنه أدرك من العمر فوق ما جرت به سنة الله فى خلقه ، حتى لقى من تقدم بزمن

بعيد ، وتلقى عنه ، وذلك كالأحاديث التى رواها رتن الهندى مدعيا أنه لقى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يظهر الا بعد ستمائة سنة من الهجرة ، فان بعض الجهال يزعم أنه اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عمرك الله ، فهذا ليس له أصل عند أئمة الحديث اذ أنه لم يعش أحد من الصحابة ممن لقى النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من خمس وتسعين سنة غير أبى الطفيل حتى أن الناس بكوا عليه وقالوا : هذا آخر من لقى النبى صلى الله عليه وسلم .

١١ — من أدلة الوضع فى الحديث ادعاء بعض الصوفية أنه تلقى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بطريق الكشف ، دون أن يكون له سند متصل صحيح ، أو بطريق الرؤيا كذلك اذ أنه من المتفق عليه بين علماء الدين أن الرؤيا والكشف لا يتقرر بهما حقيقة شرعية ، لما يكتنفهما من التخليط وعدم الضبط ، فاضافة شىء الى الدين من غير أن يقوم عليه دليل من الكتاب أو السنة المتلقاة عن النبى صلى الله عليه وسلم بالسند الصحيح يعتبر ابتداعا فى الدين ، وزعما باطلا مردودا على من يزعمه .

هذا وقد تكلم المحدثون على سبيل الاجمال والتفصيل فى معرفة الموضوعات والوضاعين فتراهم يقولون : من الأحاديث الموضوعة أحاديث الاكتحال والأدهان والتطيب يوم عاشوراء ، والأحاديث التى وضعها بعض الزنادقة وجهلة المتصوفة فى فضائل القرآن سورة سورة الا ما استثنى [1] ، والأحاديث التى تروى فى التختم بالعقيق لا يثبت منها

(١) قال الحافظ السيوطى فى تدريبه : اعلم أن السور التى صحت الأحاديث فى فضائلها : الفاتحة ، والزهراوان ، والأنعام ، والسبع الطوال مجملا ، والكهف ، ويس ، والدخان ، والملك ، والزلزلة ، والنصر ، والكافرون ، والاخلاص ، والمعوذتان ، وما عداها لم يصح فيها شىء .

شيء ، والحرز المنسوب لأبى دجانة الأنصارى ، ومسند أنس بن مالك الذى يروى عن جعفر بن هارون الواسطى عن سمعان بن أنس . وهو مقدار ثلثمائة حديث يرويها سمعان المهدى عن أنس وأوله « ان أمتى فى سائر الأمم كالقمر فى النجوم » ، وأحاديث الأشج وأحاديث خراش وأحاديث نسطور الرومى ، وأحاديث رتن الهندى ، والأحاديث المنسوبة الى محمد بن سرور البلخى ، وأحاديث شهر بن حوشب كلها موضوعة .

كذلك تتبعوا الأخبار الواردة فى كتب التفسير والملاحم والمغازى ووزنوها بميزان النقد الصحيح فالامام أحمد بن حنبل يقول : « ثلاثة كتب ليس لها أصل المغازى والملاحم والتفسير » قال الخطيب فى جامعه : وهذا محمول على كتب مخصوصة فى هذه المعانى الثلاثة غير معتمد عليها لعدم عدالة ناقليها وزيادة القصاص فيها ، فأما كتب الملاحم فجميعها بهذه الصفة وليس يصح فى ذكر الملاحم المرتقبة والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة ، وأما كتب التفاسير فمن أشهرها كتابا الكلبى ، ومقاتل بن سليمان ، وقد قال الامام أحمد فى تفسير الكلبى من أوله الى آخره كذب ، قيل له فيحل النظر فيه ؟ قال لا ، وقال أيضا : كتاب مقاتل قريب منه ، وأما المغازى فمن أشهرها كتب محمد بن اسحاق وكان يأخذ عن أهل الكتاب . وقال الشافعى كتب الواقدى كذب . وليس فى المغازى أصح من مغازى موسى بن عقبة [1] اهـ .

الطريقة الثانية فى بيان العلماء للموضوعات ومحاربة الوضاعين :

هذه هى الطريق العملية التى استنفدت كثيرا من جهود العلماء فى كل عصر ، فانه لم يخل عصر من وجود أعداء للاسلام كادوا له عن طريق

(١) تدريب الراوى ص ٩٨ وما بعدها وكشف الخفاء ومزيل الألباس وخاتمته .

وضع الأحاديث ، ومن أبرز الأعمال التى قام بها هؤلاء الجهابذة هى تصنيف الكتب فى بيان الأحاديث الموضوعة واليك طائفة من هـذه الكتب :—

١ — كتاب تذكرة الموضوعات لأبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة (٥٠٧) .

٢ — كتاب الأباطيل لأبى عبد الله الحسن بن ابراهيم الهمـدانى الجوزقى . نسبة الى جوزقان ناحية من همدان الحافظ المتوفى سنة(٥٤٣) قال الذهبى : وهو محتو على أحاديث موضوعة وواهية مع أوهام فيه وقد بين بطلان أحاديث واهية بمعارضة أحاديث صحاح لها . اهـ .

٣ — كتاب الموضوعات الكبرى لأبى الفرج عبد الرحمن بن على ابن الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧) فى نحو مجلدين الا أنه تساهل فيه كثيرا بحيث أدخل فيه الضـعيف والحسن والصحيح قال الذهبى : « ربما ذكر ابن الجوزى فى الموضوعات أحاديث حسانا قوية . قال ونقلت من خط السيد أحمد بن أبى المجد قال : صنف ابن الجوزى كتاب الموضوعات فأصاب فى ذكره أحاديث شنيعة مخالفة للنقل والعقل وما لم يصب فيه اطلاقه الوضع على أحاديث بكلام بعض الناس فى أحد رواتها كقوله فلان ضعيف أو ليس بالقوى أو لين ، وليس ذلك الحديث مما يشهد القلب ببطلانه ، ولا فيه مخالفة ، ولا معارضة لكتاب ولا سنة ولا اجماع ، ولا حجة بأنه موضوع سوى كلام ذلك الرجل فى راويه وهذا عدوان ومجازفة » اهـ . وقال شيخ الاسلام ابن حجر العسقلانى : « غالب ما فى كتاب ابن الجوزى موضوع والذى ينتقد عليه بالنسبة الى ما لا ينتقد قليل جـدا قال وفيه من الضرر أن يظن ما ليس بموضوع موضوعا عكس الضرر بمستدرك الحاكم فانه يظن

ما ليس بصحيح صحيحا قال وينبغى الاعتناء بانتقاد الكتابين فان تساهلهما أعدم الانتفاع بهما الا لعالم بالفن لأنه ما من حديث الا ويمكن أن يكون قد وقع فيه تساهل » اهـ .

وقد ألف الحافظ ابن حجر « القول المسدد فى الذب عن مسند الامام أحمد» أورد فيه أربعة وعشرين حديثا فى المسند ذكرها ابن الجوزى فى الموضوعات ومن بينها حديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان طالت بك مدة أوشك أن ترى قوما يغدون فى سخط الله ويروحون فى لعنته فى أيديهم مثل أذناب البقر » . وذيل السيوطى على هذا الكتاب بذيل فى الأحاديث التى بقيت فى كتاب الموضوعات من المسند وهى أربعة عشر مع الكلام عليها .

٤ — كتاب اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للحافظ السيوطى اختصره من كتاب ابن الجوزى فعلق الأسانيد وذكر منها ما تمس اليه الحاجة وأتى بالمتون وكلام ابن الجوزى عليها وتعقب كثيرا منها وتتبع كلام الحفاظ فى تلك الأحاديث لا سيما شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر واللآلىء المصنوعة مطبوعة بمصر الآن ، هذا وقد ألف السيوطى كتابا سماه « القول الحسن فى الذب عن السنن » أورد فيه مائة وبضعة وعشرين حديثا ذكرها ابن الجوزى فى الموضوعات مع أنها ليست بموضوعة ففى سنن أبى داود منها أربعة أحاديث وفى سنن الترمذى ٢٣ حديثا ، وفى سنن النسائى حديث واحد ، وفى سنن ابن ماجه ١٦ حديثا ؛ وفى صحيح البخارى ، رواية حماد بن شاكر ، حديث واحد ؛ وهو « كيف بك يا ابن عمر اذا عمرت بين قوم يخبأون رزق سنتهم » ومنها ما هو فى كتاب خلق الأفعال للبخارى فى غير الصحيح ، وفى مسند الدارمى ، والمستدرك للحاكم ، وصحيح ابن حبان ، وتصانيف البيهقى ؛ وغيرها من الكتب أحاديث كثيرة حكم عليها ابن الجوزى بالوضع وليست بموضوعة .

٥ — كتاب «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة». لأبى الحسن على بن محمد الكنانى المتوفى سنة (٩٦٣) وهو أجمع كتاب فى الموضوعات .

٦ — تذكرة الموضوعات لرئيس محدثى الهند جمال الدين الفتنى الملقب بملك المحدثين المتوفى قتيلا سنة ٩٨٦ هـ .

٧ — كتاب الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة للقاضى أبى عبد الله محمد بن على بن محمد الشوكانى اليمنى المتوفى سنة (١٢٥٠هـ) لكنه أدرج فيه كثيرا من الأحاديث التى لم تبلغ درجة الوضع بل ومنها صحاح وحسان قلد فى ذلك ابن الجوزى واضرابه من المتساهلين .

٨ — كتاب « تحذير المسلمين ، من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين » فى جزء لطيف لمحمد البشير ظافر أبى عبد الله المالكى الأزهرى المتوفى سنة (١٣٢٥ هـ)(١) .

علم أصول الرواية أو علم مصطلح الحديث

قدمنا لك بضعة أنواع من علم أصول الرواية واليك الآن نبذة يسيرة عن تاريخه والتعريف به :

هو علم يبحث فيه عن حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق بها (٢)، وهذا العلم

(١) أنظر تدريب الراوى ص ١٠٠ وما بعدها والرسالة المستطرفة ص ١١١ وما بعدها .

(٢) (حقيقة الرواية) : نقل الخبر واسناده الى من عزى اليه بتحديث أو أخبار وغير ذلك ، و (شروطها) : تحمل الراوى لما يرويه بنوع من انواع التحمل من سماع أو عرض أو أجازة ونحوها، و (أنواع الرواية) : الاتصال والانقطاع و نحوهما « وأحكامها » القبول أو الرد ، و (حال الرواة العدالة والجرح وشروطهم فى التحمل والأداء ، و (أصناف المرويات) : المصنفات من المسانيد والمعاجم والأجزاء وغيرها من أحاديث وآثار ونحوهما و (مايتعلق بهذه المصنفات) : هو معرفة اصطلاح أهلها ، أنظر مقدمة تدريب الراوى للسيوطى .

هو المسمى بعلم مصطلح الحديث وبه يعرف المقبول من المردود من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نشأته : ولم يكن هذا العلم بحالته الراهنة معروفا لدى أهل القرون الثلاثة الأولى مسمى بهذا الاسم مجموعة أنواعه بعضها الى بعض فى مصنف واحد ، وان كان قد سبق منهم الكلام فى أنواع مفردة ، وتثبتوا فى قبول الأخبار ، كما كان من الشيخين أبى بكر وعمر ، وتكلموا فى الجرح والتعديل ، ونقبوا عن علل الأحاديث ووضعوا فى بعض الأنواع كتبا كما حصل ذلك من على بن المدينى شيخ البخارى الذى كان علامة زمانه فى علوم الحديث ، فلم يترك بابا من أبوابه الا وضع فيه كتابا ، كذلك ألف غيره أنواعا مفردة كالبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم ، وكان تأليفهم كما قلنا لا يعدو الكلام على أنواع مفردة ، أما جمع هذه الأنواع والكلام عليها فى مصنف واحد فلم يحدث ذلك الا فى منتصف القرن الرابع الهجرى فيما يغلب على الظن .

قال الحافظ ابن حجر فى أول شرحه للنخبة ما نصه : « ان أول من صنف فى ذلك القاضى أبو محمد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠ فى كتابه « المحـدث الفاصل بين الراوى والواعى » لكنه لم يستوعب والحاكم أبو عبد الله النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٥ لكنه لم يهذب ولم يرتب ، ثم تلاه أبو نعيم الأصفهانى فعمل على كتاب الحاكم مستخرجا وأبقى أشياء للمتعقب ، ثم جاء بعدهم الخطيب أبو بكر البغدادى المتوفى سنة (٤٦٣) فصنف فى قوانين الرواية كتابا سماه « الكفاية » وفى آدابها كتابا سماه « الجامع لآداب الشيخ والســامع » وقل فن من فنــون الحديث الا وقد صنف فيه الخطيب كتابا مفردا فكان كما قال الحافظ ابن نقطة : « كل من أنصف علم أن المحدثين بعد الخطيب عيال على

كتبه » ثم جاء بعدهم بعض من تأخر عن الخطيب فأخذ من هذا العلم بنصيب ، فجمع القاضى عياض المتوفى سنة (٥٤٤) كتابا لطيفا سماه « الالماع »[١] وأبو حفص الميانجى جزءا سماه « ما لا يسع المحدث جهله » وأمثال ذلك من التصانيف التى اشتهرت ، قال : الى أن جاء الحافظ تقى الدين عمرو بن عثمان بن الصلاح عبد الرحمن الشهرزورى نزيل دمشق فجمع فى ذلك كتابه المشهور بمقدمة ابن الصلاح ، فهذب فنونه وأملاه شيئا بعد شيء على تلاميذه بالمدرسة الأشرفية عندما ولى تدريس الحديث بها فلهذا لم يقع ترتيبه على وضع متناسب ، اذ كان الأولى به أن يذكر ما يتعلق بالمتن وحده ، وما يتعلق بالسند وحده ، وما يشتركان معا فيه ، وما يختص بكيفية التحمل والأداء وحده ، وما يختص بصفات الرواة وحده ، واعتنى بتصانيف الخطيب المفرقة فجمع شتات مقاصدها وضم اليها من غيرها نخب فوائدها فاجتمع فى كتابه ما تفرق فى غيره فلهذا عكف الناس عليه وساروا بسيره فلا يحصى كم ناظم له ومختصر ومستدرك عليه ومقتصر ومعارض له ومنتصر »اهـ. بتصرف يسير .

هذه نبذة يسيرة توضح لنا كيف نشأ التأليف فى علم أصول الرواية على الوضع الحالى من ضم أنواع مختلفة بعضها الى بعض فى مصنف واحد ولننتقل بك الى الكلام على أشهر تلك الكتب وأهمها : —

أهم كتب أصول الرواية :

أولا — كتاب « المحدث الفاصل بين الراوى والواعى » لأبى الحسن ابن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة (٣٦٠) هجرية . وهو أول مصنف ظهر فى فن مصطلح الحديث وهو وان لم يستوعب أنواع الفن يعتبر أجمع

(١) منه نسخة بدار الكتب الظاهرية بدمشق .

ما صنف فى عصره ، والكتاب لم يطبع الى الآن ويوجد مخطوطا بدار الكتب المصرية .

ثانيا — معرفة علوم الحديث للحاكم أبى عبد الله النيسابورى المتوفى سنة (٤٠٥) هـ وهو كتاب قيم اشتمل على اثنين وخمسين نوعا من علوم الحديث وهو مدعم بالأسانيد قد طبع لأول مرة بمطبعة دار الكتب المصرية بتصحيح وتعليق العالم الهندى الجليل الأستاذ الدكتور السيد معظم حسين كما قدمه بنبذة عن تاريخ تدوين الحديث ونشأة علوم المصطلح ولم يغفل الكلام على ترجمة المؤلف فجزاه الله خيرا .

ثالثا — كتاب « الجامع لآداب الراوى والسامع » للحافظ أحمد ابن على المعروف بالخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة (٤٦٣) .

رابعا — « الكفاية فى معرفة أصول الرواية » للخطيب البغدادى أيضا .

خامسا — كتاب علوم الحديث المعروف بمقدمة ابن الصلاح للحافظ البارع أبى عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى المشهور بابن الصلاح المتوفى سنة (٦٤٢ هـ) لخص فيه كتب الخطيب المتفرقة وزاد عليها ، فجمع بذلك على طالبى هذا الفن ما تفرق من أنواعه فى حسن عبارة وكمال وتهذيب وقد انتقد عليه فى وضعه كما سبق لك وهو انتقاد شكلى لا يضيره وكتابه مطبوع بالهند الآن ويشتمل على خمسة وستين نوعا من علوم الحديث .

وكتاب ابن الصلاح هذا يعتبر خاتمة المصنفات وأجودها فى هذا الفن لذلك نجد العلماء فيما بعد يعولون عليه فى أبحاثهم ، ومن تصدى منهم للتأليف فى علوم الحديث لا يعدو أن يكون ناظما له أو مختصرا

أو شارحا فمن الناظمين له زين الدين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ هـ فى ألفية سماها « نظم الدرر فى علم الأثر » وقد أتمها سنة ٧٦٨ هـ وعمل عليها شرحا سماه فتح المغيث بشرح الفية الحـديث وقد طبع بمصر عام (١٣٥٥ هـ) وقد تناول الناس ألفية العراقى بالشرح منهم السخاوى والسيوطى والشيخ زكريا الأنصارى المتوفى سنة (٩٢٨هـ) .

وقد نظم مقدمة ابن الصـلاح أيضا الحافظ السـيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ فى ألفية زاد فيها على ألفية العراقى نكتا عزيزة وفوائد جليلة وهى مطبوعة الآن بمصر قال فى أولها .

لله حمـدى واليـه أسـتند   وما ينـوب فعليـه أعتمـد
ثم عـلى نبيـه محمـد   خير صـلاة وسـلام سرمد
وهـذه الفيـة تحكى الدرر   منظـومة ضـمنتها علم الأثر
فائقـة الفيـة العـراقى   فى الجمع والايجـاز واتساق
والله يجـزى سابغ الاحسان   لى وله ولـذوى الايمـان

وممن شرح مقدمة ابن الصلاح الزين العراقى المتوفى سـنة ٨٠٦ شرحها شرحا مختصرا سماه « التقييد والايضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح » ويعرف أيضا بنكت العراقى على مقدمة ابن الصلاح وللحافظ ابن حجر عليها نكت أيضا تسمى « الافصاح بتكميل النكت على ابن الصـلاح » وكذلك شرحها بدر الدين الزركشى المتـوفى سنة (٧١٤هـ) .

وقد اختصر المقدمة كثير من العلماء منهم الامام شرف الدين النووى المتوفى سنة (٦٧٦) وسمى كتابه « الارشاد فى علم الاسناد » ثم اختصر الارشاد فى كتاب آخر سماه « التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير

النذير » وهو المشهور الآن وعليه عدة شروح للزين العراقى والسخاوى وللحافظ السيوطى شرح سماه « تدريب الراوى شرح تقريب النواوى» وهو من أعظـم الكتب فى أصـول الرواية ومن أنفس كتب الحافظ السيوطى وقد طبع بمصر سنة (١٣٠٧هـ) ونفذت نسخه .

هذا ومن المتون الجامعة الممتعة «نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر» للحافظ أحمد بن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢) هـ وشرحها له أيضا ويسمى . « نزهة النظر فى توضيح نخبة الفكر » وهو شرح وجيز عظيم النفع غزير العلم ، وقد شرحه كثير من العلماء منهم على القارىء الحنفى المتوفى سنة (١٠١٤هـ) وهو على شرح النخبة وسماه «مصطلحات أهل الأثر » وقد طبع بمطبعة أخوت باستنبول .

وللسيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة (٨١٦هـ) كتاب « المختصر فى مصطلح أهل الأثر » وقد شرحه محمد عبد الحى اللكنوى الهندى المتوفى سنة (١٣٠٤هـ) فى كتاب (ظفر الأمانى فى شرح مختصر الجرجانى) وقد طبعت رسالة الجرجانى وشرحها ظفر الأمانى بالهند ، ولعمر بن محمد بن فتوح البيقونى الدمشقى المتوفى سنة (١٠٨٠هـ) منظومة تعرف بالبيقونية وعليها شروح كثيرة منها شرح الزرقانى وطبعت بمصر مرارا وطبع أحد شروحها المسمى «البهجة الوضية شرح متن البيقونية» للشيخ محمود نشابه بدار الخلافة سنة (١٣٢٨) ، الى غير ذلك من المنظومات والمختصرات وهى كثيرة جدا بعضها مطبوع والآخر مخطوط يطول ذكرها ويصعب عدها فنجتزىء بما ذكرناه[١] .

هذه أيها القارىء قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان والسنة النبوية

---

(١) انظر مقدمة الدكتور معظم حسين لمعرفة علوم الحديث للحاكم .

الشريفة بين أعداء يكيدون لها وأنصار يناضلون عنها وهذه أيها القارىء جهود جبارة قام بها هؤلاء الأئمة الأعلام فى كل مكان وزمان مخلفين وراءهم تلك الثروة الطائلة من الحديث وعلومه فى متناول أيدينا اليوم ناطقة بحسن صنيع الأولين شاهدة على المتأخرين بالتفريط والاهمال حيث أغفلوا تلك الكنوز الثمينة وتركوها تنعى أصحابها حتى أصبحت ما بين مستشرق يعبث بها وجاهل لا يعرف قيمتها ولا غرابة فان هذا هو الطابع العـام لنا فى هـذه الأيام ولكنا مع ذلك لا نقطع الرجاء فى أن يهيىء الله تعالى لدينه من ينصره على أعدائه وأملنا وطيـد فى نخبة من علماء الأزهر اليوم كرست حياتهـا على احيـاء السـنة والدفاع عنها بالكتابة تارة وبالدرس أخرى ، وأخيرا نوجه رجاءنا لأولى الشأن فى الأزهر أن يعملوا على احياء المخطوطات الحديثية بطبعها وتحريرها وتسهيلها على طلاب العلم والتوسع فى دراسة الحديث النبوى دراسه تعتمد على تحليل الأسانيد والمتون ونقدهما ويعنى فيها برد الشبهات وحل المشكلات فانه لا يخفى عليهم مكان السنة من التشريع الاسلامى .

وبعد فآنى لمتفائل لهذه العجالة بالنفع العميم أن تم تأليفها صبيحة ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر فى السابع والعشرين من رمضان سنة ١٣٦٥ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم والحمد لله الذى بنعمه تتم الصالحات .

خاتمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى هـــدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على نبينا محمد رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين .

وبعد فقد اقتضانا الداعى الى نشر هذا الكتاب فى هذه الأيام — حسبما نوهنا عنه فى مطلعه — أن حذفنا تراجم لبعض الرواة ، ووضعنا بدلا منها بحوثا هامة ، يتطلبها الرد على بعض الملاحدة الذين يكيدون السـنة النبوية ، كما ألجأنا غلاء الورق الى الاجمـال فى الكلام عن الدورين السادس والسابع ، والكمال لله جل جلاله .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو الهادى الى أقوم طريق .

محمد أبو زهو

القاهرة فى ٢ من جمادى الثانية ١٣٧٨ هـ



تقاريظ الكتاب

— ١ —

تفضل مولانا الأستاذ الامام عالم العلماء ، ومفتى الاسلام ، فضيلة الشيخ « حسنين محمد مخلوف » مفتى الديار المصرية سابقا ، ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وعضو هيئة كبار العلماء ، بكلمة رائعةقيمة ، بعد اطلاعه على هذا الكتاب ، فقال حفظه الله وابقاه ذخرا للاسلام والمسلمين :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبع هداه ، أما بعد ، فقد طالعت كثيرا من مباحث كتاب « الحديث والمحدثون » للأستاذ الجليل العلامة الشيخ محمد محمد أبى زهو الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر ، فحمدت الله أجل الحمد ، اذ وفقه لاخراجه فى وقت أحوج ما نكون فيه الى عالم ثبت قدير ، وباحث ثقة بصير ، ينفى عن السنن النبوية تحريف الغالين . وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ويدفع عن رواياتها ورواتها مطاعن الملحدين وافتراءات أعداء الدين .

فجاء كتابه وافيا بذلك ، فى سلاسة عبارة ، واستقصاء بحث ، وعمق فكرة ، وقوة حجة .

يجد فيه طلاب الحقائق العلمية البيان الشافى ، والبحث الوافى ، عن منزلة السنة من الكتاب ، وأنها بصريح القرآن الأصل الثانى فى تشريع

الأحكام ، وعن مبلغ عناية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعين ، ومن بعدهم من أئمة الاسلام ، باستقصائها وضبطها وتمحيصها ونفى الزيف عنها ، وتحقيق أسانيدها ، والتثبت من حال رواتها فى الحفظ والضبط والعدالة ، ثم تدوين علومها رواية ودراية ، فهناك الصحاح والمسانيد التى بلغ الضبط والتثبت فيها غايته ، وهناك علم الحديث دراية الذى يعرف منه شروط الرواية وشروط الصحة وكيفيات التحمل والأداء وأنواع الأحاديث المقبولة والمردودة ، وهناك علم الجرح والتعديل الذى يعرف منه حال كل راو من رواة الحديث قبولا وردا .

وبجانب ذلك ما ألف من الكتب فى الموضوعات المنتحلة لنفى نسبها من السنن الثابتة ، وما سلكه أئمة الفقه حيال الأحاديث التى اعتمدوا عليها فى استنباط الأحكام ، واتخذوها مجال أنظارهم ومدار اجتهادهم .

وكانت نتيجة هذه الجهود التى لا نظير لها تمييز الصحيح من السنة والمقبول منها فى الاستدلال ، وبقاء السنة سليمة من كل شائبة .

وقد جرت سنة الله أن يكون لكل حق أعداء ، ولكل نور من يحاول اطفاءه ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويزداد الحق ثباتا ورسوخا ، والنور ضياء ووضوحا ، بتمسك أهله به ، وقوة دفاعهم عنه ، فكان للسنن فى العصور الأولى أعداء من الملحدين والزنادقة ، والداخلين فى الاسلام على دخل ومكيدة ، وممن تبعهم على جهالة وعمى بصيرة ، فطعنوا فى متونها ورواتها ، وفى كتبها بما شاءت لهم الأهواء ، ثم ارتدت سهامهم فى نحورهم ، ولم ينالوا منها منالا ، بجهاد أولئك الأبطال من الأئمة الأعلام ، الذين قعدوا لهم كل مرصد ، وأخذوا عليهم كل سبيل .

وقسم لعصرنا من أولئك نفر من الكاتبين ، تساقطوا كالفراش على تلك الشبه الواهية ، والطعون البالية ، التى افتراها الأقدمون من

الملاحدة ، فأثاروها فخورين بأنهم بناتها ، وحملة لوائها . وصالوا وجالوا بها بين الجهال بالسنن وعلومها ، عسى أن ينالوا بها حطاما ، أو يظفروا من العامة بسمة العلم والعلماء ، ومكن لهم فى هذه الفتنة الفهم الخاطىء لمعنى حرية الفكر واللسان والقلم .

انهم لم يأتوا بجديد ، وانما سطوا على القديم من الشبه والآراء ، وطلوه بطلاء حديث تغريرا للبسطاء ، واستمالة للدهماء ، فجمعوا بين جريمتين جريمة الخيانة وجريمة الخداع ، فوق ما اقترفوا من جريمة الطعن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى الأصل الثانى فى التشريع ، والوحى المنزل للهدى والارشاد ، قال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » وقال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . وقال تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » .

ولكن الرأى العام الاسلامى سليم العقل ، صحيح الفكر ، راسخ العقيدة ، لا يخدع بالأضاليل ، ولا ينقاد بالأباطيل ، ولا يلقى لها بالا ، عرف ذلك من عرفه ، وجهله من جهله .

ألا فليعلم ذلك هذا النفر ، وليعلموا أن الله تعالى اذ حفظ كتابه من المعتدين ، حفظ سنة رسوله التى أقامها من كتابه مقـام الشرح والبيان ، من كل اعتداء وعدوان ، فستبقى محفوظة بحفظ الله ، عالية الذرا ، ناصعة الجبين ، واضحة المحجة ، ظاهرة الحجة ، داعية الى الحق والهدى ، نابذة للضلالة والعمى ، رغم أنوف الغواة والمضللين .

وان كتاب الأستاذ أبى زهو — والحمد لله — صوت حق ، ولسان صدق ، وبلاغ للناس ، يفخر به العلماء ، ويعتز به المنصفون من الباحثين. ونسأل الله تعالى أن ينفع به ، وأن يثيب مؤلفه أجزل الثواب ، ويجزيه خيرا عن السنة والكتاب .

حسنين محمد مخلوف

١٥ رجب سنة ١٣٧٨ هـ .
٢٤ يناير سنة ١٩٥٩ م .

- ٢ -

وكتب زميلنا الأستاذ الجليل ، الشيخ « محمد عبد الوهاب بحيرى » ، مدرس التفسير والحديث ، بكلية الشريعة ، بالأزهر الشريف ، بعد أن اطلع على هذا الكتاب : كلمة جامعة ، نسطرها شاكرين مقدرين . قال حفظه الله ورعاه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين ، وخاتما للنبيين ، سيدنا محمد النبى الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه الى يوم الدين .

أما بعد فقد قرأت كلمة للكاتب الاسلامى المعروف ، أخينا وصديقنا فى الله عز وجل ، الأستاذ الشيخ محمد الغزالى ، يقول فيها : « هناك مستشرقون مصريون ، ولدوا فى بلادنا هذه ، ولكن عقولهم وقلوبهم تربت فى الغرب ، ونمت أعوادهم مائلة اليه ، فهم أبدا تبع لما جاء به .. أنهم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا ، بيد أنهم خطر على كياننا ، لأنهم كفار بالعروبة والاسلام ، أعوان — عن اقتناع أو مصلحة — للحرب الباردة التى يشنها الاستعمار علينا ، بعد الحرب التى مزق بها أمتنا الكبيرة خلال قرن مضى .

« وهم سفراء فوق العادة لانجلترا وفرنسا وأمريكا ، دول التصريح الثلاثى الذى خلق اسرائيل وحماها ، والفرق بينهم وبين السفراء الرسميين

أن هؤلاء لهم تقاليد تفرض عليهم الصمت ، وتصبغ حركاتهم بالأدب ، أما أولئك المستشرقون السفراء فوظيفتهم الأولى أن يثرثروا في الصحف وفى المجالس ، وأن يختلقوا كل يوم مشكلة موهومة ، ليسقطوا من بناء الاسلام لبنة ، وليذهبوا بجزء من مهابته فى النفوس ، وبذلك يحققون الغاية الكبرى من الزحف المشترك الذى تكاتفت فيه الصهيونية والصليبية فى العصر الحديث .

« ان هذا النفر من حملة الأقلام الملوثة أخطر على مستقبلنا من الأعداء السافرين ، فان النفاق الذى برعوا فيه يخدع الأغرار بالأخذ عنهم ، وقد يقولون كلمات من الحق تمهيدا لألف كلمة من الباطل تجىء عقيبها » اهـ [1] .

هذه الأوصاف تنطبق تمام الانطباق على صاحب كتاب ظهر حديثا ، يكيد للسنة باسم الدفاع عنها ، ويلبس فيه الحق بالباطل ، ويشوه الحقائق ، ويفتات على التاريخ الصحيح ، ويحرف الكلم عن مواضعه فى جرأة وعدم مبالاة ، كما فعل مع ابن حزم وابن قتيبة وفخر الدين الرازى وابن كثير وغيرهم ، ينقل ما يرد عليه هؤلاء على أنه رأى لهم ، والمؤلف فى هذا الكتاب يستبيح لنفسه ، ولكل باحث على شاكلته ، أن يأخذ من السنة ويترك ، تبعا لهواه ، تحت ستار العلم والمعرفة ، والدراسة المحررة ، التى تقوم على قواعد التطبيق العلمى . وسنده فيما يزعم « أولا » أن علماء الأمة قاطبة لم يولوا الحديث النبوى ما يستحق من العناية والدرس اذ تركوا أمره لمن يسمون (رجال الحديث) يدرسونه على طريقتهم ، التى قامت على معرفة رواة الحديث ،

---

(١) عن مقدمة كتابه القيم (ظلام من الغرب) .

والبحث فى تاريخهم ، ولا عليهم بعد ذلك أن كان ما يصدر عن هؤلاء الرواة ، صحيحا فى نفسه أو غير صحيح ، معقولا أو غير معقول « ثانيا » وأنه لا يمكن الوثوق بالأحاديث المدونة ، حتى فى الصحيحين والسنن وما فى رتبتها ، لأنها نقلت الى مصنفيها ، مغيرة الألفاظ ، مبدلة المعانى ، نتيجة للرواية بالمعنى ، ذلك أن الأحاديث لم تدون فى عهد النبـوة ، كالقرآن ، بل ثبت النهى عن كتابتها ، واستجاب الصحابة لهذا النهى ، بل ثبت عنهم — فيما يزعم — أنهم كانوا يرغبون عن رواية الحديث ، وينهون الناس عنها ، ولما رأى بعض الصحابة أن يروو للناس ، استباحوا لأنفسهم الرواية على المعنى ، فغيروا وبدلوا ، ثم سار على سبيلهم كل من جاء من الرواة بعدهم ، وهكذا ظلت الألفاظ تختلف والمعانى تتغير بتغير الرواة ، الى عهد التدوين فى القرنين الثانى والثالث ، وكان من ذلك ضرر كبير فى الدين واللغة والأدب « ثالثا » وأنه قد اندس بين الرواة من تظاهر بالاسلام والصلاح ، من أرباب الملل الأخرى ، فأدخلوا فى الحديث كثيرا من الاسرائيليات والمسيحيات ، التى راجت على رجال الحديث ، فقبلوها فيما يزعم .

وقد أخذ يشكك فى جميع أنواع الحديث حتى فى الحديث المتواتر ، فيقول مروجا لعقيدة صلب المسيح ما نصه : « وقد أنكر المسلمون أعظم الأمور المتواترة ، فالنصارى واليهود هما أمتان عظيمتان يخبرون بصلب المسيح ، والانجيل يصرح بذلك ، فاذا أنكروا هذا الخبر وقد وصل الى أعلا درجات التواتر ، فأى خبر بعده يمكن الاعتماد عليه ، والركون اليه » اهـ وأنى أقول له أى خبر ينكره المسلمون ؟ ان كان هو زعم النصارى واليهود صلب المسيح فالمسلمون ينسبون اليهم ذلك الزعم والقرآن الكريم يحكى عن اليهود قولهم : « آنا قتلنا المسيح عيسى بن

مريم » ، وأن كان هو وقوع صلب المسيح حقيقة فالقرآن يبطله فى قوله « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » فدعوى حصوله باطل من القول فضلا عن دعوى تواتره ، ودعوى أنه فى كتب الله المنزلة .

ويقول هذا المؤلف أيضا : « ولو أن الحديث قد دون فى عصر النبى كما دون القرآن ، واتخذ له من وسائل التحرى والدقة مثل ما اتخذ للقرآن ، لجاء كله متواترا كذلك ، ولما اختلف المسلمون فيه هذا الاختلاف الشديد ، الذى لم يستطع أحد — على مدى العصور تلافيه » اهـ وهو يعترف أن عدم تدوين الصحابة للحديث كان بأمره صلى الله عليه وسلم ، فهذا منه اما طعن فى الجناب النبوى الكريم — وحاشاه — بالتقصير ، وفتح باب الاختلاف الشديد الذى لا يمكن تلافيه ، وأما أبعاد للسنة عن حظيرة الاستدلال بها فى الدين ، ولذلك لم تنل حظها من العناية فى زعم الكاتب ، وهذا وذاك اثم كبير ، واتباع لغير سبيل المؤمنين ، وأنا نبرأ الى الله من مثل هذه الأفكار الخبيثة .

والدعوة الى نبذ السنة دعوة الى التلاعب بالقرآن الكريم ، وماذا يبقى من الاسلام اذا سرنا كما يريد هؤلاء ، وهل للصهيونية والصليبية مطمع وراء هذا . قال الأستاذ الشيخ « محمد رشيد رضا » رحمه الله وعفا عنا وعنه ، ناعيا على هؤلاء الأغرار مسلكهم : « ومن الغريب أننا نرى أمم العلم والحضارة تعنى بحفظ ما ينقل عن علمائها وأدبائها ، فى التشريع والحقوق ، والحكم ، والآداب ، ويفاخر بعضهم بعضا بهم وبآثارهم ، ونرى هؤلاء المخدوعين من مبتدعة المسلمين ، لا يكتفون بهضم حقوق علماء ملتهم ، ومؤسسى حضارتها ومجدها بالعلم والعمل ، والسياسة والآداب ، بل ينبذون سنة الرسول الذى يدعون اتباع ملته ،

وما روى سلفهم عنه ، من التشريع والحكم والآداب ، ومنهم من يدعى اتباع سنته العملية ، التى تلقاها عنه أصحابه بالعمل ، دون ما ثبت عنه بالأحاديث القولية ، وان كانت صحيحة المتون والأسانيد ، لا يعارضها معارض من القرآن ولا قطعى آخر يثبته العلم والعقل ، ويدعون أنهم يتبعون نصوص القرآن ، كأن فهمهم وبيانهم له ، وحرصهم على العمل به ، فوق فهم من أوحى اليه ، وكلفه الله بيانه بالقول والعمل ، وعصمه من الخطأ فى كل ما يبلغه عنه ، من نصوصه ومن المراد منها » الى أن يقول : « والذى نعلمه بالاختبار أن بعض هؤلاء الدعاة الى هدم الاسلام جاهل غبى قد فتن بحب الظهور ، وبعضهم ملحد يدعو المسلمين الى الالحاد لهوى فى نفسه أو خدمة لبعض الدول الطامعة فى بلاد الاسلام واستعباد المسلمين » اهـ [1] وأرباب هذه الأفكار الخبيثة يهدفون الى رد المسلمين عن دينهم ، جريا وراء حطام هذه الحياة ، الذى تبذله الصليبية والصهيونية ، حتى تستطيع استعباد المسلمين والاستيلاء على بلادهم بيسر وسهولة ، ولهم فى الوصول الى هذا الهدف مسالك شتى ، وطرق مختلفة : فمنهم من يحاول النيل من قدسية السنة بالطعن فى رواتها وحملتها حتى ينفسح أمامهم مجال العبث والتضليل . ومنهم من يحاول النيل من قدسية القرآن باتباع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، أو بمحاولة تغيير نظمه المعجز الذى نزل به الروح الأمين من لدن حكيم عليم ، أو بالسعى فى الكيد للغة العرب وعلومها وآدابها ومرسوم خطها حتى تنقطع الصلة بيننا وبين كتاب الله وسنة رسوله الكريم ، وبيننا وبين ماضينا وحاضرنا « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » .

---

(١) عن رسالة (تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها) للمرحوم السيد سليمان الندوى كبير علماء الهند ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

والمسلمون — ولا سيما العلماء والحكام — ازاء هـذه الحملات الظالمة المتلاحقة ، عليهم أن يجاهدوا فى الله بأنفسهم ، وأقلامهم وألسنتهم وأموالهم ، حتى يكون الناس على بينة من أمر دينهم .

وكان ممن جاهد بعلمه فى هذا الظرف العصيب ، أخونا وزميلنا العلامة الفاضل ، الأستاذ الشيخ محمد محمد أبو زهو من علماء الأزهر الشريف ، اذ أخرج كتابه القيم (الحديث والمحدثون) فى أحسن حلة وأبهج صورة بعد أن راجعه وهذبه ، وأضاف اليه بعض المباحث الهامة ، فكان هداية ونورا ، يأخذ بيد الحائر الى طريق الحق ، وسبيل الصواب ، ويدفع فى صدر المعاند الجاحد بأمضى حجة وأقوى برهان .

ولقد قرأت هذا الكتاب جميعه على مكث ، قبل أن يقدم الى الطبع قراءة فحص وبحث ، فراقنى منه سلامة الترتيب والتبويب ، وقوة الحجة ونصوع الفكرة ، والوصول الى الهدف من أقرب الطرق ، وأقوم السبل ، بأسلوب هادىء مشرق ، يأتى على شبه القوم من القواعد ، ويكشف عن جهلهم الفاضح ، وكذبهم الآثم ، وضلالهم المبين ، ويبين ما للسنة فى جميع عصورها من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية ، وعناية تامة ، وما قام به علماؤها ، الذين اختارهم الله لصيانتها ، فزين قلوبهم بالايمان ، وأعانهم على حفظ السنن والآثار ، وحبب اليهم الرحلة والأسفار ، وفراق الأهل والأوطان ، فتجردوا للحديث وطلبوه ، وسألوا عنه وأحكموه وذاكروا به ونشروه ، وتفقهوا فيه وأذاعوه ، وكشفوا عن حال الرواة الأثبات ، والعدول الثقات ، كما كشفوا عن حال المجهولين والمجروحين ، والضعفاء والمتروكين ، حتى حفظ الله بهم الدين على المسلمين ، وجعلهم عند التنازع أئمة الهدى ، ومصابيح الدجى .

وأنى — اذ أنصح لأهل العلم بقراءة هذا الكتاب ونشره ، وللشباب المثقف المسلم بفهمه وتدبره — أدعو الله عز وجل للأستاذ المؤلف أن يتقبل منه صالح سعيه ، وجميل صنعه ، وأن يضعه فى ميزانه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وأن يوفق علماءنا الى خدمة الدين ، ورفع راية الكتاب والسنة فى كل مكان وزمان ، حتى يرجع الى الدين عزه ومجده .

والحمد لله أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه الى يوم الدين .

٣ رجب سنة ١٣٧٨ هـ .

محمد عبد الوهاب بحيرى
مدرس الحديث بكلية الشريعة

فهـــــرس

الدور الرابع

السنة فى القرن الثانى

الدور الخامس

السنة فى القرن الثالث

الدور السادس

السنة من عام (٣٠٠) هـ الى عام (٦٥٦) هـ

الدور السابع

السنة من عام (٦٥٦) هـ الى عصرنا الحاضر

الخاتمـــة

طبع في : شركة الطباعة العربية السعودية (المحدودة)
ص . ب ٦٤٦٣ ـ الرياض ، هاتف ٤٦٣٣٤٥٢ ، العمارية ٤٦٥٨٩٩٠